بسم الله الرحمن الرحيم

ج١

الإمـام الصـادق(عليه السلام)
والمذاهب الأربعة

■ **المؤلف:** الأستاذ أسد حيدر

■ **الموضوع:**كلام و تاريخ

■ **المحقق :** مؤسسة «نشر الفقاهة»

■ **عددالأجزاء:** ٨

■ **الناشر:** مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت(عليهم السلام)

■ **الطبعة:**الأولى

■ **المطبعة:** ليلى

■ **الكميّة:** ٣٠٠٠

■ **تاريخ النشر:** ١٤٢٤ هـ

شابك

المجمع العالمي لأهل البيت(عليهم السلام)

مقدمة المجتمع

في الفترة التي تصدّى فيها روّاد الوعي الإسلامي ودعاة التجديد من أتباع مدرسة أهل البيت(عليهم السلام) في عصرنا الحديث للكتابة عن الإسلام والمذهب الحق، تصدّى فضيلة الأستاذ المرحوم الشيخ أسد حيدر ـ طاب ثراه ـ للكتابة عن «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة» في ستة أجزاء وقد تزامن صدور هذا السفر القيّم مع جملة من انتاجات فحول هذا العصر وروّاد حركة التجديد النشيطة ونخصّ منهم بالذكر العلاّمة الشيخ عبدالحسين الأميني مؤلف الموسوعة القيّمة «الغدير في الكتاب والسُنّة» والسيد عبدالحسين شرف الدين مؤلف كتاب «المراجعات» والشيخ محمد رضا المظفر مؤلف كتاب «عقائد الإمامية» والشيخ محمد حسن المظفر مؤلف كتاب «دلائل الصدق»، والسيد مرتضى العسكري مؤلف كتاب «عبدالله بن سبأ» والسيد محمد باقر الصدر مؤلف كتابي «فلسفتنا واقتصادنا».

لقد امتاز مؤلّف الأستاذ أسد حيدر هذا بمميزات أخرجته عن المألوف من الكتابة في زمانه وارتقت به الى مستوى التجديد والإبداع في البحث والدراسة.

ومما امتاز به هذا الكتاب مايلي:

١ ـ الانتقال بالقارئ الى أجواء المدينة ـ حين تعرّض لتاريخ أمرائها ـ ليعطيه وعياً تاريخياً يدرك من خلاله معاناة الامام الصادق(عليه السلام) ودوره السياسي والاجتماعي إزاء الأحداث التي عاصرها وكيفية تحقيقه للأهداف الإلهية الكبرى.

٢ ـ أرّخ لنشأة التشيع بدءاً من البذور التي غرسها صاحب الرسالة ورعاها حتى آخر لحظات حياته المباركة حتى أثمرت وأينعت ثمارها بعد رحيله.

٣ ـ أثبت في مناقشاته لابن خلدون سرقاته الفكرية من اخوان الصفا، كما ناقش غيره ممّن كتب عن الإمام الصادق(عليه السلام).

٤ ـ ناقش المصادر التاريخية التي تناولت أسطورة ابن سبأ بالإشادة وتفرّد بمنهجه عن منهج العلامة السيد مرتضى العسكري (دام ظلّه).

وقد اطّلع المجمع العالمي لأهل البيت(عليهم السلام) ـ بعد انجاز تحقيقه لهذا السِّفر المبارك الذي مضى على تأليفه ما يقرب من نصف قرن من الزمن وهو لازال يحتفظ بطراوته ورفعة أدبه ـ أن المؤلّف(رحمه الله) قد راجع كتابه باجزائه الستة في أواخر حياته وصحّحه ووشّحه بإضافات مهمّة كما أضاف إليه جزئين آخرين تمّت طباعتهما في دار التعارف ببيروت، ضمن مجلد رابع ، مما حدى بنا الى مقابلة ما أنجزناه مرّة أُخرى مع الطبعة الأخيرة المصححة من قبل المؤلف. فلله درّه وعلى الله أجره.

وفي الختام نشكر مؤسسة «نشر الفقاهة» التي تولّت مهمة تحقيق هذا الكتاب القيّم، كما نشكر كل الأُخوة الأفاضل الذين ساهموا في اخراجه بهذه الحلّة القشيبة راجين لهم من الله دوام التوفيق وحسن الأجر انّه سميع مجيب.

المجمع العالمي لأهل البيت(عليهم السلام)

شوال المكرّم ١٤٢٣ هـ

كلمـة المؤلـف

الامـام الصـادق
والمـذاهب الاربعـة

أسد حيــدر

الإهداء

إلى صَادِق بَيت الوحي، رَضيع ثَدي النّبوّة وَرَبيب مَهْد الإمَامة إمَام الأُمَّة بالحَق وَقُدْوَة الأئمَة بالصّدْق.

إلى منهَل شَرَائع الكِتاب وَسُنّة المصطفى .

إلى سَيّدي الإمَام أبي عَبْد اللّه جَعفر بن محمّد الصَّادق عَليهِ صَلواتٌ مِن رَبّه وَرَحْمَة.

أرفع صَحيفتي هَذِهِ وَهيَ مَجْهُودي الضْئيل رَاجيَاً حُسْن القَبُول فهُوَ غايَة النجَاح ومُنتهى الأمَل والسعَادة لعبدكُم .

أسد حيدر

الطاهِرين وَصحبهِ المنتجبين

(يَاأيُّها الذِين آمَنُوا اتّقُوا اللّهَ وَكُونوا
مَعَ الصَّادِقِينَ)

التوبة ٩:١١٩

المقدمة الأولى

المقدّمة الأولى

في ساعة من ساعات الفراغ آويت لمكتبتي، أروّح النفس من عناء الدراسة الشاقة بمطالعة كتب السير والتاريخ، وكلّ كتاب تناولته لم أجد فيه بغيتي ورغبت عن مطالعته من دون أن أعرف السبب الحقيقي لذلك، حتى وقعت على مقدّمة ابن خلدون بدون مقدّمة ، وكأنّه كان هو المطلوب دون غيره.

فطالعته وما كنت مستوفياً أبحاثه من قبل، فراقني أسلوبه وجذبني تعبيره، ولم أستوف الغرض من مطالعته حتى فوجئت بهذه الكلمة القاسية والقول المؤلم: «وشدَّ أهل البيت في مذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به»[1].

فأخذتني الدهشة استغراباً، أنّها لجرأة على مقام أهل البيت(عليهم السلام)، وأصبحت عند ذلك «كالمستجير من الرمضاء بالنار».

وهناك نسيت ترويح نفسي وتجرّدت عن العوامل التي دعتني إلى ملاقاة هذا الرجل والاجتماع به، وشعرت أنّ الرجل كان منقاداً للعاطفة العمياء في هذه الجرأة، وجعلت أعلّل نفسي في البحث عن المذاهب الإسلامية وتكوينها، وبيان مذهب أهل البيت(عليهم السلام)ومكانته في التشريع الإسلامي، وبقيت الفكرة تخامرني وأ نّى لي بتحقيقها، وأنا تحت سلطة شواغل لا تعرف الرحمة، ولا تحلم بالعدل، ولكن إذا أراد اللّه شيئاً هيّأ أسبابه، فتسلمت رسالة من صديق فاضل من أهل الموصل هو الأستاذ هاشم زين العابدين الصرّاف الموصلي كنت قد اجتمعت به خارج النجف الأشرف، واتصلت به اتصالاً وثيقاً، ودارت بيننا أبحاث يطول ذكرها، وكان يطلب في رسالته أن أذكر له شيئاً عن حياة الإمام الصادق(عليه السلام)، لأنّه لا يعرف عنه، إلاّ أنّه ابن محمد الباقر(عليه السلام) أستاذ أبي حنيفة. وهذا ما حفّزني على نشر الحقيقة بالبحث عن حياة الإمام الصادق(عليه السلام) وبيان مذهب أهل البيت(عليهم السلام)، وفقههم الذي انتشر في عصره، ولايتسنى لي الدخول في هذا المضمار دون ان أتعرّض لذكر المذاهب الإسلامية ونشأتها والتعرف على أئمّتها بدراسة حياتهم دراسة تاريخية اظهاراً للحقائق، وخدمة للحقّ، فوضعت هذا الكتاب وقد منحته وقتاً من أوقاتي، بالرغم من تلك العراقيل الشائكة التي كدستها الظروف في طريق الوصول إلى الغاية، وواجهت المصاعب وجهاً لوجه، فجاء هذا المؤلّف في عدة أجزاء متتالية وموسوعة كبيرة،

---

(١) مقدمة تاريخ ابن خلدون ص ٥٦٤.

وقد أعطيت فيها صورة واضحة عن تلك العصور التي لها أثرها في إيجاد عوامل التفرقة بين المسلمين، والّتي فسحت المجال لخصومهم في التدخل بين صفوفهم بدافع التشفّي والانتقام لبثّ روح العداء والتباغض.

ولم أجهد نفسي في ابراز الكتاب مؤنق العبارة رشيق اللفظ. ولئن فاتني التفوّق في الإنشاء وسعة الخيال ومهارة الفن في ابرازه، فلن يفوتني إخلاص النيّة، وصدق القول، والتثبّت في النقل، والاتّزان في الرّد، فهو بهذا الشكل أتقدّم به خدمة لأهل البيت(عليهم السلام) بما استطعته، وما توفيقي إلاّ باللّه عليه توكلت وإليه أُنيب.

أسد حيدر

المقدمة الثانية

النجف الأشرف
١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م

المقدمة الثانية

صدر هذا الجزء وهو الأوّل من كتابنا: «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة»، فكان الإقبال عليه يبعث على التشجيع ومواصلة البحث، والمضي في خوض هذا الموضوع الشائك الذي يتطلب دراسة عميقة، وتحمّل مصاعب، بعزيمة لا تستكين لصعوبة، ولا يحد من وقتها ملل.

وإنّ موضوع البحث عن المذاهب قد أُحيط بغموض وملابسات، وكان من وراء ذلك حصول مشاكل في المجتمع الإسلامي، تحتاج إلى حلّ وعمل جدّي، وتفكير صحيح، ليزول ما خلفته تلك العصور من ترسبات، وما أودعت في المجتمع من أفكار، نتيجة للتعصّب، ممّا أدى إلى وقوع حوادث مؤلمة، جرت على الأمة بلاء الفرقة، إذ اتّسعت فيها شقّة الخلاف، ووجد أعداء الإسلام مجالاً واسعاً، لبثّ روح التباغض بين طوائف المسلمين، وأصبحت المفاهيم معكوسة، وعندها توارت الحقيقة وراء سحب الخصومات، من جرّاء النعرات الطائفية.

وقد تكفّل هذا الجزء لبيان الكثير من ذلك، بآراء حرّة، وبيان مستفيض عمّا نجم من وراء ما أحدثته الخلافات من خطر على الجامعة الإسلامية.

ومهما تكن أهمّية هذا الموضوع فقد تناولته ـ قدر الاستطاعة والإمكان ـ بدراسة واقعيّة، مستفيضة الجوانب، تزيل اللبس، وترفع الغموض، فطالما رافق اللبس والغموض أكثر الدراسات التي صدرت في هذا الموضوع، لأنّها لم تكن خالية من نزعة التعصّب، الذي جرّ على هذه الأمة ويلات الدّمار، وعوامل الانهيار.

وإنّي أجد فيما لقيه الكتاب من اقبال واهتمام لدى الكتّاب والقرّاء جانباً يكشف أنّي قد وفّقت إلى ما صبوت إليه.

وكان من عناية اللّه وتوفيقه أن يصدر من هذا الكتاب ـ في فترات متتالية ـ ستّة أجزاء، تتكفل بالبحث عن المذاهب الإسلامية، ونشأتها وعوامل انتشارها، والتعرّف على شخصيات رؤسائها، عن طريق الواقع مع اعطاء صورة عن الخلافات المذهبية، والآراء الفقهية والحوادث التاريخية، وغير ذلك ممّا له صلة بالموضوع.

وقد نفّد الجزء الأول والثاني[٢] حتى آخر نسخة منهما، قبل اكمال السلسلة، فأصبح من اللازم اعادة الطبع مع كثرة الطلب، وشدّة الإلحاح، من مختلف الجهات.

وهذا هو الجزء الأول أقدّمه للقراء الكرام بطبعته الثانية مع زيادة وتنقيح، راجياً منهم التنبيه على ما يقفون عليه من خطأ، فإنّي لا أضمن لنفسي السلامة، مما لا يخلو منه مؤلف، واللّه الموفق ومنه أطلب حسن القبول وعليه الإتّكال، وهو حسبي ونعم الوكيل.

أسد حيدر

النجف الأشرف

١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م

مقدمة الطبعة الثالثة

(٢) طبع الجزء الأول والثاني من الكتاب طبعة ثانية في العراق ثم توقف طبع الأجزاء الأخرى، وصدرت طبعة جديدة في لبنان غلب عليها (الطبعة الثانية).

مقدمة الطبعة الثالثة

بسمه تعالى

يكاد يمرّ عقد من السنين على صدور الطبعة الثانية من كتابنا «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة» وها أنذا استجمع بقايا قدراتي وأتحامل على نفسي لأعدّ الكتاب لطبعة ثالثة إن شاء الله بعد أن احتل مكاناً مشرفاً في المكتبة الإسلامية.

ولقد كانت «الطبعة الثانية» حكاية غريبة وتجربة صعبة بتفاصيلها وما كانت عليه من أخطاء وتلاعب حتى كأنّ يداً قصدت الإساءة والعبث بالكتاب. وما تعرّضت إليه من نمط تجاري في التعامل تمكن من تحقيق المصلحة المادية بلبوس من العاطفة، وإظهار غاية شريفة روعي بها وضوح قصدي وذيوع منهجي في إصدار الكتاب الذي أنفقت عليه ما أجهدني تحصيله واستغرق مني شطراً مهماً من حياتي. وخرج مني تاجر الكتب بالموافقة على قيامه بطبع الكتاب طبعة ثانية.

وراح يطبع الكتاب بآلاف النسخ ويوزعها في العالم الإسلامي ولم يراجعني في الأمور التي تتعلق بالإصدار أو الوفاء بالالتزامات التي ترتبت عليه.

وقد طلب مني كثير من المخلصين أن أقوم بما يضمن حفظ الكتاب كأثر الى جانب حقّي الذي هو آخر ما أُفكّر فيه.

زارني مرة أحد السادة من الباكستانيين بصحبة صديق في منزلي في النجف الأشرف، وطلب موافقتي على ترجمة الكتاب الى اللغة الأوردية، لأنّ هناك إقبالاً شديداً وطلباً كثيفاً.

ثم أذنت للعلاّمة السيد حيدر كراوري بترجمته وطبعه. وترجم الكتاب ونشر في لاهور ولم نتطرق حتى اليوم الى شيء اسمه اتفاق أو شروط، لأنّي، أعلم بدوافع الأُخوة في الباكستان.

وفي آخر زيارة لي لبيروت كنت أتوقع من الناشر أن يأتيني وهو يعلم بوجودي ويعرف محلّ إقامتي في بيروت، ليؤدي ما عليه أو لأحصل منه على النسخ التي أحتاجها، والتي هي من شروط الاتفاق، فإنّ من عادتي أن أهدي إخواني العلماء والباحثين في بعض الأقطار الإسلامية نسخاً من مؤلفاتي. وأقوم بالإشراف على إرسالها وطريقة ايصالها الى بعض الأجزاء من الوطن العربي، التي منع فيها الكتاب

وأصبح اقتناؤه يعاقب عليه القانون فأضطر الى شراء النسخ من المكتبات أو أحضر معرض الكتاب العربي الذي يقام في الكويت، وأشتري بضاعتي بمالي من جناح الناشر نفسه.

ولقد كانت نواقص الطبع وأخطاء الطبعة مؤلمة تَحُزّ في النفس، ويوحي تكرار الأخطاء بأفكار لا سبيل الى التغلب عليها، ولقد تطلّب ذلك تحقيقاً مرهقاً وتدقيقاً صعباً أوقعني في حال من الإرهاق والتعب المضني، فإنّ التحقيق يكون في أعمال الآخرين وأسفارهم لدواعي الزمن وعوامل التاريخ، لا في عمل أناملك ونتاج فكرك، ولا أقول بأنّي استطعت تدارك كلّ ما في الطبعة من خلل.

وختاماً أسأل الله العليّ القدير أن يفسح في الأجل ويمدّني بالعون لأكمل الجزء الثامن، وبعد أن أكملت الجزء السابع وتوسعت في أجزاء الكتاب، وقد قدمت اعداد الأجزاء الستة للطبعة الثالثة على انهاء الجزء الثامن وإنجازه.

وآخر دعوانا ان الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على نبيّنا محمّد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

أسد حيدر

كتاب الإمام الصادق والمذاهب الأربعة

الكويت / ربيع الأول / ١٣٩٩ هـ

كتاب الإمام الصادق والمذاهب الأربعة

بقلم

الدكتور حامد حفني داود
أستاذ الأدب العربي بكلية الألسن في القاهرة

منذ أكثر من عشرين عاماً استرعى التفاتي ـ وأنا أبحث في تاريخ التشريع الإسلامي والعلوم الدينية ـ الإمام جعفر الصادق سليل البيت النبوي الكريم، وما كان له من شخصية عظيمة في الفقه الإسلامي ومنزلة لا تجارى في عالم الفكر العربي، وفي الجانب الروحي بصفة خاصة. فوضعت في ذلك الوقت بحثاً تناولت فيه جوانب من سيرته وعلمه ومنهجه الفكري والفقهي، واستغرق ذلك مني قرابة ثمانين صفحة.

ثم عرضت الفكرة على أُستاذنا المرحوم عبد الوهاب عزام ـ وهو من النفر القليل المشهود لهم، في نظري، بالقدرة على الجمع بين أخلاق القدماء ومناهج المحدّثين ـ ولكن الأُستاذ الوقور لم يكد يسمع بعنوان البحث حتّى علت وجهه السمح بسمة خفيفة، فهمت منها كلّ شيء... فهمت أنّ هذه الشخصية ـ على الرغم مما تحتله من مكانة عظيمة ـ هي مما يهمّ علماء الشيعة أكثر ممّا يعني علماء السنة، ولو كان ذلك البحث في مجال «الجامعة» التي يجب أن تكون أرحب صدراً ممّا تدعو إليه الطائفية المذهبية من تخصص، أو تفرضه البيئة من مخططات محدودة ضيّقة في مجال الفكر.

خامرتني هذه الفكرة أمداً طويلاً، وكدت أن أعيش فيها وأخرج بها إلى الناس في كتاب خاص، أردت أن يكون عنوانه «جعفر الصادق: إمام العلماء الربانيين وأول المبعوثين من المجددين».

وعلى الرغم من كثرة ما كتبت وما حصلت من مراجع حول هذه الشخصية العظيمة منذ سنة (١٩٤٣ م) ـ فإنّ الدوافع البيئية والوجدانية لمن يعيشون حولي كانت تردّني إلى الوراء وتحملني على اليأس أكثر مما تحملني على الكتابة والانطلاق في الموضوع. وقد ضاعف من الزهد في إتمام ما بدأت ما قرأته من أبحاث مهلهلة هنا وهناك حول شخصية هذا الإمام، فطويت صحافي وتركت الكتابة، وتأبيت على التعليق والرد.

ولكن يأبى اللّه سبحانه إلاّ أن يظلّ الحقّ حقاً، وأن تكون قوته فوق طاقات الزمان وحواجز المكان. وهكذا بعد عشرين عاماً قضت إثر انقطاعي عن الكتابة حول هذه الشخصية الفذة، تخلّلتها ألوان من التخبّط المنهجي، وصور من الكتابات التي لا تقوم على أساس علميّ، طالعتنا الأقدار التي تأبى إلاّ أن تضع الحقّ في نصابه بمن يميط اللثام عن وجه الحقّ سافراً، ويحمل السحب على الانقشاع بعد الذي طال من تلبد. كان هذا الفتح الجديد في دراسة الإمام منذ عشرة أعوام حين خرج إلينا الباحث الأديب والعالم العراقي الحصيف الأُستاذ أسد حيدر بالجزء الأول من كتابه «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة». والذي تم نشره على ما يبدو من مقدمة الطبعة الأولى سنة (١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦م). فكان هذا الكتاب الجامع إيذاناً بإنهاء مرحلة التخبّط حول سيرة الإمام الصادق، كما كان نقطة الانطلاق التي عرفنا من ورائها الكثير عن تاريخ «المذهب الجعفري»، وما بينه وبين المذاهب الفقهية الأربعة من صلات

وروابط يجهلها الكثيرون من علماء هذه الأمة على الرغم ممّا حصلوه من ثقافات تاريخية وفقهية وفلسفية.

وأوّل ما يسترعي التفاتنا من هذا السفر الضخم شموله وسعة آفاقه واستيعابه أكثر جوانب هذه الشخصية العظيمة، ولعلّ ذلك راجع إلى سعة اطلاع المؤلف فلا يكاد يرى رأياً لصاحب رأي حول شخصية الإمام إلاّ وأتى به، ولا قضية تتصل بالموضوع من قريب أو بعيد إلاّ وساقها وناقشها في أسلوب أدبي أقرب ما يكون إلى الموضوعية والنهج الفني، وأبعد ما يكون عن التحيّز المسف والتعصّب الأعمى.

وفي كتابات المؤلف واسترسالاته التحليلية حول هذا الموضوع، نلمس اتزان العالم الحصيف حين يهرع إلى كلمة الحقّ ويفرّ بنفسه عن كلّ ما يشوه هذه الكلمة. وإنّ من يقرأ صدر الجزء الأول من كتابه: «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة» يقف على عجالة دقيقة في الخلافة الإسلامية أرسلها المؤلف واضحة المعالم، سافرة الأركان، يقرؤها القارئ فيخيّل إليه أنّه يعيش في هذه الحقبة من التاريخ. إنّ هذا الأسلوب العلمي في علاج التاريخ الإسلامي خليق بأن ينال من النقاد الحظوة من التقدير، وخليق بأن يكون أساساً لما بعده من مؤلّفات.

إنّنا في حاجة إلى دراسة التاريخ دراسة علميّة، وفي حاجة أشدّ إلى دراسة المذاهب السياسية والفقهية في صورة أعمق مما وصل إلى أيدينا لنقول للمحقّ أحققت، وللمخطئ أخطأت. وتشتدّ حاجتنا إلى هذه الدراسة حين نعلم عن يقين لا يقبل الشك القدر الذي لعبته السياسة الأموية والسياسة العباسية في تصوير المذاهب الفقهية، وحين نعلم عن يقين لا يقبل الشك مدى ما أصاب الشيعة من عنت واضطهاد في ظل هاتين الأسرتين الحاكمتين خلال ثمانية قرون كاملة.

إنّ هذا الإحياء الصادق الذي يقوم به علماء الشيعة في صرح الثقافات الإسلامية يعتبر في نظري انعكاساً لهذه الثورة النفسية التي أشعلت نيرانها السياسة الأموية والعباسية في نفوس شيعة الإمام عليّ والأئمة من بعده. ولقد كان اضطهاد هذه الشيعة بالقدر الذي خامر أعماق الإيمان واستقر في النفوس بحيث توارثه هؤلاء الشيعة في معارج التاريخ كلّها، وامتزج منهم بالدم واللحم امتزاج الإيمان الصادق في نفوس المؤمنين.

فالشيعة ـ من هذه الناحية بالذات ـ مؤمنون عقائديون، وليس إيمانهم من هذا النوع الذي يقف عند حدّ التقليد والقول باللسان. وهذا الإيمان العميق والمسلك العقائدي الذي يحياه الشيعة في كلّ قرن هو ـ وحده ـ سرّ هذا النشاط المستمر الملحوظ في دعوتهم،

وهو أيضاً سرّ الانبثاقات المتلاحقة في مؤلفاتهم، وهذا النفس الطويل الذي نلمسه في كتاباتهم.

ولو شئنا أن ننصف المؤلّف فيما كتبه عن «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة» لاستوعب منا ذلك مجلداً، فقد أصدر المؤلف من هذا الكتاب ستة أجزاء كاملة مهّد في أولها للتاريخ الإسلامي، والأدوار التي لعبها في خلق الأحداث المؤثرة في كيان المذاهب الفقهية، وكيف كانت حياة الإمام الصادق منها، وأين كان يقف المذهب الجعفري، ثم مدى تأثيره في المذاهب الأربعة الأُخرى، ومدى ما بينه وبينها من خلافات أكثرها في الفروع وقليل منها في الأُصول.

نعم لو أردنا أن ننصف المؤلّف فيما أطرف به مكتبة التاريخ، وفيما أطرف به مكتبة الفقه لا ستوعب منا ذلك قرابة المجلّد الكامل. ولكنّنا نكتفي من هذا القدر العظيم بالإشارة السريعة التي ترسم بعض معالم هذه الصورة العلميّة عن الإمام الصادق، معبّرين فيها عن مشاعرنا إزاء هذا النهج القويم الذي سلكه المؤلف في سفره الضخم.

ولعلّ أروع ما يستوقف النظر ويطمئنّ الناقد على مابلغه المؤلف من توفيق في هذا الكتاب إرساؤه القواعد في مشكلة الخلافة ـ التي أشرت إليها آنفا ـ وأنا في هذا الصدد أوافق المؤلف أنّ المشكلة بدأت في خلافة عثمان حين انتهز بنو أبيه خلافته فعبثوا بمصائر البلدان الإسلامية. ولكني كنت أودّ أن يبدأ حديث الخلافة ومشكلتها في الصورة الجذرية التي بدأت بانتقال الرسول، صلوات اللّه عليه إلى الرفيق الأعلى.

وقد أنصف المؤلف تاريخ الإمام «عليّ» حين صوّر المشاكل التي كانت تحيط خلافته من خروج أُم المؤمنين «عائشة» إلى مؤامرات «معاوية» وعبثه بشخصيتين كبيرتين هما: «طلحة» و «الزبير» حين بايعهما لا لذاتهما ولا لسبقهما في الإسلام; ولكن ليجعل منهما جسراً لمعارضته وموضوعاً لبثّ أهوائه الشخصية، إلى غير ذلك من المطالبة بدم عثمان، وعليّ بريء من هذا الدم.

وقد كانت هذه المشاكل من الكثرة بالقدر الذي استعصى على فلاسفة التاريخ من عرب ومستشرقين، فأخطأوا فهم شخصيّة «الإمام علي» ونزعوا عنه صفة السياسة واكتفوا بوصفه بالورع والزهد. ولكن اجتهاد الإمام(عليه السلام)ونزوعه الشديد إلى منهج التوفيق بين الورع في الدين والصراحة في السياسة كان فوق مدارك هؤلاء المؤرخين. وكم كنت أودّ أن يشير مؤرخنا البارع إلى مهاترات المستشرقين وضحالة

تفكيرهم في إدراك معنى «التكامل النفسي» ـ كما أسمّيه ـ في شخصية «الإمام علي»، وهو القدر الذي أخطأ فيه «جولد تسيهر» وغيره. ونحن نرى أنّ انتصار معاوية على الإمام إنّما هو صورة من صور الثأر والتآمر التي نزع إليها الشرك بعد أن غلبه الإسلام، فهي على حدِّ تعبيرنا قصاص المتمسلمين وأدعياء الإسلام من المسلمين المؤمنين حقّاً وهم الذين قتلوا آباءهم وأجدادهم من أجل الحقّ وإعلاء كلمة الإسلام.

ولا أحب أن أطيل في التعليق على هذا الكتاب القيّم الذي أعتبره دائرة معارف عامة وموسوعة قيّمة في تاريخ المذهب الجعفري والمذاهب الفقهية لا غنى للباحثين عنه. وأوثر في ختام هذه الكلمة أن أنوّه بما كتبه المؤلّف عن محمد بن إسماعيل البخاري وكتابه في الحديث. وقد لاحظت في تعليق المؤلف على «البخاري» جانبين: جانب موضوعيّ وهو الذي تناول فيه المؤلف الأحاديث الموجودة في هذا الصحيح، كما تناول أسانيدها ورجالها، وجانب اجتهادي تحدث فيه المؤلف عن انصراف البخاري عن الأحاديث التي تُروى في فضائل بيت النبوّة.

أمّا الجانب الأوّل فنحن فيه على اتفاق تام، ذلك لأنّ أحاديث الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)لم تدوّن في حياته إلاّ ما روي عن صحيفة عبد اللّه بن عمرو بن العاص، ومن ثمّ لا بدّ من أن يخضع الحديث سنداً ومتناً للنقد النزيه، فما وافق منه القرآن الكريم وروح السيرة النبوية العطرة جزمنا بصحته، وما كان بعيداً عنهما صار موضع نظر، وهنا يأتي ـ فقط ـ الخلاف بين نقّاد الحديث.

وأما الجانب الثاني ـ وهو الذي يتلخص ظاهراً ـ في إعراض البخاري عن الأحاديث المرويّة عن أئمّة آل بيت النبوّة فإنّي أرى فيه رأياً لا ألزم فيه أخي المؤلف. ذلك أنّ هذا الإعراض عن أحاديث هؤلاء السادة هو من أفعال القلوب التي لا تستطيع الحكم عليها إلاّ بعد الاستقصاء التام، وكما نستطيع أن نقول: إنّ إعراضه عن الأحاديث المروية عن الأئمة كان آتياً بدافع عدم التوثيق ، نستطيع ـ بلا شك ولا ريب ـ أن نقول: إنّه امتنع عن روايتها خوفاً وفرقاً من حكام العبّاسيين الذين كانوا يناصبون آل محمد العداء. وهو يعلم أنّه لو روى عنهم لأهمل كتابه في حديث رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) أو لقضي عليه وقبر وهو في مهده.

فإذا كانت الشجاعة الأدبية قد تخطت الإمام البخاري فيما يتعلق بأحاديث فضائل آل محمد فإنّ ذلك لا يقضي على ما بذله من جهد ولا أقل من أن يقال في هذا الصدد: إنّه اجتهد وأخطأ، ولعلّ إهماله لهذا الجانب من الأحاديث كان درءاً لما يخشاه من

سطوة الحاكم، فاكتفى من ذلك أن يقرّ بقلبه دون المشافهة باللسان والتسجيل بالقلم وذلك ما يطابق أضعف الإيمان.

هذا إن ثبت خوفه من حكام ذلك العصر ـ وإلاّ فإننا لا نستبعد أ نّه حوّل الرواية عن رجال البيت النبوي ـ واستعصى ذلك عليه بسبب ما كان يضربه الحكام حول أفراد هذا البيت من سياج منيع ليحولوا بينهم وبين اتصال طلاب العلم بهم، ونحن نعرف مدى اضطهاد الحكّام لهم وحقدهم عليهم.

وقصارى القول فإنّ إغفال البخاري لهذه الأحاديث لا يضعف من شأنها ولا ينقص من قدرها وقد رواها أصحاب السنن، كما أنّ ذلك ـ علميّاً ـ لا يصبح دليلاً قاطعاً على موقفه من الأئمة رضوان اللّه عليهم.

وإنّي لأرجو اللّه سبحانه أن يؤاتينا فنتصفح ما فاتنا من صفحات هذا الكتاب القيّم، متمنين لمؤلفه العلاّمة الأستاذ أسد حيدر التوفيق والسداد في إتمام ما بدأ، وإنا لمنتظرون.

الدكتور حامد حفني داود

الإمام الصَّادق بَين عهدَين
العهد الأُموي ـ العهد العباسي

العَهد الأموي

بنو أمية في عهد عثمان:

أتاح القدر لبني أميّة فرصة نادرة، إذ انتخب عثمان[٣] خليفة للمسلمين بعد عمر بن الخطاب، فأصبح زعيم الأمة وربّ دستها المطاع، وأميرها المسلّط وخليفة صاحب الرسالة، وبذلك برقت لهم الآمال من بين ظلمات اليأس، وتنشّقوا روائح الراحة فتعلّقوا بعرى الفوز، وطلع فجر ليلهم الذي باتوا ينشدون فيه أملهم الضائع ويأسفون لحزبهم الفاشل.

بعد أن خاب كلّ أمل في نيل بغيتهم لإعادة ذلك الحزب المنحلّ، والمنهزم في ميدان المعارضة للحقّ.

ولكنّ الأقدار تجري بين عشيّة وضحاها لامتحان الخلق وغربلة الناس، فإذا بهم يسوسون الأمّة ويتلاعبون بالإمرة.

ولسنا بصدد البحث عن حوادث عهد الخليفة عثمان، وما فيه من بلاء ومحن وما لقي المسلمون من أبناء أبيه.

عندما أصبح مروان بن الحكم[٤] أميناً عاماً ووزيراً خاصاً للخليفة الجديد، يحبى بالأموال ويختصّ بخمس الغنائم ويتنعم بأموال الأمة بعد ذلك الشقاء، ويتقلّب بأحضان الراحة بعد العناء.

---

(٣) عثمان بن عفان بن العاص بن أمية بن عبد شمس وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، بويع له بالخلافة سنة (٢٣هـ) وقتل صبيحة الجمعة ١٨ ذو الحجة سنة (٣٥هـ) فكانت خلافته ١٢ سنة وحوصر في داره ٢٢ ليلة ودفن في حش كوكب مقبرة لليهود واختلف في عمره فقيل: ٩٠ و ٨٨ و٧٥ و ٨٦ و ٦٣ أنظر الطبري ج٢ حوادث سنة ٣٥.

(٤) مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ولد يوم أحد وقيل عام الخندق وقيل بالطائف. قال ابن عبد البر: ولد على عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) سنة ٢ من الهجرة وطرد رسول الله أباه وهو طفل لا يعقل، وبهذا لا تثبت له صحبة.

ويعرف مروان بخيط الباطل ولما بويع بالخلافة قال فيه أخوه عبد الرحمان بن الحكم:

لحا الله قوماً أمروا خيط باطل *** على الناس يعطي ما يشاء ويمنع

ونظر إليه علي(عليه السلام) فقال: ويلك وويل أمة محمد منك ومن بنيك، بويع له بعد معاوية بن يزيد سنة (٦٤هـ) ومات سنة (٦٥هـ) قتلته زوجته أم خالد بن يزيد وهو معدود فيمن قتلته النساء ـ انظر ابن عبد البر ج٣ ص٤٢٨ بهامش الاصابة ط الأولى سنة (١٣٢٨)، والحكم بن العاص نفاه النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الطائف ثم أعيد إلى المدينة في خلافة عثمان وروى الزهري وعطاء ان أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) دخلوا عليه وهو يلعن

والأغيلمة الذين على أيديهم هلاك الأمة، يتولون الحكم ويتلاعبون بالإمرة كتلاعب الغلمان بالكرة، وينزون على منبر رسول الله نزو القردة[٥].

فلنترك ذلك العهد وما فيه من أحداث وحوادث، ولا نناقش ذلك الانتخاب الذي فاز فيه عثمان ، لا بسابقة في الإسلام، ولا قرابة في رحم، وما هو بأولى من علي(عليه السلام) لو كان هناك انتخاب حرّ ومقاييس صحيحة.

نعم لا نريد أن نتعرّض لما خلّفته تلك الأحداث من آثار مؤلمة، وأوضاع شاذة ممّا دعا أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى مقاطعة الخليفة، عندما أصبحت مقاليد الحكم بيد بني أبيه، فعمّ الاستياء جميع الأقطار الإسلامية ممّا أدى إلى قيام ثورة مخضت عن قتل عثمان في داره، ومبايعة علي(عليه السلام) وانتصار معاوية بعد قتله وقد خذله في حياته.

عليّ(عليه السلام) ومبايعة معاوية لطلحة والزبير

وجد معاوية[٦] نفسه بدائرة ضيّقة بعد قتل عثمان ومبايعة علي بالخلافة، أيعلن معارضة علي؟ ـ وقد عقدت بيعته على أكمل وجه وناصره أصحاب محمد(صلى الله عليه وآله وسلم). والقلوب تغلي على بني أمية ـ ، أم يدخل فيما دخل فيه الناس كارهاً ـ كدخوله في الإسلام هو وأبوه من قبل ـ، وهو لا يجهل مكانة عليّ ومنزلته في الإسلام، فهو أوّل القوم إسلاماً وأقدمهم إيماناً وأفضل الناس بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)وأقربهم منه.

الحكم فقالوا: يارسول الله ماله؟ قال: دخل على شق الجدار وأنا مع زوجتي فلانة فكلح في وجهي، ومر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بالحكم فجعل الحكم يغمز النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) باصبعه فالتفت فرآه فقال: اللهم اجعله وزغاً فزحف مكانه.

ومر الحكم يوماً فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): ويل لأمتي بما في صلب هذا. ومن حديث عائشة أنها قالت لمروان أما أنت يا مروان فأشهد أن رسول الله لعن أباك وأنت في صلبه وطرده النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ونفاه إلى الطائف ومات في خلافة عثمان سنة (٣٢هـ) وضرب فسطاطاً على قبره وعاب الناس عليه ذلك ـ انظر الاصابة ج١ ص٣٤٦.

(٥) حديث ـ اخرج ابن جرير في تفسيره قال: رأى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بني الحكم ابن أبي العاص ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك فما استجمع ضاحكاً حتى مات وأنزل الله في ذلك (**وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلاّ فتنة للناس**) الإسراء ٦٠. وأخرجه السيوطي في اللؤلؤ المنثور من حديث عبد الله بن عمر ويعلى بن مرة والحسين بن علي وغيرهم (وطرق هذا الحديث كثيرة).

(٦) معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ولد قبل البعثة بخمس سنين وقيل بسبع سنين أسلم عام الفتح ومات في رجب سنة (٦٠ هـ) قال أبو عمر: معاوية وأبوه من المؤلفة قلوبهم وقال ابن أبي الحديد: كان معاوية مطعوناً في دينه انظر: شرح نهج البلاغة ج١ ص١١١، وقول الزمخشري في ربيع الأبرار في نسبه وكانت إمارة معاوية، عشرين سنة ولاه عمر بن الخطاب الشام وحاسب عماله إلاّ معاوية وبعد وقوع الصلح تم الأمر لمعاوية فاستقل مدة عشرين سنة.

وعلي قد طبعت نفسه على العدل لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يستطيع معاوية أن يعمل في عهد علي عمله الذي يحاول به نجاح مهماته، وتأبى نفس معاوية أن ترضخ للعدل، وتستسلم للواقع، لأ نّه يعرف علياً وسيرته وخشونته في الأمر.

وعلي يعرف معاوية، وعلى أيّ طابع طبعت نفسه، وهو أدرى بحركاته وما يهدف إليه في دهائه الذي استطاع أن يستجلب به رضا عمر ويخاتل عثمان من قبل.

إذاً كيف يصنع معاوية إذا اشتدّ جانب علي وعظمت شوكته؟ فكان موقفه تجاه هذه المشاكل موقف حيرة وارتباك، ودنياه حبلى ولا يعلم ماتلد في الغد.

كاد معاوية أن يفرّ من ميدان المعارضة لعليّ، لأنّه أعزل من كلّ سلاح يستطيع به مقابلة علي إن أعلن حربه، وليس له حجة يستهوي بها قلوب الناس. بماذا يدعي معاوية وأيّ أمل له بالخلافة والإمرة على المسلمين؟ وهو يعرف نفسه ولا يفوته منها كلّ شيء، فهو ابن هند[٧] وابن أبي سفيان[٨] زعيم المشركين ومثير الحرب على صاحب الرسالة(صلى الله عليه وآله وسلم).

نعم كاد معاوية أن يهزم ويخضع لسلطان علي ـ وهو كاره له ـ ، ولكن خروج أم المؤمنين عائشة[٩] ونقض طلحة[١٠] والزبير[١١] بيعة علي فتحا له باب أمل ارتجّ عليه

---

(٧) هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد مناف والدة معاوية ـ كانت تثير شعور المشركين بأراجيزها في حروبهم على النبي وتشجعهم هي وباقي نساء المشركين، وكانت ترجز يوم أحد: نحن بنات طارق، وبذلت لوحشي ما يحبّ، إن قتل حمزة عم النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) فلما قتل مثلت به واستخرجت كبده فشوت منه وأكلت ـ انظر الاستيعاب بهامش الإصابة ج٤ ص٤٢٦ وتوفيت في عهد عمر بن الخطاب في اليوم الذي مات فيه أبو قحافة والد أبي بكر الصديق.

(٨) أبو سفيان: هو صخر بن حرب بن أميّة بن عبد شمس وامه صفية بنت حرب الهلالية مات في خلافة عثمان سنة (٣٤هـ) وقيل (٣١ هـ) وهو ابن ثمان وثمانين سنة وكان يكنى بأبي حنظلة الذي قتل يوم بدر كافراً قتله علي(عليه السلام).

(٩) عائشة بن أبي بكر الصديق زوجة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أمها أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية، ولدت بعد المبعث بأربع سنين دخل بها النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في السنة الثانية من الهجرة وهي بنت تسع سنين وتوفي عنها وهي بنت ١٧ أو ١٨ سنة وماتت سنة (٥٨ هـ) وقيل سنة (٥٧ هـ) ودفنت بالبقيع بأمر منها، وأن تدفن ليلاً وصلى عليها أبو هريرة .

(١٠) طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة وأمه الصعبة الحضرمية، شهد أحداً وأبلى بها بلاءاً حسناً ولم يشهد بدراً وآخى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بينه وبين الزبير وقيل بينه وبين كعب بن مالك، وكان أحد أبطال الثورة على عثمان وقتل يوم الجمل مع عائشة قتله مروان بن الحكم، اخرج البغوي بسند صحيح قال: لما كان يوم الجمل نظر مروان إلى طلحة فقال: لا أطلب ثأري بعد اليوم فنزع بسهم فقتله وكان ذلك في جمادى الأولى سنة (٣٦ هـ) ومات وله أربع وستون سنة ودفن بالبصرة، ثم نقل لمكان آخر فيها ـ انظر الإصابة ج٢ ص٢٣٠ وابن كثير ج٧ ص٢٤٦ .

(١١) الزبيربن العوام بن خويلدبن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشي أمه صفية بنت عبد المطلب وأحد أصحاب الشورى الستة قتل يوم الجمل يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة (٣٦ هـ) وعمره ٦٦ سنة ولا يعرف قبره، أما قبره الحالي الواقع في مدينة الزبير قريباً من البصرة فقد شيد على الخطأ يقول ابن كثير في تاريخه ج١١ ص٣١٩ في حوادث (٣٨٦ هـ) ماهذا نصه وفي محرمها كشف أهل البصرة عن قبر عتيق فإذا هم بميت طري

من قبل، فأسرع بالكتاب إلى الزبير: إنّي قد بايعتك ولطلحة من بعدك فلا يفوتكما العراق[١٢].

وليس له بغية بهذه البيعة إلاّ الفرار من علي والخروج عن سلطانه، إذ لا يجد من نفسه قدرة على اتّباع علي فـ «**علي مع الحق والحق مع علي**»[١٣].

وبهذه البيعة انتهى رأيه ليتخلص من المشاكل الشائكة، ووجد فسحة في الأمل وفرجاً بعد الشدة، إن انتصر حزب المعارضين لعلي(عليه السلام).

وهل كان معاوية في غفلة عن سلاح فاتك يستطيع به أن يأمل نجاح أمره، وتكون له حجة في مقابلة علي، وهو الإعلان في الطلب بدم عثمان، واستبعد بعد ذلك عن تفكيره أو أنّه غافل عنه، فهو بدهائه ومكره لا تعزب عنه هذه الفكرة، ولكن في نظر الواقع أنّها فكرة خاطئة وحجة ليس لها برهان، فعثمان قتل بأيدي المسلمين، وما هو ولي دمه، وليس منه في شيء، وبنوه أولى بذلك، ولا يعزب عن معاوية مثل هذا، فهو بحاجة إلى من يدعم حجّته، ويؤيّد هذه الدعوى الكاذبة، ولكنّه جعل هذه الفكرة في جعبة آماله ولم يستطع استعمالها إلاّ بعد أن عرف نجاحها بيد غيره واستخدامها من قبل الآخرين. فهذه أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر من تيم تعلن الطلب بدم عثمان الأموي، وهي التي فتحت باب المؤاخذة عليه وآزرها على ذلك قوم أراقوا بأيديهم دمه بالأمس، وهم يمسحون بها دموع الحزن المصطنعة اليوم: (واعثماناه إنّه قتل مظلوماً)، دوّت هذه الصرخة وإذا بالشام تقوم لها وتقعد. وقاموا بحركات عاطفية وأعمال تقليدية من دون وقوف على حقيقة الأمر، وهم يشاركون قاتل عثمان في الندبة عليه، ويؤازرون من خذله في الأمس ومن حرّض الناس على قتله.

طلب معاوية بدم عثمان

انتحل معاوية لنفسه حقّ الطلب بدم عثمان وأنه أقرب الناس إليه وأولاهم بدمه، وأنّ عثمان قتل مظلوماً، وقد جعل الشارع لوليّه سلطاناً.

عليه ثيابه وسيفه فظنوه الزبير بن العوام فأخرجوه وكفنوه ودفنوه واتخذوا عند قبره مسجداً ووقفوا عليه أوقافاً كثيرة وجعل عنده خدام وقوام وتنوير.

ويقول أبو الفرج بن الجوزي في المنتظم ج٧ ص١٨٧ في حوادث سنة (٣٨٦ هـ) ماهذا نصه: فمن الحوادث فيها أن أهل البصرة في شهر المحرم ادعوا انهم كشفوا عن قبر عتيق فوجدوا فيه ميتاً طرياً بثيابه وسيفه وأنه الزبير بن العوام فأخرجوه وكفنوه ودفنوه بالمريد بين الدربين وبنى عليه الأثير أبو المسك عنبر بناء وجعل الموضع مسجداً ونقلت إليه القناديل والآلات والحصر والسمادات وأقيم فيه قوام ووقف عليه وقوفاً.

(١٢) تاريخ مختصر الدول ص١٠٥.

(١٣) تاريخ بغداد ج١٤ ص٣٢١، ح٧٦٤٣ .

إذاً لمن يطالب معاوية والكلّ مشتركون في اثارة الناس عليه؟ وهؤلاء الذين يبكون عليه اليوم قد فتحوا عليه باب المؤاخذة من قبل وأعلنوا للناس انحرافه عن جادة الصواب، لسيره في ركاب بني أبيه، إذاً فالأمر يحتاج إلى مزيد من التأمّل والتفكير، فليس لمعاوية غرض إلاّ مناوأة علي وجعله هو القاتل وحده، ولم يلتفت إلى المعارضات التي قام بها أصحاب محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)ضدّ عثمان، فإنّهم عندما لمسوا ميله لأبناء أبيه واختصاصهم بالغنائم وتوليتهم الأمر، وتقريب مروان بن الحكم وجعله أميناً للدولة، وإهانة بعض الصحابة وتبعيد آخرين حتى أعلنوا مقاطعته والغضب عليه، فهذا عبد الرحمن بن عوف[١٤] المناصر لعثمان والباذل جهده في انتخابه، هجره وأوصى أن لا يصليّ عثمان عليه[١٥]، وكان يقول: عاجلوه قبل أن يتمادى في ملكه، وقال لعليّ(عليه السلام) : خذ سيفك وآخذ سيفي فإنّه قد خالف ما أعطاني[١٦].

وكان طلحة من أشدّ الناس على عثمان حتى كان عثمان يدعو ويقول: اللهمّ اكفني طلحة فإنّه حمل على هؤلاء وألّبهم عليّ، واللّه إني لأرجو أن يكون منها صفراً، وأن يسفك دمه[١٧].

موقف عائشة وعمرو بن العاص

وهذه أمّ المؤمنين عائشة تعلن معارضة عثمان وتخرج شعراً من شعر رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم)وثوباً من ثيابه ونعلاً من نعاله ثم قالت: ما أسرع ما تركتم سنة نبيّكم وهذا شعره وثوبه ونعله لم يبل بعد![١٨] فغضب عثمان غضباً شديداً حتى ما درى ما يقول، وكانت تقول: إنّ عثمان عطّل الحدود، وتوعد الشهود، وأغلظت لعثمان وأغلظ لها، وقال: ما أنت وهذا إنّما أنت امرأة، أمرتي أن تقرّي في بيتك،

---

(١٤) عبد الرحمن بن عوف بن عبد الحرث بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري، اسمه في الجاهلية عبد عمر ـ وقيل عبد الكعبة. أمه الشفاء بنت عوف بن الحرث بن زهر، ولد بعد الفيل بعشر سنين وكان من المهاجرين وشهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وهو أحد الستة أصحاب الشورى وكان من أهل الثروة الطائلة وخلف من بعده ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس وأوصى بأن يتصدق من ماله بخمسين ألف دينار وصولحت إحدى نسائه التي طلقها في مرضه عن ربع الثمن بثلاثة وثمانين الف دينار/ أنظر الرياض النضرة ص٣٨٩ وكان عنده من الذهب ما كسر بالفؤوس وتوفي سنة (٣٢ هـ) وقيل (٣١ هـ) ودفن بالبقيع.

(١٥) أنساب الأشراف للبلاذري ج٥ ص٧٥ .

(١٦) أنساب الأشراف للبلاذري ج٥ ص١٧٧، ٢٠٠ .

(١٧) الكامل لابن الأثير ج٣ ص٨٦ .

(١٨) أنساب الأشراف للبلاذري ج٥ ص٤٨ .

فقال قوم مثل قوله، وقال آخرون: ومن أولى بذلك منها فاضطربوا بالنعال، وكان أول قتال بين المسلمين بعد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)[١٩]. وهذا عمرو بن العاص وزير معاوية وشريكه في الأمر كان من الثائرين والمحرّضين على عثمان يقوم إليه في ملأ من الناس ويقول: إنّك ركبت نهابير وركبناها معك فتب نتب[٢٠] وقال له: اتقّ الله يا عثمان، فقال له عثمان: وإنّك هناك يا ابن النابغة قملت جبتك منذ عزلتك عن العمل. ونودي من ناحية أخرى تب إلى الله[٢١] فخرج إلى فلسطين وأقام هناك، وجعل يحرّض الناس على عثمان حتى رعاة الغنم ولمّا بلغه قتله قال: أنا أبو عبد الله، إذا حككت قرحة نكأتها[٢٢].

وجلّ الصحابة أظهروا الإنكار على عثمان لسوء ما ارتكبه بنو أبيه الذين حملهم على رقاب الأمة، وكان جيش مصر ـ الذي حاصر عثمان واشترك في قتله ـ تحت قيادة عبد الرحمن بن عديس البلوي من كبار الصحابة وهو ممّن شهد الحديبية وبايع بيعة الشجرة، كما اشترك في حصار عثمان جمع من أهل بدر كرفاعة بن رافع الأنصاري وغيره. وقتل نيار بن عياض وهو من الصحابة المحاصرين له.

كما أنّ النصوص التاريخية مجمعة بالاتفاق على مكاتبة الصحابة من أهل المدينة إلى من بالآفاق منهم: إن أردتم الجهاد فهلمّوا إليه فإنّ دين محمد قد أفسده خليفتكم[٢٣].

ومهما يكن من أمر فقد أعلن معاوية الطلب بدم عثمان ولا يريد بذلك إلا اعلان الحرب على علي(عليه السلام)، لأ نّه يبغض علياً بغضاً لا يحمله قلب إنسان على وجه البسيطة; إنّ معاوية يبغض علياً لإيمانه وعدله، وعلي يبغض معاوية لنفاقه وظلمه، لذلك سلك معاوية طرق المكر والخداع واتخذ أعواناً هم على شاكلته يثيرون الناس لحرب علي(عليه السلام)بتهمة قتل خليفة المسلمين، ودبّ وهم هذه الفكرة في أفئدة ضعفاء العقول والإيمان، وأحاطوا بقميص عثمان يبكون عليه، ويتوقّدون لطلب القود من قاتله.

قدم قبيصة العبسي إلى المدينة رسولاً من معاوية، فقال علي: ماوراءك؟ قال: تركت قوماً لا يرضون إليّ بالقود. قال: ممّن؟ قال: من خيط رقبتك، وتركت ستين

---

(١٩) أنساب الأشراف للبلاذري ج٥ ص٨٤ .

(٢٠) تاريخ الطبري ج٣ ص٣٦٩ .

(٢١) الكامل لابن الأثير ج٣ ص٨٠ .

(٢٢) انساب الأشراف للبلاذري ج٥ ص٧٤ .

(٢٣) الكامل لابن الأثير ج٣ ص٨٣ ، انساب الأشراف للبلاذري ج٥ ص٦٠ ، تاريخ الطبري ج٣ ص٤٠٠.

ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان، وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق، فقال علي: أمني يطلبون دم عثمان؟!![٢٤].

موقف معاوية من عثمان

ما هذا العطف من معاوية على عثمان وهذه الرحمة المرتجلة. أين كانت عاطفة معاوية على ابن عمّه يوم كان محصوراً وترده أخباره، ويستنجده فلا يجيبه بشيء، ويستغيث به وكأن في أذنيه صمماً ؟ !!

يحدثنا الطبري[٢٥]: أنّ عثمان كتب إلى معاوية بن أبي سفيان وهو بالشام: بسم اللّه الرحمن الرحيم: أمّا بعد فإنّ أهل المدينة كفروا وخلعوا الطاعة، ونكثوا البيعة، فابعث اليّ من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كلّ صعب وذلول. فلمّا جاء معاوية الكتاب تربّص به وكره اظهار مخالفة أصحاب رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) وقد علم اجتماعهم.

لا يريد معاوية نصرة عثمان، وإنّما يحاول أن ينتصر المسلمون عليه فيقتل فتكون له وسيلة لنجاح الخطط التي رسمها ضد علي وبني هاشم، لأنّ الأمويين يحاولون أن يكيلوا لهم صاع الإنتقام كلّ أذى، وكانوا في حذر من تنازل عثمان عن العرض فتفشل ريحهم، ويخيب كلّ أمل لهم في الأمر، لذلك كان مروان وباقي الحزب الأموي يقفون حاجزاً دون تحقيق الأهداف التي أراد المصلحون الوصول إليها في إبعاد المفسدين من الأمويين عن الحكم وتجرّد الخليفة عن معاونتهم، وكان الأمر المهمّ الذي يتطلبه اصلاح وضع الأمة هو إبعاد عثمان عن الحكم، وقد قام الإمام علي بمعالجة الوضع وكلّما أراد إصلاح أمر عثمان بالاتفاق بينه وبين الثائرين، من طريق التفاهم وإيقاف تيّار الخلاف عند حدّه، كان الأمويون يسلكون طرق الشغب، ويوقدون نار الفتنة، فكانت مواعيد عثمان كلّها فاشلة، وأعمال بني أمية وفي طليعتهم مروان تزيد حراجة الموقف. وتضاعف الحال تعقيداً.

وكان الخليفة المقتول يأمل من معاوية نصره في تلك المشكلة، ولكنّه خذله بصورة لا مجال للتشكيك فيها.

ولما ازداد نشاط الثوار عاود عثمان أمله فانتصر بمعاوية مرة أخرى، فأرسل معاوية جيشاً تحت قيادة يزيد القسري، وأمره أن يقيم بذي خشب ولا يتجاوز، وقال

---

(٢٤) الكامل لابن الأثير ج٣ ص١٠٠ .

(٢٥) تاريخ الطبري ج٣ ص٤٠٢ .

له: لا تقل الشاهد يرى مالا يراه الغائب، فإني أنا الشاهد وأنت الغائب. فأقام الجيش حتى قتل عثمان، فاستقدمه معاوية إلى الشام، وإلى هذا يشير أبو أيوب الأنصارى صاحب رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم)بقوله لمعاوية: إنّ الذي تربّص بعثمان وثبط يزيد بن أسد عن نصرته لأنت(٢٦).

فمعاوية بطلبه لثأر عثمان بعد موته وخذلانه له في حياته دليل على سوء نواياه وما يقصده من وراء ذلك. وهو مخطّط أمويّ للإستيلاء على السلطة ومقابلة علي بكل وجه. وإنّ معاوية لا يقيم لقتل عثمان وزناً ولا يرى له قيمة، ولكنّها حجة استهوى بها أمة أخضعها لإرادته وسيّرها كما شاء، وإلاّ فإنّ من قتلة عثمان قد أصبحوا أنصار معاوية وحزبه، وهو يعرف ذلك ويعلم جيداً أنّ الإمام عليّاً(عليه السلام) أكثر الناس حرصاً على الدماء، وإنّما كان من قواعد الولاية أن تكون البيعة ثم تفوض الأمور بالأموال والدماء وكلّ الحقوق الى صاحبها، كما هو العهد في حكم من سبق الإمام، ولكن الأمر لم يكن القصاص أو الثأر لعثمان وإنّما كراهية دولة الحقّ وسلطان الدين، وقد جاء علياً ليعيدها بأصولها، وعلي من اليقين بالله والثقة بدينه ما يجعله يجد في الخلافة أمراً يتعلق بالدين لا بالدنيا، ولذلك كان تجاوزه من قبل، فليس أمام معاوية إلاّ الخديعة والمكر والتظاهر بأمر هو أدرى الناس بملابساته، وليس لمعاوية نصيب من خصائص علي ودين علي، وعليه أن يظهر للناس بأمر مقبول يجنّد له كلّ ما يمكنه من الخديعة والدهاء.

وقد نجح معاوية في مخاتلته ومكره، فقد أصبح خصماً لعلي(عليه السلام) وطرفاً مقابلاً، والتفّ حوله ضعفاء العقول الذين يحاولون الوصول لغاياتهم بكلّ وسيلة، فهاهم يقومون في الأندية والمجتمعات، ويبثّون بين الأفراد والجماعات، يذيعون بين الناس أنّ خليفة المسلمين قتله علي بن أبي طالب(عليه السلام)، وهم يبكون ويتألمون واستدرجوا لهذه الغاية من عرف بالنسك ووسم بالصلاح لتكون كلمته أوقع في النفوس، وسرت هذه الدعوى المفتعلة بخطى واسعة، وتلقّتها النفوس الضعيفة بكلّ قبول فأصبح شتم قاتل عثمان على ألسنتهم، وهم يتوقّدون بنار الغيظ لطلب الثأر، ومعاوية وحزبه يحرّكون شعور الناس بنشر قميص عثمان، فيطول بكاؤهم ويعلو نحيبهم، وأقسموا أن لا يمسّهم الماء إلا للغسل من الجنابة، وأن لا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن قام دونهم قتلوه.

---

(٢٦) انظر تاريخ دمشق ج١٦ ص٣٣ حديث ١٨٧٦.

وجاء عمرو بن العاص إلى دمشق راجلاً ومعه إبناه وهو يبكي، كما تبكي المرأة ويقول: واعثماناه أنعي الحياء والدين حتى دخل دمشق، وانضمّ لجانب معاوية على حرب علي، وذلك لما بلغه بيعة علي، لأ نّه يكره ولاية علي(عليه السلام)وبيعته[٢٧] ولكنه اشترط على معاوية أن يعطيه ولاية مصر مادام على قيد الحياة ثمناً لافتعاله واصطناعه التظلم لمقتل عثمان، فرضي معاوية بذلك، ولا يهمّه اشتراك عمرو بن العاص بقتل عثمان في التحريض عليه لهياج الرأي العام، كلّ ذلك لايهمّ معاوية مادام ابن العاص أصبح عدوّاً لعلي، وكان أكثر اعتماد معاوية على المتمردين على الإمام بن أبي طالب(عليه السلام).

وازداد نشاط خصوم علي بهذه الفكرة وقويت شوكة معاوية، وعظم جانبه، وبرّأ الكلّ من دمه إلاّ عليّاً وحده، وانقلب بعض المعارضين لعثمان والثائرين عليه من قبل إلى جهة الشفقة والحنان عليه.

عائشة وعثمان

وكانت أُمّ المؤمنين عائشة تتطلّع أخبار المدينة وهي في مكّة، وقد تركت عثمان محصوراً، فقدم عليها رجل يقال له أخضر فقالت: ماصنع الناس؟ قال: قتل عثمان المصريين، فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، أيقتل قوماً جاءوا يطلبون الحقّ وينكرون الظلم؟ : ! والله لا نرضى بهذا[٢٨].

فهي هذه اللحظة متمسكة بالإنكار على عثمان، وأنّ من رأيها أحقيّة المطالبين لعثمان، والثائرين عليه ثم لقيها رجل آخر فسألته ما صنع الناس؟ قال: قتل المصريون عثمان. قالت: العجب لأخضر زعم المقتول هو القاتل ولم يظهر إلى هذا الحدّ منها تغيّر وتبدّل، ولكن عندما بلغها قتل عثمان وبيعة علي(عليه السلام) وهي تريد الخروج إلى المدينة، نادت: ردّوني إنّ عثمان قتل مظلوماً فاطلبوا بدم عثمان[٢٩]. ليت هذه انطبقت على هذه إن تمّ الأمر لصاحبك ـ تعني عليّاً ـ ردّوني، ردّوني قتل والله عثمان مظلوماً، والله لأطلبنّ بدمه.

فقال لها الرجل: ولم ؟! والله إنّ أول من أمال حرفه لأنت، ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلاً فقد كفر، قالت: قلت وقالوا، وقولي الأخير خير من الأول، فقال لها:

---

(٢٧) الكامل في التاريخ ج٣ ص١٢٩ .

(٢٨) تذكرة الخواص ص٦٤.

(٢٩) تاريخ الطبري ج٣ ص٣٦٩ والكامل في التاريخ ج٣ ص١٠٢ .

فمنك البداء ومنك الغير *** ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام *** وقلت لنا إنّه قد كفر[٣٠]

والتفّ حولها بنو أمية الذين هربوا إلى مكّة، وجاء طلحة والزبير فأيّدوا هذا الرأي وانضموا لجانب عائشة، ومن هناك تألف جيش البصرة، وكثر نعي عثمان وإعلان الحرب على عليّ(عليه السلام) .

فكانت حرب الجمل[٣١]، وبعدها صفين، تلك الحرب التي طال امدها وعظم وقعها، فلجأ معاوية إلى المكر والخداع وانتهت بذلك التحكيم الذي جرى بغير ما أنزل اللّه، ثمّ كانت حرب النهروان التي أثارها المارقون عن الدين والخارجون على إمام المسلمين، فانتصر عليهم وشتّت شملهم. وارتحل علي(عليه السلام) إلى دار البقاء شهيداً بعد أن أدّى رسالته على أكمل وجه، وأقام في الأمة العدل وسار بسيرة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) ، واهتدى بهديه فصلوات اللّه عليه ورحمته ومغفرته ورضوانه.

وقام من بعده ولده الحسن(عليه السلام) بنصّ من أبيه من جهة، واجتماع المسلمين على بيعته من جهة أخرى، وهو ريحانة رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) وسبطه الذي خلفه في أمته، فكان ما كان من مقابلة معاوية له بإعلان الحرب عليه، ومقابلته له بما يكره، واستعماله طرق الخداع والمكر لتفريق الناس عنه، ليضرب معاوية ضربته القاضية، ويتمّ له الأمر بالظفر والغلبة.

فكان من حنكة الحسن(عليه السلام) وحسن تدبيره تنازله للصلح ليوقف تيار غلبة معاوية عند حدِّه، فإنّ معاوية لو تمّ له الأمر بالغلبة لكان ما كان من أفعال انتقامية، كما هو شأن الظافر الذي لا وازع له يحجزه عن ارتكاب ما يريد وقوعه في خصومه، ولكنّ الحسن(عليه السلام) قيّده بشروط تقف حاجزاً دونه ودون مآربه وتجعله لا يشعر بسلطة الظفر الذي يبيح ما يريد، وكان يثقل عليه وجود الحسن في الوجود، فتوصل إلى قتله[٣٢] بالسمّ، فإنا للّه وإنا إليه راجعون، وتمّ لمعاوية ما أراد، وإنّ ربّك لبالمرصاد.

---

(٣٠) الكامل في التاريخ ج٢ ص٣١٣ .

(٣١) كانت حرب الجمل في سنة (٣٦ هجرية) في جمادى الآخرة وقتل فيها من الطرفين عدد لا يقل عن عشرة آلاف وفيها قتل طلحة رماه مروان بن الحكم بسهم فقتله وقد اشتهر عنه قوله: أينما أصابت فتح وكذلك وقعة صفين ابتدأت في هذه السنة وانتهت في أمر التحكيم في شهر رمضان سنة (٣٧ هـ).

(٣٢) مقاتل الطالبيين ص٨٠ .

معاوية والخلافة

ما كان معاوية يحلم يوماً ما بتلك العظمة فيتسنّم عرش الخلافة الإسلامية، لقد كان صعلوكاً لا مال له، وذليلاً تحت عزّة الإسلام، ووسم هو وأبوه وحزبهم الفاشل بالطلقاء، يوم فتح الله على نبيِّه ونصره نصراً عزيزاً ودخلوا في الإسلام وقلوبهم مملوءة بالحقد على الإسلام، يتربّصون الفرص لمحو سطوره وقلع جذوره، وما تغير شيء من نفسيات أبي سفيان بعد دخوله في حظيرة الإسلام قلامة ظفر.

فلا يستغرب من معاوية تلك المقابلة التي قابل بها علياً بوجه لا يعرف الخجل، لأنّه وريث ذلك العداء المتأصّل بين بني هاشم وبني أُمية، فتلك عداوة جوهرية ذاتية يستحيل تحويلها ويمتنع زوالها، فما أعظم محنة المسلمين وما أشدّ بليّتهم عندما يعود أمرهم لخصوم لا يعرفون الرحمة، ولا عهد لهم بالعدل! وناهيك بما في القلوب من حقد، وبما في النفوس من حبّ الانتقام، وقد آن الأوان لتحريك ساكن الغلّ وإظهار مكنون العداء.

وإنّه ليثقل على معاوية ذكر علي بخير، وتأبى نفسه أن يرى في الوجود أنصاراً لعلي يحفظون به وصايا محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) ، ويرعون حقه، لذلك أصدر أمره إلى عمّاله عامة بنسخة واحدة: انظروا من قامت عليه البيّنة أنه يحبّ علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان واسقطوا عطاءه[٣٣].

فما أعظم بلاء الأُمة عندما فتح معاوية عليهم باب التشفي والانتقام! وما أكثر المأخوذين بهذه التهمة، ومعاوية يحاول بذلك أن يوقع بين صفوف الأُمة عداء تتوارثه الأجيال، ويبعث العصبية بين القبائل ليشقّ الطريق إلى غايته.

ويحدّثنا المدائني في كتاب الأحداث أنّه كتب إلى عمّاله نسخة واحدة ان برئت الذمة ممن روى شيئاً في فضل أبي تراب وأهل بيته[٣٤].

وقام الخطباء في كلّ كورة ينالون من علي ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشدّ الناس بلاء أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي، إذ استعمل عليهم المغيرة بن شعبة[٣٥] ثم زياد بن سمية وضمّ إليه البصرة، فكان يقتل كلّ من اتهمه بحبّ علي،

---

(٣٣) شرح نهج البلاغة ج١١ ص٤٥ .

(٣٤) صلح الإمام الحسن ص٣٢١، انظر شرح نهج البلاغة ج١١ ص٤٥ ـ ٤٦.

(٣٥) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود المتوفى سنة (٥٠ هـ) وكان أحد الدهاة استعان به معاوية واستعمله على الكوفة، وكان عمر قد ولاه البصرة وعزله لقضيته مع أُم جميل، قال قبيصة بن جابر: لو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج منها إلاّ بالمكر لخرج المغيرة منها كلها.

ويهدم داره ويقطع الأيدي والأرجل، فكان ذلك الدور من أهمّ أدوار الارهاب والانقلاب على مفاهيم العدل الإسلامي في قتل أهل التوحيد.

والذين على شاكلة معاوية أخلصوا له وقاموا بما يحبّ، فأعلنوا شتم علي والبراءة منه. فكان المرتزقة يتقربون إليه بذلك، وعلماء السوء يوازرونه في نشر الحكايات المفتعلة حتى أدّت الحالة في الشام بأن تختم مجالس الوعظ بشتم علي(عليه السلام)(٣٦). وبعد ذلك فكّر معاوية أنّ هذا العمل الذي يقوم به لا يثمر كثير فائدة، لأ نّه عمل إرهابيّ وسرعان ما يتبدل الوضع، فضمّ لهذا العمل شيئاً آخر من تقريب خصوم علي والمتظاهرين بعدائه والمعروفين بشيعة عثمان واغداق العطاء عليهم ومنحهم الصلات الجزيلة، ورعايتهم والعناية بهم وتسجيل أسمائهم وأسماء عشائرهم، ليكونوا في محلّ الإعتبار، ورفع أسمائهم للبلاط الأموي ليشملهم بعطفه ويرعاهم بلطفه، فما أكثر المتقرّبين إليه خوفاً من شفرة السيف وظلمة السجن، وضيق اللحد وعناء المطاردة والتبعيد. وقد تلقّى شيعة علي(عليه السلام) كلّ ذلك بصبر وثبات، وتحمّلوا ظلم معاوية وجوره، ولم يتحولوا عن عقيدتهم أو تزل بهم قدم خوف الارهاب والفتك.

ثم فكّر معاوية بشيء يستطيع به انجاح خططه عندما يستعمل أولئك الدجالين وذوي الضمائر الرخيصة لوضع الأحاديث على لسان صاحب الرسالة بما تشاء نفسه وتتطلبه مصلحة ملكه، بدون التفات إلى مؤاخذة وعدم مبالاة بجريمة الكذب على اللّه وعلى رسوله، ولم تقف أمامه حواجز عند ارتكاب جرائم قتل المسلمين على الظنّة والتهمة، وسلب الأموال، وهتك الأعراض، وسبي النساء، وهدم الدور، وإلقاء الجثث في الطرقات، والقتل في المساجد وأخذ البريء بالسقيم، إلى غيرها من جرائم يتصدّع لها قلب المسلم وتكاد نفسه تذهب حسرات.

وها نحن نتخطّى عهد معاوية، ولانقف موقف المدقق الذي يريد حصرها، فليس من غرضنا ذلك، وقد كفانا رجال التحقيق من علماء الأمة، والتاريخ الصحيح بيان ذلك، إذ ليس لنا من الوقت ما يتسع لنشر تلك الصحائف السود، وذكر تلك الفظائع المؤلمة.

فأعمال معاوية سجّلها التاريخ عليه وهي بعيدة عن روح الإسلام ومجانبة للعدالة، وإنّ ضرب الحصانة عليه باسم الصحبة بدعة في الدين وافتراء محض.

---

(٣٦) تاريخ ابن عساكر ج٣ ص٤٠٢ .

بيعة يزيد وأعماله

ومضى معاوية لسبيله مثقلاً بأوزاره تاركاً وراءه ولي عهد فرضه على المسلمين بشكل قسري، كما فرض على نفسه الحلم الاصطناعي، ومداراة الناس ليحملهم على اجابته، ومن سوء حظّ الأمة أن يلي أمرها فاسق لايعرف إلاّ الرذيلة وهو أشرّ خلق الله وألعنهم[٣٧]، وسيعلم الذي مهّد له ذلك أيّ نوعية قدّم للمسلمين وولاه رقابهم. ولا يستبعد من معاوية وكيده للإسلام ومحاربته له من البداية إلى النهاية، أن يرشّح يزيد لعلمه بما طبعت عليه نفسه من الفسق وعدم المبالاة بما يرتكبه، ليتمّ له نجاح الخطط التي رسمها معاوية في حياته لمحاربة الإسلام وأهل البيت، وشرع في تطبيقها في حياته وعهد إلى يزيد لتنمو في عهده، فينال معاوية غرضه. فكان يزيد كما أراد أبوه فقد قام بدور خطر ومثّل تلك العظائم التي يقف القلم عند بيانها.

فكانت باكورة عمله أن قتل الحسين ابن بنت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وسبى نساءه بصورة يذوب لها قلب كلّ انسان مهما اختلفت ملته ونحلته فضلاً عن المسلم الذي يعرف الحسين ومنزلته من رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ومكانته من الإسلام، وما أعظمها من جريمة تقشعرّ لها الجلود وتذوب لها النفوس حسرات، فكانت وقعة الطف سلسلة فجائع مروّعة ونكبات أليمة، فإنّا لله وإنا إليه راجعون.

وفي السنة الثانية أباح مدينة الرسول وأصبح جنده يجوسون خلال ديار الوحي ليفسدوا فيها ويهلكوا الحرث والنسل، يتدفّقون في شوارع ذلك البلد الطيّب، يهجمون على البيوت، ليهتكوا أعراضاً، ويسلبوا أموالاً، فلا تزعجهم أصوات النساء المعولات على أزواجهن وأولادهن، ولم تلن قلوبهم لأنين الأطفال وذعرهم.

وترى مخدّرات ذلك البلد كأسراب القطا تتخطفها البزاة الجارحة، أو كقطعان الغنم تتناهبها الذئاب الضاربة، فهنّ تحت تصرف اولئك الوحوش ثلاثة أيام يفعلون ما

---

(٣٧) مما يثير الأسى أن ينجم عن سياسة إضفاء الصحبة وطابع القداسة على معاوية وأمثاله الإيمان بالطاعة لأولي الأمر ممن ظلموا أو سفكوا دماء المسلمين وما نتج من آراء بعدم الطعن بمعاوية أو لعن ابنه يزيد أو تكفيره أو حتى رواية قتل الحسين وما جرى بين الصحابة، لأنه يبعث على ذمهم وعندهم لا يجوز نسبة المسلم الى الفسوق، بدون تحقق، بماذا سيجيبون نبيّهم وهم يلقونه غداً؟ نعوذ بالله من خطل القول وزلل اللسان وكل ما يسخط رسول الله(صلى الله عليه وآله) ويرضي أعداءه.

أما أولئك الذين أفسد دينهم النُصب وأعمى قلوبهم التعصب ووقعوا ضحايا حملات التضليل فمن فقد عقله راح يفصح عن سخائم سريرته، ومن تزيا بزي العلم على طريقة علماء بلاط ملوك الأمويين فجاهر بالكفر بالتزامه سياسة يزيد فننشد في وصفهم ما قاله الجوهري صاحب الصحاح وقد رمى الزمن أمامه من أمثال هؤلاء:

رأيت فتى أشقراً أزرقاً *** قليل الدماغ كثير الفضول

يفضّل من حمقه دائباً *** يزيد بن هند على ابن البتول

شاءوا، ومروان بن الحكم ينظر الفجائع فيهتزّ طرباً ومرحاً يعجبه أن يرى شيوخ الصحابة ووجوه العرب وأبطال الإسلام يقادون لقائد الجيش ليأخذ منهم البيعة ليزيد بيعة عبودية، فبعين اللّه ما لقيت الأمة، ولا تخفى على اللّه خافية في الأرض ولا في السماء.

وفي السنة الثالثة هدم الكعبة ولعلّها أبلغ أمنية لنفس الأمويين وأعظم إنجازاً لعائلتهم أن ينالوا من البيت الذي كان مهبط الوحي على ابن عبدالله(صلى الله عليه وآله)وقبلة الإسلام الذي قضى على مكانتهم وأباد رجالهم، وحرم التوحيد والإيمان، فبنار مجانيقهم يكون يوماً بيوم هبل واللات والعزى. هذا هو وليّ عهد معاوية الذي عرف لياقته للحكم وصلاحيته للأمر[٣٨]، فلنترك عهده ونتخطّ فظائعه بدون تفصيل فهي أشهر من أن تذكر، وإنّ ربّك لبالمرصاد. فلم يطل عهده وأراح اللّه منه الأمة، واللّه شديد الانتقام.

تحول الحكم من آل أبي سفيان إلى بني الحكم

وتحوّل الأمر من بعد يزيد بن معاوية من آل أبي سفيان إلى بني الحكم، لأنّ عهد معاوية بن يزيد[٣٩] لم يطل، وقد فرّ بنفسه من ولاية ورثها بدون حقّ، وهو يعرف أهلها، وإنّ أباه وجدّه غاصبون لها، فصرّح بذلك في خطبته فقال:

إنّ هذه الخلافة حبل اللّه، وإنّ جدي معاوية نازع الأمر أهله، ومن هو أحق به منه عليّ بن أبي طالب(عليه السلام) وركب بكم ما تعلمون، حتى أتته منيته فصار في قبره رهيناً بذنوبه، ثم قلد أبي الأمر، وكان غير أهل له، ونازع ابن بنت رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) فقصف عمره، وانبتر عقبه، وصار في قبره رهيناً بذنوبه، ثم بكى وقال: إنّ من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه وبئس منقلبه، وقد قتل عترة رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) وأباح الخمر، وخرّب الكعبة. ولم أذق حلاوة الخلافة، فلا أتقلّد مرارتها، فشأنكم أمركم، واللّه لئن كانت الدنيا خيراً فقد نلنا منها حظاً ، ولئن كانت

---

(٣٨) تاريخ الطبري ج٥ ص٤٩٨ .

(٣٩) معاوية بن يزيد أبو عبد الرحمن ويقال أبو يزيد ويقال أبو ليلى استخلف بعهد من أبيه في ربيع الأوّل سنة (٦٤ هـ) وكان شاباً صالحاً وكانت مدة خلافته أربعين يوماً ولم يخرج إلى الناس بعد هذه الخطبة ولا فعل شيئاً ولا صلى بالناس ومات وهو ابن ٢١ سنة وقيل ٢٣ سنة وقيل غير ذلك ودفن بمقابر باب الصغير بدمشق ولما حضرته الوفاة قيل له ألا توصي فقال: لا أتزود مرارتها وأترك حلاوتها لبني أمية ولما دفن حضر مروان دفنه فقال أتدرون من دفنتم؟ قالوا نعم معاوية بن يزيد فقال: مروان نعم هو أبو ليلى الذي يقول فيه الغزاري:

إني أرى فتنة تغلي مراجلها *** والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا

شراً فكفى ذرية أبي سفيان ما أصابوا منها[٤٠] ، ثمّ تنازل عن عرش أقيم على جماجم الأبرياء من المسلمين، وخلع برداً نسج على نول المكر والخداع والتمويه، وفرّ بنفسه عن التلبس بتلك الجرائم فعفى الله عنه.

وولي الأمر مروان بن الحكم، بعد أخذ ورد ووقوع فتن في الشام وغيره وتعصّب بين القبائل، وحروب في جميع الأقطار وكثرة الدعاة ضدّ بني أمية.

فأصبح مروان خليفة المسلمين، ولم تطل أيامه ومات سنة (٦٥ هـ) قتلته زوجته أمّ خالد بن يزيد، وهو معدود فيمن قتلته النساء.

ثمّ جاء دور عبد الملك بن مروان، بويع له بعد أبيه والأمور مضطربة والبلاد تموج من فوضى الأمويين وسوء سيرتهم، وعبد الله بن الزبير قارب أن يتمّ له الأمر، والمختار بن أبي عبيدة نهض لطلب ثأر الحسين(عليه السلام) ونكّل بقاتليه ومزّقهم كل ممزّق، وشفى صدور قوم مؤمنين، وقضى على علوج الشرك، وقتلة أولاد الأنبياء فرحمه الله وجزاه خيراً، فكان مجيء عبد الملك للحكم، مجيء فاتك لايقف عند حدّ، وناقم لا يعرف قلبه الرحمة، وظالم لا عهد له بالعدل، فكان دوره دور إرهاب وجور .

ولادة الإمام الصادق(عليه السلام)

وبهذا الدور في عهد عبد الملك بن مروان ولد الإمام أبو عبد الله جعفر الصادق(عليه السلام) في ليلة الجمعة في السابع عشر من ربيع الأول سنة (٨٢ هـ) وقيل في غرّة شهر رجب، والأمة الإسلامية تلاقي تلك الأحكام القاسية، وقد انتشر فيها دعاة الفساد، وتحكّم أئمة الجور، واستولى على الأقطار الإسلامية أولئك الجزّارون الذين يتقربون لأئمتهم بضحايا البشرية بدون جناية، والأخيار من الأمة الذين ينكرون تلك الأعمال الوحشية عرضة للأخطار ومحلاً للنقم.

ولد(عليه السلام) في حجر الرسالة، ونشأ في بيت النبوّة، وترعرع في ربوع الوحي، وتربّى بين جدّه زين العابدين وأبيه الباقر(عليهما السلام).

أقام مع جدّه علي بن الحسين(عليه السلام) اثنتي عشرة سنة، وقيل خمس عشرة سنة، وعلى رواية المدائني ست عشرة سنة[٤١]. وأخذ عنه في حياته وتربى في مدرسته.

---

(٤٠) الصواعق لابن حجر ص١٢٤.

(٤١) أنظر البحار ج٤٧ ص٤ ـ ٦ .

وبدون شك إنّ جده زين العابدين هو أفضل الهاشميين، وسيد أهل البيت في عصره، وأعلم الأمة في زمانه وأورعهم وأصدقهم حديثاً، وبعد وفاة جدّه تفرّد بتربيته أبوه الباقر(عليه السلام)[٤٢] وهو هو في عمله وورعه، فنشأ الإمام تلك النشأة الصالحة وهو خليفة أبيه، والمتحمّل أعباء الإمامة من بعده، وعاشر أباه بعد وفاة جدّه تسع عشرة سنة.

نشأة الإمام الصادق(عليه السلام)

ولا شكّ أنّ الإمام الصادق نشأ في وسط مجتمع لا يتصل بآل البيت إلاّ من طريق الحذر والتكتم لشدة المراقبة التي تحوط بهم من السلطة الأموية، وشاهد طلاب العلم يتصلون بمدرسة جدّه وأبيه وهم بأشدّ حذر، لأنّ ذلك الدور لا يستطيع أحد أن يتظاهر بالاتصال بآل محمد، ومن عرف في ذلك فإنّما مصيره القبر أو ظلمه السجن إلى حيث الأبد.

نشأ الصادق في عصر تتنازع فيه الأهواء، وتضطرب فيه الأفكار، وطغت فيه موجة الإحن والأحقاد، وتلاطمت فيه أمواج الظلم والإرهاب.

وتقرّب الناس إلى ولاة الأمر بالوشايات والاتهامات فلا حرمة للنفوس ولا قيمة للدين، ولا نظام يشمل الرعية، بل هي فوضى والأمراء يحكمون بما شاءوا والرعية بين أيديهم ألعوبة لأغراضهم.

وأشدّ الناس بلاءاً هم أنصار آل محمد وشيعتهم واتخذ خصومهم شتم عليّ سنة يتمون به فرضهم، فلا يدخل الداخل إلى مسجد ولا معبد ولا مجلس ولا حلقة علم إلاّ ويسمع تلك العبارات التي يعبر بها أولئك القوم عن سوء سريرتهم، ولا يكاد يصغي لخطيب أو قصّاص أو واعظ إلاّ وكانت براعة استهلاله شتم علي(عليه السلام).

فكان آل محمد يلاقون تلك المشاق ويواجهون تلك المصاعب بقلوب مطمئنة بما وعد الله الصابرين، وكل هذه الأمور شاهدها الإمام الصادق(عليه السلام)في نشأته، أو أخذ عنها من أبيه صورة واقعية بعد حدوثها، حتى شمله العصف الأموي عندما جيء مع أبيه الباقر الى الشام مقر الظالمين وموطن البغاة، فبعين الله ما لقيت الأمة الإسلامية وما لقي آل محمد الذين هم حملة العلم ومبلّغو رسالات الإسلام.

---

(٤٢) ستأتي في الجزء الثاني لمحة من حياة الإمام الباقر(عليه السلام).

أدرك الإمام الصادق صلوات الله عليه ثلاث سنين من خلافة عبد الملك، وتسع سنين وثمانية أشهر من خلافة الوليد بن عبد الملك، وثلاث سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيّام من خلافة سليمان، وسنتين وخمسة أشهر من خلافة عمر بن عبد العزيز، وأربع سنوات وشهراً من خلافة يزيد بن عبد الملك، وعشرين سنة من خلافة هشام بن عبد الملك، وسنة واحدة من خلافة الوليد بن يزيد، وستة أشهر من خلافة يزيد بن الوليد، وبعده لم يبق خليفة للأمويين بعينه لكثرة الاضطرابات حتى زال ملكهم في سنة (١٣٢هـ).

كلّ هذه الأدوار شاهدها الإمام الصادق(عليه السلام)، وهو يعيش وأهل بيته بتلك الدائرة الضيّقة محاطاً بالرقابة، لتلك الاتهامات التي يحوكها ضده المتقربون لخصوم آل محمد، وهو يرى بين آونة وأخرى مصارع زعماء الشيعة وسجن آخرين ومطاردة السلطة لبقية السيف منهم، وكان يطرق سمعه مدة تسع عشرة سنة شتم جدّه علي(عليه السلام) وانتقاص آله، وكان يرى بعض ولاة المدينة يجمع العلويين يوم الجمعة قريباً من المنبر يسمعهم شتم علي وانتقاصه، حتى ولي عمر بن عبد العزيز سنة (٩٩هـ) فرفع السبّ عن علي(عليه السلام)كما سيأتي بيانه.

عصر الإمام الصادق(عليه السلام)

كانت نشأة الإمام الصادق(عليه السلام)نشأة خشونة وملاقاة مصائب، وخوض غمرات محن وبلاء، من ولاة أضاعوا الحقّ وظلموا الأمة، واتّبعوا شهواتهم وأعلنوا العداء لآل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) ، ومع هذا كلّه فإنّه كان لا يمتنع من الجهر بالحقّ وارشاد الناس وتحذيرهم من مخالطة أولئك الظلمة، وكان ينهى عن المرافعة إليهم وينهى عن الاختلاط بهم واعانتهم في شيء، والتولي لهم وقبول أيّ عمل منهم .

وفي أيّامه كان خروج زيد بن علي في الكوفة، ولما قتل زيد كان يؤبّنه بكلماته البليغة، ويلعن قاتله وذلك في أيام هشام بن عبد الملك ذلك الجائر الذي أظهر العداء لآل أبي طالب بصورة ارهابية بعد قتل زيد، وأمر عمّاله بالتضييق عليهم، وأن تمحى أسماؤهم من ديوان العطاء وملأ منهم السجون، وكتب لعامله يوسف بن عمر الثقفي بقطع لسان الكميت ويده، لأ نّه رثى زيداً، كما منع العطاء عن أهل المدينة لاتهامه اياهم بالميل إلى زيد، وألزم آل أبي طالب بالبراءة من زيد، إلى آخر ما هنالك من فجائع وأمور كانت تحوط بالإمام، وتنكّد عيشه، ولكنّ عناية الله قضت بأن

يزداد شعور الناس نحو آل محمد مع تلك المحاولات التي اتخذها الأمويون، فكانت هناك اجتماعات ومؤتمرات سرية سعياً إلى انقلاب عام يزيل مملكة الأمويين وتحويلها لآل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، وبانتشار الدعاة لهذه الفكرة وحصول خلاف بين الأمويين انفسهم اضطربت الدولة، ودبّ في جسمها الضعف، وأحاطت بها عوامل الإنهيار، فكانت فترة سعيدة ولكنّها كانت فترة مؤلمة في الوقت نفسه، إذ كان الإمام الصادق(عليه السلام)يرى ما يصيب الدين الإسلامي من وهن وتشويه وانتهاك، فانبرى لفتح أبواب مدرسته وليقوم بما يجب عليه من توجيه الناس، وبثّ الأحكام وتعاليم الدين فهو بين شيخوخة الدولة الأموية، وطفولة الدولة العباسية قام في عصر ازدهار العلم لتعليم الناس حتى عدّ تلامذته أربعة آلاف رجل[٤٣].

المرحلة السعيدة

وكان بيته(عليه السلام)في تلك الفترة كالجامعة، يزدان على الدوام بالعلماء الكبار في الحديث والتفسير والحكمة والكلام، فكان يحضر مجلس درسه في أغلب الأوقات ألفان وبعض الأحيان أربعة آلاف من العلماء المشهورين[٤٤].

وكان يؤم مدرسته طلاب العلم ورواة الحديث من الأقطار النائية، لرفع الرقابة وعدم الحذر فأرسلت الكوفة والبصرة وواسط والحجاز إلى جعفر بن محمد أفلاذ أكبادها، ومن كلّ قبيلة من بني أسد ومخارق، وطي، وسليم، وغطفان، وغفار، والأزد، وخزاعة، وخثعم، ومخزوم، وبني ضبّة، ومن قريش، ولا سيّما بني الحارث بن عبد المطلب، وبني الحسن بن الحسن بن علي.

ونقل عنه الحديث واستفاد منه العلم جماعة من الأئمة وأعلامهم مثل يحيى بن سعيد الأنصاري، وابن جريح، ومالك بن أنس، والثوري، وابن عيينة، وأبي حنيفة، وشعبة، وأيوب السجستاني، وغيرهم، وعدّوا أخذهم منه منقبة شرفوا بها وفضيلة اكتسبوها[٤٥].

---

(٤٣) مناقب ابن شهرآشوب ج٤ ص٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

(٤٤) مجلة رسالة الإسلام العدد ٤ السنة ٦.

(٤٥) مطالب السؤول ج٢ ص٥٥ .

ونالت مدرسة الصادق شهرة عظيمة، ففي تلك الفترة السعيدة، كان هو زعيم الحركة الفكرية في ذلك العصر، ويعتبر في الواقع أنّه أوّل من أسس المدارس الفلسفية في الإسلام، ولم يكن يحضر حلقته العلمية أولئك الذين أصبحوا مؤسسي المذاهب الفقهية فحسب، بل كان يحضرها طلاب الفلسفة والمتفلسفون من الأنحاء القاصية[٤٦].

وستطّلع على جوانب تكوين هذه المدرسة الكبرى ووجوه نشاطها المختلفة. وإنّ من جوانب عظمة الإمام الصادق أن ينهض في هذا الدور من التاريخ الإسلامي الذي شهد تلك الأحداث السياسية والتحوّلات الفكرية، ويقيم صرحاً فكرياً على قواعد دينية ومناهج علمية وهو يواجه سياسة الضغط وحملات العنف ويعالج روح الأمة ويتجه الى أفكار أبنائها، وبقيت مدرسة الإمام الصادق ـ برغم سياسة الأمويين في محو آثار أهل البيت ـ جامعة تمدّ الرجال بعلوم الدين وزاد الإيمان، يتخرج منها الطلاب للدعوة الى الحقّ، كما بقيت على استقلال نهجها ووضوح مناهجها في عهد العباسيين. وقد حفظت لنا مصادر التاريخ صورة لمكانة الإمام الصادق في عصره، ومدى انتشار علمه في الأقطار الإسلامية، حتى كان اسمه في الحديث والرواية من امارات الصحة وعلامات العلم، ففي كلّ مسجد من مساجد المسلمين المعروفة راح الرواة والمحدثون ينهلون من فيضه، وكلّ يقول: حدّثني جعفر بن محمد، حتى قال أحدهم: أدركت في جامع الكوفة تسعمائة شيخ من أهل الدين والورع كلّهم يقول: حدثني جعفر بن محمد.

العَهد العبّاسي

ما كاد المسلمون يلمسون من الأمويين انحرافهم عن الدين واستهانتهم برجال الأمة ومحاربتهم أهل البيت، حتى اشتدّ إنكارهم على تلك السيرة الملتوية، وذلك النظام الجائر الذي لا يعرف العدل، ولا عهداً للمسلمين به من قبل.

---

(٤٦) تاريخ العرب للسيد مير علي الهندي ص ١٧٩ .

وكانت نهضة الحسين(عليه السلام)صرخة داوية، فهي على دعاة الجور بركان بلاء ونقمة، ولدعاة الحقّ شعلة هداية، يستنيرون بها في طريق الوصول إلى الدعوة الصالحة، أعقبتها سلسلة ثورات دموية، مهّدت الطريق لحدوث انقلاب الحكم وإبعاد أولئك القوم الذين تربعوا على دسته، فقد ثقلوا على الناس وطال عهدهم الجائر، فكان أفقهم مثقلاً بسحب السخط على أعمالهم، فتألّفت الجمعيات السرية التي كان هدفها تحقيق ثورة إصلاحية، لنقل الحكم من أميّة ـ التي تعتبر في الواقع عدوة للإسلام من البداية إلى النهاية ـ إلى آل محمد الذين هم دعاة الحقّ وأئمة العدل.

وكان العباسيون في طليعة أنصار العلويين، وكان أشدّ الناس حماساً لتحقيق ذلك الغرض، وكان لمحمد بن عبد الله بن الحسن نشاط سياسيّ في ذلك العهد، وبويع في مؤتمر عقده الهاشميون من العباسيين والعلويين، وأوّل من بايعه السفاح وأخوه المنصور.

ومهما يكن من أمر فقد اندلعت نيران الثورة وهتافات الثوار: الدعوة إلى الرضا من آل محمد، فوقعت الواقعة بأمية ودارت بهم الدوائر، فزال ملكهم وأراح الله العباد والبلاد منهم. وتطلّع المسلمون إلى العهد الجديد الذي يأملون به انتشار العدل وتطهير الأرض من الفساد، لا سيّما إذا قام على رأس الدولة الجديدة زعيم علوي لا شكّ في حقّه بالخلافة، فانتحل العباسيون أحقّيتهم بالأمر، وأنّهم آل محمد وأهله الأدنون.

السفاح

وجرت الحوادث ودارت عجلة الزمن، وانتقل الأمر إلى بني العباس الذين انتحلوا انطباق اسم آل محمد عليهم دون غيرهم، وبويع السفاح[٤٧]، فكان عهده عهد ثورة، وقد شغل الناس بمطاردة الأمويين وتتبع البقية منهم، واستطاع السفاح بمهارته أن يظهر للناس عطفه على أبناء عمّه بإكرامهم، وعدم التعرّض لهم وهو يحاول بذلك جلب قلوبهم، وإقناع الأمّة التي ترى أن الحقّ لهم دونه، وأنّه أحد الأفراد المطوّقين بالبيعة لآل علي(عليه السلام) ، فاقتضت سياسة الدولة الفتيّة أن يسير على خطة المجاراة لأبناء عمّه، والتظاهر بأخذ الثأر من قتلة الحسين(عليه السلام)لمصانعة الناس الذين بدأوا يدركون بأنّ

(٤٧) السفاح هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بويع له بالخلافة سنة (١٣٢هـ) وتوفي بالجدري في الأنبار يوم الأحد ١١ ذو الحجة سنة (١٣٦هـ) وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر.

العباسيين كانوا يسعون في تحصيل الخلافة لأنفسهم باسم «آل البيت» وما كانوا يقصدون بآل البيت إلاّ أنفسهم دون العلويين، تمويهاً على الرأي العام.

المنصور

ولم تطل أيام السفاح حتى مضى لسبيله، وقد عهد بالأمر لأخيه المنصور[٤٨] وهو ذلك الداهية الذي اعطته التجارب درساً من التيقّظ وجعلته يحذر أشدّ الحذر حتى من أقرب الناس إليه.

فقد قام المنصور والدولة لم ترتكز دعائمها على أُسس قوية، فهي مهددة من نواح شتى: فالعلويون يرون العباسيين دعاتهم وأنصار دعوتهم والأُمة متجهة بأنظارها إليهم، وأنّ الأمر لهم دونهم، وقوّاد الثورة يرون أنّ قيام العباسيين بالأمر كحكومة مؤقتة يستطيعون أن يحولوا الأمر عنهم متى شاؤوا، وبقيّة السيف من الأمويين يخشى على الدولة من انتشارهم في الآفاق.

وكان علماء المدينة يجهرون بالفتوى بأنّ بيعة العباسيين غير صحيحة، فتعددت صور معارضة العباسيين على أنّ أهم ما كان يثير القلق في نفس المنصور هو أمر العلويين، وفي طليعتهم جعفر بن محمد الصادق(عليه السلام) فكان يحذر منه أشدّ الحذر ويحاول زوال تلك العقبات بكلّ حيلة، ولا يقف عند حدّ.

والمنصور عندما يلي الخلافة يرجع بتفكيره إلى الوراء ويتذكّر سالف أيّامه وماضيه المحزن، يوم كان جوّالا، تتقاذفه أمواج الخوف، وتسوقه الحاجة وطلب العيش إلى رواية الحديث، وهو لا ينسى ضرب السياط وظلمة السجن في عهد الدولة الأموية، ولا ينسى استعطاف الناس بمدح آل محمد، وهو أحد رواة حديث الغدير[٤٩] ، كلّ ذلك لا تنمحي صورته عن مخيّلته فهو أمامه ومعه.

أعمال المنصور

والآن وقد أصبح أمير المؤمنين تُجبى له الأموال من الشرق والغرب، وأودع في خزائنه مايكفي للدولة عشر سنين بعد أن كان لا يجد درهماً واحداً وتحوط به آلاف

---

(٤٨) هو عبد الله بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس، وهو أكبر من أخيه السفاح وأمه أم ولد أسمها سلامة. بويع له بالخلافة سنة (١٣٦هـ) وكانت خلافته ٢٢ سنة وتوفي سنة (١٥٨ هـ).

(٤٩) تاريخ بغداد ج١٢ ص٣٤٤ .

من الجنود، بعد أن كان يقطع المسافة البعيدة وحده خائفاً، فهو بحكم الغريزة النفسية يشحّ بما أوتي حتى على نفسه، فكان يرقع ثيابه بيده ويحاسب على الدانق، حتى عرف به، ويكون في حذر من أقلّ واهمة يتخيّل بها زوال ملكه، فحصّنه بالسيف، وجعل بينه وبين الخطر سوراً من أشلاء الأبرياء وبحراً من الدماء التي حرم الله إراقتها.

وقد اتخذ طبيباً نصرانياً يستعين به على قتل من لا يودّ أن يتظاهر في قتله، فكان يدسّ السمّ بالدواء، فهذا الطبيب النصراني ـ كان زنديقاً معطّلاً ـ لا يبالي بمن قتل. أرسل إليه المنصور يأمره بأن يقتل محمد بن أبي العباس، فاتخذ سمّاً قاتلاً ثم انتظر علة تحدث به، فوجد محمد حرارة، فقال له الطبيب: خذ شربة دواء، فقال: هيئها، فهيأها له وجعل فيها ذلك السمّ، ثم سقاه منها. فكتبت أُمّه تخبر المنصور، فأمر بضرب الطبيب ثلاثين سوطاً خفيفة وسجنه ثم أطلقه وأعطاه ثلاثمائة درهم(٥٠).. هذه دية القتيل في شرع المنصور.

وهناك نوع آخر من ألوان العذاب الذي كان يعذّب بها من وقع تحت قبضته، وهو وضع الأحياء في البناء، فهو أطلال الهاشمية وبغداد، لو تمكنت من الإفصاح عن شيء لكان أوّل شيء تفصح عنه هي جثث الأبرياء الذين دخلوا في بطونها بدون جرم، وعند الله تجتمع الخصوم.

لقد سلبت الرحمة من قلبه فلا يعرف لها فيه موضعاً، وكان يقف أمام المشاهد المحزنة موقف رجل لا تؤلمه مناظر البؤس أو تزعجه مواقف الشقاء، وقد جمع بين دمامة الوجه وقبح السيرة.

يمرّ موكبه عندما أراد الحجّ بابنة عبد الله بن الحسن(عليه السلام) ، وكان أبوها تحت أسره وقد حمل مع من حمل من العلويين، فأرادت استعطافه، والرفق بحال أبيها فأنشأت:

ارحم كبيراً سنه متهدّم *** في السجن بين سلاسل وقيود
وارحم صغار بني يزيد إنّهم *** يتموا لفقدك لا لفقد يزيد
إن جدت بالرحم القريبة بيننا *** ما جدّنا من جدكم ببعيد

فكان جواب المنصور: أذكرتنيه. ثم أمر به فأحدر في المطبق وكان آخر العهد به.

---

(٥٠) تاريخ الطبري ج٧ ص٣٠٩ .

هذه صورة من جور المنصور وقساوته لم تعطفه عاطفة الرحم، ولم تدعه الإنسانيّة إلى الرحمة بهذه المسكينة، ولم يراقب القربى وحرمة النسب، وذل موقفها بين يديه، وكيف يؤمل منه العطف على أهل بيت ينظر إليهم نظر خصم، ملأ قلبه عليهم حقداً، ونفخ في أوداجه غضباً.

مع المنصور وبني الحسن

إنّه لا يرى لملكه بقاءً إن بقي منهم أحد في الوجود، وكان الفتك بهم هو شغله الشاغل ولا يتوقف في تنفيذ إرادته مهما كلّفه الأمر، فقام بذلك العمل الإرهابي وفتك بهم فتكاً ذريعاً يوم دخل المدينة محتجّاً بأداء فريضة الحج، وما الحجّ أراد، ولكنه أراد أن يعرف حقيقة الأمر عندما يقوم بمهمة الفتك بآل محمد.

وها هو يدخل المدينة وبنو الحسن في سجن رباح، فأمر بالقبض على من بقي منهم فترى شرطته وقواده يعلوهم الغضب، ويرتكبون الشدّة، يأتون بأبناء علي واحداً بعد واحداً ويودعونهم في السجن بأشدّ ما يتصور من القسوة.

وكان العباس بن الحسن بن الحسن[٥١] واقفاً على باب داره وأمّه تراقبه وقلبها كجناح الطير من الخوف، فقبض عليه الشرطة، فأخذتها الدهشة ولم تستطع شيئاً في الدفاع عنه، إلاّ أنّها طلبت منهم أن تشمّ ولدها وتودعه، فكان الجواب بشدة وغلظة: لا يكون ذلك، وقبض على محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان أخو بني الحسن لأمّهم، فأحضره أمامه وكلّمه بما لا يليق ذكره، وأمر بأن يشقّ إزاره لتبدو عورته، وأمر بضربه بالسياط فضرب حتى سال دمه، وأرجعه لإخوانه فأقعد إلى جنب أخيه عبد الله بن الحسن، وكان قد أخذ العطش منه مأخذاً فاستقى ماءً فلم يجسر أحد أن يسقيه إلا خراساني رقّ عليه فسقاه ماءً.

ثم أصدر المنصور أمره بحملهم من المدينة إلى العراق، بعد أن أثقلوا بالحديد وضربوا بالسياط، وهو مطرب لنغمة السلاسل، وأنين المعذبين، فسار ذلك الموكب في شوارع المدينة محاطاً بالجند، وهو يسرع الخطى من المدينة إلى الكوفة، إلى مقرّهم الأخير، فأودعوا ذلك السجن المظلم، الذي لا يعرف فيه الليل من النهار.

---

(٥١) هو العباس بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن أبي طالب وأمه عائشة بنت طلحة الجود بن عمر بن عبد الله التيمي، وكان العباس أحد فتيان بني هاشم وله يقول إبراهيم بن علي الشاعر:

لما تعرضت للحاجات واعتلجت *** عندي وعاد ضمير القلب وسواسا

جعلت أسعى لحاجاتي ومصدرها *** برّاً كريماً لثوب المجد لبّاسا

توفي في سجن المنصور سنة (١٤٥هـ) لسبع بقين من شهر رمضان وهو ابن خمس وثلاثين سنة.

لقد أودعهم المنصور في بطن الأرض، وفعل بهم ما لا يفعل الحيوان المفترس بفريسته، وعاملهم بأقسى ما يتصور من الشدة، فهم لا يعرفون الليل من النهار، وكان الواحد إذا مات من شدّة العذاب بقيت جثته ما بينهم، وهم صابرون محتسبون، يتلون الكتاب، ويقيمون الصلاة ولا يعرفون أوقاتها إلاّ بأجزاء من القرآن يقرأونها ، وكانت خاتمة مطافهم أن هدم عليهم السجن فماتوا تحت أنقاضه(٥٢).

الإمام الصادق(عليه السلام) **ومشاكل العهدين**

وعلى أيّ حال فقد لقي أبو عبد اللّه في هذين العهدين كثيراً من المشاكل، فهو في العهد الأموي عرضة لأخطار أولئك القوم الذين يكيدون آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)ويتوقعون الفرص للفتك بهم، وهو في عصره عميد البيت النبويّ وسيّد الهاشميين، والمبرز من آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) ، ومن رجال الأمة الذين كانوا يهمّ الدولة أمرهم باتجاه الأنظار إليهم، ولا يستبعد من الأمويين أن يقابلوه بكلّ أذى وشدة، ولكنّ اللّه سبحانه وتعالى عصمه منهم، ورد كيدهم عنه. ولمّا دب الضعف في جسم الدولة كانت فترة مريحة استطاع الإمام أن يركن إلى الراحة والاطمئنان مدة من الزمن فتوافد عليه طلاب العلم من رجال الأمة كما مر ذكره.

أمّا في العهد العباسي فهو قذى في عيونهم; لأنه زعيم أهل بيت ثارت الأمة لأجلهم، وانهارت الدولة الأموية بالدعوة لهم، ورفعت شعارات البيعة لهم.

وقد كان في أيام السفاح برفاهية نظراً للظروف والأوضاع التي سايرها السفاح بمقتضى سياسة الدولة. وفي زمن المنصور كانت المشكلة أشدّ ممّا هي عليه من قبل، فقد كان المنصور يقظاً لا يفوته ما لجعفر بن محمد من المنزلة في المجتمع، ويعظم عليه اتجاه الأنظار إليه، وقد عاشره من قبل وعرف منزلته وعلمه، لذلك كان حذراً منه أشدّ الحذر، والمخاوف تحيط به والأوهام والشكوك تساوره، كما أنّ الوشاة ملأوا سمع المنصور من الأكاذيب على جعفر بن محمد(عليهما السلام) مما جعله يحاول الفتك به، وكانت سياسة جعفر بن محمد وانعزاله ونظره إلى الأمور بعين الواقع برهنت على كذب أولئك الوشاة، وخفّفت من سورة غضب المنصور قليلاً، ولكنها لم ترفع أصل الاتهام، فهو على حذر دائم، لأنّه يعرف مقام الإمام جعفر بن محمد ومنزلته العلمية ومكانته الاجتماعية.

---

(٥٢) تذكرة الخواص ص٢١٩ ـ ٢٢٠.

اتّهامات المنصور للإمام الصادق

ومهما يكن من أمر فقد كثرت الوشاة على أبي عبد اللّه(عليه السلام)فأثارت من المنصور كوامن ضغنه; وحركت عوامل غيظه، فحجّ في سنة (١٤٧ هـ) . ودخل المدينة وأمر الربيع بإحضار الإمام جعفر الصادق، وقال له: ابعث إلى جعفر من يأتينا به تعباً، قتلني اللّه إن لم أقتله، فتغافل عنه الربيع لينساه، ثمّ أعاد ذكره وقال: أرسل إليه من يأتيني به متعباً، فلما حضر الصادق(عليه السلام)أعلم أبا جعفر حضوره، فلما دخل عليه قابله بوحشية وكلام لا مجال لذكره.

وقال: اتخذك أهل العراق إماماً، يجبون إليك زكاة أموالهم، وتلحد في سلطاني وتبغي الغوائل، قتلني اللّه إن لم اقتلك، فقال الصادق(عليه السلام): **يا أمير، إنّ سليمان أعطيَ فشكر، وإنّ أيوب ابتليَ فصبر، وإنّ يوسف ظلم فغفر**. فقال أبو جعفر: إلي وأنت عندي يا أبا عبد اللّه البريء الساحة السليم الناحية، القليل الغائلة، جزاك اللّه من ذي رحم أفضل ما جزى ذوي الأرحام عن أرحامهم، ثم تناول يده فأجلسه معه، ثم قال: عليّ بالمتحفة فأُتي بدهن فيه غالية فخلقه بيده. ثمّ قال: في حفظ اللّه وفي كلاءته. ثم قال: يا ربيع ألحق أبا عبد اللّه جائزة وكسوة.

قال الربيع: فلحقته فقلت له: إنّي قد رأيت قبل ذلك ما لم تره ورأيت بعد ذلك ما قد رأيت، فما قلت يا أبا عبد اللّه حين دخلت؟ قال(عليه السلام)قلت: **اللّهمّ احرسني بعينك التي لاتنام، واكنفني بركنك الذي لا يرام، واغفر لي بقدرتك عليّ، لا أهلك وأنت رجائي، اللهمّ إنّك أكبر وأجلّ ممن أخاف وأحذر، اللهمّ بك أدفع في نحره واستعيذ بك من شره**[٥٣].

وتركّزت في ذهن المنصور فكرة الفتك بجعفر بن محمد، لأنّه يعلم أنّ مئات الآلاف يقولون بإمامته وتجبى له الأموال، وينظر بعين العظمة والاحترام، كما أنّ أكثر الملتفين حول المنصور والمؤازرين له يذهبون إلى القول بإمامته.

وأراد امتحانه مرة ليكون له طريق في المؤاخذة. فدعا ابن مهاجر، وقال: خذ هذا المال وآت المدينة والق عبد اللّه بن الحسن وجعفر بن محمد وأهل بيتهم وقل لهم: إنّي رجل غريب من أهل خراسان من شيعتكم، وقد وجّهوا إليكم بهذا المال، فادفع إلى كلٍّ واحد منهم على هذا الشرط كذا وكذا، فإذا قبض المال فقل: إنّي رسول وأحبّ أن يكون معي خطوطكم بقبض ما قبضتم مني. ومضى، فلما رجع قال له أبو جعفر:

---

(٥٣) صفوة الصفوة لابن الجوزي: ج٢ ص٩٦، الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص٢٠٧، الإرشاد للمفيد ص٢٥.

ماوراءك؟ فقال: أتيت القوم وهذه خطوطهم ما خلا جعفر بن محمد فإنّي أتيته وهو يصلّي في مسجد الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، فجلست خلفه وقلت: ينصرف وأذكر له فعجل وانصرف، فالتفت إليّ فقال: ياهذا، اتق اللّه ولا تغرّن أهل بيت محمد، وقل لصاحبك اتّق اللّه ولا تغرّن أهل بيت محمد، فإنهم قريبو العهد بدولة بني مروان وكلّهم محتاج، فقلت: وما ذاك أصلحك اللّه؟ فقال: أدن مني فدنوت، فأخبرني بجميع ما جرى بيني وبينك حتى كأنّه ثالثنا، فقال له: يا ابن مهاجر إنّه ليس من أهل بيت نبوّة إلاّ وفيهم محدث وإنّ جعفر بن محمد محدّثنا اليوم(٥٤).

وصعبت على المنصور تلك الطرق التي اتخذها جعفر بن محمد في حذره واحتياطه عن أيٍّ مؤاخذة من المنصور له ليستحلّ بها دمه فإنّه لم يبق طريقاً إلاّ سلكه، من إرسال الكتب المزوّرة عن لسان شيعة جعفر بن محمد يدعونه للنهوض وارسال الأموال الكثيرة مع أناس استخدمهم المنصور لهذه الغاية عساه أن ينجح بموافقة جعفر(عليه السلام) في قبض المال أو جواب الكتب، لتكون له وسيلة للقضاء على الإمام، ولكن تلك المحاولات ذهبت بدون جدوى وكان نصيبها الفشل.

وإنّ المنصور ليهمّه أمر جعفر بن محمد أكثر من غيره، وله معه أخبار أهمل كثير من المؤرخين ذكرها، وكانت بينهما صلة أيام بني أمية وعاشره في خلافته أكثر من عشر سنين، ولقي في هذه المدة جهداً وامتحن غير مرة، وكان الخطر محدقاً به، والمنصور لا يجهل مكانته(عليه السلام)، فهو الشخصية التي كان يتطلع إليها الناس يوم طلع فجر النهضة العلميّة، وكان لمدرسته حركة واسعة ونشاط علمي، وازدحم عليه طلاب العلم، واشتهر ذكره، وكان زعيم أهل الحديث في معركة أهل الرأي وأهل الحديث كما يأتي بيانه. فكان المنصور يخشى خطر هذه الشهرة، ويحذّر من حدوث انقلاب مفاجئ من قبل العلويين ينضمّ إليه علماء الأمة الذين اتصلوا بجعفر بن محمد وعرفوا منزلة أهل البيت، مع علمه بمعارضته لبيعة محمد بن عبد اللّه فإنّه اعترض على هذه البيعة معلناً أنّها جاءت سابقة لأوانها، ولكنّ المنصور يخشى أن يترأس الإمام الصادق دعوة العلويين فيشتدّ الخطر على الدولة الجديدة.

ولكن جعفر بن محمد كان بحدسه الصائب ونظره الثاقب يخترق الحجب ويستشف أحداث المستقبل ويخبر بكثير من الكوائن قبل وقوعها.

فكان من رأيه عدم التعرض لطلب الأمر، ونهى قومه عن عقد تلك البيعة، وكان ينصحهم في التجافي عن شؤون الدولة في عصره، وقد عرض عليه الخلافة أبو

---

(٥٤) ابن شهرآشوب ج٢ ص٣٠٢ .

سلمة الخلال وزير آل محمد في بدء الدعوة، قبل وصول الجند إليه فأبى الإمام قبولها، ولم يقنع أبو سلمة بهذا الرد وحاول إقناع الإمام بكلّ صورة، وعندما أقبلت الرايات كتب أبو سلمة إليه: إن سبعين ألف مقاتل وصل إلينا فانظر أمرك[٥٥]، فأجابه بالرد، وأن الأمر للسفاح وللمنصور من بعده.

كما أنه(عليه السلام) لم يستجب لما دعاه إليه أبو مسلم الخراساني قائد الثورة في بلاد فارس وصاحب السلطان في ذلك الدور، فإنّ أبا مسلم كان يدعو الناس إلى الرضا من آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، وأعلن غضبه على بني أمية لأنهم ظلموا أهل البيت، وأراقوا دماءهم، وأراد إسناد الأمر لآل عليّ(عليه السلام) لأنّهم أحقّ بهذه الدعوة من غيرهم، فكتب إلى الإمام الصادق(عليه السلام)وهو زعيم أهل البيت وسيدهم في عصره، وإليه تطلعت الأنظار، واتجهت القلوب، وقال في كتابه للإمام الصادق(عليه السلام):

إنّي قد اظهرت الكلمة، ودعوت الناس عن موالاة بني أمية إلى موالاة أهل البيت، فإن رغبت فلا مزيد عليك.

فأجاب الإمام الصادق(عليه السلام): **ما أنت من رجالي، ولا الزمان زماني**[٥٦].

فهو(عليه السلام) بنظره الصائب ومنهجه السديد، وعلمه بما وراء الحوادث، لا يرى أن يستجيب لدعوة لا تتركز على ما يؤمل فيه تحقيق أهداف الأمة الإسلامية وإصلاح الأوضاع الفاسدة، لعلمه بأنّ هؤلاء الذين اظهروا الولاء لم يكونوا مخلصين في ذلك، وإنّما هناك غايات لا يمكنه أن يوافقهم على تحقيقها فهو ينظر إلى الأمور بمنظار الواقع، ويسير على خطط حكيمة وآراء سديدة في تقدير الظروف ومناسباتها.

وقد أخبر(عليه السلام) من قبل بصيرورة الخلافة لبني العباس دون غيرهم من الهاشميين، ولذلك كان أسدّ الهاشميين رأياً بمعارضته لبيعة النفس الزكية، والواقع أن أئمة أهل البيت كثر تحدّثهم قبل عصر الإمام الصادق عن الدولة الهاشمية وتعدّدت إشاراتهم إلى ملك بني العباس، وأنّهم سيطأون أعناق الرجال، ويملكون الشرق والغرب ويجمعون من الأموال ما لم يجتمع لأحد من قبلهم، وأنّ مدة ملكهم ستطول، وتكون أضعاف مدة الدولة الأموية، وقد أخبروا بهذه الحوادث قبل وقوعها[٥٧].

كما أنّهم كانوا ذوي تجارب سياسية، واختبارات اجتماعية تقيض لخواطرهم نوعاً من الفراسة واستطلاع الحوادث التي لا بدّ لها أن تقع في ميادين الانقلابات الحزبية والثورات المتشابكة في طول الدولة الإسلامية وعرضها.

---

(٥٥) مناقب ابن شهرآشوب ج٢ ص٣١٠ .

(٥٦) الملل والنحل ج١ ص٢٤١ .

(٥٧) مؤرخ العراق ابن الفوطي لفضيلة العلامة الشبيبي.

الإمام الصّـادق(عليه السلام)
شخصيّته وأقوال العلماء فيه

الإمام الصادق(عليه السلام) **شخصيّته وأقوال العلماء فيه**

شخصيّة الإمام الصادق(عليه السلام)

التاريخ هو مرآة تعكس الصور فتحفظها للأجيال بصفحات تضمّ الأحداث، وهو للجميع لا يختصّ بأُمة دون أُخرى، ولا يتقيّد برأي دون رأي، وهو أمين، والأمين يقبح به أن يخون أمانته، ولئن تحتّم عليه أن يحتفظ بالحقائق والأضاليل معاً، فليس ذلك إلاّ إلى أمد الآماد، ثم تنكشف الحقائق لتثبت وحدها سليمة من مجاورة الأضاليل.

والتأريخ يسجّل الحوادث على ماهي عليها بصورها وأشكالها، فلا تغيير ولا تبديل، ولا نقل صورة وترك أُخرى; هذه هي وظيفة التاريخ الصحيح في كلّ دور من الأدوار.

ولكنّ التلاعب السياسي الذي لعب دوراً هاماً في سيطرته على نظام التاريخ وتصرفه في سيره، وسلب حريته في أداء أمانته، جعلنا نعترف بأنه لم يتمكن من أداء واجبه على الوجه الصحيح، وقد أودعت في طياته أشياء هي أعظم عليه من وخز المُدى، وتركت أشياء هي مفخرته عندما يؤديها للأجيال، وإنّ من المؤسف جداً أن يفقد التاريخ حرّيته، وتلتوي به الطرق، وإذا به ينظر في مرآة الغير ولا ينظر الغير في مرآته. بفعل المسيطرين عليه لا بفعله هو.

ولئن كبّل التاريخ بتلك القيود فهو لا يخلو من حقائق يطمئنّ إليها كلّ باحث، وها نحن على ضوء تلك الحقائق ننتزع من أشواك العصبية والأهواء زهرة حياة الإمام الصادق، وإنّ أكثر المؤرخين قد أهملوا أخباره وسيرته ولم يذكروا إلاّ النزر منها، ومن وقف على ما كتبه ابن كثير في تاريخه عن بعض الشخصيّات التي لا قيمة لها في سوق الاعتبار يعرف مدى انحرافه، وأنّه أهمل الواقع وظلم الحقيقة، وتراه عندما يأتي لذكر جعفر بن محمد الصادق في حوادث (١٤٨هـ) يقتصر على قوله: وفيها مات الإمام جعفر الصادق[٥٨]. ولا يروق له ذكر شيء عن حياته، وكثيرون أمثال ابن كثير من قبل ومن بعد.

---

(٥٨) البداية والنهاية ج١٠ ص١١٢ .

وأغرب شيء وقفنا عليه أنّ البحاثة محمد محيي الدين المعروف بالتتبع وضبط الألفاظ في تصحيحه وتعليقه على الكتب أهمل اسم جعفر بن محمد وغيّر اسمه، فيقول عند ذكر وفاته في العنوان: وفاة محمد بن جعفر العلوي[٥٩].

وهب أنّ ذلك غلط مطبعي أو من الناسخ في أصل الكتاب، فإنّ الواجب عليه التنبيه والالفات لهذا الغلط.

وما نرى ذلك إلاّ من نتائج جهود النواصب وأعداء أهل البيت الذين اتّجهوا بنشاط واضح الى الأقلام المعاصرة في مصر العروبة والإسلام للتأثير في واقعيتها، والتحوّل عما اتّصفت به من الدقّة والصدق في مواقف كثيرة.

ومثل شخصيّة جعفر بن محمد تلك الشخصية الإسلامية العظيمة يجب على التاريخ اعطاءها حقّها من البحث، فهو أبرز شخصية في عصره وأعلم الأمة على الإطلاق.

ولا نتجاوز الحقيقة إن قلنا ان الإمام الصادق(عليه السلام) كان أعلم أهل عصره وهو أولى الناس بحفظ أمانة الدين، ولا نبعد عن الواقع، إن قلنا إنّ تلك الخطوات التي سار عليها في عصر ازدهار العلم قد اعطت الأمة درساً، وعلّمتهم كيف يجب أن يكون المصلح الذي يقتدي به عظماء الأمة ورجال الدعوة، وأن يستقلّ العلم بمؤهلاته النفسية ويفرض نفسه على المجتمع بقيمه الروحية، بدون التزام بالقوة. بل الأولى أن يكون مقبولاً من حيث هو، لا من حيث الإرهاب والسلطة أو المغريات الخدّاعة، وأنّ الكثير ممن درسوا حياة الإمام الصادق(عليه السلام) إنّما سلكوا طرق الحذر والتكتم، فتلك دراسة سطحية لا تتجاوز حدود دائرة الحذر أو التعصّب، وقد رسمت صورته في اطار التاريخ بريشة مفن مرتعشة لذلك لم تبرز طبق الأصل، ومع هذا جاءت سليمة من التشويه وفريدة في الإبداع، لم تنل منها أغراض الحكام، ولم تتمكن من منزلته سياستهم، فكان غاية ما في وسع من أشبع بروح العداء أو نذر نفسه لخدمة أغراض الملوك، أو خشي السيف وظلمة السجون أن يغفل ذكر الإمام أو يهمله، فكان عملهم هذا كأنّه إشارة بالغة وصرخة عالية للدلالة على فضل الإمام جعفرالصادق.

---

(٥٩) مروج الذهب ج٣ ص٢١٢ .

ولو تأمّلنا شخصية الإمام لرأيناها موضع الاهتمام الأوّل من قبل السلطة ومصدر همومهم، ولوجدناها محور حركة علوم الدين والفقه، فقد أثر نبوغه وتفرده الذي أثار الحكام في مجموع النشاط العلمي.

وغرضنا في البحث عن حياة الصادق(عليه السلام)بيان منزلته العلميّة بالقياس إلى غيره ممن أخذ الشهرة وما هو منه في شيء، والأسباب غير مجهولة والحقيقة غير صامتة. وهنا يلزمنا ان نتخلّى عن الموضوع ونستمع إلى أقوال علماء الأمة ورؤساء المذاهب، وحفّاظ الحديث، وكبار المؤرخين والكتاب من القدماء وبعض المعاصرين في انطباعاتهم عن شخصية الإمام الصادق(عليه السلام) ، بدون إحاطة للكلّ، بل من يحضرنا ذكره فلنصغ لأقوالهم تمهيداً للبحث.

أقوال العلماء في الإمام الصادق(عليه السلام)

«في كلّ زمان رجل منّا أهل البيت يحتج اللّه به على خلقه، وحجة زماننا ابن أخي جعفر لا يضل من تبعه ولا يهتدي من خالفه»[٦٠].

زيد بن علي(عليه السلام)

«إنّ جعفراً كان ممّن قال اللّه فيه: (**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا**). وكان ممن اصطفاه اللّه وكان من السابقين في الخيرات[٦١] وأنّه ليس من أهل بيت إلاّ وفيهم محدّث وأنّ جعفر بن محمد محدثنا اليوم»[٦٢].

المنصور الدوانيقي

«جعفر بن محمد اختلفتُ إليه زماناً فما كنت أراه إلاّ على إحدى ثلاث خصال، إما مصلّ، وإما صائم وإما يقرأ القرآن[٦٣]، وما رأت عين ولا سمعت أُذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وعبادةً وورعاً»[٦٤].

مالك بن انس

---

(٦٠) مناقب ابن شهرآشوب ج٢ ص١٤٧ .

(٦١) اليعقوبي ج٣ ص١٧٧ .

(٦٢) المناقب ج٢ ص٣٠٢ .

(٦٣) الى هنا عبارة التهذيب، وما بعدها زيادة في كتاب المجالس السنية ج٥، وقد ذكر ابن تيمية في كتاب التوسل والوسيلة ص ٥٢ ط ٢ هذه العبارة في جملة طويلة في ضمنها هذه الجملة، مناقب ابن شهرآشوب ج٤ ص٢٩٧، التهذيب ج٢ ص١٠٤ .

(٦٤) تهذيب التهذيب ج٢ ص١٠٤ .

«كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنّه من سُلالة النبيين»[٦٥].

عمرو بن المقدام

«ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد لما أقدمه المنصور بعث اليّ فقال: يا أبا حنيفة إنّ الناس قد افتتنوا بجعفر بن محمد فهيئ له من المسائل الشداد، فهيّأت له أربعين مسألة، ثم بعث اليّ أبو جعفر وهو بالحيرة فأتيته فدخلت عليه وجعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما أبصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر ابن محمد الصادق مالم يدخلني لأبي جعفر، فسلّمت عليه وأومأ إليّ فجلست، ثم التفت اليه فقال: يا أبا عبد اللّه هذا أبو حنيفة، قال جعفر: نعم. ثم اتبعها قد أتانا. كأنّه كره ما يقول فيه قوم إنّه إذا رأى الرجل عرفه، ثم التفت المنصور إلي، فقال: يا أبا حنيفة ألق على أبي عبد اللّه من مسائلك. فجعلت ألقي عليه فيجيبني، فيقول: أنتم تقولون كذا وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا، فربّما تابعهم وربّما خالفنا جميعاً، حتى أتيت على الأربعين مسألة، ثم قال أبو حنيفة: ألسنا روينا أنّ أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس»[٦٦]. **أبو حنيفة**

«ما هذا ببشر، وإن كان في الدنيا روحاني يتجسّد إذا شاء، ويتروح إذا شاء، فهو هذا. وأشار إلى الصادق»(عليه السلام)[٦٧].

ابن أبي العوجاء

«جعفر بن محمد الصادق هو ذو علم غزير وأدب كامل في الحكمة وزهد في الدنيا وورع تام عن الشهوات، وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين إليه، ويفيض على الموالين له أسرار العلوم، ثم دخل العراق وأقام بها مدة، ما تعرّض للإمامة قط، ولا نازع في الخلافة أحداً، ومن غرق في بحر المعرفة لم يقع في شط، ومن تعلّى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حط»[٦٨].

أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني

«الإمام الصادق كان بين أخوته خليفة أبيه نقل عنه من العلوم ما لم ينقل عن غيره، كان رأساً في الحديث، روى عنه يحيى بن سعيد وابن جريح ومالك ابن أنس وابن عيينة وأبو أيوب السجستاني وغيرهم»[٦٩].

القرماني في تاريخه

«جعفر بن محمد كان من سادات أهل البيت فقهاً وعلماً وفضلاً»[٧٠].

---

(٦٥) تهذيب التهذيب ج٢ ص١٠٤ .

(٦٦) مناقب أبي حنيفة للموفق ج١ ص١٧٣ ، وجامع أسانيد أبي حنيفة ج١ ص٢٢٢، وتذكرة الحفاظ للذهبي ج١ ص١٥٧ .

(٦٧) الكافي ج١ ص٧٥ .

(٦٨) الملل والنحل ج١ ص٢٧٢ ، الطبعة الثانية.

(٦٩) تاريخ القرماني ج١ ص٥٤١ .

ابن حيّان

«جعفر بن محمد ثقة لا يسأل عن مثله»[٧١]

الحافظ أبوحاتم

«جعفر بن محمد هو من علماء أهل البيت وساداتهم، ذو علوم جمّة، وعبادة موفورة، وأوراد متواصلة، وزهادة بيّنة، وتلاوة كثيرة، يتتبع معاني القرآن ويستخرج من بحره جواهره ويستنتج عجائبه، ويقسّم أوقاته على أنواع الطاعات. بحيث يحاسب عليها نفسه، رؤيته تذكّر بالآخرة، واستماع كلامه يزهّد في الدنيا، والاقتداء بهديه يورث الجنة، نور قسماته شاهد أنّه من سلالة النبوّة، وطهارة أفعاله تصدع أنه من ذريّة الرسالة، نقل عنه الحديث واستفاد منه العلم جماعة من أعيان الأمة وأعلامهم، مثل يحيى بن سعيد الأنصاري، وابن جريح، ومالك بن أنس، والثوري، وابن عيينة، وأيوب السجستاني، وغيرهم، وعدّوا أخذهم منه منقبة شرفوا بها وفضيلة اكتسبوها»[٧٢].

كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي

«جعفر بن محمد الإمام الناطق ذو الزمام السابق أبو عبد اللّه جعفر بن محمد الصادق أقبل على العبادة والخضوع، وآثر العزلة والخشوع ونهى عن الرئاسة والجموع»[٧٣].

أبو نعيم

«جعفر بن محمد بن علي بن الحسين كان مشغولاً بالعبادة عن حبّ الرئاسة»[٧٤].

عبد الرحمن بن الجوزي

«جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن أبي طالب وكنيته أبو إسماعيل ويلقب بالصادق والطاهر والفاضل، وأشهر ألقابه الصادق»[٧٥].

أبو المظفر يوسف شمس الدين

«أدركت في هذا المسجد (يعني الكوفة) تسعمائة شيخ، كلّ يقول: حدّثني جعفر بن محمد»[٧٦].

---

(٧٠) تهذيب التهذيب ج٢ ص٨٩ / ١٥٦.
(٧١) تهذيب التهذيب ج٢ ص١٠٤، تذكرة الحفاظ ج١ ص١٦٦ .
(٧٢) مطالب السؤول ج٢ ص٥٥ .
(٧٣) حلية الأولياء ج٣ ص١٩٢ .
(٧٤) صفوة الصفوة ج٢ ص٩٤ .
(٧٥) تذكرة الخواص ص٣٥١.
(٧٦) المجالس للسيد الأمين ج٥ ص٢٠٩ .

الحسن بن علي الوشاء

«جعفر بن محمد، ازدحم على بابه العلماء، واقتبس من مشكاة أنواره الأصفياء، وكان يتكلّم بغوامض الأسرار وعلوم الحقيقة وهو ابن سبع سنين»[٧٧].

عبد الرحمن بن محمد الحنفي البسطامي

«جعفر بن محمد، الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه، ويقال: إنّ أبا حنيفة من تلامذته وكذلك سفيان الثوري، وحسبك بهما في هذا الباب»[٧٨].

أبو بحر الجاحظ

«جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فقيه صدوق»[٧٩].

ابن حجر العسقلاني

«مناقب الصادق فاضلة، وصفاته في الشرف كاملة، جرى على سنن آبائه الكرام وأخذ بهديه وهديهم(عليهم السلام)، ووقف نفسه الشريفة على العبادة وحبسها على الطاعة والزهادة، واشتغل بأوراده وتهجده وصلاته وتعبده لو طاوله الفلك لتزحزح عن مكانه»[٨٠].

الوزير أبو الفتح الاربلي

«أبو عبد اللّه الإمام المعظّم جعفر الصادق، صاحب الخارقات الظاهرة والآيات الباهرة المخبر بالمغيّبات الكائنة، أُمه وأُم أخيه عبد اللّه أُم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر وأُمّها اسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، ولذا كان جعفر بن محمد عليه الرضوان يقول ولدني أبو بكر مرتين ولد سنة (٨٣هـ) وتوفي سنة (١٤٨هـ) ودفن بالبقيع»[٨١].

نقيب حلب

محمد بن حمزة بن زهرة

---

(٧٧) مناهج التوسل ص١٠٦ .
(٧٨) رسائل الجاحظ للسندوبي ص١٠٦.
(٧٩) تقريب التهذيب ص٦٨.
(٨٠) كشف الغمة ج٢ ص٤٢٨ .
(٨١) غاية الاختصار ص٦٢.

«جعفر الصادق، نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان، وروى عنه الأئمة الأكابر، كيحيى بن سعيد وابن جريح ومالك والسفيانين وأبي حنيفة وشعبة وأيوب السجستاني»[٨٢].

أحمد بن حجر الهيثمي

«ولد الصادق بالمدينة يوم الجمعة عند طلوع الفجر سنة (٨٣ هـ) وعاش ٦٥ سنة، وكانت إمامته أربعاً وثلاثين سنة، وقد نقل الناس عنه على اختلاف مذاهبهم وديانـاتهم ما سارت به الركبان، وقد عدّ اسماء الرواة عنه فكانوا أربعة آلاف رجل. توفي في شوال سنة (١٤٨ هـ) ودفن بالبقيع مع أبيه وجدّه، وقيل قتله المنصور الدوانيقي بالسمّ»[٨٣].

محمد سراج الدين الرفاعي

«جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي ابن أبي طالب ـ رضي الله عنهم ـ ، سمّي الصادق لصدقه، وينسب إليه كلام في صفة الكيمياء والزجر والفال ولد سنة (٨٠ هـ) بالمدينة بالبقيع».

عمرو بن الوردي في تاريخه

«جعفر الصادق بن محمد الباقر الإمام السيد أبو عبد الله الهاشمي العلوي الحسيني المدني، وكان يلقب بالصابر والفاضل والطاهر، وأشهر ألقابه الصادق. حدّث عنه أبو حنيفة وابن جريح وشعبة والسفيانان ومالك وغيرهم»[٨٤].

جمال الدين أبو المحاسن

«وجعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب السادس من الأئمة الاثني عشر، والدته أم فروة كريمة القاسم بن محمد بن أبي بكر. ولد الإمام جعفر في المدينة المنورة سنة (٨٢ هـ) وهو أكبر أولاد الإمام محمد الباقر، وتتلمذ على والده فريد زمانه في العلم والفضل، استمر على حلقة تدريس وإفادات جعفر الصادق الإمام الأعظم أبو حنيفة، واستفاد منه أولاً في المعارف الظاهرية والباطنية، وكان للإمام اليد الطولى في الجفر والكيمياء والإلمام بسائر العلوم، وكان ممن تتلمذ على الإمام موجد فن الكيمياء جابر، لم يكن له نضير في الزهد والتقوى، والقناعة وحسن الأخلاق، ولصدق حسبه سمّي بالصادق. كان أبو

---

(٨٢) الصواعق المحرقة ص١٢٠.

(٨٣) صحاح الأخبار ص٤٤ .

(٨٤) النجوم الزاهرة ج٢ ص٨ .

جعفر المنصور ثاني خلفاء العباسيين يدعو إلى تعظيم الإمام وتكريمه ويستنير بآرائه وارشاداته ونصائحه، وعرض أبو مسلم الخراساني الخلافة ابتداء على الإمام جعفر الصادق فلم يقبلها، كان له من الأولاد سبعة أبناء وثلاث بنات، توفي في سنة (١٤٨ هـ)

عن عمر ناهز ٦٥ سنة في المدينة المنورة ودفن بجوار جدّه ووالده، عرف صاحب الترجمة بإمام المذهب الشيعي والمنتمون إليه سموا بالجعفرية»[٨٥].

«جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن أبي طالب الهاشمي المدني المعروف بالصادق، أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر... متفق على إمامته وجلالته»[٨٦].

على القاري

«جعفر بن محمد الصادق وهو ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي رضي اللّه عنهم، ويكنّى أبو عبد اللّه وأمّه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وأمّ أم فروة أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، وكان من سادات أهل البيت، سمع أباه ومحمد بن المنكدر وعطاء ابن أبي رباح، روى عنه عبد الوهاب الثقفي، وحاتم بن إسماعيل، ووهيب بن خالد، وحسن بن عياش، وسليمان بن بلال، والثوري والداروردي ويحيى بن سعيد الأنصاري، وحفص بن غياث ومالك بن أنس، وابن جريح، ولد سنة ثمانين ومات سنة ثمان وأربعين ومائة، وهو ابن أربع وستين سنة»[٨٧].

محمد بن طاهر بن علي المقدسي

«جعفر الصادق أبو عبد اللّه جعفر بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين السبط الهاشمي القرشي، سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية: كان من أجلّ التابعين، وله منزلة رفيعة في العلم أخذ عنه جماعة منهم: أبو حنيفة، ومالك وجابر بن حيان، ولقّب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط، له أخبار مع الخلفاء من بني العباس، وكان جريئاً عليهم صدّاعاً في الحقّ، وصنف تلميذه جابر بن حيان كتاباً في

---

(٨٥) قاموس الأعلام تأليف ش سامي ج٣ ص١٨٢١ استنابول، وقد ترجمت الكلمة عن اللغة التركية.

(٨٦) شرح الشفا لعلي القاري ج٢ ص٣٥ .

(٨٧) الجمع بين رجال الصحيحين ج١ ص٧٠ .

ألف ورقة يتضمّن رسائل الإمام جعفر الصادق وهي خمسمائة رسالة، مولده ووفاته بالمدينة»[٨٨].

خير الدين الزركلي

«لولا السنتان لهلك نعمان»[٨٩].

أبو حنيفة

يقول الآلوسي: «هذا أبو حنيفة وهو من أهل السُنّة يفتخر ويقول بأفصح لسان: لولا السنتان لهلك نعمان، يعني السنتين اللّتين جلس فيهما لأخذ العلم عن الإمام جعفر الصادق»[٩٠].

«جعفر الصادق فاق جميع اقرانه من أهل البيت وهو ذو علم غزير، وزهد بالغ في الدنيا، وورع تام عن الشهوات، وأدب كامل في الحكمة»[٩١].

الشيخ عبد الرحمن السلمي

«جعفر الصادق كان من بين اخوته خليفة أبيه ووصيّه، نقل عنه في العلوم مالم ينقل عن غيره، وكان إماماً في الحديث ومناقبه كثيرة».

السويدي في سبائك الذهب[٩٢]

«جعفر الصادق له عمود الشرف، ومناقبه متواترة بين الأنام، مشهورة بين الخاص والعام، وقصده المنصور الدوانيقي بالقتل مراراً فعصمه اللّه»[٩٣].

جمال الدين الداوردي

«ولا مشاحة أنّ انتشار العلم في ذلك الحين قد ساعد على فكّ الفكر من عقاله، فأصبحت المناقشات الفلسفية عامة في كلّ حاضرة من حواضر العالم الإسلامي، ولا يفوتنا أن نشير إلى أنّ الذي تزعم تلك الحركة: هو حفيد علي ابن أبي طالب المسمى بالإمام الصادق، وهو رجل رحب افق التفكير، بعيد اغوار العقل، ملمّ كلّ الالمام بعلوم عصره، ويعتبر في الواقع أ نّه أول من أسس المدارس الفلسفية المشهورة في

---

(٨٨) الجمع بين رجال الصحيحين ج١ ص٧٠ ، الأعلام ج١ ص١٨٦ .
(٨٩) التحفة الاثنى عشرية ص٨ .
(٩٠) التحفة الاثنى عشرية ص٨ .
(٩١) ينابيع المودة ج٣ ص٤٣٩ ـ ٤٤٠.
(٩٢) سبائك الذهب ص٧٤.
(٩٣) عمدة الطالب ص١٨٤.

الإسلام، ولم يكن يحضر حلقته العلمية أولئك الذين أصبحوا مؤسسي المذاهب الفقهية فحسب، بل كان يحضرها طلاب الفسلفة والمتفلسفون من الأنحاء القاصية»[٩٤].

السيد مير علي الهندي

«جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي ابن أبي طالب رضي اللّه عنهم أجمعين، وكنيته أبو عبد اللّه وقيل أبو إسماعيل، وألقابه الصادق والفاضل والطاهر واشهرها الأول، نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته في جميع البلدان، وروى عن الأئمة الكبار كيحيى ومالك وأبي حنيفة»[٩٥].

محمود بن وهيب البغدادي

«الإمام أبو عبد اللّه جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنهم، الهاشميّ المدني الصادق، أمّه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي اللّه عنهم، روى عن أبيه والقاسم بن محمد ونافع وعطاء ومحمد بن المنكدر والزهري وغيرهم، وروى عنه محمد بن إسحاق ويحيى الأنصاري ومالك والسفيانان وابن جريح وشعبة ويحيى القطان وآخرون ـ واتفقوا على إمامته وجلالته، قال عمر بن أبي المقدام: كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أ نّه من سلالة النبيين»[٩٦].

أبو زكريا محيي الدين بن شرف

«جعفر الصادق أبو عبد اللّه بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، روى عنه كثيرون كمالك والسفيانان وابن جريح وابن إسحاق، واتفقوا على إمامته وجلالته وسيادته، ولد سنة (٨٠هـ) وتوفي سنة (١٤٨ هـ) قيل مسموماً. وثّقه في روايته الشافعي وابن معين وأبو حاتم والذهبي وهو من فضلاء أهل البيت وعلمائهم»[٩٧].

احمد شهاب الدين الخفاجي

---

(٩٤) تاريخ العرب ص١٧٩.
(٩٥) جواهر الكلام ص١٣.
(٩٦) تهذيب الاسماء ج١ ص١٥٥ .
(٩٧) انظر الإمام الصادق(عليه السلام)للمظفر ص٧١ ـ ٨٠ .

«كان جعفر بن الصادق مستجاب الدعوة، إذا سأل اللّه شيئاً لا يتمّ قوله إلاّ وهو بين يديه»[٩٨].

الشبلنجي في نور الأبصار

«جعفر بن محمد سيد بن هاشم أبو عبد اللّه العلوي»[٩٩]

الذهبي

«جعفر بن محمد أبو عبد اللّه فقيه صدوق»[١٠٠]

الزرقاني

«أبو عبد اللّه جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنهم أجمعين أحد الأئمة الاثني عشر على مذهب الإمامية، وكان من سادات آل البيت، ولقّب بالصادق لصدقه وفضله أشهر من أن يذكر»[١٠١].

ابن خلكان في وفياته

«سلالة النبوّة ومعدن الفتوة أبو عبد اللّه جعفر الصادق بن أبي جعفر محمد الباقر بن زين العابدين علي بن الحسين الهاشمي العلوي، وأُمّه أُم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، فهو علويّ الأب بكري الأم، ولد سنة ثمانين في المدينة وفيها توفي ودفن بالبقيع في قبر فيه أبوه محمد الباقر، وجدّه زين العابدين، وعمّ جدّه الحسن بن علي رضوان الله عليهم أجمعين، وأكرم بذلك وما جمع من الأشراف الكرام، اولي المناقب، وإنّما لقّب بالصادق لصدقه في مقالته، وله كلام نفيس في علوم التوحيد وغيرها، وقد ألّف تلميذه جابر بن حيان الصوفي كتاباً يشمل على ألف ورقة يتضمّن رسائله وهي خمسمائة رسالة»[١٠٢].

اليافعي

«وقال الشيخ المناوي[١٠٣] عند ذكر الإمام جعفر الصادق: وكانت له كرامات كثيرة ومكاشفات شهيرة:

منها: «أنّه سُعي به عند المنصور، فلمّا حجّ أحضر الساعي وقال للساعي: أتحلف؟ قال نعم، فحلف، فقال جعفر للمنصور: حلّفه بما أراه فقال: حلفه. فقال: قل برئت من حول اللّه وقوته والتجأت إلى حولي وقوتي، لقد فعل جعفر كذا وكذا فامتنع الرجل، ثم حلف فما تمّ حتى مات مكانه.

---

(٩٨) نور الأبصار ص١٦١.
(٩٩) سير أعلام النبلاء ج٦ ص٤٣٨ / ٩٤٨ .
(١٠٠) شرح المواهب ج١ ص٥١ .
(١٠١) وفيات الأعيان ج١ ص٣٢٧ /١٣١.
(١٠٢) مرآة الجنان ج١ ص٣٠٤ .
(١٠٣) الكواكب الدرية ج١ ص٩٤ .

ومنها أنّ بعض الطغاة قتل مولاه فلم يزل ليلته يصلّي ثم دعا عليه عند السحر، فسمعت الضجة بموته.

ومنها لما بلغه قول الحكم بن العباس الكلبي في عمّه زيد:

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة *** ولم نر مهدياً على الجذع يصلب

قال: اللّهم سلّط عليه كلباً من كلابك. فافترسه الأسد.

ومنها ما أخرجه الطبري من طريق ابن وهب قال: سمعت الليث بن سعد يقول: حججت سنة ثلاث عشرة ومائة فلما صليت العصر رقيت أباقبيس، فإذا رجل جالس يدعو فقال: يا ربّ، حتى انقطع نفسه، ثم قال: يا حيّ يا حيّ حتى انقطع نفسه، ثم قال: إلهي إنّي أشتهي العنب فأطعمنيه، وإنّ بردي قد خلق فاكسني، قال الليث: فما تمّ كلامه حتى نظرت إلى سلة مملوءة عنباً إلى آخر ما ذكره»[١٠٤].

المناوي

«السادس من الأئمة جعفر الصادق ذو المناقب الكثيرة والفضائل الشهيرة، روى عنه الحديث كثيرون مثل مالك بن أنس وأبي حنيفة ويحيى بن سعيد، وابن جريح والثوري، ولد رضي اللّه عنه بالمدينة المنوّرة سنة ثمانين من الهجرة، وغرر فضائله على جبهات الأيام كاملة، وأندية المجد والعزّ بمفاخره ومآثره آهلة، وتوفي رضي اللّه عنه سنة (١٤٨)»[١٠٥].

عبد اللّه الشبراوي

«جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي أبو عبد اللّه الصادق المدني أحد الأعلام، حدّث عن أبيه وجدّه وأبي أمّه القاسم بن محمد وعروة، وعنه خلق لا يحصون فمنهم إبنا موسى وشعبة والسفيانان، قال الشافعي: وابن معين وأبو حاتم، ثقة مات سنة (١٤٨ هـ) عن ٦٧»[١٠٦].

الجزري

«أبو عبد اللّه جعفر الصادق: كان من سادات أهل البيت، ولقب بالصادق لصدقه في مقالته، ولد سنة ثمانين، وروى عنه مالك بن أنس وأبو حنيفة وكثيرون من علماء المدينة»[١٠٧].

محمد الخضري

«وأكبر شخصيات ذلك العصر في التشريع الشيعي، بل ربما كان أكبر الشخصيات في ذلك في العصور المختلفة الإمام جعفر الصادق، وعلى الجملة، فقد

---

(١٠٤) الكواكب الدرية ج١ ص٩٤ .

(١٠٥) أتحاف الأشراف ص٥٤.

(١٠٦) الخلاصة ص٧٦.

(١٠٧) التشريع الإسلامي ص٢٦٣.

كان الإمام جعفر من أعظم الشخصيّات في عصره وبعد عصره، وقد مات في العام العاشر من حكم المنصور»[١٠٨].

الدكتور أحمد أمين

«جعفر بن محمد كان إماماً مفخرة من مفاخر المسلمين لم تذهب قط، وإنّما بقي منها في كلّ غد قادم حتى القيامة صوت صارخ، يعلّم الزهاد زهداً; ويكسب العلماء علماً، يهدي المضطرب ويشجّع المقتحم، يهدم الظلم ويبني للعدالة، وهو ينادي بالمسلمين جميعاً أن هلموا واجتمعوا، وأنّ قوماً لم يختلفوا في ربّهم وفي نبيّهم لمجموعون مهما اختلفوا في يوم قريب»[١٠٩].

عبد العزيز سيد الأهل

«كان بيت جعفر الصادق كالجامعة يزدان على الدوام بالعلماء الكبار في الحديث والتفسير والحكمة والكلام، فكان يحضر مجلس درسه في أغلب الأوقات ألفان وبعض الأحيان أربعة آلاف من العلماء المشهورين، وقد ألّف تلاميذه من جميع الأحاديث والدروس التي كانوا يتلقونها في مجلسه مجموعة من الكتب تعدّ بمثابة دائرة معارف للمذهب الشيعي أو الجعفري»[١١٠].

السيد محمد صادق نشأة الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة

«أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين هو أحد الأئمة الإثني عشر على مذهب الإمامية، كان من سادات أهل البيت النبوي لقب بالصادق لصدقه في كلامه»[١١١].

فريد وجدي

«جعفر الصادق وهو ابن محمد الباقر بن علي زين العابدين كان من سادات أهل البيت ولقب بالصادق لصدقه، وفضله عظيم، له مقالات في صناعات الكيمياء والزجر والفال، وكان تلميذه جابر بن حيان قد ألف كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل الصادق وهي خمسمائة رسالة، إليه ينسب كتاب الجفر وسيذكر، وكان جعفر أديباً تقيّاً ديناً حكيماً في سيرته»[١١٢].

---

(١٠٨) ضحى الإسلام ج٣ ص٢٦٢ .
(١٠٩) كتاب جعفر بن محمد ص٦.
(١١٠) الحلقات الذهبية ج١٨ ص٢٢ ـ ٢٣.
(١١١) دائرة معارف القرن العشرين ج٣ ص١٠٩ .
(١١٢) دائرة المعارف ج٦ ص٤٦٨ .

بطرس البستاني

«عندما يتفرغ الباحث لدراسة شخصيّة الإمام جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب دراسة صحيحة على ضوء الضمير النقيّ، والواقع العقلي، والتجرّد العلمي، متبعاً الأصول الحديثة، مبتعداً عن العاطفة، ومرض التعصب، وأثر الجنسية، فلا يستطيع إلاّ الإقرار بأنّها مجموعة فلسفية قائمة بذاتها، تزخر بالحيوية النابضة، والروحية المتجسدة، والعقلية المبدعة التي استنبطت العلوم، وأبدعت الأفكار، وابتكرت السنن، وأوجدت النظم والأحكام»[١١٣].

معهد البحوث الشرقية

عارف ثامر، والأب أ . عبده خليفة اليسوعي

«وبهذا نكتفي عن ذكر أقوال بقيّة العلماء الآخرين، وسيأتي محل آخر ننشر فيه آراء علماء العصر من المسلمين وغيرهم. ويلزمنا التنبيه على شيء مرّ ذكره في بعض هذه الأقوال وهو نسبة الزجر والفال إلى الإمام الصادق(عليه السلام)، وهذا من الخطأ والاشتباه، وإنّما كان الإمام يستشف ما وراء الحجب باستقراء الحوادث السياسية، وينظر المستقبل بحكمته وصفاء باطنه، يخبر بالحوادث قبل وقوعها، وقد أخبر بأن الخلافة للسفاح ومن بعده للمنصور، وتبقى في أولاده من بعده، وأخبر بمقتل محمد وإبراهيم على يد المنصور، وكان معارضاً لبيعة محمد في المؤتمر الذي عقده الهاشميون من عباسيين وعلويين لبيعة محمد بن عبد اللّه. وقال لعبد اللّه بن الحسن: لا تفعلوا، فإنّ الأمر لم يأت بعد، فقال عبد اللّه: لقد علمت خلاف ما تقول، قال الصادق: لا ، ولكن هذا وأبناؤه دونك، وضرب بيده على أبي العباس. ثم نهض فأتبعه عبد الصمد بن علي وأبو جعفر المنصور، فقالا له: أتقول ذلك؟ قال: نعم أقوله واللّه وأعلمه.

وليس في وسعنا بسط القول في علمه(عليه السلام) وانكشاف حقائق الأشياء له، فقد أخبر بكثير من الحوادث قبل وقوعها، وقد صدر عن الصادق كثير من ذلك مما لا يتّسع المجال لذكره.

---

(١١٣) مقدمة كتاب الهفت والأظلة ص١٥ ـ ١٦.

وأما نسبة الزجر والفال إليه فهو خطأ نشأ من اشتباه في الإسم وتقارب في الزمن، وذلك أنّ جعفر بن محمد البلخي المعروف بأبي معشر الفلكي كان مشهوراً بالزجر والفال، وأستاذ عصره في التنجيم، ونقل الناس أخباره وشاع ذكره.

قال ابن كثير: والظاهر أنّ الذي نسب إلى جعفر بن محمد الصادق من علم الزجر والطرف، واختلاج الأعضاء إنّما هو منسوب إلى جعفر بن أبي معشر هذا وليس بالصادق، وإنما يغلطون[١١٤].

هذا ما يتعلق بالانطباعات عن شخصيته(عليه السلام)وسيأتي في الجزء الرابع إن شاء الله ما له صلة بالموضوع .

(١١٤) البداية والنهاية ج١١ ص٥١ .

الإمام الصَّـادق(عليه السلام)
مدرستهُ وتلامِذتهُ ورواة حَديثه

الإمام الصادق(عليه السلام) **مدرسته وتلامذته ورواة حديثه**

مدرسة الإمام الصادق(عليه السلام)

لم يكن من المبالغة وصف مدرسة الإمام الصادق بأنّها جامعة إسلامية، خلّفت ثروة علمية وخرّجت عدداً وافراً من رجال العلم، وأنجبت خيرة المفكرين وصفوة الفلاسفة وجهابذة العلماء، وقد عدّت أسماء تلامذته والمتخرّجون من مدرسته فكانوا أربعة آلاف رجل، وقد صنّف الحافظ أبوالعباس بن عقدة كتاباً جمع فيه رجال الصادق ورواة حديثه وأنهاهم إلى أربعة آلاف .

روى الشيخ الصدوق أنّ سليمان بن داود المنقري، قال: كان حفص بن غياث[١١٥] إذا حدّثنا عن جعفر بن محمد قال: حدثني خير الجعافر جعفر بن محمد(عليهما السلام) .

قال الشيخ المفيد في الإرشاد: «إنّ أصحاب الحديث قد جمعوا الرواة عن الصادق من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات فكانوا أربعة آلاف»[١١٦].

وقال الشيخ محمد بن علي الفتّال في روضة الواعظين: «وقد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات فكانوا أربعة آلاف»[١١٧].

وقال السيد علي بن عبد الحميد النيلي في كتاب الأنوار: «وممّا اشتهر بين العامة والخاصة أنّ أصحاب الحديث جمعوا اسماء الرواة عنه فكانوا أربعة آلاف»[١١٨].

وقال الشيخ الطبرسي في إعلام الورى: «ولم ينقل عن أحد من سائر العلوم ما نقل عنه، فإنّ أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنه من الثقات فكانوا أربعة آلاف رجل، وقال في القسم الثالث: «وروى عن الصادق من أهل العلم أربعة آلاف إنسان»[١١٩].

---

(١١٥) القاضي أبو عمر حفص بن غياث النخعي من الثقات، روى عن الإمام الصادق، وروى عنه إسحاق وأحمد وخلقٌ، وثّقه ابن معين والعجلي، وكان متشدداً في الرواية، وصفه ابن عمار بأنه كان عَسِراً في الحديث جداً، توفي سنة (١٩٤ هـ) خرّج حديثه أصحاب الصحاح، أُنظر ميزان الاعتدال للذهبي ج١ ص٥٦٧ ـ ٥٦٨ .

(١١٦) الإرشاد ج٢ ص١٧٩ .

(١١٧) روضة الواعظين: ٢٠٧ .

(١١٨) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ج٢ ص٤٣، نقلاً عن إعلام الورى ص ٢٠٠.

(١١٩) إعلام الورى ص٢٨٤ .

وقال ابن شهرآشوب في المناقب: «نقل عن الصادق من العلوم مالا ينقل عن أحد، وقد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة من الثقات على اختلافهم في الآراء فكانوا أربعة آلاف»[١٢٠].

وقال المحقق في المعتبر في جملة كلامه عن الصادق(عليه السلام): «فإنّه انتشر عنه من العلوم الجمّة ما بهر به العقول، وروى عنه جماعة من الرجال ما يقارب أربعة آلاف رجل»[١٢١].

وقال الشهيد في الذكرى: إنّ أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق كتب من أجوبة مسائله أربعمائة مصنّف لأربعمائة مصنِّف، ودوّن من رجاله المعروفين أربعة آلاف رجل من أهل العراق والشام والحجاز»[١٢٢].

وقال الشيخ حسين والد العلامة البهبهاني في ذكر الصادق(عليه السلام): «ودون العامة والخاصة ممن تبرز بعلمه من العلماء والفقهاء أربعة آلاف»[١٢٣].

وعلى أيّ حال فإنّ مدرسة الإمام الصادق(عليه السلام)، كانت مصدراً للعلم وينبوعاً يفيض على الأمة بالعلوم والمعارف الإسلامية، وأغدقت على العالم الإسلامي بخدماتها الجليلة، في بثّ تلك التعاليم القيّمة في عصر ازدهر فيه العلم، وأقبل المسلمون على انتهاله.

ولو تسنّى لمدرسة الإمام الصادق(عليه السلام)الظهور التام لأدّت رسالتها على أحسن ما يتطلبه واقع المسلمين وما هم فيه من الحاجة إلى نشر التعاليم القيّمة في بثّ روح الأخوّة الإسلامية، والعدالة الاجتماعية، ومحو المعتقدات الفاسدة والآراء الشاذة.

ولكن بمزيد الأسف أنّ السلطة الحاكمة قد اتخذت جميع التدابير لمحاربة تلك المدرسة، لأنّ شهرة الإمام الصادق(عليه السلام)في العالم الإسلامي كانت تقضّ مضاجعهم، وتبعث في قلوبهم الوجل من نشاطه العلميّ إلى جانب ما لأهل بيته من النشاط السياسي، ولهذا فقد كانوا يضعون الخطط التي يأملون فيه الوصول إلى غلق أبواب تلك المدرسة والقضاء على الإمام الصادق(عليه السلام) بكلّ وسيلة، لأنّ الأنظار أصبحت متجهة إليه، وكانت وفود رجال الأمة وطلاب العلم تتسابق إلى الحضور

---

(١٢٠) مناقب ابن شهرآشوب ج٤ ص٢٤٧ .
(١٢١) المعتبر ج١ ص٢٦ .
(١٢٢) الذكرى ج١ ص٥٨ ـ ٥٩ .
(١٢٣) أنظر تاريخ الشيعة ص٤٤ .

عنده، والاستماع منه حتى كان ذكره حديث الركبان، وكانت أندية العلم في العواصم الإسلامية تلهج بذكره، وينتهي الاحتجاج في الاستشهاد بقوله.

والحقيقة أنّ مدرسة الإمام جعفر الصادق الفكرية قد أنجبت خيرة المفكرين، وصفوة الفلاسفة وجهابذة العلماء، وإذا كانت هناك حقيقة يجب أن تقال فهي: أنّ الحضارة الإسلامية والفكر العربي مدينان لهذه المدرسة الفكرية بالتطور والرقيّ والخلود، ولعميدها الصادق بالمجد العلمي والتراث الثمين.

كما أنّها وجّهت الأمة إلى قواعد الاستنباط ونقد الحديث، وبعثت على النشاط في مجال التأليف وتبويب الأحكام، فكانت ملتقى العلماء، ومجمعاً لطلابه رغم تلك المحاولات التي تبذل في طريق شهرتها والوقوف أمام انتشار ذكرها.

وأودّ بأن أسارع هنا فأشير إلى ما يأتي فيما بعد: بأنّ مدرسة الإمام الصادق(عليه السلام): كان طابعها التي طبعت عليه ومنهجها الذي اختصت به، هو استقلالها الروحي، وعدم خضوعها لنظام السلطة، ولم تفسح المجال لولاة الأمر بأن يتدخلوا في شؤونها، أو تكون لهم يد في توجيهها وتطبيق نظامها، لذلك لم يتسن لذوي السلطة استخدامها في مصالحهم الخاصة، أو تتعاون معهم في شؤون الدولة، ومن المستحيل ذلك ـ وإن بذلوا جهدهم في تحقيقه ـ فهي لا تزال منذ نشأتها الأولى تحارب الظالمين، ولا تركن إليهم، كما لا ترتبط وإيّاهم بروابط الالفة، ولم يحصل بينها وبينهم انسجام، وبهذا النهج الذي سارت عليه، والطابع الذي اختصت به أصبحت عرضة للخطر، فكان النزاع بينها وبين الدولة يشتدّ والعداء يتضخّم، الأمر الذي جعل المدرسة عرضة للخطر.

ورغم ذلك كلّه فقد صمدت لتلك الهجمات التي توجهها الدولة لتمحوها من صفحة الوجود، وقد عانت من بطش الجبارين وعسف الظالمين مالا يحيط به البيان.

وعلى كل حالّ فإنّ مدرسة الإمام الصادق(عليه السلام) كانت بعيدة عن التأثر بآراء الحكام الذين يفرضون إرادتهم على العلم والعلماء، ويحاولون أن تكون لهم السلطة الدينية إلى جانب السلطة التنفيذية.

وقد بذل المنصور كلّ ما في وسعه لجلب رضا الإمام الصادق(عليه السلام)والفوز بمسايرته له، ولكنّه لم يفلح، فقد أعلن(عليه السلام)مقاطعته، وأوعز إلى أصحابه ذلك، فسارت مدرسته على ذلك الاستقلال الروحي، ونالت تلك الشهرة العظيمة، وخلفت ذلك التراث الثمين والمجد العلمي، وإنّ الحضارة الإسلامية مدينة لها بالتطور والخلود. وسيأتي في الإجزاء القادمة مزيد بيان لذلك.

تلامذة الإمام الصادق ورواة حديثه

أما تلامذته فقد أجمع العلماء على أنّهم كانوا أربعة آلاف، وهم من مختلف الأقطار الإسلامية على اختلاف آرائهم ومعتقداتهم، وقيل: إن الثقات منهم كانوا بهذا العدد، ولا بدّ لنا من الإشارة هنا إلى البعض منهم مقتصرين على ذكر أسمائهم بدون تفصيل لأنّا سنشير إلى جملة منهم في الجزء الثاني، كما أننا لم نذكر منهم إلاّ من اشتهر بالعلم وخرّج حديثه أصحاب الصحاح كالبخاري، ومسلم، والترمذي، وأصحاب السنن، وأنّ منهم من أصبحوا رؤساء طوائف، وأئمة مذاهب: كأبي حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة (١٥٠هـ) صاحب المذهب المنسوب إليه، وقد اشتهر قوله: ما رأيت أعلم من جعفر بن محمد.. وقوله: لولا السنتان لهلك النعمان[١٢٤] وكانت له مع الإمام الصادق(عليه السلام) اتصالات متفرّقة بالمدينة والكوفة، وقد لازمه مدة سنتين متواصلتين بالمدينة. فجعل هاتين السنتين نجاة له من الهلكة.

مالك بن أنس المتوفى سنة (١٧٩هـ) رئيس المذهب المنسوب إليه، وكانت له صلة تامّة بالإمام الصادق(عليه السلام)، وروى الحديث عنه واشتهر قوله: ما رأت عين أفضل من جعفر بن محمد[١٢٥].

سفيان الثوري المتوفى سنة (١٦١هـ) وهو من رؤساء المذاهب وحملة الحديث وأعلام الأئمّة، وقد بقي مذهبه معمولاً به إلى ما بعد القرن الرابع، وكان لسفيان الثوري اختصاص بالإمام الصادق وقد روى عنه الحديث كما روى كثيراً من آدابه(عليه السلام)وأخلاقه ومواعظه[١٢٦].

سفيان بن عيينة المتوفى سنة (١٩٨هـ) والمدفون بالحجون وهو من رؤساء المذاهب البائدة[١٢٧]، وغير هؤلاء من حملة الحديث وأعلام الأمة، ولا يتسع المجال لذكرهم الآن، ونكتفي بذكر البعض منهم في عرض موجز وهم:

شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي المتوفى سنة (١٦٠هـ) خرّج له أصحاب الصحاح والسنن وروى عنه خلق كثير. قال الشافعي: لولا شعبة لما عرف الحديث بالعراق. وقال أحمد: شعبة أمة وحده[١٢٨].

---

(١٢٤) التحفة الاثنى عشرية ص٨ .

(١٢٥) مناقب ابن شهرآشوب ج٤ ص٢٦٩ .

(١٢٦) تهذيب الكمال ج١١ ص١٥٤ ـ ٢٤٠٧.

(١٢٧) تهذيب الكمال ج١١ ص١٧٧ / ٢٤١٣.

(١٢٨) تهذيب الكمال ج١٢ ص٤٧٩ / ٢٧٣٩.

وفضيل بن عياض بن سعد بن بشر التميمي اليربوعي المتوفى سنة (١٨٧هـ)، قال الجزري: «هو أحد أئمة الهدى والسنة، روى عنه الأعمش وسليمان التيمي وابن المبارك وابن القطان وأحمد بن المقدام وخلق كثير، وثّقه النسائي وغيره، وخرج له البخاري والترمذي ومسلم والنسائي»[١٢٩].

وحاتم بن إسماعيل المتوفى سنة (١٨٠هـ) كوفيّ الأصل خرّج له البخاري ومسلم والترمذي والجماعة، وكان ثقة في الحديث، أخذ عن الصادق(عليه السلام)وأخذ عنه خلق كثير منهم إسحاق وابن معين[١٣٠].

وحفص بن غياث بن طلق بن معاوية بن مالك أبو عمرو الكوفيّ المتوفى سنة (١٩٤هـ) روى عن الصادق(عليه السلام) وروى عنه أحمد، وإسحاق، وأبو نعيم، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني وعفان بن مسلم، وعامة الكوفيين، ولي قضاء بغداد، ثم عزل وولي قضاء الكوفة، وكان كثير الحديث حافظاً له ثبتاً فيه مقدّماً عند المشايخ كتبوا عنه من حفظة ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف حديث، خرّج له الجماعة أجمع[١٣١].

وزهير بن محمد التميمي أبو المنذر الخراساني المتوفى سنة (١٦٢ هـ) أخذ عن الإمام الصادق، وعنه أبو داود الطيالسي، وروح بن عبادة، وأبو عامر العقدي، وعبد الرحمن بن مهدي، والوليد بن مسلم، ويحيى بن بكير، وأبو عاصم وغيرهم، وثّقه أحمد ويحيى وعثمان الدارمي وهو من رجال الصحاح[١٣٢].

يحيى بن سعيد بن فروخ القطان الحافظ البصري المتوفى سنة (١٩٨هـ). روى له رجال الصحاح وحدّث عنه ابن مهدي، وعفّان ومسدّد وأحمد وإسحاق وابن معين[١٣٣].

إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري المتوفى ببغداد سنة (١٨٠هـ) روى عنه محمد بن جهضم، ويحيى بن يحيى النيسابوري، وأبو الربيع الزهراني، وأبو معمّر الهذلي وغيرهم، قال ابن سعد: ثقة وهو من أهل المدينة قدم بغداد ولم يزل بها حتى مات، خرّج له البخاري ومسلم والجماعة[١٣٤].

---

(١٢٩) سِير أعلام النبلاء ج٨ ص٤٢١ / ١١٤.

(١٣٠) خلاصة الكمال ص٥٦.

(١٣١) تاريخ بغداد ج ٨ ص١٨٨ والخلاصة ص٧٤ .

(١٣٢) تهذيب التهذيب ج١ ص٢٨٢ ـ ٧٦٠.

(١٣٣) تهذيب التهذيب ج٣ ص٣٠١ ـ ٦٤٥.

(١٣٤) تاريخ بغداد ج٨ ص٨٨، والخلاصة ص٧٤، تهذيب التهذيب ج١ ص٢٨٧ /٥٣٣.

إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى الأسلمي أبو إسحاق المدني المتوفى سنة (١٩١هـ) روى عن الصادق(عليه السلام)، وله كتاب مبوّب في الحلال والحرام، وذكره الشيخ الطوسي في الفهرست، وروى عنه إبراهيم بن طهمان والثوري وهو أكبر منه وكني عن اسمه، وابن جريح والشافعي وسعيد بن أبي مريم وأبو نعيم وآخرون، ويعدّ من مشايخ الشافعي، وقد أكثر عنه في كتبه[١٣٥]، وقد اتّهم إبراهيم بالحطّ من السلف، فضعف ونسب إلى الكذب، ولعلّ سبب ذلك اختصاصه بحديث أهل البيت أكثر من غيره.

الضحاك بن مخلد أبو عاصم النبيل البصري المتولد سنة (١٢٢هـ) والمتوفى سنة (٢١٤ هـ) روى عن الصادق، وعنه البخاري وأحمد بن حنبل وابن المديني واسحاق بن راهويه، قال ابن شيبة: واللّه ما رأيت مثله[١٣٦].

محمد بن فليح بن سليمان المدني المتوفى سنة (١٧٧ هـ) روى له البخاري والنسائي وابن ماجة[١٣٧].

عبد الوهاب بن عبد المجيد بن الصلت المتوفى (١٩٤ هـ)، روى عنه محمد ابن ادريس الشافعي وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وابن المديني وغيرهم; قدم بغداد في أيام المنصور وحدّث بها، وثّقه ابن معين، وكانت غلة عبد الوهاب في كلّ سنة مائتين وأربعين ألفاً ينفقها على أصحاب الحديث لا يحول الحول على شيء منها. خرّج له مسلم والبخاري[١٣٨].

عثمان بن فرقد العطار أبو معاذ البصري خرّج له البخاري في صحيحه، والترمذي وروى عنه ابن المديني وابن المثنى وزيد بن أحزم، قال ابن حبّان: مستقيم الحديث[١٣٩].

عبد العزيز بن عمران بن عبد العزيز الزهري بن أبي ثابت الأعرج المدني المتوفى سنة (١٩٧ هـ) خرّج له الترمذي في صحيحه[١٤٠].

عبد اللّه بن دكين الكوفي خرّج له البخاري في الأدب المفرد، وثّقه أحمد وروى عنه يحيى الوضاحي وموسى بن إسماعيل[١٤١].

---

(١٣٥) تهذيب التهذيب ج١ ص٢٨٢ ـ ٧٦٠ .
(١٣٦) ميزان الاعتدال ج٢ ص٣٢٥ ـ ٣٩٤١.
(١٣٧) تهذيب الكمال ج٢٦ ص٢٩٩ /٥٥٤٩.
(١٣٨) تهذيب الكمال ج١٨ ص٥٠٣ /١٣٦٠٤.
(١٣٩) تهذيب التهذيب ج٧ ص١٣٠ /٤٦٧٢.
(١٤٠) تهذيب الكمال ج١٨ ص١٧٨ /٣٤٦٥ .
(١٤١) تهذيب الكمال ج١٤ ص٤٦٩ /٣٢٥٠ .

زيد بن عطا بن السائب روى عنه إسرائيل وجرير بن عبد الحميد، وثقّه أبو حاتم. وخرّج حديثه النسائي والترمذي[١٤٢].

مصعب بن سلام التميمي الكوفي روى عنه أحمد وأبو سعيد الأشج وخرّج له الترمذي، قال ابن معين: ليس به بأس، وقال أبو حاتم: شيخ محلة الصدق[١٤٣].

بشير بن ميمون الخراساني المتوفى سنة (١٨٤ هـ) روى عنه أحمد بن عاصم الخراساني; قدم بغداد وروى الحديث عن جعفر بن محمد الصادق(عليه السلام) . خرّج له ابن ماجة[١٤٤].

إبراهيم بن سعد الزهري المتوفى سنة (١٨٣ هـ) أحد الأعلام ومن رجال الصحاح، وهو من شيوخ أحمد بن حنبل[١٤٥].

سعيد بن مسلمة الأموي المتوفى سنة (٢٠١ هـ) وهو من رجال الصحاح وشيوخ الشافعي[١٤٦].

الحارث بن عمير البصري، نزل مكّة روى عن الصادق(عليه السلام)وعنه ابن عيينة وابن مهدي وأبو أسامة[١٤٧].

المفضل بن صالح الأسدي أبو جميلة الكوفي، خرّج له الترمذي وروى عنه محمد بن عبيد الله المحاربي[١٤٨].

أيوب بن أبي تميمة السختياني أبو بكر البصري مولى عنزة، ويقال مولى جهينة، روى عنه الأعمش وقتادة وهو من شيوخه والحمادان والسفيانان وشعبة، وخلق كثير، وثّقه ابن سعد وابن معين، ولد سنة (٦٦ هـ) ومات سنة (١٢١ هـ)[١٤٩].

عبد الملك بن جريح القرشي أحد العلماء المشهورين ويقال: إنّه أوّل من صنّف الكتب في الإسلام، ولد سنة (٨٠ هـ) وتوفي سنة (١٤٩ هـ)[١٥٠].

وغير هؤلاء ممن نسب لمدرسة الصادق(عليه السلام)، وأخذ عنه وروى حديثه. وقد ذكر ذلك ابن حجر في تهذيب التهذيب ولسان الميزان وتقريب التهذيب. والذهبي في ميزان الاعتدال، وتذكرة الحفاظ، والجزري في الخلاصة، والخطيب في تاريخه، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل وغيرهم، ولا يصعب على المتتبع احصاءهم، وقد

---

(١٤٢) تهذيب الكمال ج١٠ ص٨٩ /٢١١٧.
(١٤٣) تهذيب التهذيب ج١٠ ص١٤٧ /٦٩٩٩.
(١٤٤) تهذيب الكمال ج٤ ص١٧٨ /٧٢٩.
(١٤٥) تهذيب التهذيب ج١ ص١١٠ /١٩٠.
(١٤٦) تهذيب التهذيب ج٤ ص٧٥ /٢٤٨٨.
(١٤٧) تهذيب الكمال ج٥ ص٢٦٩ /١٠٣٦.
(١٤٨) تهذيب التهذيب ج١٠ ص٢٤٤ /٧١٧١.
(١٤٩) تهذيب الكمال ج٣ ص٤٥٧ /٦٠٧.
(١٥٠) صفوة الصفوة ج١ ص٥٢٩.

أفرد بعض علمائنا رسائل في عددهم وذكر اسماءهم، وسيأتي في الجزء الثاني بيان جملة منهم.

أما حملة فقهه(عليه السلام)وخواصّ أصحابه، الذين كانت لهم اليد الطولى في خوض معارك الحياة الاجتماعية والسياسية، ومحاربة أهل الالحاد والزندقة، ومناظرة أهل العقائد الفاسدة والآراء الشاذّة ومقابلة الظلمة في شدّة الانكار عليهم وتوجيه الانتقاد إليهم، فسيأتي في الجزء الثالث تفصيل عن حياة بعضهم والمشهورين منهم، كأبان بن تغلب ، ومؤمن الطاق، وهشام بن الحكم وغيرهم.

ونكتفي هنا بالتنويه عن بعضهم :

أبان بن تغلب

أبو سعد الكوفي، روى عن السجاد(عليه السلام)، والباقر(عليه السلام)، والصادق(عليه السلام)، ومات في أيامه. قال الشيخ في الفهرست[١٥١]: أبان بن تغلب بن رباح أبو سعيد البكري الحريري مولى جرير بن عباد، ثقة جليل القدر عظيم المنزلة في أصحابنا، لقي أبا محمد علي بن الحسين وأبا جعفر الباقر وروى عنهم، وكانت له عندهم حظوة وقدم، وقال له أبو جعفر الباقر(عليه السلام): «**اجلس في مسجد المدينة وأفت الناس فإنّي أحبّ أن يرى في شيعتي مثلك**»... وكان فقيهاً لغوياً. وكان غزير العلم متضلّعاً في عدّة علوم وله كتب ذكرها ابن النديم في الفهرست منها كتاب معاني القرآن، كتاب القراءآت، كتاب من الأصول في الرواية على مذهب الشيعة[١٥٢].

وقال ابن سعد في الطبقات: أبان الربعي توفّي في الكوفة في خلافة أبي جعفر، وعيسى بن موسى وال على الكوفة، وكان ثقة وروى عنه شعبة، وقال في التهذيب روى عنه موسى بن عقبة، وشعبة، وحماد بن زيد وابن عيينة وجماعة، وثّقه أحمد، ويحيى، وأبو حاتم، والنسائي[١٥٣].

قال الذهبي في ميزان الاعتدال، أبان بن تغلب الكوفي شيعيّ جلد، لكنّه صدوق، فلنا صدقة وعليه بدعته[١٥٤] وقد وثّقه أحمد بن حنبل وابن معين وأبو داود، خرّج له مسلم وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة.

---

(١٥١) الفهرست، الشيخ الطوسي ص١٧ .

(١٥٢) ابن النديم ص٣٠٨.

(١٥٣) تهذيب التهذيب ج١ ص٨٥ /١٤٥.

(١٥٤) لم يكن أبان مبتدعاً ولكنه بتفضيله لعلي وقوله بامامته أصبح مبتدعاً في نظر الذهبي وأضرابه ممن حملهم التعصب على تضعيف المشاهير من الحفاظ من أهل السنة وغيرهم لأنهم يروون الأحاديث الصحاح في أهل البيت كما حدث لابن جرير الطبري لأنه يروي حديث «من كنت مولاه» والحاكم لتصحيحه حديث الطير، وحديث الموالاة، وغيرهم كثير سيأتيك بيانه.

قال الجوزجاني: أبان بن تغلب زائغ مذموم المذهب، قال ابن حجر: وأما الجوزجاني فلا عبرة بحطّه على الكوفيين، فالتشيّع في عرف المتقدمين هو اعتقاد تفضيل عثمان، وأنّ عليّاً كان مصيباً في حروبه وأنّ مخالفه مخطئ مع تقديم الشيخين، وربّما اعتقد بعضهم أنّ عليّاً أفضل الخلق بعد رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم)، وإذا كان معتقد ذلك ورعاً ديناً صادقاً مجتهداً فلا ترد روايته[١٥٥].

أبان بن عثمان

ابن أحمر البجلي أبو عبد اللّه أصله كوفي، وكان يسكنها تارة، والبصرة أُخرى، وقد أخذ عنه أهلها، منهم أبو عبيدة معمر بن المثنى وأبو عبد اللّه محمد بن سلام، وأكثروا الحكاية عنه في أخبار الشعراء والنسب والأيام، روى عن أبي عبد اللّه الصادق(عليه السلام)وأبي الحسن موسى(عليه السلام)وله مؤلّفات منها كتاب المبتدي، والبعث والمغازي والوفاة، وذكره ابن حبان في الثقات، قال محمد بن أبي عمر: كان أبان من أحفظ الناس بحيث إنّه يرى كتابه فلا يزيد حرفاً، توفي على رأس المائتين[١٥٦].

وهو من الستة أصحاب أبي عبد اللّه(عليه السلام)الذين أجمعت العصابة على تصحيح ما يصحّ عنهم، والإقرار لهم بالفقه وهم: جميل بن دراج، وعبد اللّه بن مسكان، وعبد اللّه بن بكير، وحمّاد بن عيسى، وحماد بن عثمان وأبان بن عثمان.

بكير بن أعين الشيباني

أخو زرارة، روى عن الباقر والصادق(عليهما السلام) ، ومات في أيام الصادق(عليه السلام)، ولمّا بلغه خبر موته، قال: أما واللّه لقد أنزله اللّه بين رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) وأمير المؤمنين(عليه السلام). وذكره يوماً، فقال: رحم اللّه بكيراً. وهو من الثقات، وقد روى عنه جماعة[١٥٧].

جميل بن درّاج

---

(١٥٥) تهذيب التهذيب ج٣ ص٩٣.

(١٥٦) لسان الميزان ج١ ص٢٤.

(١٥٧) رجال الكشي ص١٨١ / ٣١٥ و ٣١٦.

ابن عبد الله النخعي، روى عن الصادق والكاظم(عليه السلام)، وتوفّي أيام الرضا(عليه السلام)، وهو من الستة الذين اجمعت العصابة على تصحيح ما يصحّ عنهم(١٥٨).

حماد بن عثمان

ابن زياد الرواسي الكوفي، روى عن الصادق(عليه السلام) والكاظم والرضا(عليهما السلام)،

وهو من أصحاب الصادق(عليه السلام)ومن الستة المار ذكرهم توفي سنة (١٩٠ هـ)(١٥٩).

الحارث بن المغيرة النصري

روى عن الباقر(عليه السلام)، وعن الصادق(عليه السلام)والكاظم(عليه السلام)، كان جليل القدر مقبول الرواية له منزلة عظيمة(١٦٠).

هشام بن الحكم

البغدادي الكندي مولى بني شيبان، كنيته أبو محمد، وقيل أبو الحكم، أصله من الكوفة وانتقل إلى بغداد، قال ابن النديم: هو من أجلّة أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق(عليه السلام)وهو من متكلمي الشيعة ممن فتق الكلام في الإمامة وهذّب المذهب والنظر، وكان حاذقاً بصناعة الكلام حاضر الجواب، سئل عن معاوية أشهد بدراً؟ فقال: نعم من ذاك الجانب، وكان ينزل الكرخ من مدينة السلام، وتوفي بعد نكبة البرامكة مستتراً، وقيل في خلافة المأمون، وله من الكتب كتاب الإمامة، كتاب الدلالات، ثم ذكر له أكثر من عشرين مؤلّفاً.

ودعا له الإمام الصادق(عليه السلام)قال: «**لا تزال مؤيداً بروح القدس مانصرتنا بلسانك**»، وكان أولاً من أصحاب جهم بن صفوان، ثم انتقل إلى القول بالإمامة بالدلائل والنظر، وكان الصادق(عليه السلام)يقول فيه: هذا ناصرنا بقلبه ولسانه ويده، ويقول أيضاً: هشام بن الحكم رائد حقّنا وسائق قولنا المؤيّد لصدقنا والدامغ لباطل اعدائنا.

---

(١٥٨) نقد الرجال ج١ ص٣٦٨ /١٠٤٥.

(١٥٩) رجال النجاشي ج١ ص٣٣٩ /٣٦٩.

(١٦٠) منتهى المقال ج٢ ص٣٢٠ /٦٥٥.

وكان هشام يقول: ما رأيت مثل مخالفينا عمدوا إلى من ولاه اللّه من سمائه فعزلوه، وإلى من عزله اللّه من سمائه فنصبوه، ولهشام أخبار كثيرة ومحاججات ومناظرات مع خصوم آل محمد، وكان يخوض غمرات البحث، فيخرج منها وحليفه النصر.

روى الكليني في الصحيح أنّه ورد على الصادق(عليه السلام)رجل من أهل الشام، فقال له: إنّي صاحب كلام وفقه وفرائض وقد جئت لمناظرة أصحابك.

فقال له الصادق(عليه السلام): كلامك هذا من كلام رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) أو من عندك؟

فقال الرجل: بعضه من كلام رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) ، وبعضه من عندي.

قال الإمام الصادق(عليه السلام): فأنت إذاً شريك رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم)! قال: لا، قال: فسمعت الوحي عن اللّه تعالى؟ قال: لا، قال: فتجب طاعتك كماتجب طاعة رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قال: لا ، فقال الصادق(عليه السلام): هذا قد خصم نفسه قبل أن يتكلم، ثم أخرج الصادق(عليه السلام)رأسه وكان في خيمة في الحرم قبل الحج بأيام فإذا هو ببعير يخب، فقال(عليه السلام): هشام وربّ الكعبة. فإذا هشام بن الحكم قد ورد وهو أوّل ما اختطّت لحيته، وليس في أصحاب الصادق(عليه السلام)إلاّ من هو أكبر سناً منه، فوسّع له الصادق(عليه السلام)، وقال: ناصرنا بقلبه ولسانه ويده، ثم قال للشامي: ـ كلّم هذا الغلام ـ يعني هشام بن الحكم.

فقال الشامي لهشام: سلني في إمامة هذا. يعني الصادق(عليه السلام). فغضب هشام حتى ارتعد وقال: ياهذا ربّك أنظرُ لخلقه أم هم لأنفسهم؟ فقال: بل ربّي أنظر لخلقه، قال هشام: فعل بنظره لهم في دينهم ماذا؟ قال: كلّفهم وأقام لهم حجة ودليلاً على ما كلّفهم وازاح في ذلك عللهم.

قال: فما هذا الدليل الذي نصبه لهم؟

قال: هو رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم)، قال: فبعد رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قال: الكتاب والسنة، قال: فهل ينفعنا اليوم الكتاب والسنة فيما اختلفنا فيه حتى رفع عنا الاختلاف؟ قال: فقال الشامي: نعم. فقال هشام: فلم اختلفنا نحن وأنت وجئتنا من الشام تخالفنا وتزعم أنّ الرأي طريق الدين وأنت تقرّ أنّ الرأي لا يجتمع على القول

الواحد للمختلفين؟ فسكت الشامي كالمفكر، فقال له الصادق(عليه السلام): مالك لا تتكلم؟ قال: إن قلت ما اختلفنا كابرت، وإن قلت إنّ الكتاب والسنة يرفعان الاختلاف أبطلت، لأنّهما يحتملان الوجوه، ولكن لي عليه مثل ذلك. فقال الصادق(عليه السلام): سله تجده مليّاً. فقال لهشام: من أنظر للخلق ربّهم أو أنفسهم؟ قال: بل ربهم، قال: فهل أقام لهم من يجمع كلمتهم ويرفع اختلافهم ويبين حقّهم من باطلهم؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال: أما في ابتداء الشريعة فرسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم)، وأما بعده فغيره، قال: من هو غيره؟ قال: في وقتنا هذا هو هذا الجالس الذي تشدّ إليه الرحال ـ يعني الصادق(عليه السلام) ـ إلى آخر ما ذكره[١٦١].

المعلّى بن خنيس

كان من أصحاب الإمام ومواليه، ومن عذّب في اللّه، وقتل بحبِّ آل محمد، قتله الأمير داود بن علي وصادر أمواله ـ والأسباب غير مجهولة في ذلك ـ لأنّ المعلى كان من خواص الإمام الصادق(عليه السلام)بصورة تستدعي غضب الوالي، وكان داود بن علي عندما ولي المدينة أو الجزيرة برمّتها استعمل العسف والجور والاضطهاد للطالبيين، فكان شديداً في مطاردتهم وتتبع أنصارهم. وبطبيعة الحال أنّ مثل المعلى بمواقفه واتصاله بالإمام لا يسلم من شرّ هذا الوالي، وقد تلقّى الإمام الصادق هذه الحادثة بالاستياء وأثّر في نفسه ومشى إلى ديوان الأمير وهو محنق على خلاف عادته، وقال له: قتلت مولاي وأخذت مالي أما علمت أنّ الرجل ينام على الثكل، ولا ينام على الحرب، وقابله الإمام بالشدّة والعنف، وحاول ذلك الأمير أن يسند هذا الجرم لصاحب الشرطة ويبرأ من تبعته، فأمر بقتله ليتستّر بذلك، ولكن صاحب الشرطة فضح أمره فأعلن للملأ عندما سيق للإعدام بقوله: يأمرونني بقتل الناس فأقتلهم لهم، ثم يأمرون بقتلي[١٦٢].

وقد اختلفت أقوال المؤرخين في الحادثة، فتارة يذكرونها في عهد السفاح وأخرى في عهد المنصور.

---

(١٦١) أصول الكافي ج١ ص١٧٢ ـ ١٧٣، وراجع اعلام الورى ص٢٨٠ ـ ٢٨٤.

(١٦٢) رجال الكشي ص٣٧٦/ ٧٠٢ ـ ٧١٢.

هذا وليس في امكاننا احصاء اصحابه(عليه السلام)ورواة الحديث عنه من الشيعة وغيرهم، ونكتفي بهذا القدر، وقد أرجأنا ذكر بعض الأعيان منهم إلى الجزء الثالث: كعبد الملك بن أعين وزرارة وابنه، وعلي بن يقطين، وعمار الدهني وعمرو بن حنظلة، والفضيل بن يسار، وأبو بصير، ومؤمن الطاق، ومحمد بن مسلم، ومعاوية بن عمار، والمفضل بن عمر، وهشام بن سالم، وغيرهم.

مع البخَاري

شهرة البخاري

قطع صحيح البخاري[١٦٣] شوطاً بعيداً من الشهرة، ونال قبولاً دون غيره من كتب الحديث، فأصبحت له منزلة لا يشاركه بها غيره، ومن العسير مؤاخذته بشيء، لأنّ ذلك يدعو إلى الرمي بالبدعة والخروج عن سبيل المؤمنين[١٦٤].

ولهذا تهيّب أكثر الحفاظ نقده ، ووقفوا أمامه موقف خضوع وتسليم.

يقول الذهبي في ذكره لبعض الأحاديث: ولولا هيبة الصحيح لقلت إنّها موضوعة. وذهب ابن حزم إلى تكذيب بعض أحاديثه[١٦٥] فعنّف، لأنّ التسليم بجميع ما في كتاب البخاري أصبح سُنة، وصحيحه أصبح معمولاً به، فلا يمكن لأحد أن يعمل بحرية الرأي، ومع هذا فإنّ بعض الحفاظ من كبار المحدثين تناولوه بالنقد بصراحة وحريّة في الرأي من وجوه أهمها:

١ ـ ترتيب الكتاب والعلاقة بينه وبين الترجمة وما تحتها.

---

(١٦٣) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن (بردزبه) بباء موحدة مفتوحة ثم راء ساكنة ثم دال مهملة مكسورة ثم زاء ساكنة ثم باء موحدة ثم هاء، معناه بالعربية الزراع، وكان جدّه المغيرة مجوسيّاً كأبيه اسلم على يد اليمان البخاري الجعفي، لذلك قيل للبخاري جعفي، لأنّه مولى يمان الجعفي ولد سنة (١٩٤ هـ) وتوفي سنة (٢٥٦ هـ) ودفن بخرنتك قرية على فرسخين من سمرقند.

(١٦٤) قواعد التحديث ص٢٤١.

(١٦٥) تهذيب التهذيب ج٨ ص١٤٦ .

٢ ـ إنّه يقطّع الحديث فيذكر بعضه في باب وبعضه في آخر، وقد تختلف الرواية في الأجزاء المختلفة، وقد يذكر بعضها متصل السند وبعضها منقطعه، وقد أخذ عليه في هذا الباب بعض مآخذ لم يستطع المنتصرون له أن يجيبوا عنها[١٦٦].

٣ ـ انتقده الحفاظ في بعض أحاديث بلغت ١١٠ منها ٣٢ حديثاً اتفق فيها هو ومسلم ومنها ما انفرد بتخريجه وهو ٧٨.

٤ ـ إنّ بعض الرجال الذين روى لهم غير ثقات وقد ضعّف الحفاظ من رجال البخاري نحو الثمانين.

وعلى كلّ حال فإنّ صحيح البخاري كان محلاً للوثوق والاعتماد عند أكثر المحدثين فهم يقبلون روايته بدون نقاش تهيّباً لمكانته، وحذراً من المؤاخذات القاسية والتهجم المر، لأنّ أكثر الناس يزعمون أنّه أعظم كتاب على وجه الأرض، أو أنّه: «هو عدل القرآن وأنّه إذا قرئ في بيت أيام الطاعون حفظ أهله منه، وأنّ من ختمه على أيّ نية حصل ما نواه، وأنه ما قرأ في شدة إلاّ فرجت، ولا ركب به في مركب فغرقت»[١٦٧].

وقد جرى على العمل بذلك كثير من رؤساء العلم، ومقدمي الأعيان إذا ألمّ بالبلاد نازلة، يوزّعون أجزاءه على العلماء والطلبة لكشف الخطوب وتفريج الكروب، فهو يقوم عندهم في الحرب مقام المدافع والصارم والاسل، وفي الحريق مقام المضخة والماء، وفي الهيضة مقام الحيطة الصحيحة وعقاقير الأطباء، وفي البيوت مقام الخفراء والشرطة، وعلى كلّ حال هو مستنزل الرحمات ومستقرّ البركات[١٦٨].

والحاصل أنّ صحيح البخاري قد أُحيط بهالة من التقديس والإكبار، فهو عدل القرآن وهو أصحّ كتاب على وجه الأرض ـ كما يقال ـ ولهذا فقد تهيّب أكثر الحفاظ عن نقد احاديثه ومن أقدم على ذلك عنّف.

ومن أظرف الأشياء: أنّ مجلس (المبعوثان) في عهد الأتراك بالعراق قد قرر مبلغاً جسيماً لوزارة الحربية جعلوه لقراءة البخاري في الاسطول، فقال الزهاوي ـ وكان عضواً في المجلس ـ: أنا أفهم أنّ هذا المبلغ في ميزانية الأوقاف، أمّا الحربية

---

(١٦٦) ضحى الإسلام ج٢ ص١١٦ .

(١٦٧) قواعد التحديث للقاسمي ص٢٥٠.

(١٦٨) من مقال لأحد علماء الأزهر نشر في احدى المجلات المصرية في معرض نقده لذلك الاعتقاد السائد. نشر سنة ١٣٢٠ هـ) وقواعد التحديث ص٢٥١.

فالمفهوم أنّ الأسطول يمشي بالبخار لا بالبخاري، فثار عليه المجلس وشغب عليه العامة[١٦٩].

ونحن لا ننكر عظمة حديث النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وبركة آثاره، ولكن لنا أن نتساءل لأيّ شيء اختصّ صحيح البخاري دون غيره بهذه الخصوصية من كتب الحديث؟ ولماذا كانت له هذه المنزلة دونها؟! ونتساءل لِمَ لم يقرأ القرآن وفيه شفاء للناس ودفع لما يكرهون؟! ولماذا كان صحيح البخاري عدلاً للقرآن، وأصبح التوسل به من العقائد الراسخة يتلى لدفع المجاعة ويوزّع أحزاباً في المساجد والبيوت كما حدث في مجاعة سنة (٧٩٨ هـ) في مصر؟ فإن كان لصحة أحاديثه، فلماذا لم تكن هذه الخصوصية لموطأ مالك الذي قيل فيه أنه أصحّ كتاب بعد كتاب اللّه؟ !! وصحيح مسلم الذي قالوا فيه: ماتحت أديم السماء أصحّ من كتاب مسلم[١٧٠]، ويقول ابن حجر: حصل لمسلم في كتابه حظ عظيم مفرط لم يحصل لأحد مثله بحيث إن بعض الناس كان يفضله على صحيح محمد بن إسماعيل، وذلك لما اختص به من جمع الطرق وجودة السياق والمحافظة على أداء الألفاظ من دون تقطيع ولا رواية بمعنى[١٧١]، وقال

الحاكم: سمعت أبا الوليد يقول: قال لي أبي: أيّ كتاب تجمع؟ قلت اخرّج على كتاب البخاري، قال: عليك بكتاب مسلم فإنّه أكثر بركة[١٧٢].

وهذا صحيح الترمذي بحسن ترتيبه وتنميقه وتتبعه للصحيح من غيره لم يكن بمنزلة البخاري؟! وقد قالوا: إنّ كتاب الترمذي أنور من كتاب البخاري. فإن كانت تلك العظمة التي أحرزها صحيح البخاري لما حواه، فالقرآن أولى بأن يتخذ لدفع تلك المشاكل، أو كان لعظمة البخاري نفسه؟ فإنّ مالك بن أنس صاحب الموطأ أعظم منزلة وأعلا كعباً، واعرق نسباً، وأغزر علماً.

ولا نريد أن نقسو على البخاري بالحكم، أو نجحف بحقّه ونقول بمقالة جمال الدين الحنفي: «من نظر في كتاب البخاري تزندق»[١٧٣].

---

(١٦٩) مجلة الرسالة السنة الخامسة ص٤٠٣ .

(١٧٠) تذكرة الحفاظ ج٢ ص١٠٤ .

(١٧١) تهذيب التهذيب ج١٠ ص١١٥ /٦٩٣٢.

(١٧٢) أنظر الاعلام ج٨ ص١١٧، معجم المؤلفين ج١٢ ص٢٣٢، أنظر طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص٢٧٨ .

(١٧٣) شذرات الذهب ج٧ ص٤٠ .

ولا نذهب بعيداً عن الواقع فنقول: إنّ كلّ مافيه صحيح يلزم الاعتقاد به والتصديق له، وإنّ عدم التصديق بدعة، أو كفر باللّه وتكذيب لأحاديث الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، كما ذهب إلى ذلك كثير من المقلّدين الذين لا يعقلون.

إنّ كتاب البخاري لا يخلو من أحاديث لا تتصف بالصحة كما لا يخلو من أحاديث عليها علامة الوضع كحديث «إنّ النبيّ كان مسحوراً ..»[١٧٤] وغيره من الأحاديث التي لا يمكن القول بصحتها، لتناقضها أو تعارضها مع غيرها ممّا يصعب الجمع بينها. ولا ننكر أنّ الرجل كان همّه خدمة الدين، ولكنّه كان جمّاعة يتلقى كلّ ما يسمع بالقبول رغم أنّه كان يتنقل من مصر الى مصر، ويتحول من أُفق الى أُفق، وقد جاب العالم الإسلامي من موطنه الأصلي ومحل إقامته حتى الحرمين، ومن السهولة عليه التمييز في النظم والسياق والغرض لكنّه صرف همّه الى الرواية فحسب، ففتح أوعية آذانه ولم يفتح أوعية أفهامه، لأنّ أمر تدقيق الطرق وفحص الروايات يحتاج الى خصائص لا تتوفر إلاّ بعد جهد، ومن الناس من جُبل على خصلة أو فُطر على شيء لا يستطيع تجاوزه، فكان البخاري مقبلاً على الجمع، ولم يحذر إلاّ من أمر واحد ستجدنا مضطرين الى اثباته وهو خوف الملوك الذين يعادون أهل البيت، وليس عليه من خوف إن أخذ الحديث بطريق الخوارج والمارقين والوضّاع والضعفاء. وكلّ ما يسمعه البخاري يراه مادة حتى نجد أنّ بعض الأبواب التي تخصّ السيرة النبويّة تضم من الأحاديث التي تتعلق بحياة الرسول الأعظم التفصيلية فيها توغل لا مبرر له ولا حاجة، بل إنّ عدم ذكرها أولى صيانة للنبيّ الأعظم ومكانته من تسويته بباقي الخلق، ولكنّه الوضع والكذب اللذين جعلا أصحابهما يتناولون كلّ ناحية ليكذبوا على الرسول الكريم وهم تتحكم فيهم أغراض شتّى نفسيّة وسياسيّة واقتصاديّة. والهالة التي أحاط بها الحفّاظ شخصية البخاري، والقدسية التي رفع إليها بتضافر أوساط وجهات مختلفة لم تمنع بعض علماء السنّة (حفاظاً ومحدثين) من التوقف عن الأخذ بكلّ ما جاء به البخاري، وعدم تقليد ما جرى عليه ذوو الشأن في الحديث والسياسة، بل تركوا البخاري في بعض ما لا يصحّ من رواية أو قول كأبي حاتم وابنه عبدالرحمن، وكأبي زرعة، كما ضعّف الحافظ أبو الحسن الدارقطني طائفة كبيرة من أحاديثه.

---

(١٧٤) صحيح البخاري: ج ٤ ص ٦٨، وج ٧ ص ٢٨.

والعلماء الذين أنكروا صحة بعض أحاديثه لم ينكروها إلاّ بأدلّة قامت عندهم، ولا ندري كيف يعدّ ذلك طعناً في دين الإسلام، وهدماً للسنّة، كما يذهب بعضهم.

وقد انتقد العلماء من أحاديث البخاري أكثر من مائة حديث، كما انتقدوا رجاله وطعنوا في كثير منهم لأ نّهم أناس لا قيمة لهم في ميزان الصدق والعدالة، ومنهم ضعفاء لا يتصف حديثهم بالصحة.

ولقد ترك البخاري الرواية عن كثير من علماء الأمة وأعلام الحديث، ومن هم أدرى بحديث الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، وأشدّ عناية فيه وإحاطة له، وفي طليعتهم الإمام الصادق(عليه السلام)فلم يقدح ذلك فيهم أو يحطّ من مقامهم.

وقد خرّج أحاديث أناس لم يسلموا من الطعن، سواء في العقيدة أو العدالة، أو الوثاقة، فإنّ منهم من اتُهم بالكذب، ووصف بوضع الحديث، وللمثال نذكر منهم:

إسماعيل بن عبد اللّه بن اويس بن مالك المتوفى سنة (٢٢٦ هـ).

قال يحيى بن معين: إنّ اسماعيل مخلط كذّاب، وقد تكلّم فيه النسائي كما أنّه عرف بوضع الحديث لأهل المدينة إذا اختلفوا فيما بينهم[١٧٥].

وزياد بن عبد اللّه العامري المتوفى سنة (٢٨٢ هـ).

فإنّه متّهم بالكذب; قال الترمذي عن وكيع: إنّ زياد بن عبد اللّه على شرفه كان يكذب في الحديث[١٧٦].

والحسن بن مدرك السدوسي الطحان. رماه أبو داود بالكذب[١٧٧]، وتلقين المشايخ وغير هؤلاء ممن لا نحبّ اطالة الحديث عنهم وبسط القول فيهم.

أما الضعفاء فقد ذكروا منهم عدداً لا يقلّ عن الثمانين أمثال: الحسن بن ذكوان البصري، فقد كان قدريّاً يدلّس، وعُرف بالخطأ، وضعّفه أحمد وابن معين، والنسائي، والترمذي، وابن المديني[١٧٨].

ومنهم أحمد بن أبي الطيب البغدادي، وسلمة بن رجاء التميمي، وبسر بن آدم الضرير، وغيرهم ممن نصّ الحفّاظ على ضعفهم.

---

(١٧٥) تهذيب التهذيب ج١ ص٢٨٠ /٥٠٢.

(١٧٦) تهذيب التهذيب ج٣ ص٣٢٨ /٢١٧٢.

(١٧٧) تهذيب الكمال ج٦ ص٣٢٣ /١٢٧٤.

(١٧٨) تهذيب التهذيب ج٢ ص٢٥٤ /١٣١١.

أمّا القدرية، فهم عدد كثير كعبد الله بن أبي لبيد المدني، وعبد الله بن أبي نجيح المكّي، وكهمس بن منهال السدوسي، وهارون بن موسى الأزدي وسفيان بن سليمان، وعبد الوارث بن سعيد، وغيرهم.

والقول: بأنّ تخريج البخاري هو دليل الوثاقة، وشاهد العدالة، وأنّ من يروي له البخاري «فقد جاز القنطرة» كما يقول بعضهم بمعنى أنّه لا يتلفت إلى ما قيل فيه. فهذا مجرّد افتراض لا يدعمه دليل، وتخالفه القرائن والشواهد، فليس قول البخاري في الشخص هو الحكم العدل والقول الفصل، فالخلاف في الجرح والتعديل لم ينته إلى حدّ أو يقف عند قول أحد، على أنّهم قد احصوا على البخاري أخطاء في معرفة الرجال وأسمائهم، كجعله اسم الرجل الواحد اسمين أو ثلاثة، كالوليد بن أبي الوليد مولى عبد الله بن عمر، وهارون بن سعد مولى قريش، وكثير بن خنيس وغيرهم، فقد جعل اسمين لكلّ واحد منهم، وكذلك جعل محمد بن أيوب اليمامي ثلاثة أسامي وهو واحد، كما نسب عبد الملك بن أخي القعقاع إلى القعقاع، وذكر في باب النون اسم ناسح الحضرمي، وهو عبدالله بن ناسح الذي يروي عنه شرحبيل بن شفيعة، إلى غير ذلك من المؤاخذات عليه[١٧٩].

وهناك ناحية ذات أهميّة في الموضوع، وهي تخريجه لأُناس عرفوا بالنصب والعداء لعلي(عليه السلام)وبغضهم لآل محمد من خوارج وغيرهم أمثال:

عمران بن حطّان السدوسي البصري المتوفى سنة (٨٤ هـ) .

كان من رؤوس الخوارج والمعلنين عداء الإمام علي(عليه السلام)، وهو الذي مدح عبد الرحمن بن ملجم المرادي بقوله:

يا ضربة من تقيّ ما أراد بها *** إلاّ ليبلغ من ذي العرش رضوانا[١٨٠]

فهذا الرجل قد تحدّى مقام النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فسمّى من وسمه النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بأنه أشقى الأولين والآخرين، بأنه تقيّ، وقد صح عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بأنّه قال:

«**ياعلي أتدري من أشقى الأولين؟** فقال علي(عليه السلام): **الله ورسوله اعلم** فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): **عاقر الناقة.** قال(صلى الله عليه وآله وسلم): **ياعلي أتدري من أشقى الآخرين؟** فقال علي(عليه السلام) **الله ورسوله أعلم.** قال(صلى الله عليه وآله وسلم): **قاتلك ياعلي».**

أخرجه أحمد بن حنبل وابن الضحاك ورواه الطبري[١٨١].

---

(١٧٩) أنظر أضواء على الصحيحين ص٩٢ ـ ١٢٧.

(١٨٠) الإصابة في تمييز الصحابة ج٥ ص٢٣٢ /٦٨٩١.

وروى صهيب عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) مثله وكان عليّ(عليه السلام) يقول لأهله: **والله وددت لو انبعث اشقاها**. أخرجه أبو حاتم[١٨٢].

فأيّ ثقة وأيّ عدالة لمن يخالف قول النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ويتجرأ على مقامه، فيسمّي من سماه(صلى الله عليه وآله وسلم)شقياً تقياً ويعلن مدحه والثناء عليه. وقد انبرى للردّ عليه كثير من علماء الإسلام نظماً ونثراً مما لا يتسع المجال لذكرهم.

وأبو الأحمر السائب بن فروخ المتوفى سنة (١٣٦ هـ) وكان شاعراً هجّاءً خبيثاً فاسقاً مبغضاً لآل محمد، وهو القائل لأبي عامر بن واثلة الصحابي المعروف بأبي الطفيل[١٨٣].

لعمرك إنني وأبا طفيل *** لمختلفان والله الشهيد

لقد ضلّوا بحبّ أبي تراب *** كما ضلّت عن الحقّ اليهود[١٨٤]

فهذا الرجل كسابقه أيضاً، قد تحدى ما روي عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «**علي مع الحق والحق مع علي**» وقوله(صلى الله عليه وآله وسلم) : «**علي مع القرآن والقرآن مع علي**» إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة عنه(صلى الله عليه وآله وسلم)، **بأنّ الهدى في اتّباع علي**(عليه السلام) **والضلالة في خلافه**. ولكن هذا الشاعر الأموي قد ردّ أقوال النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وتحدى مقامه، فأيّ عدالة يتصف بها، وأيّ ثقة تدعو إلى الاطمئنان بقوله؟ !

وحريز بن عثمان الحمصي[١٨٥] المتوفى سنة (١٦٣هـ) ». كان من المشهورين بالنصب والمعلنين العداء لعلي(عليه السلام)، وكان ينال منه ويقول: لا أُحب علياً قتل آبائي. ويقول: لنا إمامنا (يعني معاوية) ولكم إمامكم (يعني عليّاً)[١٨٦].

وغير هؤلاء من رجال صحيح البخاري الذين عرفوا بالنصب أمثال إسحاق ابن سويد التميمي المتوفى سنة (١٣١ هـ) ، وعبد الله بن سالم الأشعري المتوفى سنة (١٧٩هـ)، وزياد بن علاقة أبو مالك الكوفي المتوفى سنة (١٢٩ هـ)، وغيرهم من النواصب والخوارج الذين أعلنوا العداء لعلي وتظاهروا بالتحامل عليه، وقد قال(صلى

---

(١٨١) ذخائر العقبى ص١١٥ .

(١٨٢) نور الأبصار ص١٨٧ .

(١٨٣) أبو الطفيل عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمر الليثي الكناني صحابي جليل وهو آخر الصحابة وفاة. بقي إلى سنة (١٠٠ هـ) وتوفي فيها، وكان من شيعة علي شهد معه حروبه كلها.

(١٨٤) نكت الهميان للصفدي ص ١٥٤ .

(١٨٥) تهذيب التهذيب ج١ ص٢٣٨، وتاريخ بغداد ج٢ ص٢٩٥، وشذرات الذهب ج١ ص٢٥٧ وغيرها.

(١٨٦) تهذيب التهذيب ج٢ ص٢١٩ /١٢٥٢.

الله عليه وآله وسلم): «**ياعلي لا يحبّك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق**»[١٨٧]. وإنّ االمنافقين لفي الدرك الأسفل من النار.

فكيف تصدّق أخبارهم ويؤخذ بأحاديثهم: (**واللّه يشهد إنّ المنافقين لكاذبون**)[١٨٨].

فمن الحقّ وواجب العلم أن نستنكر على البخاري تخريج حديث أُناس خالفوا أحايث الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) في وجوب حبّ آله لحبّه(صلى الله عليه وآله وسلم) ، وأعلنوا العداء لهم وعرفوا بالنصب، ولعلّ هناك أمراً خفي علينا وكان هو الداعي له على اقدامه لروايته عنهم واحتجاجه بهم، ولست أدري أخفي على البخاري قول النبيّ لعلي: **لا يحبّك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلا منافق**، حتى اشتهر في عصر الصحابة أنّهم كانوا لا يعرفون المنافقين إلاّ ببغضهم علي بن أبي طالب. وبغض علي بغض رسول **اللّه**(صلى الله عليه وآله وسلم)**؟!**.

أم خفي على البخاري قوله(صلى الله عليه وآله): **ياعلي حربك حربي وسلمك سلمي**. أليس عليّ هو من النبيّ بمنزلة هارون من موسى، كما يحدّثنا البخاري نفسه في صحيحه ج٢ ص١٩٩؟!!.

وهناك آلاف من الأحاديث في فضل علي(عليه السلام)وأهل بيته، وقد خرّجها الحفاظ من طرق عديدة، ولكنّ البخاري لم يخرّج إلاّ ثلاثة أحاديث أو أربعة منها[١٨٩]، وليس من المعقول أنّ عدم تخريجه لأكثر من هذا كان لعدم وثوقه بصحتها، ولكنّ هناك شيئاً غير هذا، ولعلّه كان يفقد الشجاعة والجرأة الأدبية، كما لاحظ ذلك منه بعض الكتّاب، فقال مامضمونه: إنّ كتاب البخاري لا تتجلى فيه الشجاعة وعدم الخوف من العباسيين كمسند أحمد لأنّه ـ أي مسند أحمد ـ لم يتحرّج من ذكر أحاديث كثيرة في ذكر مناقب علي وشيعته، وعكسه البخاري[١٩٠].

---

(١٨٧) الرياض النضرة ج٢ ص١٦٣ .

(١٨٨) المنافقون ١ .

(١٨٩) انّ الأمّة بأسرها متّفقة على أن البخاري لم يستقص الأحاديث الصحيحة فالحديث الصحيح لا يضرّه عدم إخراج البخاري إيّاه باجماع الناس وقد أضرّ البخاري نفسه باعراضه عن أهل البيت(عليهم السلام) واهماله الصحاح الدالّة على تفضيلهم وليس حديث الثقلين بأوّل حديث أهمله من أحاديث فضلهم(عليهم السلام) فقد أهمل حديث الولاية يوم الغدير مع تواتره وحديث المؤاخاة مع كونه من الضروريات وحديث سدّ الأبواب غير باب علي مع ثبوته بحكم البداهة من سيرة النبي(صلى الله عليه وآله) وأهمل حديث انذار عشيرته الأقربين المشتمل على النص بحذرفة أمير المؤمنين مع صحته الثابتة عند أهل السنّة كما صرّح بذلك غير واحد منهم ولم يخرج حديث السب في نزول (**إنّما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا...**)ولا حديث السبب في نزول: (**يا أيّها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك...**) ولا شيئاً من الأحاديث في أسباب نزول آيات فضل أهل البيت(عليهم السلام) وأهمل أحاديث سفينة نوح وباب حطّة وأمان الأمة وسائر الأحاديث الصادعة بفضلهم إلاّ اليسير النزر الذي هو كالنقطة من البحر ومع ذلك فقد اغتصب نفسه فيه اغتصاباً فما أخرجه إلاّ بكلّ تكلّف كما يعلمه الخبير بكتاب البخاري.

(١٩٠) أنظر بحوثاً في الملل والنحل ج١ ص٤٨٢.

وللإيضاح نذكر بعض ما ورد في أهل البيت مما خرّجه حفّاظ الحديث، وعلماء الأمّة من طرق صحيحة ليتضّح لنا مدى تحفظ البخاري وإعراضه عن ذكر فضائل آل محمد.

آية التطهير

وأنّها نزلت في عليّ وفاطمة والحسن والحسين(عليهم السلام)

تخريج الحفاظ لآية التطهير

١ ـ قوله تعالى: (**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**)[١٩١].

أخرج مسلم في صحيحه عن طريق عائشة: خرج النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وعليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي(عليه السلام) فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء عليّ فأدخله، ثم قال: (**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**)»[١٩٢].

وأخرج الترمذي من طريق عمرو بن أبي سلمة ربيب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: نزلت هذه الآية على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) في بيت أمّ سلمة فدعا النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فاطمة وعلياً وحسناً وحسيناً فجلّلهم بكساء، ثم قال: «**اللّهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرّهم تطهيراً**» قالت أمّ سلمة: يا رسول اللّه وأنا معهم؟ قال: **أنت على مكانك وأنت على خير**[١٩٣].

وأخرج الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفى سنة (٣٠٣ هـ) من طريق سعد بن أبي وقاص قال: لما نزلت : (**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**) دعا رسول اللّه(صلى الله عليه وآله) علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: **اللّهم هؤلاء أهل بيتي**[١٩٤].

وأخرج الخطيب من طريق أبي سعيد عن أمّ سلمة قالت: نزلت هذه الآية وكان في البيت علي وفاطمة والحسن والحسين، قالت: وكنت على باب البيت، فقلت: أين أنا يا رسول اللّه؟ قال: **أنت في خير وإلى خير**[١٩٥].

---

(١٩١) الأحزاب ٣٣ .
(١٩٢) صحيح مسلم ج٤ ص١٢٧ .
(١٩٣) الترمذي ج٤ ص٣٠٤ .
(١٩٤) الخصائص ص٤.
(١٩٥) تاريخ بغداد ج٩ ص١٢٧ .

وأخرج أيضاً من طريق أبي سعيد عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) في نزول هذه الآية قال: جمع رسول الله عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً ثم أدار عليهم الكساء، فقال: **اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي**...الخ.

وأخرج ابن عبد البر[١٩٦] قال: لما نزلت : (**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**) دعا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فاطمة وعلياً وحسناً وحسيناً في بيت أمّ سلمة وقال: «**اللهمّ هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً**» وأخرجه ابن الأثير من طريق أم سلمة[١٩٧].

وأخرج ابن جرير الطبري في تفسيره عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): نزلت هذه الآية في خمسة : فيّ، وفي عليّ، وحسن وحسين وفاطمة: (**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**).

وأخرج عن أم سلمة أنّ هذه الآية نزلت في بيتها، وأنّ في البيت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)وعلياً وفاطمة والحسن والحسين.

وعن أبي سعيد الخدري عن أمّ سلمة أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: **اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي، اللّهمّ أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.**

وأخرج أيضاً من طريق أبي هريرة عن أمّ سلمة مثله، وكذلك أخرجه عن شهر بن حوشب عن أمّ سلمة.

وأخرج عن واثلة بن الأسقع[١٩٨] عن عليّ(عليه السلام) أنها نزلت في رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)وعلي وفاطمة والحسن والحسين(عليهم السلام).

وعن أنس بن مالك أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يمرّ ببيت فاطمة ستة أشهر، كلّما خرج إلى الصلاة فيقول: الصلاة أهل البيت(عليهم السلام) (**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**)وعن أبي الحمراء مثله[١٩٩].

وقال السيوطي من طريق أم سلمة: أخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أمّ سلمة أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) كان في بيتها على منام له وعليه كساء خيبري، فجاءت فاطمة فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): أدعي لي زوجك وابنيك حسناً وحسيناً، فدعتهم، فبينما هم يأكلون إذ نزلت على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):

---

(١٩٦) الاستيعاب بهامش الإصابة ج١ ص٢٧ .

(١٩٧) أسد الغابة ج٥ ص٥٢١.

(١٩٨) واثلة بن الأسقع بن كعب بن عامر من بني ليث بن عبد مناة، أسلم قبل تبوك وشهدها، روى عن النبيّ(صلى الله عليه وآله)وكان من أهل الصفّة، وأشار ابن حجر في الإصابة الى وهم البخاري فيه.

(١٩٩) تفسير ابن جرير ج٧ ص٢٢.

(**إنّما يريد اللّه...**) فأخذ النبيّ بفضلة إزاره فغشّاهم، ثم أخرج يده من الكساء وأومأ بها إلى السماء، وقال: «**اللهمّ هؤلاء أهل بيتي وخاصتي** ». الخبر[٢٠٠].

وقال محمد بن أحمد المالكي: روى الواحدي في كتابه المسمّى أسباب النزول يرفعه بسنده إلى أُم سلمة، أنّها قالت: كان النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) في بيتها يوماً فأتته فاطمة ببرمة فيها عصيدة فدخلت بها عليه، فقال لها: ادعي لي زوجك وابنيك. فجاء علي(عليه السلام) والحسن والحسين(عليهما السلام) فدخلوا يأكلون والنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) جالس على دكة وتحته كساء خيبري، قالت: وأنا في الحجرة قريب منهم، فأخذ النبيّ الكساء فغشاهم به، ثم قال: «**اللهمّ هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً**» فأدخلت رأسي وقلت: وأنا معكم يا رسول اللّه؟ قال(صلى الله عليه وآله وسلم): **إنّكِ على خير**، فانزل اللّه عزّ وجلّ: (**إنّما يريد اللّه...**)[٢٠١].

وأخرجه محبّ الدين الطبري قال: في بيان أنّ فاطمة وعليّاً وحسناً وحسيناً هم أهل البيت المشار إليهم في قوله تعالى: (**إنّما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**) إلى آخر ما ذكر.

ورواه من طريق أُمّ سلمة، ومن طريق عمر بن أبي سلمة ربيب رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم)، ومن طريق زينب بنت أبي سلمة، ومن طريق واثلة بن الأسقع، ومن طريق عائشة[٢٠٢].

وعن أبي سعيد الخدري أنّها نزلت في خمسة : رسول اللّه، وعليّ، وفاطمة، والحسن، والحسين، أخرجه أحمد في المناقب والطبراني[٢٠٣].

وأخرجه الخطيب البغدادي عن سعد بن أبي عوف عن أبي سعيد عن أُمّ سلمة، وعن أبي سعيد الخدري أنّها نزلت في عليّ وفاطمة والحسن والحسين[٢٠٤] وأخرجه البغوي من طريق عائشة[٢٠٥].

وأخرجه الحاكم في المستدرك عن عطاء بن يسار عن أُمّ سلمة[٢٠٦].

وقال عبد الملك الثعالبي النيسابوري: جمع النبيّ عليّاً وفاطمة والحسن والحسين، ثم قال: (**إنّما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**)قال: ويُروى أنّ

---

(٢٠٠) الدر المنثور ج٥ ص١٩٨ .

(٢٠١) الفصول المهمة ص٦.

(٢٠٢) ذخائر العقبى ص٢١ ـ ٢٤.

(٢٠٣) ينابيع المودة ج٢ ص٢٢٨ / ح٦٤٣ فضائل الصحابة ج٢ ص٥٨٧، ح٩٩٤، الدر المنثور ج٥ ص١٩٩.

(٢٠٤) تاريخ بغداد ج٩ ص١٢٩، وج١٠ ص٢٧٨.

(٢٠٥) معالم التنزيل بهامش الخازن ص٢١٣.

(٢٠٦) المستدرك ج٢ ص٤١٦.

جبرائيل انضمّ إليهم واندسّ فيهم تقرّباً إلى الله تعالى بمداخلتهم، وقال: كساء آل محمد يضافون إليه، فيقال: آل الكساء كما قال ديك الجن في مدحهم:

والخمسة الغرّ أصحاب الكساء معاً *** خير البريّة من عجم ومن عرب[٢٠٧]

وقال ابن تيمية في جواب من سأله عن دخول علي(عليه السلام)في أهل البيت: ممّا لا خلاف فيه بين المسلمين، وهو أظهر عندهم من أن يحتاج إلى دليل، بل هو أفضل أهل البيت وأفضل بني هاشم بعد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد ثبت عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)أنّه أدار كساه على عليّ وفاطمة وحسن وحسين فقال: «**اللّهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً**»[٢٠٨].

وقال ابن حجر الهيثمي في شرح همزية البوصيري ص ٣١٩ عند قوله:

وبأُمّ السبطين زوج عليّ *** وبنيها ومن حوته العباء

وهم: النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وفاطمة وعليّ وابناهما الحسن والحسين.

وقال: وصح أ نّه(صلى الله عليه وآله وسلم) جعل على علي وفاطمة وابنيهما كساء، قال: «**اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي وخاصّتي، اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً**»، فقالت أُم سلمة: وأنا منهم؟ قال: **إنك على خير**; وفي رواية ألقى عليهم، كساء ووضع يده عليهم وقال: «**اللهمّ إنّ هؤلاء آل محمد**(صلى الله عليه وآله وسلم) **فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد انك حميد مجيد**».

وقال الشيخ عبد القادر الرافعي: عند ذكر بيت البوصيري ومن حوته العباء هم : النبيّ وعليّ وفاطمة وابناهما[٢٠٩].

وذكر ابن كثير في تفسيره طرق نزول هذه الآية في الخمسة فقط، وهم: محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)وعليّ وفاطمة والحسن والحسين في خمسة عشر مورداً، ونودّ الإشارة إليها زيادة في التوضيح وتأكيداً للبيان:

١ ـ حديث أبي الحمراء أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) كان إذا طلع الفجر جاء إلى باب علي(عليه السلام)وفاطمة وقال: الصلاة الصلاة يا أهل البيت، إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً.

٢ ـ حديث شداد بن عمار عن واثلة، قال ابن عمار: إنّي جالس عند واثلة بن الأسقع إذ ذكروا علياً فشتموه، فلما قاموا قال: اجلس حتى أُخبرك عن هذا الذي شتموه، كنت عند رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)إذ جاء علي وفاطمة وحسن وحسين رضي الله عنهم فألقى عليهم كساء له، ثم قال: **اللّهم هؤلاء أهل بيتي اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً** .

---

(٢٠٧) ثمار القلوب ص٤٨٣ ـ ٤٨٤.

(٢٠٨) الفتاوى لابن تيمية ج١ ص٢٣٠.

(٢٠٩) نيل المراد ص٦٥.

٣ ـ حديث أبي رياح عمّن حدّثه عن أمّ سلمة انّها نزلت في الخمسة.

٤ ـ من طريق أبي هريرة عن أم سلمة أيضاً.

٥ ـ عن حكيم بن سعد. ذكرنا عليّ بن أبي طالب عند أم سلمة، فقالت في بيتي نزلت : (**إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**).

٦ ـ عن عطية عن أبيه عن أم سلمة.

٧ ـ عن أبي سعيد عن أم سلمة.

٨ ـ عن شهر بن حوشب عن أم سلمة.

٩ ـ عن عمر بن أبي سلمة عن أم سلمة.

١٠ ـ عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة: خرج النبيّ، ذات غداة وعليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه، ثم قال(صلى الله عليه وآله وسلم): (**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**).

١١ ـ وعن العوام بن حوشب، عن ابن عمّ له قال: دخلت مع أبي على أمّ المؤمنين عائشة فسألتها عن علي، فقالت: تسألني عن رجل كان أحبّ الناس إلى رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم)وكانت ابنته تحته، رأيت رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) دعا عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً فألقى عليهم ثوباً، فقال: «**اللّهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً**» قالت: فدنوت منهم فقلت: يا رسول اللّه وأنا من أهل بيتك ؟ فقال: **تنحي إنك على خير**[٢١٠].

١٢ ـ عن أبي سعيد رضي اللّه عنه عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم): أنّها نزلت في خمسة، **فيّ وفي علي وفاطمة وحسن وحسين.**

١٣ ـ عن عامر بن سعد عن سعد قال: إنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) حين نزلت عليه فأخذ عليّاً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوب، ثم قال: **ربي هؤلاء أهلي وأهل بيتي.**

١٤ ـ عن أبي جميلة عن الحسن بن علي(عليه السلام).

١٥ ـ عن السدي عن أبي ديلم عن علي بن الحسين(عليه السلام).

هذا ما ذكره ابن كثير في تفسيره[٢١١] سلكنا في نقله طريق الاختصار، وأعتقد أن المنصف يكتفي بما ذكرنا ولا نحتاج إلى ذكر تفاصيل أخرى حول تخصيص نزول هذه الآية في أهل البيت خاصة، فالأمر أجلى من الشمس.

---

(٢١٠) أخرجه البغوي عن عائشة في معالم التنزيل ج٥ ص٢١٣ ، المطبوع بهامش تفسير الخازن، وكذلك الخازن نفسه ذكره عن طريق عائشة ص٢١٣ ، وفيه زيادة أنت من أزواج النبي ولا نتكلف البحث عن قوله(صلى الله عليه وآله وسلم)لعائشة تنحي. وإلحاق أنت على خير أو أنت من أزواج النبي.

(٢١١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٦٥ ـ ٤٦٨.

وكان(صلى الله عليه وآله وسلم) يؤكّد بعمله أمام أصحابه بهذه المنزلة، لذلك كان يمرّ على باب فاطمة يرفع صوته بالسلام عليهم ويتلو هذه الآية.

روى الترمذي في (صحيحه) عن أنس بن مالك: قال: إنّ رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم)كان يمرّ بباب فاطمة ستة أشهر كلّما خرج إلى صلاة الفجر ويقول: الصلاة يا أهل البيت : (**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**)[٢١٢].

وفي رواية أبي الحمراء: أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يمرّ ببيت فاطمة وعليّ(عليه السلام)فيقول: **السلام عليكم أهل البيت** : (**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**).

رواه السيوطي عن أبي الحمراء أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يمرّ على باب بيت فاطمة ثمانية أشهر بالمدينة ليس من مرة يخرج إلى الصلاة الغداة إلاّ وأتى باب فاطمة ويقول: **السلام عليكم أهل البيت (إنّما يريد اللّه...)**[٢١٣].

ورواه ابن الأثير في (أسد الغابة) في ترجمة أبي الحمراء قال رواه الثلاثة[٢١٤].

وعن ابن عباس شهدنا رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) تسعة أشهر يأتي كلّ يوم باب علي(عليه السلام) عند وقت كل صلاة فيقول: **السلام عليكم أهل البيت (إنّما يريد اللّه...)**الآية خمس مرات.

وهذا البيان منه(صلى الله عليه وآله وسلم) زيادة في البيان لأمّته، وتأكيداً لهم في إبراز أهله بتلك المنزلة العظيمة، وبديهي أنّه ماكان قصدة أن يوقظهم للصلاة فهم الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً.

ولكن لشدّة اهتمامه بآله وبإظهار فضلهم للأمة كان يعمل هذا ليطبقه تطبيقاً عمليّاً.

وقال الشيخ عبد المجيد الشرنوبي الأزهري[٢١٥].

ثمّ إنّه يختلف تفسير آله(صلى الله عليه وآله وسلم) باختلاف المقامات، ففي مقام الزكاة هم الذين تحرم عليهم الصدقة كبني هاشم، وفي مقام المدح هم أهل بيته الكرام الذين بحبّهم وبزيارتهم يبلغ العبد المرام. وفي الحديث: من مات على حبّ آل محمد مات مغفوراً له. وللّه در القائل:

---

(٢١٢) شرح الترمذي لابن العربي ج١٣ ص٨٥ وابن عبد البر في الاستيعاب بهامش الاصابة ج٤ ص٤٦.

(٢١٣) الدر المنثور ج٥ ص١٧٤.

(٢١٤) الدر المنثور ج٥ ص٩٩ واخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب ج٤ ص٦٤.

(٢١٥) شرح الشافية ص١٢٣.

أرى حبّ آل البيت عندي فريضة *** على رغم أهل البعد يورثني القربى
فما اختار خير الخلق منا جزاءه *** على هديه إلاّ المودة في القربى

وهم أهل العبا جمعهم النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) تحت الكساء، وقال: **اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً**، فأنزل اللّه عزّ وجلّ:

(**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ ...** الآية). وهم الحسن والحسين وأُمّهما وأبوهما، كما قال بعضهم:

إن النبيّ محمداً ووصيّه *** وابنيه وابنته البتول الطاهرة
أهل العباء وإنّني بولائهم *** أرجو السلامة والنجا في الآخرة

ورواه الشيخ عبد اللّه الشبراوي[٢١٦]. وأخرجه ابن عساكر في تاريخه وأطال البحث في تحقيقه[٢١٧] . ومحمد بن يوسف الشافعي في كفاية الطالب[٢١٨].

والشيخ أبو بكر بن ملا الحنفي في كتاب (قرة العيون)[٢١٩]. وابن عبد ربه في (العقد الفريد)[٢٢٠].

والشيخ نعمان الآلوسي في (غالية المواعظ)، قال: اخرجه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري أنّ الآية نزلت في عليّ وفاطمة والحسن والحسين، وأخرج البيهقي والترمذي وابن المنذر عن أُمّ سلمة...[٢٢١].

وأخرجه الواحدي في أسباب النزول عن أبي سعيد عن أُم سلمة[٢٢٢].

ويطول بنا البحث، في تتبّع إيضاح هذه الآية وذكر رواتها، وبيان اختصاصها بآل محمد، ولا يشاركهم بتلك المنزلة أحد، فنقتصر على هذا البيان الموجز بالنسبة لما تقتضيه من إيضاح يستدعي إلى وضع مجلدات كثيرة للخوض في نتاجات روح التعصب والطائفية التي رعتها وغذتها سياسات الملوك والأمراء الذين صبّوا جام حقدهم على أهل البيت الأطهار وشيعتهم، وراحوا يجنّدون علماء السوء وعبدة السلطان للتأثير على أفهام الناس والتحكّم فيهم حتى اختلط على الناس ماهم فيه، وجازت عليهم البدع والضلالات التي يروّجها هؤلاء، فما بين شتم الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام) على سنة معاوية وبين إرهاب أهل البيت(عليهم السلام) على سنة أولاد

---

(٢١٦) الاتحاف السنية ص٥.
(٢١٧) تاريخ ابن عساكر ج٤ ص٢٠٤.
(٢١٨) كفاية الطالب ج٢ ص١٣.
(٢١٩) قرة العيون ج١ ص١٨٩.
(٢٢٠) العقد الفريد ج١ ص٣٧.
(٢٢١) غالية المواعظ ج١ ص٨٦.
(٢٢٢) أسباب النزول ص٢٦٧.

عمّ النبي(صلى الله عليه وآله) من العباسيين الذين كانوا يقسمون بلا خجل بهذه القرابة وأيديهم ملطخة بدماء أبنائه، كان الناس يحنون الرقاب لأصحاب السلطان والملك ويذعنون (لأُولي الأمر)، وليس أُولو الأمر غير أئمّة الحقّ والدين وورثة علم النبيّ المصطفى وحملة رسالته من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وإنّها لرزية أن يتكلّف مسلم مناقشة أُمور هي من أنصع الحقائق.

حديث الغدير

رواة حديث الغدير من الصحابة

رواه جماعة من الصحابة، ينوف عددهم على المائة، وفي طليعتهم أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري المتوفى سنة (٢١ هـ) الذي قال فيه رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم): **«ما أضلّت الخضراء، ولا أقلّت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر»**، رواه عنه جماعة من الأعلام.

وحذيفة اليماني المتوفى سنة (٢٩ هـ) والبراء بن عازب، وجابر بن عبد اللّه الأنصاري، وأبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري المتوفى بغزوة الروم سنة (٥٠ هـ)، وسعد بن أبي وقاص، وسلمان الفارسي المتوفى سنة (٣٦ هـ) وطلحة ابن عبيد التيمي، وعائشة زوجة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أخرج حديثها ابن عقدة[٢٢٣] في كتاب حديث الولاية.

وعبد اللّه بن عباس المتوفى سنة (٦٨ هـ) والعباس بن عبد المطلب عمّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)وعثمان بن عفان، وأبو اليقظان عمار بن ياسر العنسي شهيد صفين سنة (٣٧ هـ)، والصدّيقة فاطمة بنت النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)وغيرهم إلى عدد يتجاوز المائة.

ورواه من التابعين عدد ينوف على الثمانين، وكانت عناية الجميع بهذا الحديث ظاهرة، وقد خرّجه جماعة من العلماء في كتبهم المعتبرة كمسلم في صحيحه، والترمذي والحاكم، وعدد لا يمكننا حصره بهذه العجالة، وقد ألّف فيه جماعة كتباً خاصة يربو عددهم على الثلاثين.

وشهد به لأمير المؤمنين عدد من الصحابة، يوم ناشدهم بحديث الغدير في مواطن عديدة كيوم الشورى، وأيام عثمان، ويوم الرحبة، وقام له في ذلك اليوم من الصحابة

---

(٢٢٣) هو أحمد بن محمد بن سعيد الكوفي المتوفى (٢٣٠ هـ) قال الذهبي: هو حافظ العصر والمحدث البحر، كان إليه المنتهى في قوة الحفظ وكثرة الحديث، وقال الدار قطني اجمع اهل الكوفة أنه لم يكن بالكوفة من زمن ابن مسعود إلى زمن ابن عقدة احفظ منه، وقال أبو علي الحافظ: ما رأيت لحديث الكوفيين احفظ من أبي العباس بن عقدة، وكان ابن عقدة يقول: احفظ مائة ألف حديث بأسانيدها ويقول أجيب في ثلاثمائة ألف حديث من أحاديث أهل البيت، قال الذهبي وكان مقدماً في الشيعة، انظر تذكرة الحفاظ للذهبيج٣ ص١٦ وذكرنا ترجمته هنا، لأنه من الذين ألفوا في حديث الغدير في القرن الرابع وأخرج الحديث من مائة وخمسين طريقاً.

عدد ليس بالقليل وفي طليعتهم: أبو الهيثم بن التيهان وأبوهريرة الدوسي, وأبو سعيد الخدري، وغيرهم عدد لا يقلّ عن العشرين، وتواتر النقل بتعدّد مناشدة أمير المؤمنين أصحاب محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) بإظهارهم للملأ هذا الحديث الشريف، كما ورد أنّه ناشدهم يوم الجمل. ويوم الركبان في الكوفة، وشهد له بذلك جماعة من الصحابة منهم عمار بن ياسر وهو من البدريين، وأبو الهيثم بن التيهان، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وقيس بن سعد بن عبادة، وهم ممّن شهدوا بدراً، وقد اخفى ذلك الحديث جماعة من القوم لمؤثّرات العاطفة وعوامل التعصب، فدعا عليهم أمير المؤمنين(عليه السلام)بقوله: اللّهمّ من كتم هذه الشهادة وهو يعرفها فلا تخرجه من الدنيا حتى تجعل به آية يعرف بها، فبرص أنس، وعُميَ البَراء بن عازب، ورجع جرير اعرابيّاً بعد هجرته وهم ممّن كتموا شهادتهم ولم يؤدوا ما حملوا، ومنه زيد بن أرقم، ويزيد بن وديعة[٢٢٤].

وكذلك ناشد أمير المؤمنين(عليه السلام) أصحاب محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) يوم صفين، واحتجت به فاطمة(عليها السلام) والإمام السبط الحسين بن علي(عليه السلام) وعبد الله بن جعفر وغيرهم، ولزيادة البيان نورد طرفاً من خطبة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) يوم الغدير.

خطبة النبي يوم الغدير

أخرج ابن جرير الطبري المتوفى سنة (٢١٠هـ) في كتاب (الولاية) بسنده عن زيد بن أرقم قال: لمّا نزل النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بغدير خمّ في رجوعه من حجة الوداع وكان في وقت الضحى وحر شديد، فأمر بالدوحات فقمن، ونادى الصلاة جامعة فجمعنا، فخطب خطبة بالغة، ثم قال:

«**إن الله تعالى أنزل إليّ: (بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)**[٢٢٥] وقد أمرني جبرئيل عن ربّي أن أقوم في هذا المشهد وأعلم كلّ أبيض وأسود أنّ علي بن أبي طالب أخي ووصيي وخليفتي والإمام بعدي، فسألت جبرئيل أن يستعفي لي ربيّ، لعلمي بقلة المتقين وكثرة المؤذين لي واللائمين لكثرة ملازمتي لعلي، وشدّة اقبالي عليه حتى سمّوني أُذُناً، فقال تعالى: **(وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ**

(٢٢٤) أنساب الأشراف ج٢ ص١٥٦، الرقم ١٦٩، حياة أمير المؤمنين محمد محمديان ج٢ ص٧٤ .
(٢٢٥) المائدة: ٦٧ .

هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ)[٢٢٦]ولو شئت أن أُسمّيهم وأدل عليهم لفعلت، ولكني بسترهم قد تكرمت، معاشر الناس فإنّ اللّه قد نصبه لكم ولياً وإماماً وفرض طاعته على كلّ أحد ماض حكمه جائز قوله، ملعون من خالفه، مرحوم من صدّقه، اسمعوا وأطيعوا فإنّ اللّه مولاكم وعليّ إمامكم، ثم الإمامة من صلبه إلى القيامة» ومنها:

«افهموا كتاب اللّه، ولا تتّبعوا متشابهه ولن يفسر ذلك لكم إلاّ من أنا آخذ بيده شائل بعضده ومُعلمكم: إنّ من كنت مولاه فعلي مولاه، وموالاته من اللّه عزَّ وجلَّ أنزلها عَليّ: ألا وقد أديت، ألا وقد أسمعت، ألا وقد أوضحت»، إلى آخر خطبته(صلى الله عليه وآله وسلم) التي رواها الثقات من رجال الأُمّة.

ومن أراد الاطلاع وسعة البيان فيراجع ما كتبه الحجّة المتتبّع فقيه التأريخ، شيخنا العلاّمة الأمين الشيخ عبد الحسين الأميني في كتابه «الغدير» ففيه نجعة الرائد وبغية الطالب.

فهذا بيان موجز عن حديث الغدير، الذي تحرّج البخاري عن اخراجه وتنكّر له كما تنكّر لكثير من فضائل أهل البيت(عليهم السلام)، وحادثة الغدير أهمّ الحوادث الإسلامية التي سجّلها التاريخ بصورة لا مجال لأحد انكارها، ومن المؤسف انكار بعض المسلمين لهذه الحادثة المهمة، مكابرة منهم بعد وضوح الحجة والدليل القاطع يوم قام النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) في ذلك الحفل الرهيب، والجمع الحاشد، وفي ذلك الهجير المضطرم، في غدير خمّ حيث مفترق المدنيين والمصريين والعراقيين، وعدد الجمع لا يقلّ عن مائة ألف، وبلّغ ما أمره به ربّه بأن ينصّ على عليّ(عليه السلام) وينصبه علماً للناس من بعده ، وكان النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) يعلم أنّ ذلك سوف يثقل على الناس وقد يحملونه على المحاباة والمحبة لابن عمّه وصهره، ومن المعلوم أنّ الناس ذلك اليوم وإلى اليوم ليسوا في مستوى واحد من الإيمان واليقين بنزاهة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وعصمته عن الهوى والغرض، ولكنّ اللّه سبحانه لم يعذره في ذلك فأوحى إليه: **(يا أَيّهَا الرَّسُولُ بَلّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)**[٢٢٧] فلم يجد بداً من الأمتثال بعد هذا الانذار الشديد، فخطب الناس عند منصرفه من حجة الوداع في غدير خم فنادى وجلّهم يسمعون: **«ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟** فقالوا: اللّهم نعم، فقال: **من كنت مولاه فهذا علي مولاه»** إلى آخر ما قال. ثم أكدّ

---

(٢٢٦) التوبة ٦١ .

(٢٢٧) المائدة ٦٧ .

ذلك في مواطن أُخرى تلويحاً وتصريحاً واشارة ونصاً حتى ادّى الوظيفة، وبلغ عند الله المعذرة، ولكن كبار المسلمين بعد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) تأولوا تلك النصوص نظراً منهم لصالح الإسلام حسب اجتهادهم فقدّموا وأخّروا وقالوا: «الأمر يحدث بعده الأمر»[٢٢٨].

عناية الشيعة بعيد الغدير

وكان عيد الغدير محلّ عناية أهل البيت وشيعتهم على ممر العصور، يقيمون شعائره حسب مناسبات الظروف، وفي عهد آل بويه أُقيم في بغداد سنين متطاولة بصورة علنية نظراً لرفع الرقابة وعدم الحذر، وقد عظم ذلك على خصوم الشيعة فثاروا ضد اعلان هذا العيد، وحدثت ثورات دموية بين السنة والشيعة على فترات من الزمن، والشيعة متمسكة بإظهار هذا العيد لا تقف تلك المحاولات في طريق إقامة شعائره، ولمّا رأى خصوم الشيعة أنّ وسائلهم التي قاموا بها ضدّ هذه الشعائر كان نصيبها الفشل، التجأوا إلى المغالطات العلميّة فقاموه في احداث عيد يقابلون فيه عيد يوم الغدير الزاهر. وهو يوم الغار وجعلوه عيداً وأقاموا الزينة ونصبوا القباب في اليوم السادس والعشرين من ذي الحجّة، وزعموا أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وأبا بكر اختفيا في الغار، وهذا من الجهل والغلط البيّن، فإنّ أيام الغار إنّما كان في آخر صفر أو أول شهر ربيع الأوّل[٢٢٩] واستمروا على ذلك مدة ثمّ كان مصير هذا العيد إلى الإهمال والنسيان.

أمّا الشيعة فقد استمروا على إحياء عيد الغدير وإقامة المآتم يوم عاشوراء فضاق بأعدائهم ذرعاً ففي سنة (٣٦٣ هـ) عمدوا إلى مقابلة الشيعة وأركبوا امرأة وسمّوها عائشة، وتسمّى بعضهم بطلحة وبعضهم بالزبير، وقالوا: نقاتل أصحاب علي فقتل بسبب ذلك من الفريقين خلق كثير[٢٣٠].

واستمرّت الفتن بين الطرفين بسبب إقامة هذه العشائر، وبلغت مبلغاً شديداً حتى التجأ خصوم الشيعة إلى الاستعانة بالجند والسودان، وذلك في سنة (٣٥٠هـ ٩٦١م) وكان الجنود يسألون من يجدونه في الطريق من خالك؟ فإن لم يقل معاوية ضربوه.

---

(٢٢٨) أصل الشيعة وأصولها ص١٠٨.

(٢٢٩) شذرات الذهب لابن العماد ج٣ ص١٢٠ .

(٢٣٠) تاريخ ابن كثير ج١١ ص٢٢٥ .

وطاف أحد السودان المتهجّمين بالطرقات وهو يصيح بين الناس: معاوية خال علي فتابعه العامة، وأصبحت هذه هي صيحة أهل السنة بمصر حينما يريدون قتال الشيعة[٢٣١].

ويحكى عن بعض الشيعة في تلك المحنة قيل له: معاوية خالك فقال: لا أدري أكانت أمي نصرانية. كلّ ذلك محاولة منهم لإرغام الشيعة على ترك إقامة هذه الشعائر، ولكنّها مرّت على ذلك غير مبالية بتلك المقابلات الفاشلة.

كما أنّهم قابلوا يوم عاشورا بيوم مصرع مصعب بن الزبير، وأقاموا عليه النياحة وزاروا قبره يومئذ بمسكن[٢٣٢] ونظّروه بالحسين(عليه السلام) لكونه صبر وقاتل حتى قتل، ولأن أباه ابن عمة رسول اللّه وحواريه، كما أنّ أبا الحسين(عليه السلام)ابن عمّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وفارس الإسلام، فنعوذ باللّه من الهوى والفتن[٢٣٣].

وناهيك ما جرى في بغداد من حروب دامية مبعثها الجهل والتعصّب التي يقف القلم عند وصفها، وأعظمها محنة وقعة الكرخ التي تجلّت فيها نفسية قوم أشرب قلوبهم بغض آل محمد والقضاء على من يواليهم، فقد هجمت طوائف يبعثهم صلف الولاة وميلهم للنزعات، حتى أحرقوا دور شيعة آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)وقتلوا الرجال والأطفال، فكانت عاقبة الدولة إلى الدمار والانهيار بعد تلك الحادثة بقليل، وليس في وسعنا التعرّض لذكر تلك الفجائع السود، ولا نودّ نبش تلك الدفائن التي مرّت في تلك العصور المظلمة، ونحن في عصر ما أحوجنا فيه إلى الأخوّة والاتحاد لنقابل من يكيد الإسلام ويحاول القضاء على تعاليمه، ولا يروق له اتحاد المسلمين; لأنّ في اتّحادهم يكون القضاء على المستبدين بأمور الأمة، وكلّنا أمل بالوعي المتعاظم بوجوب تطبيق نظام الإسلام، ومن اللّه نسأل تحقيق ذلك.

---

(٢٣١) الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز ج١ ص١١٢.

(٢٣٢) مسكن: موضع على نهر دجيل في العراق دارت الحرب فيه بين عبدالملك بن مروان ومصعب بن الزبير سنة (٧٢ هـ) فقتل مصعب ودفن فيه.

(٢٣٣) شذرات الذهب لابن العماد ج٣ ص١٣٠.

حديث الثقلين

تخريج الحفاظ لحديث الثقلين

أخرج مسلم في صحيحه من طريق زيد بن أرقم خطبة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) يوم الغدير، وقوله(صلى الله عليه وآله وسلم) فيها: «**وأنا تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه فيه الهُدى والنور فخذوا بكتاب اللّه واستمسكوا به، فحثّ على كتاب اللّه ورغب فيه، ثم قال وأهل بيتي أذكركم اللّه في أهل بيتي**»[٢٣٤].

وأخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم قال، قال رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم): «**إنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب اللّه ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلّفوني فيهما**»[٢٣٥].

وأخرجه أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم): «**إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي وأنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض**»[٢٣٦].

وعن أبي سعيد أيضاً عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: **إنيّ أوشك أن أدعى فأجيب وإنّي تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي، كتاب اللّه حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنّ اللطيف الخبير أخبرني أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا بم تخلّفوني فيهما**[٢٣٧]**؟**

ورواه البغوي في مصابيح السنة[٢٣٨] والقاضي عياض في الشفاء[٢٣٩].

وأخرج الخطيب البغدادي من طريق حذيفة بن أُسيد أنّ رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم)قال: **يا أيّها الناس إنّي فرط لكم وانتم واردون عليّ الحوض، وإنّي سائلكم حين تردون عليّ عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما، الثقل الأكبر كتاب اللّه سبب طرفه بيد اللّه وطرفه بأيدكم واستمسكوا به**[٢٤٠].

---

(٢٣٤) صحيح مسلم ج٧ ص١٢٢ .
(٢٣٥) سنن الترمذي ج٢ ص٣٠٨.
(٢٣٦) مسند أحمد ج٢ ص١٤ ط ١ .
(٢٣٧) مسند أحمد ج٢ ص١٧ ـ ٢٦.
(٢٣٨) مصابيح السنة ج٢ ص٢٠٤ .
(٢٣٩) الشفاء، للقاضي عياض ج٢ ص٤٠ .
(٢٤٠) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج٨ ص٤٤٣ .

وأخرجه الحاكم من طريق زيد بن أرقم في (المستدرك)[٢٤١] ورواه السيوطي من ثلاث طرق: من طريق زيد بن أرقم، وزيد بن ثابت وأبي سعيد الخدري[٢٤٢].

وأخرجه فقيه الحرمين محمد بن يوسف الشافعي في كتابه (كفاية الطالب)[٢٤٣]، وأخرجه الطبري في (الذخائر)[٢٤٤] من طريق زيد بن أرقم.

وأخرجه ابن حجر في (الصواعق المحرقة) ثم ذكره بطرق مختلفة، وقال: ولهذا الحديث طرق كثيرة عن بضع وعشرين صحابياً[٢٤٥]. وذكره الشيخ عبد الله بن محمد الشبراوي في كتاب (الاتحاف بحبّ الاشراف)[٢٤٦] والسيوطي في كتاب (احياء الميت بفضائل أهل البيت)[٢٤٧] المطبوع على هامش الاتحاف، وذكره الشيخ العدوي في (مشارق الأنوار) عند ذكره لفضائل أهل البيت[٢٤٨]، والعلاّمة السيد خير الدين أبي البركات نعمان افندي الآلوسي في (غالية المواعظ)[٢٤٩] .

وقال ابن حجر الهيثمي في (شرح الهمزية) عند ذكر آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم): وفي الحديث: **والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد بي حتى يحبّني ولا يحبّني حتى يحبّ ذوي قرابتي، أنا حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم وعدو لمن عاداهم، ألا ومن آذى قرابتي فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى اللّه**، ثمّ ذكر حديث الثقلين واختصاصه بآل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)[٢٥٠].

ورواه ابن كثير في تفسيره، من طريق زيد بن أرقم قال: قام فينا رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) يوماً خطيباً بماء يدعى خماً بين مكة والمدينة فحمد اللّه واثنى عليه ووعظ وذكر، ثم قال: **أمّا بعد، ألا أيّها الناس فإنّما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربّي فأجيب، وأنا تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب اللّه واستمسكوا به. فحث على كتاب اللّه عزّ وجلّ ورغب فيه**، ثم قال: **وأهل بيتي أذكركم اللّه في أهل بيتي اذكركم اللّه في أهل بيتي اذكركم اللّه في أهل بيتي**[٢٥١].

---

(٢٤١) المستدرك ج٤ ص١٠٩.
(٢٤٢) الجامع الصغير ج١٥٧ ص٢٦٣١.
(٢٤٣) كفاية الطالب ص٥٣.
(٢٤٤) ذخائر العقبى ص٢٦.
(٢٤٥) الصواعق المحرقة ص١٣٦.
(٢٤٦) الاتحاف بحب الأشراف ص٢٢ .
(٢٤٧) المطبوع على هامش الاتحاف هو : «حسن التوسّل في آداب زيارة أحسن الرسل». انظر الهامش ٢٤٧.
(٢٤٨) مشارق الأنوار: ١٤٦.
(٢٤٩) غالية المواعظ ج٢ ص٨٧ .
(٢٥٠) المنح المكية في شرح الهمزية ج٣ ص١١٥٤ .
(٢٥١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٨٦ .

وقال الشيخ عبد الرحمن النقشبندي في كتابه (العقد الوحيد) بعد ذكره أهل البيت: كيف وهم أنجم ديننا ومصدر شرعنا وعمدة أصحابنا؟ فيهم ظهر الإسلام وفشى، وبهم تأيدت أركانه ونشأ، ومن ثم صحّ أنه(صلى الله عليه وآله) قال: **إنّي تارك فيكم ما أن اخذتم به لن تضلّوا كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني**. وصحّ عنه(صلى الله عليه وآله) قال: **من سرّه أن يكتال بالمكيال إلاّ وفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل، اللّهم صلّ على محمد وآله،** وروي عن الشافعي أنّه قال بوجوب الصلاة على الآل في التشهد الأخير، وروي له قوله:

يا آل بيت رسول اللّه حبّكم *** فرض من اللّه في القرآن أنزلـه
كفاكم من عظيم القدر أنّكم *** من لم يصلّ عليكم لا صلاة له[٢٥٢]

وجاء في مجلة المسلم: أهل البيت حرّاس هذا الدين وورثة هذا المجد إلى أن يقول: وكان أهل البيت هدفاً للطعن والأذى المنوع، بل وللإبادة في كلّ عصور التاريخ من عهد الإمام علي رضي اللّه عنه، وقد اتخذ اعداؤهم محاربتهم ديناً نسبوه ظلماً لجدّهم(صلى الله عليه وآله وسلم) ولعبت أطوار التاريخ في ذلك أدواراً مريرة، حتى جرّدوهم من أنسابهم وأملاكهم وأوقافهم; بعد أن أفاءوا عليهم صنوف المهانات وألوان العذاب باسم الدين المظلوم مالا يعلمه إلاّ اللّه، ولم يكفهم أن ينالوا منهم حتّى دفعهم سوء الطبع وسوء الأدب[٢٥٣] وسوء الإيمان والغل الدفين إلى تأليف الكتب في اضطهاد آل الرسول وسبّهم باسم احياء السنة واجتهاد الرسول والعياذ باللّه. انتهى[٢٥٤].

وقال في القاموس في مادة ثقل: الثقل كعنب، ضد الخفة، والثقل محركة متاع المسافر وحشمته، وكلّ شيء نفيس مصون، ومنه الحديث: «**إني تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه وعترتي**»[٢٥٥].

وقال محب الدين في (التاج) في مادة ثقل عند ذكر الحديث: جعلهما ثقلين إعظاماً لقدرهما وتفخيماً لهما ، قال ثعلب: سمّاهما ثقلين، لأنّ الأخذ بهما ثقيل والعمل بهما ثقيل[٢٥٦]. قال الزهري: وروى شريك عن الركين عن القاسم عن حسان عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) **إنّي تارك فيكم الثقلين خلفي: كتاب الله وعترتي فإنّهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض**. قال محمد بن إسحاق: وهذا حديث حسن صحيح، ورفعه

---

(٢٥٢) العقد الوحيد ص٧٨.
(٢٥٣) تهذيب اللغة ج ٢ ص٢٦٤ .
(٢٥٤) مجلة المسلم ع١ ، ص ٨، س ٢ ـ ١٣٧١ هـ .
(٢٥٥) القاموس المحيط ج٣ ص٥٠٢ مادة «ثقل».
(٢٥٦) تاج العروس ج٧ ص٣٤٥ مادة «ثقل».

نحوه زيد بن أرقم وأبو سعيد الخدري وفي بعضها: **إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي.** فجعل العترة أهل البيت، وروى أبو العبّاس عن ابن الاعرابي أنه قال: العترة ولد الرجل وذرّيته وعقبه من صلبه. قال: فعترة النبي(صلى الله عليه وآله): ولد فاطمة البتول(عليها السلام).[٢٥٧]

وقال ابن أبي منظور في لسان العرب: روي عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال في آخر عمره: «**إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي**» ثم ذكر قول ثعلب وقال: وأصل الثقل أنّ العرب تقول: لكلّ شيء نفيس مصون خطير ثقل، فسمّاهما ثقلين إعظاماً لقدرهما وتفخيماً لشأنهما، ويقال للسيد العزيز ثقل، إلى آخره[٢٥٨].

وقال ابن الأثير في النهاية بعد أن ذكر قوله(صلى الله عليه وآله وسلم): «**إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي سمّاهما ثقلين لأن الأخذ بهما والعمل بهما ثقيل**، ويقال لكلّ خطير ثقل[٢٥٩]، وقال في المصباح: العترة نسل الإنسان، قال الزهري: وروى ثعلب عن ابن الاعرابي: إنّ العترة ولد الرجل وذرّيته وعقبه من صلبه، ولا تعرف العرب من العترة غير هذا[٢٦٠].

وقال السيد محمد صديق حسن البخاري في كتاب (الدين الخالص) بعد ذكره لهذا الحديث من طريق زيد بن أرقم:

هذا الحديث فيه فضيلة أهل البيت وبيان عظم حقّهم في الإسلام، وأنّهم قرين القرآن في التعظيم والاكرام، وليس بعد هذا البيان من رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)بيان، ولا قرية بعد عبادان.

وقال: وعندي أنّ المراد بهم: «أي بأهل البيت» هم الموجودون في عصر النبوة أولاً بالذات، ولكن يدخل فيهم أيضاً من وجد بعدهم من السادة القادة إلى العلم والعبادة، كالأئمة الاثني عشر من العترة.

إلى أن يقول: والمراد بأهل البيت ـ هنا ـ العترة الطاهرة، والذرية المطهرة خاصة دون أزواج النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)[٢٦١].

ويطول بنا الحديث إذا حاولنا تتبع مخارج هذا الحديث وبسط القول فيه، وقد اقتصرنا على هذا القدر من طرقه، وقد ألّف الحافظ محمد بن طاهر بن علي

---

(٢٥٧) تهذيب اللغة ج٢ ص ٢٦٤ .

(٢٥٨) لسان العرب ج٢ ص١١٤ مادة «ثقل».

(٢٥٩) النهاية ابن الأثير ج١ ص٢١٦ مادة «ثقل».

(٢٦٠) المصباح المنير ص٨٣ مادة «ثقل».

(٢٦١) الدين الخالص ج٣ ص٥١١ ـ ٥١٤ .

المعروف بالقيصراني كتاباً خاصاً جمع فيه طرق هذا الحديث، وقد خرّجه عن ٢٧ صحابياً.

وهناك أمر يستدعي الانتباه وهو أنّ يد التحريف التي لا زالت تبعث على الأمة عوامل التفرقة قد جنت جناية عظيمة، فحرفته مخالفة للّه ولرسوله، فإنّ الحديث يقول: كتاب اللّه وعترتي، وهم يقولون كتاب اللّه وسنتي وهم يقصدون من وراء ذلك تغيير الواقع والتمويه لما يتضمنه هذا الحديث الشريف الذي قرن العترة بالكتاب، وجعلهما كتوأمين يلزم التمسك بهما، وإيثار حقّهما، وأنّ العترة باقية إلى يوم القيامة.

قال الشريف السمهودي: هذا الخبر يفهم منه وجود من يكون أهلاً للتمسك به من عترته(صلى الله عليه وآله وسلم)في كلّ زمن إلى قيام الساعة حتى يتوجه الحثّ المذكور على التمسّك به، كما أنّ الكتاب كذلك، ولذا كانوا أماناً لأهل الأرض، فإذا ذهبوا ذهب أهل الأرض[٢٦٢].

وقال الشيخ الزرقاني ـ بعد شرحه لهذا الحديث ـ : أمّا الكتاب فلأنه معدن العلوم الدينية، والاسرار والحكم الشرعية، وكنوز الحقائق، وخفايا الدقائق.

وأما العترة فلأنّ العنصر إذا طاب أعان على فهم الدين، فطيب العنصر يؤدي إلى حسن الأخلاق، ومحاسنها يؤدي إلى صفاء القلب ونزاهته وطهارته، وأكّد(صلى الله عليه وآله وسلم) تلك الوصية وقواها بقوله: «فانظروا بماذا تخلفوني فيهما» هل تتبعوني فتسروني، أو لا فتسيئوني؟[٢٦٣].

وهو(صلى الله عليه وآله وسلم) أعرف بالمصالح العامة، ورأى أنّ مصلحة أُمته في التمسّك بهذين الثقلين من باب رعاية المصلحة لهم، وتحصيلاً لسعادتهم، فأكّد(صلى الله عليه وآله وسلم)في عدّة مواطن على لزوم اتباع أهل بيته وأنّهم أولى الناس برعاية شؤون الأمة، ولذا جعل مثلهم كمثل سفينة نوح.

حدث أبو ذر الغفاري عن رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) ـ وهو آخذ بباب الكعبة ـ أنّه قال: **«مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق».**

أخرجه أحمد بن حنبل[٢٦٤] والحاكم في المستدرك[٢٦٥]، وغيرهما من المحدثين.

---

(٢٦٢) الدين الخالص ج٣ ص٥١١، ٥١٤ ، جواهر العقدين في فضل المشرفين ص٢٤٤ .

(٢٦٣) شرح المواهب اللدنية ج٨ ص٢ .

(٢٦٤) الفضائل ج٢ ص٧٨٥ ح١٤٠٢.

(٢٦٥) المستدرك على الصحيحين ج٣ ص١٦٣ /٤٧٢٠.

وأخرج الطبراني عن أبي سعيد الخدري، أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «**إنّما أهل بيتي فيكم مثل باب حطة في بني إسرائيل من دخله غفر له**»(٢٦٦).

وغير هذه الأحاديث الواردة بالطرق الصحيحة ممّا ملأ سمع الدنيا ورددتها الأجيال وأوردها العلماء، فهي تقضي بوجوب التمسك بأهل البيت واتباعهم وحبّهم ومناصرتهم، فهم دعاة الحقّ وهداة الخلق، واعلام الرشاد وقادة العباد.

ونحن نقطع بأنّ المسلمين لو توفّرت لهم حرية الرأي توافراً تاماً ليعلنوا غير خائفين فيمن يجب ان يرشحوه خليفة عليهم، ويؤهّلوه لرعاية أُمورهم وولاية أمرهم لتحقيق المصالح العامة وسعادة المجتمع الإسلامي من جميع الوجوه، لما عدلوا عن أهل بيت النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) رعاية لوصاياه(صلى الله عليه وآله وسلم)وامتثالاً لأمره، وأنّ أهله المرشحين للخلافة قد اجتمعت فيهم خصال الكمال وأهليّة الرعاية وولاية الأمر، ولم يستطع أحد أن يلصق بهم عيباً، وإن كان خصماً لهم، وحرباً عليهم .

ولكنّ الأمر أصبح وراثياً في أُسرة معينة، ينتقل من واحد لواحد بالوصاية وولاية العهد، كما رأينا من فعل معاوية ببيعة يزيد بالسيف وقوة السلطان، وهكذا من بعده في ولاية الحكم ولا رأي للأمة في ذلك. ولننظر الى ما عليه الحكام وما ارتكبوه بحقّ الأمة والدين وكيف كانت العلاقات. يقول السيوطي: وأخرج البخاري والنسائي وابن حاتم في تفسيره ـ واللفظ من طرق ـ إنّ مروان خطب بالمدينة وهو على الحجاز من قِبَل معاوية فقال: إنّ الله قد أرى أمير المؤمنين في ولده يزيد رأياً حسناً وإن يستخلفه فقد استخلف أبوبكر وعمر ـ وفي لفظ ـ : سنة أبي بكر وعمر. فقال عبدالرحمن بن أبي بكر: سنّة هرقل وقيصر، إن أبا بكر والله ما جعلها في أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته، ولا جعلها معاوية إلاّ رحمة وكرامة لولده. فقال مروان: ألستَ الذي قال لوالديه أف لكما. فقال عبدالرحمن: الست من اللعين الذي لعن أباك رسول الله(صلى الله عليه وآله)؟ فقالت عائشة رضي الله عنها: كذب مروان، ما فيه نزلت، ولكن نزلت في فلان ابن فلان، ولكن رسول الله(صلى الله عليه وآله) لعن أبا مروان ومروان في صلبه فمروان بعض من لعنه الله(٢٦٧).

وعلى أيّ حال فإنّ أهل البيت هم هداة الأمة، وكانت الانظار تتجه إليهم في جميع الأدوار، وسنوضّح فيما بعد التفاف الناس حول الإمام الصادق وترشيحه لولاية الأمر، لأنّه زعيم أهل البيت وسيدهم في عصره.

---

(٢٦٦) المعجم الأوسط للطبراني ج٦ ص٤٠٦ /٥٨٦٦.

(٢٦٧) تاريخ الخلفاء ص٧٨ .

ونعود إلى القول: بأنّ عدم تخريج الشيخ البخاري أحاديث الإمام الصادق هو شيء يعود إلى البخاري نفسه ولا يقدح بشخصية الإمام الصادق(عليه السلام) ، فهو الذي اجمعت الأمة على صدقه فلقّبوه بالصادق، وقد خرّج البخاري أحاديث تلامذة الإمام الصادق(عليه السلام) ، ولكنه تجنّب الروايات التي يروونها عنه(عليه السلام).

وليس بغريب أن تقضي الظروف القاسية بأن يبتعد الناس عن أهل البيت حبّاً للسلامة أو استسلاماً لعوامل أخرى.

ولا بدّ لنا أن نشير هنا الى أنّ البخاري لم يجمع الأحاديث الصحيحة عنده كلّها فإنّه قد ترك الكثير منها.

حدّث الإسماعيلي عنه أنّه قال: لم أخرّج في هذا الكتاب إلاّ صحيحاً وما تركت من الصحيح أكثر(٢٦٨).

وقد نُقل عنه أنّه يحفظ مائة ألف حديث صحيح(٢٦٩)، وليس في كتابه بالنسبة لذلك إلاّ القليل، فإنّ جميع ما فيه أربعة آلاف والمكرر ألفان، فيكون المجموع ستة آلاف.

ومع هذا فلا يمكن القطع بصحة كلّ مايرويه أو أنّها أصح الأحاديث .

قال المحقّق ابن همام في شرح الهداية: وقول من قال: أصحّ الأحاديث ما في الصحيحين، ثمّ ما انفرد به البخاري، ثم ما انفرد به مسلم، ثم ما اشتمل على شرطهما، ثم ما اشتمل على شرط أحدهما تحكّم لا يجوز التقليد فيه، إذ الأصحيّة ليست إلاّ لاشتمال رواتها على الشروط التي اعتبراها، فإن فرض وجود تلك الشروط في رواة حديث في غير الكتابين أفلا يكون الحكم بأصحيّة ما في الكتابين عين التحكم؟!(٢٧٠)

وبعد هذا نقول: لعلّ ترك البخاري للأحاديث الصحاح في فضائل أهل البيت(عليهم السلام) لم يكن لعدم وثوقه في صحتها، أو توقفه عن قبولها، ولكنّه مع ذلك تركها عمداً اختصاراً لكتابه، أو تهيّباً مما وراء ذلك من اتهام.

كما أنّ عدم تخريج أحاديث الإمام(عليه السلام) لا يعود بالتأثير السلبي على شخصية الإمام الصادق أو أنّه يشكل غضّاً من مكانته، يُعتدّ به، فإنّ ذلك ما عجز عنه ملوك العصر بكلّ ما أُوتوه من إمكانات، وفشل أذنابهم فيه أيضاً. كذلك لم يستطع البخاري ولا غيره أن يجرحوا الإمام الصادق(عليه السلام) بشيء أبداً.

---

(٢٦٨) هداية الباري ص٥ .

(٢٦٩) شرح ألفية العراقي ج١ ص٤٨ .

(٢٧٠) أضواء على السّنة المحمدية ص٣١٢ .

والأمّة الإسلامية قد تقبّلت رواياته وأخذت بأقواله(عليه السلام)، حتى لقّب بالصادق، وكان المرجع الوحيد لإيضاح المبهم وحلّ ما أشكل عليهم; وقد ملأ رواة حديثه الأقطار الإسلامية، وكان في الكوفة الف شيخ محدّث، كلّ يقول: حدّثني جعفر بن محمد.

ولا نطيل الحديث هنا وسيأتي فيما بعد ما له صلة بالموضوع إن شاء اللّه.

الإمام الصادق(عليه السلام)
ملوك عصره وأمراء بلده

الإمام الصادق(عليه السلام) **مُلوك عَصره وأمراء بَلده**

تمهيد

لقد رفضت الدولة الأمويّة الأخذ بنظام الإسلام في حريّة الرأي والاجماع الصحيح من أهل الحل والعقد، ودعت الى محاربته وارتبطت أشدّ الارتباط بفوضى الجاهلية، وجمعت شتات ذلك الجمع الذي فرّقه المصلح الأعظم بدعوته.

فالإسلام يأمر بوحدة وهم فرّقوا الكلمة، وينهى أن تراق الدماء وقد ولغوا فيها، ويأمر بالاحسان والعدل وقد جاروا في الحكم وأساءوا السيرة في الأمة، فإذا رجعنا الى ماضي الجاهلية والتاريخ الذي سجل تلك العصور الوحشية أدركنا أنّه تمثل في عصرهم بأوضح صورة، وقد دفعوا الناس الى التخطّي عن حدود الدين الإسلامي الذي جاء بتعاليم تحسبها النفوس الشريرة سجناً ضيّقاً تتمنى الخروج منه، والتمرّد على أوامره ونُظمه التي سنّها الشرع المقدس لحفظ النظام وسعادة البشر; فهو يعاب على ترك الصلاة، وشرب الخمر، وقتل النفس وأكل الأموال بالباطل، وحدّد حدوداً، ونظّم قوانين يُعاقب بها المجرم بمخالفته حسب جريمته، ولم يفرق في تطبيقها بين أفراد الأمة جمعاء، فهي بعمومها تشمل الشريف والوضيع، والحرّ والعبد، والذكر والأنثى، ولم تكن هناك رخصة لأحد فيها، و لا ميزة تطبّق من أجلها على طبقة دون أخرى. فالكلّ يخضعون لذلك النظام على حدّ سواء، وليس هناك طبقة فوق القانون الذي شرّعه الإسلام، وما ذلك إلاّ لقلع جذور الشقاء، وغرس السعادة، ورعاية المصلحة العامة، ليجتني الناس ثمر ذلك الغرس الذي غذّاه محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)بتعاليمه، واجهد نفسه أي جهد في تفهيم الناس منافعه ومصالحه.

ولا ريب أنّ هذه التعاليم التي تكفّلت للأمة السعادة في اتباعها تحتاج الى تنفيذ وتطبيق، ولا يقوم بهذه المهمة إلاّ الإنسان الكامل الذي لا تهمّه مصلحة نفسه، بل إنّ أهمّ شيء عنده المصلحة العامة، وهو الذي يغذّي الأمة بعلمه لتنال السعادة على ضوء تعاليمه، وتحيى الحياة المطلوبة في صعيد إرشاداته.

وما الإسلام إلاّ مجموعة نظم وقوانين سماوية هبطت إلى الأرض بواسطة النبيّ الأعظم، فهو الذي يتولّى تطبيقها في حياته، ومن يختاره لذلك بعد وفاته بأمر من المشرّع الأعلى: **(وربّك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة)**[٢٧١].

قال الإمام كاشف الغطاء(رحمه الله) : فالإمامة منصب إلهيّ كالنبوّة، فكما أنّ الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة، فكذلك يختار للإمامة من يشاء، ويأمر نبيّه بالنص عليه، وأن ينصبه إماماً للناس من بعده للقيام بالوظائف التي كان على النبيّ أن يقوم بها، سوى أنّ الإمام لا يوحى إليه كالنبيّ، وإنّما يتلقى الأحكام منه مع تسديد إلهي، فالنبيّ مبلّغ عن الله والإمام مبلّغ عن النبيّ، والإمامة متسلسلة في اثني عشر، كلّ سابق ينص على اللاحق وهو معصوم ـ كالنبيّ ـ عن الخطأ والخطيئة، وإلاّ لزالت الثقة: **(إنّي جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين)**[٢٧٢] ، لأنّ الغرض هو تكميل البشر وتزكية النفوس بالعلم والعمل الصالح: **(هو الذي بعث في الأمّيين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة)**[٢٧٣]. والناقص لا يكون مكمّلاً لغيره، والفاقد لا يكون معطياً. انتهى[٢٧٤].

ولأنّ شريعة الإسلام قائمة الى قيام الساعة، فلابدّ من استمرار الدعوة وبقاء مقتضيات الإرشاد ووسائل التوجيه، ومن اللازم أن يكون الدوام والبقاء في الدين على يد مؤهّل يحمل صفات صاحب الرسالة الأصلي ويتحلى بخصائص مميّزة تمكّنه من الاضطلاع بمهمات النيابة عن صاحب الرسالة وتمثيل أحكام الشريعة وأداء أعباء قيادة الناس وتصدّرهم بحيث لو انقاد الناس في أمر ديني وشرعي الى غيره لبان جليّاً الفرق في مباشرة الأمر من قبل مؤهل بطريق الاختيار والحكمة الإلهية عنه من قِبَل مرشح آخر تتداخل في إظهار أمره عوامل كثيرة لا حاجة للدخول فيها. أمّا لو اتفق الناس في الانقياد الى حاكم زمني فإنّ أمر الدين سيكون أوضح وأكثر جلاءً كما حدث على مرّ العصور، فإنّ الإمام من أهل البيت الأطهار كان في ورعه وتقاه وعلمه لا يزيده إجرام الحكّام وتعسفهم إلاّ تمسكاً بموقعه ومسؤولياته في ولايته الدينية، فيزداد سلطانهم في النفوس ويتّسع اتجاه الناس إليهم

---

(٢٧١) القصص ٦٨ .

(٢٧٢) البقرة ١٢٤ .

(٢٧٣) الجمعة ٢ .

(٢٧٤) أصل الشيعة وأصولها ص١٠٢ .

بعوامل الإيمان والتمسك بأهداف الدين في مقابل الإذعان والخنوع لقوّة السلطة وحراب المتحكّمين.

والإمام الصادق(عليه السلام) هو سادس الأئمة الاثني عشر، وهو صاحب هذه الولاية وولي أمر المسلمين، وهو الإنسان الكامل الذي اختاره الله لتطبيق ذلك النظام المقدّس في عصره، وحسبك دليلاً على نزاهته وعظمته أنّ خصومه ـ على كثرة عددهم واختلاف عقائدهم ـ لم يستطيعوا أن يثبتوا عليه زلة أو منقصة اجتماعية، أو نكسة علميّة حتى ساعة وفاته.

وظلّت الأنظار متّجهة إليه فهو المبرّز من أهل البيت وسيّدهم في عصره، وقد طلب من قوّاد الثورة أن يبايعوه، لأهليّته للخلافة ولثقة المجتمع به، ولكنّه امتنع عن ذلك لما يراه من وراء سير الحوادث كما سنبيّنه إن شاء الله.

ولسنا في موقف الراغب هنا في البحث عن الإمامة والولاية العامة، فلها محل آخر.

ولكنّنا في معرض بيان موجز، عن أعمال الولاة في عصر الإمام الصادق(عليه السلام)الذين يفترض أن يتولوا رعاية الأمة وليس لهم قدرة على إصلاح أنفسهم فكيف تصلح بهم الأمة؟! وقد شاهد(عليه السلام) صنيعهم السيّئ وسيرتهم الملتوية في منهجهم السياسي الفاتك من اضطراب حبل الأمن، وانصرافهم الى أعمال تسيء الى الدين وترهق المسلمين لا يهمّهم شيء إلاّ الرياسة والسيطرة على الرعية وإشباع رغباتهم، من أيّ طريق كان، الى ما هنالك من جرائم هي سلسلة عذاب ونقمة أضعفت الأمة، خالفوا الكتاب والسنّة، ووقفوا حاجزاً دون المجتمع ودون سعادته التي جعلها الله لهم باتباع أوامر الدين، والخضوع لنظامه.

وسنعرض بعض الحوادث التي جرت في ذلك العصر لنعرف مقدار ما تحمّله الإمام الصادق(عليه السلام) من عظيم المسؤولية وصعوبة ما أحاط به من أوضاع مؤلمة قاسية انتهج فيها الإصلاح الروحي، وهو وسط ظروف سياسية يتوقع فيها الأذى كلّ حين، فكان(عليه السلام) يتّجه الى المسلمين فيشاركهم أحوالهم ويعمل على إبقاء نظام الدين في الحياة كما هو في نفوسهم، كما كان عليه في ذات الوقت أن يتحاشى نقمة الحكام الذين تعدّدت وسائل مراقبتهم له، وعيون رصدهم ومضايقاتهم.

موقف الإمام الصادق من الظالمين

فكان موقفه(عليه السلام) في تلك المدة موقف الرجل المصلح الذي يصول بيد جدّاء لقلّة أعوانه، فهو يراقب الحوادث عن كثب، ويتألّم لتلك الفظائع ويشارك المسلمين في مآسيهم.

ولم يكن (عليه السلام) ليترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإرشاد الناس مع شدّة الرقابة ونصب حبائلهم له ليلحقوه بشهداء آل محمد، ولكنّ الله دفع شرّهم عنه.

فكان(عليه السلام) يبثّ تعاليمه في معارضتهم، ويحذّر الأمة من مخالطة أئمّة الجور، كما اشتهر ذلك عنه فكان(عليه السلام) يقول: «**إيّاكم أن يخاصم بعضكم بعضاً الى أهل الجور**»[٢٧٥].

وقال(عليه السلام): «**أيّما مؤمن قدم مؤمناً في خصومة الى قاض أو سلطان جائر، فقضى عليه بغير حكم الله فقد شركه في الإثم**»[٢٧٦].

وقال(عليه السلام): «**أيّما رجل كان بينه وبين أخ له مماراة في حقّ فدعاه الى رجل من إخوانكم ليحكم بينه وبينه فأبى إلاّ أن يرافعه الى هؤلاء، كان بمنزلة الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم: (ألم ترَ الى الذين يزعُمون أنّهم آمنوا بما أنزلَ إليكَ وما أنزل من قبلك يُريدونَ أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به...)**»[٢٧٧].

وقال(عليه السلام): «**اتّقوا الحكومة فإنّ الحكومة للإمام العالم بالقضاء، العادل في المسلمين، كنبيّ أو وصيّ نبي**»[٢٧٨].

وسأله رجل عن قاض بين فرقتين يأخذ من السلطان على القضاء الرزق؟ فأجابه(عليه السلام): «**إنّ ذلك سحت**»[٢٧٩]. وقال: «**العالم بالظلم، والمعين له، والراضي به كلّهم شركاء ثلاثتهم**»[٢٨٠]، الى كثير من ذلك، وسنذكر بعضها فيما بعد.

وكان يحثّ الناس ويدعوهم الى مقاطعتهم وعدم الركون إليهم، ويدعو الأمة الى الاتحاد ضدّ أولئك الظلمة امتثالاً لقوله تعالى: (**ولا تَركنوا الى الذين ظلموا فتمسّكم النار**)[٢٨١]. فهو يبثّ نصيحته بين طبقات ذلك المجتمع بصفته إمام زمانه ويواصل

---

(٢٧٥) وسائل الشيعة ج٢٧ ص١٣، أبواب صفات القاضي، ب١، ح ٥ .

(٢٧٦) وسائل الشيعة ج ٢٧ ص١١، أبواب صفات القاضي، ب ١، ح ١.

(٢٧٧) النساء ٦٠ .

(٢٧٨) الكافي للكليني ج ٧ ص٤٠٦ ح١ باب «إن الحكومة إنما هي للإمام»، ومن لا يحضره الفقيه ج٣ ص٥ ح٣٢٢٢.

(٢٧٩) وسائل الشيعة ج٢٧ ص ٢٢١، باب١ من أبواب تحريم الرشوة ح١.

(٢٨٠) الكافي ج٢ ص ٢٥٠، وعنه وسائل الشيعة ج١٧ ص ١٧٨ .

(٢٨١) هود ١١٣ .

جهاده في سبيل الدعوة الإصلاحية، ليفك أسر الأمة من يد من أفسدوا ذلك المجتمع الصالح، وقد عاش(عليه السلام) مدة من الزمن وعاشر كثيراً من ملوك عصره فما ركن لهم، وما استطاعوا أن يستميلوه وقد حاول المنصور أن يستميله(عليه السلام) ليوهم الناس أنّ ولايته على حقّ، فأرسل إليه: لِمَ لا تغشانا كما يغشانا سائر الناس؟

وكان المنصور يظنّ أنْ ينال من الإمام جواباً يحقّق هذا الطلب، إذ المنصور سلطان العصر ومهاب الجانب.

فكان جواب الإمام(عليه السلام): «**ما عندنا من الدنيا ما نخافك عليه ولا عندك من الآخرة مانرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنيك عليها، ولا تعدّها نقمة فنعزيك عليها، فلِم نغشاك**»[٢٨٢]؟

وعظم هذا الجواب على المنصور، ولكنّه يعرف منزلة الصادق(عليه السلام) وصدقه في ذلك، وحاول أن يسلك طريقاً لضمّ الإمام الى جانبه كما ضمّ غيره، إذ يصعب عليه انعزاله وترفعه عن مخالطته، فأرسل إليه: إنّك تصحبنا لتنصحنا. ولم يخفَ مراده على الإمام فأجابه: «**من أراد الدنيا فلا ينصحك ومن أراد الآخرة فلا يصحبك**».

وقد استخدم المنصور وجهي سياسته من الفضاضة الدنيئة والليونة المصطنعة ليجعل الإمام كالآخرين الذين يتحاشونه ثم ينفذون ما يريده منهم، والحقيقة أنّ موقف الإمام الصادق من المنصور كان يمثّل مشكلة سياسية ودينية احتلت أهميّة كبيرة في سياسة المنصور، وما دام الإمام يقطن في المدينة فقد كانت الشكوك تأكل قلب الدوانيقي فيهب الى الموسم أو العمرة، وغرضه أن يرى بنفسه ما يفعل الإمام جعفر الصادق، وقد احتلّ تلك المكانة السامية في نفوس العلماء والعامة، ويقوم المنصور بإحضاره إذا ما جاء المدينة أو وهو في حاضرة ملكه فنرى في أحاديثه وأقواله مع الإمام محاولاته المختلفة حتى أعياه، فهو يقصد رجلاً يفيض علماً وإيماناً ومن صفوة استتر المنصور وأهله بشعارهم حتى تمكنوا من الحكم، ومنزلة آل البيت تزداد قوّة، فكلّ ما يصدر عن المنصور بحقّ الإمام يسري سريعاً بين الناس، فإنّ من شيعته من هم في قصره، لأنّ الأوضاع لم تصل بعد إلى درجة التفريق بين من يأبى سياسة العباسيين وهم يستأثرون بالحكم وبين من بقي بانتظار تحقيق ما قامت عليه الثورة.

وقد حاول المنصور أكثر من مرة الانتقاص من الإمام إذ اعترض الإمام قائلاً: لا تتفقه عليَّ، فأجابه الإمام: **أين يذهب مني الفقه؟** فانزجر المنصور، كما أنّه صرّح مرات بعزمه على قتل الإمام، ولكنّ الله أحبط عمله ومسعاه، وحفظ لهذه الأمة إمامها.

---

(٢٨٢) كشف الغمة للإربلي ج٢ ص٤٢٧ باختلاف يسير، الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) لعبدالحليم الجنديص٨٦ .

المقدّمة الأولى...٩
المقدمة الثانية ...١١
مقدمة الطبعة الثالثة ...١٣
كتاب الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ...١٥
العَهد الأموي ...٢٥
العَهد العبّاسي ...٥١
شخصيّة الإمام الصادق ...٦٥
مدرسة الإمام الصادق٧ ...٨٧
مع البخَاري ...١٠٤
يجيبوا عنها. ...١٠٥
آية التطهير ...١١٤
حديث الغدير ...١٢٤
حديث الثقلين ...١٣١
مُلوك عَصره ...١٥٠
كلمات حول تنازع المذاهب ...٢٦١
التعصّب بين المذاهب ...٢٦٥
التحوّل من مذهب إلى مذهب...٢٦٩
التعصّب لأئمة المذاهب ...٢٧١
حركات التعصّب بين المذاهب ...٢٧٦
محنة خلق القرآن...٢٨٠
بين السنّة والشيعة ...٢٨٣
انتشار المذاهب الأربعة في الاقطار الإسلامية ...٢٩٠
انتشارها في الوقت الحاضر ...٢٩٢
مدارسها في الاقطار الإسلامية ...٢٩٥
مذهب أهل البيت: ...٣٠١
العداء لأهل البيت: ...٣٠٢
معارضة معاوية ...٣٠٣

بذرة التشيّع ونموّها ...٣٠٨
أخطاء تاريخية لابن خلدون ...٣١٠
المذهب الجعفري والدولة العباسية ...٣١٣
معارضة المنصور والرشيد للمذهب ...٣١٥
تغلب المذهب الجعفري...٣١٨
قوة المعارضة أيام المتوكل ...٣١٩
الشيعة ونصرة أهل البيت: ...٣٢٠
أحاديث النبيّ في أهل البيت: ...٣٢٣
الغلاة...٣٣١
موقف أهل البيت: من الغلاة ...٣٣١
عبد الله بن سبأ ...٣٣٦
انتشار المذهب الجعفري ...٣٤٢
انتشاره في الأقطار الإسلامية ...٣٤٢
أسباب الخلاف وعوامل التفرقة ...٣٥٥
الاتّهام بالتشيّع...٣٥٧
ضحايا المبدأ ...٣٦٠
أحاديث النبي ۶ في حبّ علي وشيعته...٣٦٦
تحريف الأحاديث ...٣٦٨
أحكام جائرة ...٣٧١
الوضع والحديث النبوي ...٣٧٨
حركة الوضع ...٣٧٨
السلطة ووضع الحديث...٣٨٠
القصّاصون وأثرهم في المجتمع...٣٨٣
عدول الناس عن المذاهب ...٣٨٧
المتعة وتشريعها ...٣٨٨
الطلاق الثلاث واحدة ...٣٩٠
المسح على الرجلين...٣٩٣

عبد الملك بن مروان ...١٥٠
توليته للحجاج ...١٥٣
الوليد بن عبد الملك ...١٥٧
مقتل سعيد بن جبير ...١٥٨
سليمان بن عبد الملك ...١٦٠
عمر بن عبد العزيز ...١٦٣
سيرته في الخراج ...١٦٤
أخطاء تاريخية ...١٦٧
يزيد بن عبد الملك ...١٦٨
هشام بن عبد الملك ...١٦٩
هشام وزيد بن علي ...١٧١
مقتل زيد بن علي وملابساته ...١٧٣
الوليد بن يزيد ...١٧٥
مقتل يحيى بن زيد ...١٧٩
يزيد الناقص ...١٨٠
إبراهيم بن الوليد ...١٨١
مروان بن محمد ...١٨١
ولاة المدينة في العهد الأموي ...١٨٢
هشام بن إسماعيل ...١٨٣
عمر بن عبد العزيز ...١٨٤
سبب عمارته لمسجد النبي٦ ...١٨٥
عثمان بن حيان ...١٨٧
أبو بكر بن محمد ...١٨٨
عبد الرحمن بن الضحاك ...١٨٨
عبد الواحد النضري...١٨٩
إبراهيم بن هشام ...١٨٩

خالد بن عبد الملك ...١٩٠
محمد بن هشام ...١٩٠
يوسف الثقفي ...١٩١
ولاة المدينة في العهد العباسي ...١٩١
تمهيد ...٢٠٥
نشأة المذاهب ...٢٠٥
المدينة والحركة العلمية ...٢٠٧
أهل الحديث وأهل الرأي ...٢٠٩
نشوء المذاهب...٢١١
سفيان الثوري ...٢١٣
سفيان بن عيينة ...٢١٤
الحسن البصري ...٢١٤
الأوزاعي ...٢١٥
ابن جرير الطبري ...٢١٦
داود بن علي الظاهري...٢١٧
الليث بن سعد ...٢١٨
عمر بن عبد العزيز ...٢٢٠
الأعمش ...٢٢٠
الشعبي ...٢٢١
المذهب الحنفي ...٢٢٣
المذهب المالكي ...٢٢٧
المذهب الشافعي ...٢٣٤
المذهب الحنبلي ...٢٣٥
السلطة وانتشار المذاهب ...٢٣٧
خلاصة البحث ...٢٤٢
آراء حول الإجتهاد والتقليد ...٢٤٥
كلمات حول التقليد ...٢٥٣

الاجتهاد ...٢٥٦
التقليد...٢٥٨
الأذان وحيَّ على خير العمل ...٣٩٤
تمهيد : ...٤٠١
الإمام أبو حنيفة ...٤٠٢
مع الأستاذ عفيفي في روايته ...٤٠٣
المناقب ...٤٠٥
البشائر في أبي حنيفة ...٤٠٧
حديث السراج وإحياء الدين ...٤٠٨
حديث غياث لكل مهموم ...٤١٣
أبو البختري ...٤١٣
فتوى أبي البختري ...٤١٥
بين المدّ والجزر ...٤١٦
سماعه من الصحابة...٤١٩
حديثه وعنايته بالرواية...٤٢٣
أبو حنيفة بين أنصاره وخصومه ...٤٢٦
نشأته ونبوغه ...٤٣٢
الموالي وأوضاع عصره ...٤٣٤
اتّجاهه العلمي...٤٣٧
فقهه وتلامذته ...٤٣٩
أبو يوسف ...٤٤٠
محمد بن الحسن الشيباني ...٤٤١
الحسن بن زياد ...٤٤١
زفر بن الهذيل...٤٤٢
علماء الحنفية ونشر المذهب ...٤٤٥
مناظرته للإمام الصادق ٧ ...٤٥٠
مناظرته في القياس ...٤٥٢

رواياته عن الإمام الصادق وميله لأهل البيت :... ٤٥٣
أسباب مقتل أبي حنيفة ... ٤٥٦
شيوخ أبي حنيفة من الشيعة ... ٤٦٠
خلاصة البحث ... ٤٦٢

مُلوك عَصره

عاصر الإمام الصادق(عليه السلام) عشرة من ملوك بني أمية وهم : عبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك، والوليد بن يزيد بن عبد الملك، وإبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، ومروان بن محمد بن مروان بن الحكم المعروف بالحمار وهو آخر ملوكهم.

وعاصر(عليه السلام) من العباسيين عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس المعروف بالسفاح، وأخاه المنصور الداونيقي.

ولا بد لنا من الوقوف على تراجمهم، وذكر بعض الحوادث التي جرت في أيّامهم.

عبد الملك بن مروان

عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أمّه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص، فهو أموي بين أمويين.

وكان جدّه المغيرة من أشد الناس عداء لرسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) فظفر به(صلى الله عليه وآله وسلم) في خروجه لغزوة حمراء الأسد; فأمر بضرب عنقه[٢٨٣]، وقال ابن كثير: المغيرة جدّ عبد الملك لأمه هو الذي جدع أنف حمزة يوم أحد[٢٨٤].

تولّى عبد الملك بعهد من أبيه مروان سنة (٦٥هـ) وبقي في الملك إلى سنة (٨٦ هـ) وهي سنة وفاته.

وكان قبل ولايته يجالس العلماء، ويحفظ الحديث ويتعبّد في المسجد، وكان متقشّفاً، وقد أنكر على يزيد بن معاوية حربه لعبد اللّه بن الزبير، وقال لبعض من سار في ذلك الجيش:

ثكلتك أمك أتدري إلى من تسير؟ إلى أوّل مولود ولد في الإسلام، ومن حنّكه رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) وابن حواريه، وابن ذات النطاقين.

---

(٢٨٣) السيرة لابن حزم ص١٧٥.

(٢٨٤) تاريخ ابن كثير ج٩ ص٦٣.

أما واللّه إن جئته نهاراً وجدته صائماً، وليلاً وجدته قائماً، فلو أنّ أهل الأرض اطبقوا على قتله لأكبّهم اللّه جميعاً في النار.

قال ذلك الرجل الذي خاطبه عبد الملك بهذا: فلما صارت الخلافة إلى عبد الملك، وجّهنا عبد الملك مع الحجاج حتى قتلناه، أي ابن الزبير[٢٨٥].

وذلك أنّ عبد الملك بن مروان عندما ولي الخلافة أرسل الحجاج بن يوسف لحرب ابن الزبير في جيش من أهل الشام، وحوصر ابن الزبير ستة أشهر وسبع عشرة ليلة، وكان الحجاج يرمي الكعبة بالمنجنيق من أبي قبيس[٢٨٦].

روى ابن عساكر: أن الحجاج لما رمى الكعبة بالمنجنيق أخذ قومه يرمون من أبي قبيس ويرتجزون:

خطارة مثل الفنيق المزبد *** أرمي بها أعواد هذا المسجد

فجاءت صاعقة فأحرقتهم، فامتنع الناس من الرمي، وخطب بهم الحجاج فقال: ألم تعلموا أنّ بني إسرائيل كانوا إذا قرّبوا قرباناً فجاءت نار فأكلته، علموا أنه قد تقبل منهم، وإن لم تأكله النار علموا أنّ القربان لم يقبل ولم يزل يخدعهم حتى عادوا فرموا[٢٨٧].

ودام الحصار والرمي للكعبة حتى قتل عبد اللّه بن الزبير في جمادى الآخرة سنة (٨٣ هـ) وصلبه الحجاج منكوساً بعد قتله، وبعث رأسه إلى عبد الملك بن مروان فطيف به في البلاد[٢٨٨].

ولمّا أفضى الأمر إليه كان المصحف بيده فأطبقه، وقال: هذا آخر العهد بك، أو هذا فراق بيني وبينك[٢٨٩].

قال ابن كثير: حجّ عبد الملك في سنة (٧٥ هـ) وخطب الناس بخطبة، قال فيها: إنّه كان من قبلي من الخلفاء يأكلون ويؤكلون، وإني واللّه لا أداوي أدواء هذه الأمة إلاّ بالسيف، ولست بالخليفة المستضعف ـ يعني عثمان ـ ولا الخليفة المداهن ـ يعني معاوية ـ ولا الخليفة المأبون ـ يعني يزيد بن معاوية ـ أيّها الناس إنّا نحتمل منكم مالم يكن عقد راية أو وثوب على منبر، هذا عمرو بن سعيد حقّه حقّه قرابته وابنه، قال

---

(٢٨٥) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة للسخاوي ج٣ ص٣١٧.

(٢٨٦) شفاء الغرام للقاضي تقي الدين المكي ج١ ص١٦٩.

(٢٨٧) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج٤ ص٥٠ .

(٢٨٨) شفاء الغرام ج١ ص١٧٠.

(٢٨٩) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٨٤، وتاريخ ابن كثير ج٩ ص٦٣ .

برأسه هكذا، قلنا بسيفنا هكذا، وإنّ الجامعة التي خلعها من عنقه عندي، وقد أعطيت الله عهداً أن لا أضعها في رأس أحد إلاّ اخرجها الصعداء، فليبلغ الشاهد الغائب[٢٩٠].

وعمرو بن سعيد هو المعروف بالأشدق قتله عبد الملك بيده سنة (٦٩ هـ); وقال بعد أن فرغ من قتله: كان أبو أمية أحبّ إليّ من زهر النواظر ولكن والله ما اجتمع فحلان في شول قط إلاّ أخرج أحدهما صاحبه[٢٩١] . وكان قتله لعمرو بن سعيد غدراً، لأنّه آمنه وحلف له وجعله وليّ عهد من بعده.

وكان عبد الملك له إقدام على سفك الدماء، ولما قالت له أمّ الدرداء: بلغني أنّك شربت الطلى بعد العبادة والنسك! ! فقال: أي و الله والدماء أيضاً شربتها[٢٩٢].

وكانت أوّل بادرة صدرت منه وتعتبر منهاجاً لسيرته، أنّه نهى عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال: لا يأمرني أحد بتقوى الله إلاّ ضربت عنقه[٢٩٣].

توليته للحجاج

وهو الذي حمل الحجاج بن يوسف على رقاب المسلمين عندما ولاّه على الحجاز والعراق.

والحجاج ذلك الطاغية الذي أذاق الأمة أنواع العذاب، يغمد سيفه في رقاب الأبرياء، وقد اتخذ ذلك السجن المكشوف الذي يضم بين جدرانه عدداً لا يقلّ عن مائة وعشرين ألفاً بين رجل وامرأة، يلاقون فيه حرارة الشمس وألم الجوع، ويكابدون غصص وضع الرماد على الرؤوس، وهم يموجون من الشدة، ويغلون كالمرجل، تحرقهم حرارة الشمس وتقلّبهم السياط وبعج الرماح وصرخات السجانين، ولقد اتخذ الحجاج في معاملة الناس عند ولايته أقسى ما يتصور من القسوة والشدّة، فهو يضرب بسيفه أنّى شاء وكيف شاء، وله أساليب في إنزال العذاب والعقوبة بمن يظفر بهم، فأصبح إمام سنّة الظلمة، وأستاذ الظلمة من الحكام.

فهذا سجين يشدّ عليه القصب الفارسي المشقوق ويجرّ عليه، ثم ينضح عليه الخلّ، وذاك أسير آخر أصيب ساقه بنشابة ثبت نصلها في ساقه. وعلم الحجاج أنّ أشدّ

---

(٢٩٠) البداية والنهاية لابن كثير ج٩ ص٦٤.

(٢٩١) تهذيب التهذيب ج٧ ص٣٧.

(٢٩٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٨٤ ، والبداية والنهاية ج٩ ص٦٦.

(٢٩٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٢١٩ .

عذاب يعامل به أسيره أن يحرّك النصل ليسمع استغاثة السجين وصياحه، فتأخذه نشوة الطرب تجبّراً وطغياناً. قال عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كلّ أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم[٢٩٤].

وقال عاصم: ما بقيت لله عزّ وجلّ حرمة إلاّ وقد ارتكبها الحجاج[٢٩٥].

وكان الحجاج قد تطلّع الى إمرة العراق وهو يرى عبدالملك قلقاً على ملكه ممّا يحدث فيه ويخاطب أصحابه: ويلكم! من للعراق؟ وتمّ للحجاج ما رغب فيه واتّجه رضيع الدماء المبير الى العراق حيث الثوار، فكان غاشماً عاتياً في فعله وقوله. ومن جملة أقواله:

يا أهل العراق هل استنبحكم نابح، أو استشلاكم غاو أو استخفّكم ناكث، أو استنصركم عاص إلاّ تابعتموه وبايعتموه وآويتموه وكفيتموه؟ يا أهل العراق هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو ربى كاذب إلاّ كنتم أنصاره وأشياعه[٢٩٦].

ويخاطب أهل الشام:

يا أهل الشام أنتم العدّة والعدد، والجنّة في الحرب، إن نحارب حاربتم أو نجانب جانبتم وما أنتم وأهل العراق إلاّ كما قال نابغة بني جعدة:

وإن تداعيهم حظّهم *** ولم ترزقوه ولم تكذب

كقول اليهود قتلنا المسيح *** ولم يقتلوه ولم يصلب

وأنزل أهل الشام بيوت أهل الكوفة. يقول ابن الأثير: وهو أوّل من أنزل الجند في بيوت غيرهم، وهو الى الآن لا سيّما في بلاد العجم، ومن سنّ سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة.

وقيل أحصي من قتله الحجاج صبراً، فكانوا مائة ألف وعشرين ألفاً. وروي أنّ الحجاج مرّ بخالد بن يزيد بن معاوية وهو يخطر في مشيته، فقال رجل لخالد: من هذا؟ قال خالد بخ بخ، هذا عمرو بن العاص، فسمعها الحجاج فردّ عليهما بكلام منه: أنا الذي ضربت بسيفي هذا مائة ألف كلّهم يشهد أنّ أباك كان يشرب الخمر ويضمر الكفر[٢٩٧].

---

(٢٩٤) الكامل لابن الأثير ج٤ ص٢٣٦ ـ ٢٨٢.

(٢٩٥) تاريخ ابن كثير ج٩ ص١٣٢.

(٢٩٦) مروج الذهب ج٣ ص١٤٠ .

(٢٩٧) الكامل لابن الأثير ج٤ ص٢٨٢، والعقد الفريد لابن عبد ربّه ج٣ ص٢٤٢ .

وسئل الحسن البصري عن عبد الملك بن مروان؟ فقال: ما أقول في رجل، الحجاج سيئة من سيئاته[٢٩٨].

ويقول ابن الأثير وهو يصف خوف عبدالملك من الموت وهو في ساعاته الأخيرة: «ويحقّ لعبدالملك أن يحذر هذا الحذر ويخاف; فإن من يكن الحجاج بعض سيئاته يعلم على أيّ شيء يقدم عليه».

وكان عبد الملك يشجّع الحجاج ويشدّ أزره، ولا يسمع عليه أي شكاية ولا يرقّ لأيّ استغاثة، ولمّا أدركه الموت أوصى ولي عهده الوليد برعاية الحجاج وإكرامه[٢٩٩]، وكيف لا يوصيه برجل كان من رأيه أنّ عبد الملك أفضل من النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم). ولا عجب من الحجاج بل العجب ممن يطلب له المعاذير ويحاول أن يوفّق بين أعماله القبيحة وبين الدين، ويريد أن يدخله الجنّة رغم الحواجز، وليس ببعيد عن التعصّب والعاطفة حصول هذا وأمثاله.

ونستطيع أن نعرف نفسيّة عبد الملك وما هو فيه من جرأة على سفك الدماء، في ولايته للحجاج وتوليته أُمور المسلمين مع علمه بجوره وتعسفه، وقد كانت تصله أخباره وترفع إليه الشكايات والاستغاثة منه، فلا يرون عنده إلاّ تشجيع الحجاج على عمله.

ولمّا حضرته الوفاة أوصى ولده الوليد، في أخذ البيعة له بالسيف وقال ـ وهو في آخر ساعة من الدنيا ـ : يا وليد، حضر الوداع وذهب الخداع وحلّ القضاء. فبكى الوليد، فقال له عبد الملك: لا تعصر عينيك كما تعصر الأمة الوكاء، إذا أنا متّ فغسلني وكفني وصلِّ عليّ واسلمني إلى عمر بن عبد العزيز يدليني في حفرتي، واخرج أنت إلى الناس والبس لهم جلد نمر، واقعد على المنبر، وادع الناس إلى بيعتك، فمن مال بوجهه كذا فقل له بالسيف كذا، وتنكّر للصديق والقريب، واسمع للبعيد، وأوصيك بالحجاج خيراً[٣٠٠].

وبهذا نأخذ صورة عن كيفية أخذ البيعة من الناس لخليفة جديد، يتولى ادارة شؤون الأُمة، فهل للأُمة اختيار في الانتخاب أم انّها مرغمة ليس لها أيّ رأي؟ ! ولا يحقّ لها الاعتراض على شيء من ذلك، والمعارض يقتل، فهل تصح مثل هذه البيعة التي سنّ نظامها العهد الأموي، وهل يصحّ أن يسمى من يفوز بمثل هذا التعيين الاجباري

---

(٢٩٨) تاريخ أبي الفداء ج١ ص٢٠٩ .

(٢٩٩) السيوطي ص٨٥ .

(٣٠٠) الإمامة والسياسة ج٢ ص٧٤.

بأمير المؤمنين ويكتب ذلك بحروف بارزة؟ أنا لا أدري ولعلّ هناك من يدري وإلى القارئ النبيه الحكم.

وكان عبد الملك يبتعد عن دماء بني هاشم لا تديّناً ولكنّه رأى عاقبة آل أبي سفيان السيئة من وراء ذلك، كما يشير بكتابه للحجاج بن يوسف في عدم التعرض لهم ومع هذا فقد حمل الإمام زين العابدين(عليه السلام) مقيّداً من المدينة إلى الشام، كما حدّث الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء[٣٠١]. ولا يسعنا التوسّع في البحث عن عبد الملك وأعماله وسوء سيرة عمّاله في الرعية، وسيأتي بعض منها.

الوليد بن عبد الملك

ولي الأمر بعد أبيه يوم الخميس في النصف من شوال سنة (٨٦ هـ) وهو اليوم الذي مات فيه عبد الملك. وكان الوليد ولي عهده، وبقي والياً إلى أن مات يوم السبت في النصف من جمادى الأولى سنة خمس وتسعين، وكانت مدة ولايته تسع سنين وسبعة أشهر، وله ست وأربعون سنة.

وأمّه ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير بن جذيمة العبسي.

وكان الوليد له سطوة شديدة لا يتوقف إذا غضب، وكان كثير النكاح والطلاق، يقال إنه تزوّج ثلاثاً وستين امرأة[٣٠٢] غير الاماء. وكان لجوجاً كثير الأكل. وكان يغلب عليه اللحن.

وهو الذي بنى جامع دمشق، والذي عرف بالجامع الأموي، وأنفق على ذلك أربعمائة صندوق من الذهب، وفي كل صندوق أربعة عشر ألف دينار، وقيل كان في كلّ صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار، وقد لامه الناس على ذلك، وأنه انفق مال بيت المسلمين فخطبهم، وقال: إنّما هذا كلّه من مالي، لأنّ الأمويين يعدون الأموال التي تجيء لهم هي ملكهم يتصرفون بها كيف شاءوا.

كما أنّه زاد في مسجد النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وزخرفه ونمّقه، ورصّعه بالفسيفساء وهي الفص المذهّب، وأدخل فيه حجر أزواج النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وسائر المنازل التي حوله[٣٠٣]، فقال له خبيب بن عبد الله بن الزبير: أنشدك الله أن

---

(٣٠١) حلية الأولياء ج٣ ص١٣٥.

(٣٠٢) الانافة في مآثر الخلافة ج١ ص١٣٣.

(٣٠٣) الانافة في مآثر الخلافة ج١ ص١٣٦ .

تهدم آية من كتاب اللّه: (**إنّ الذين يُنادُونك من وراء الحُجُرات**)[٣٠٤] فأمر الوليد بضربه حتى مات، وسيأتي بيان السبب الذي من أجله وسّع الوليد مسجد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم).

وفي أيّامه مات الإمام زين العابدين علي بن الحسين(عليهما السلام) مسموماً، وذلك في الخامس والعشرين من شهر محرم الحرام سنة (٩٥ هـ)، وكان الوليد هو الذي دسّ إليه السمّ ويُقال: إن هشام بن عبد الملك هو الذي دسّ إليه السمّ بأمر من الوليد[٣٠٥]، وسيأتي بيان ذلك إن شاء اللّه .

مقتل سعيد بن جبير

وفي أيّامه قتل سعيد بن جبير، قتله الحجاج بن يوسف في شعبان سنة (٩٥ هـ)، وكان سعيد قد هرب من الحجاج إلى اذربيجان، ومنها توجّه إلى مكّة مستجيراً باللّه، ولا ئذاً في حرمه.

وكتب الحجاج إلى الوليد: إن جماعة من التابعين قد التجأوا إلى مكّة فكتب الوليد إلى عامل مكّة خالد القسري: يأمره بحملهم إلى الحجاج، وكانوا خمسة، وهم: سعيد بن جبير، وعطاء، ومجاهد، وطلق بن حبيب، وعمر بن دينار.

ولمّا دخل سعيد على الحجاج دارت بينهما محاورة، وأسمعه الحجاج كلاماً شائناً، ثم سأله عن عبد الملك، فقال سعيد تسألني عن امرئً أنت واحد من ذنوبه.

وأمر الحجاج بقتله، فقال سعيد: اشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، استحفظكها يا حجاج حتى ألقاك يوم القيامة، ولمّا قتل هلّل رأسه ثلاثاً افصح فيها بمرّة، والتبس عقل الحجاج يومئذ، وجعل يقول: قيودنا قيودنا، فظنّوها قيود سعيد التي في رجليه، فأخذوها من رجليه بعد أن قطعوا رجليه من ساقيه، وكان الحجاج إذا نام ينتبه مرعوباً ويقول: مالي ولسعيد بن جبير[٣٠٦]؟

ولم يبق الحجاج بعد ذلك إلاّ أياماً، فإنّه قتل سعيداً في شعبان ومات هو في شهر رمضان من السنة المذكورة.

---

(٣٠٤) الحجرات : ٤.

(٣٠٥) ذكر ذلك جماعة من الحفاظ والمؤرخين كالقرماني في تاريخه، وابن حجر في صواعقه، وابن الصباغ المالكي في الفصول، وابن جرير في دلائل الإمامة، وروضة الواعظين للحافظ النيسابوري وغيرهم ممّا لا يترك مجالاً للشك في ذلك.

(٣٠٦) تاريخ ابن خلدون ج٣ ص٦٥ والطبري ج٨ ص٩٥، والكامل لابن الأثير ج٤ ص٢٦٩ .

وكذلك الوليد فإنّه مات في السنة الثانية (٩٦ هـ) في النصف من جمادى الآخرة. أو الأولى.

قال بعض من هرب من جور الحجاج: مررت بقرية، فوجدت كلباً نائماً في ظلّ حب، فقلت في نفسي ليتني كنت مثل هذا الكلب، وكنت مستريحاً من خوف الحجاج.

قال ثم عدت بعد ساعة فوجدت الكلب مقتولاً فسألت عنه، فقيل: جاء أمر الحجاج بقتل الكلاب[٣٠٧].

لقد تركت سلطة الأمويين الحجاج يفعل ما يشاء ويتصرف مع أعدائهم بسيفه دون أن تحرّك ضمائرهم مناظر القتل والتشريد وانتهاك الأعراض، فهو «جلدة ما بين العينين» في أعزّ موقع من وجه السلطة الدموي. كما تركوه يتمادى في الكفر ويأتي بما يشاء من الكفر والخروج عن الإسلام.

فكان يدّعي نزول الوحي عليه، وأنّه لا يعمل إلاّ بوحي من الله تعالى[٣٠٨]، وبلغت به الجرأة القول: إن خليفة الله في أرضه أكرم عليه من رسوله.[٣٠٩] وبهذا ينطبق عليه الحديث الشريف: «**إن في ثقيف مبير وكذاب**».

وقد حقّقنا ذلك في غير هذا المكان.

سليمان بن عبد الملك

ولي الأمر بعد أخيه الوليد يوم السبت في النصف من جمادى الآخرة سنة (٩٦ هـ) بعهد من أبيه عبد الملك، وبقي والياً إلى أن مات يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة (٩٩ هـ) وكانت ولايته عامين وتسعة أشهر وأيّاماً، وهو شقيق الوليد.

وأراد الوليد أن يعزل سليمان عن ولاية العهد، ويبايع لولده عبد العزيز فأبى سليمان، فكتب الوليد إلى عمّاله، ودعا الناس إلى ذلك، فلم يجبه إلاّ الحجاج، وقتيبة بن مسلم[٣١٠].

ولهذا غضب سليمان على آل الحجاج ونكبهم، وقتل قتيبة بن مسلم سنة (٩٦ هـ) وعزل عمّال الحجاج، وعذّب أهله، وأطلق في يوم واحد من المسجونين في سجن

---

(٣٠٧) ابن نباتة في سرح العيون ص٩٦ .

(٣٠٨) تاريخ ابن عساكر : ٤ / ٧٠ .

(٣٠٩) العقد الفريد لابن عبدرّبه ج ٣ ص٢٦٦ .

(٣١٠) سمط النجوم العوالي لعبد الملك العصامي المكي ج٣ ص١٨٧ .

الحجاج أحد وثمانين ألفاً من الأسراء، وأمرهم أن يلحقوا بأهاليهم، ووجد في سجن الحجاج ثلاثين ألفاً ممّن لا ذنب لهم، وثلاثين ألف امرأة[٣١١].

وسجن يزيد بن مسلم كاتب الحجاج، وأُدخل عليه وهو مكبل في الحديد فلما رآه سليمان إزدراه فقال: ما رأيت كاليوم قط، لعن الله رجلاً أجّرك رسنه وحكمك في أمره.

فقال له يزيد: لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنّك رأيتني والأمر عني مدبر وعليك مقبل.

ثم قال سليمان: عزمت عليك لتخبرني عن الحجاج ما ظنّك به، أتراه يهوي بعد في جهنّم أم قد استقر؟ قال: لا تقل هذا في الحجاج، فقد بذل لكم نصحه، وأحقن دونكم دمه، وأمن وليّكم، وأخاف عدوّكم، وأنّه يوم القيامة لعن يمين أبيك عبد الملك، ويسار أخيك الوليد، فاجعله حيث شئت، فقال سليمان: اخرج عني إلى لعنة الله[٣١٢].

وكان سليمان يأخذ برأي عمر بن عبد العزيز في بعض أُموره يستشيره فيها، وقال له: أنّه قد ولينا ما ترى وليس لنا علم بتدبيره، فما رأيت من مصلحة العامة فمرّ به فليكتب. فكان رد الصلاة إلى ميقاتها، بعد أن كانوا يؤخّرونها إلى آخر وقتها[٣١٣].

وسمع سليمان ليلة صوت غناء في عسكره فلم يزل يفحص حتى أتى بهم، فقال سليمان: إنّ الفرس ليصهل فتستودق له الرمكة، وإنّ الجمل يهدر فتضع له الناقة، وإنّ التيس لينبُ فتستخذي له العنز، وإنّ الرجل ليغني فتشتاق له المرأة، ثمّ أمر بهم فقال: أخصوهم . فيقال إن عمر بن عبد العزيز قال: يا أمير المؤمنين، إنّها مثلة، ولكن أنفهم . فنفاهم[٣١٤].

وقد أجمع المؤرخون على شدّة نهم سليمان، وأنّه يأكل كثيراً يجوز المقدار. وقال بعضهم : كان يأكل مائة رطل، وغير ذلك ممّا ذكره.

وكان يلبس الثياب الرقاق، وثياب الوشي، ولبس الناس جميعاً الوشي جباباً وأردية وسراويل، وعمائم وقلانس ، وألبس جميع أهله وحاشيته الوشي; حتى الطباخين وأمر أن يكفن فيه[٣١٥].

---

(٣١١) تاريخ ابن عساكر ج٤ ص٨٠.

(٣١٢) مروج الذهب ج٣ ص١٨٧، والعقد الفريد ج٣ ص١٧١ .

(٣١٣) البداية والنهاية ج٩ ص١٧٨ .

(٣١٤) تاريخ ابن كثير ج٩ ص١٨٠ .

(٣١٥) مروج الذهب ج٣ ص١٨٥ .

وكان مجحفاً في جباية الأموال، فمن ذلك أنه كتب إلى عامله على خراج مصر ـ وهو أسامة بن زيد التنوخي ـ أحلب الدر حتى ينقطع ، وأحلب الدم حتى ينصرم.

قال الكندي: فذلك أول شدّة دخلت على أهل مصر. وقد أعجب سليمان بفعل أسامة، وقال: هذا أسامة لا يرتشي ديناراً ولا درهماً، فقال له عمر بن عبد العزيز: أنا أدلّك على من هو شر من أسامة ولا يرتشي ديناراً ولا درهماً.

فقال سليمان: ومن هو؟ قال: هو عدو اللّه ابليس. فغضب سليمان وقام من مجلسه[٣١٦].

وقدم أسامة على سليمان بما اجتمع عنده من الخراج وقال: يا أمير المؤمنين إنّي ما جئتك حتى نهكت الرعية وجهدت، فإن رأيت أن ترفق بها وترفه عليها، وتخفف من خراجها ما تقوى به على عمارة بلادها فافعل، فإنّه يستدرك ذلك في العام المقبل. فقال له سيلمان: هبلتك أمّك، أحلب الدر فإذا انقطع فاحلب الدم[٣١٧].

وغضب سليمان على أعظم قائد فتح الفتوحات العظيمة في بلاد المغرب وهو موسى بن نصير، وكان من رجالات الكوفة العسكريين، وزهّادها المؤمنين! ممّن عرف بولائه لأهل البيت واستقامته، ولعلّ من هذا كان سخط سليمان عليه بعد تلك الأعمال الجليلة والفتوحات العظيمة، كما هو مشهور.

وقد أهمل كثير من المؤرخين عظيم بلائه وجهاده في نشر الإسلام ، واتساع رقعته، وأشادوا بذكر مولاه طارق بن زياد الذي كان تحت امرته ويسير على مخططاته العسكرية.

كانت لموسى هذا مواقف مشهورة، ففتح بلاد المغرب، وغنم أموالاً طائلة وكان يوجه ولده عبد العزيز، ومولاه طارق بن زياد لافتتاح المدن، ولكن سليمان وجد على موسى، فقتل ولده عبد العزيز الذي افتتح في امارته مدائن كثيرة، وكان عبد العزيز متصفاً بالزهد والصلاح، ولكنّ بعض المؤرخين حاكوا حوله تهمة لا تتفق مع مايتصف به من الاستقامة وحسن السيرة، وكان قتله سنة (٩٨ هـ) . قال ابن الأثير: ويعدون ذلك من زلاّت سليمان[٣١٨] .

وكان والده موسى قد سخط عليه سليمان وعذبه أنواع العذاب، وضمنه أربعة آلاف دينار وثلاثين ألف درهم.

---

(٣١٦) النجوم الزاهرة ج١ ص٢٣٢.

(٣١٧) الوزراء والكتّاب للجهشياري ص٣٢.

(٣١٨) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج٣ ص٢٤١ .

ولمّا قتل ولده عرض رأسه عليه فتجلّد للمصيبة وقال: هنيئاً له بالشهادة، وقد قتلتموه، واللّه صواماً قواماً.

وكان موسى ممّن عرف هو وأبوه نصير بولائه لآل محمد، ولقد غضب معاوية عليه إذ لم يخرج معه لصفين .

عمر بن عبد العزيز

أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، وأمّه أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب .

ولي بعهد من سليمان بن عبد الملك، يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة (٩٩ هـ)، وبقي والياً إلى أن مات يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة (١٠١ هـ). ومدة خلافته سنتان وخمسة أشهر وخمسة أيام .

وكان أبوه عبد العزيز المتوفى سنة (٨٦ هـ) ولي عهد مروان بعد أخيه عبدالملك، ولكنه مات قبله.

وقد وجد الناس في عهد عمر بن عبد العزيز عدلاً فقدوه زماناً، واستراحوا في أيّامه القليلة ممّا كانوا يتحمّلونه من ظلم وتعسف، وجور في الحكم، واستبداد في الأمر من حكام سبقوه، وهم لا يتقيدون بقانون سماوي أو وضعي، ولا ينظرون إلا لأنفسهم وأنصارهم، فيستأثرون بما يجبونه من الأموال، وينفقونه في مصالحهم الخاصة.

وكان الخراج في عهده من أسوأ المشاكل التي تواجهها الأمة لسوء تصرف العمال، وجشع الولاة، وكانت جبايته غير محدودة ولا مقررة، بل يعود أمرها إلى العمال أنفسهم، فظلموا العباد وخرّبوا البلاد.

ولما ولي عمر بن عبد العزيز عالج هذه المشكلة، ويعطينا كتابه لعامله في العراق صورة واضحة عن سوء الحالة وتردي الأوضاع.

سيرته في الخراج

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل الكوفة: أما بعد فإنّ أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة في أحكام اللّه، وسنة خبيثة سنّها عليهم عمال السوء، وإنّ قوام الدين العدل والاحسان، فلا يكن شيء أهمّ إليك من نفسك، فلا تحملها قليلاً من الإثم، ولا تحمل خراباً على عامر، وخذ منه ما أطاق وأصلحه حتى يعمر، ولا يؤخذن من

الغامر إلاّ وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض، ولا تأخذن أجور الضرّابين، ولا هدية النوروز والمهرجان، ولا ثمن المصحف. ولا أجور الفتوح، ولا أجور البيوت ولا درهم النكاح، ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض، فاتبع في ذلك أمري فإني قد وليتك ما ولاني الله، ولا تعجل دوني بقطع ولا حلب حتى تراجعني فيه، وانظر من أراد من الذرّية أن يحجّ فعجّل له مائة ليحج بها والسلام[٣١٩].

وقد عامل العلويين معاملة حسنة وفرّق فيهم أموالاً، وكتب إلى عامله بالمدينة: أن أقسم في ولد عليّ بن أبي طالب عشرة آلاف دينار. فكتب إليه العامل: إن علياً قد ولد له في عدة قبائل من قريش ففي أيّ ولده؟ فكتب إليه عمر: إذا أتاك كتابي هذا فاقسم في ولد علي من فاطمة ـ رضوان الله عليهم ـ عشرة آلاف دينار فطالما تخطّتهم حقوقهم والسلام[٣٢٠].

ودخلت عليه فاطمة بنت علي(عليه السلام)، فقال لها: يا بنت علي، والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحبّ إليّ منكم، ولأنتم أحبّ إليّ من أهل بيتي[٣٢١].

وقال ابن الأثير : وكان سبب محبّته علياً أنّه قال: كنت بالمدينة أتعلّم العلم، وكنت ألزم عبيد الله بن عبدالله عتبة بن مسعود، فبلغه عنّي شيء من ذلك، فأتيته يوماً وهو يصلّي، فقال لي: متى علمت أنّ الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضي عنهم؟ قلت: لم أسمع ذلك.

قال: ما الذي بلغني عنك في علي(عليه السلام)؟ قلت: معذرة إلى الله وإليك وتركت ما كنت عليه.

وكان أبي إذا خطب فنال من عليّ رضي الله عنه تلجلج، فقلت: يا أبتِ إنّك تمضي في خطبتك، فإذا أتيت على ذكر عليّ عرفت منك تقصيراً .

قال: أو فطنت لذلك؟ قلت: نعم . فقال: يا بنيّ، إنّ الذين حولنا لو يعلمون من عليّ ما نعلم تفرّقوا عنّا إلى أولاده.

فلمّا ولي الخلافة لم يكن عنده من الدنيا هم، مثل ما يرتكب هذا الأمر العظيم لأجله، فترك ذلك وكتب بتركه وقرأ عوضه: (**إنّ اللّهَ يأمرُ بالعدل والإحسان**)[٣٢٢] الآية، فحلّ هذا الفعل عند الناس محلاً حسناً وأكثروا مدحه بسببه[٣٢٣].

---

(٣١٩) الكامل لابن الأثير ج٥ ص٢٩، والطبري في تاريخه ج٨ ص١٣٩ .

(٣٢٠) مروج الذهب ج٣ ص١٩٤ .

(٣٢١) طبقات ابن سعد ج٥ ص٣٣٣.

(٣٢٢) النحل: ٩٠ .

(٣٢٣) تاريخ ابن الأثير ج٥ ص٢٠.

وصعب على الأمويين ترك هذه البدعة، وحاولوا إعادتها بعد عمر بن عبدالعزيز.

حجّ هشام بن عبد الملك سنة (١٠٦ هـ) فقال له سعيد بن الوليد بن عثمان: يا أمير المؤمنين إنّ الله لم يزل ينعم على أهل بيت أمير المؤمنين، وينصر خليفته المظلوم، ولا يزالوا يلعنون في هذه المواطن الصالحة أبا تراب، فأمير المؤمنين ينبغي أن يلعنه في هذه المواطن الصالحة، فشقّ على هشام ذلك وقطع كلامه، وقال: ما قدمنا لشتم أحد[٣٢٤].

وعلى أيّ حال فإنّ عمر بن عبد العزيز قام بأُمور مشكورة، ووجد الكثيرون في عهده ما لم يجدوه في عهد غيره من الأمويين .

ولقد ثقل على الأمويين ما قام به عمر بن عبدالعزيز من الأعمال الصالحة، ومعالجة مشاكل المجتمع، ولذا قيل: إنّه مات بالسمّ من بني أُمية، علماً منهم أنّه إن امتدّت أيّامه أخرج الأمر عنهم، وأنّه لا يعهد بعهد إلاّ لمن يصلح للأمر فعاجلوه[٣٢٥].

أخطاء تاريخية

ذكر بعض المؤرخين: أنّ عمر بن عبد العزيز صعد المنبر ذات يوم بمكّة، فقال: أيّها الناس من كانت له ظلامة فليتقدم. فتقدم علي بن الحسين بن علي(عليه السلام)فقال: إنّ لي ظلامة عندك. فقال: وما ظلامتك؟

فقال علي بن الحسين: **مقامك هذا الذي أنت فيه**. فقال عمر: إنّي لا أعلم ذلك، ولكن لو علمت أنّ الناس يتركونه لك والله لتركته[٣٢٦].

ونحن لا ننكر اعتراف عمر بن عبد العزيز بأحقيّة أهل البيت للأمر، ولا ننكر مطالبة أهل البيت في حقّهم عند سنوح الفرص، وأنّهم مظلومون، وأيديهم من حقّهم صفرات.

ولكننا ننكر اتّخاذ أمثال هذه الوسائل من إمام عصره، وسيّد أهل البيت زين العابدين، فهو أعرف الناس بالأوضاع السائدة، وأعلمهم بالظروف ومناسباتها.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرى أن التاريخ لا يقرّ ذلك، فإنّ وفاة الإمام زين العابدين(عليه السلام)كانت في سنة (٩٥ هـ) وولاية عمر بن عبد العزيز في سنة (٩٩ هـ) فكيف يصحّ ذلك؟

---

(٣٢٤) تاريخ الطبري ج٨ ص٨٦ .

(٣٢٥) الإنافة في مآثر الخلافة ج١ ص١٤٢ .

(٣٢٦) سمط النجوم العوالي للمكي ج٣ ص٢٠٤.

ومثل هذه ما ذكره بعضهم: أن علي بن الحسين(عليه السلام) اقترض من مروان بن الحكم أربعة آلاف دينار، فلم يتعرض له أحد من بني مروان حتى استخلف هشام، فقال لعلي بن الحسين: مافعل حقّنا قبلك ؟ فقال(عليه السلام): موفور ومشكور. فقال هشام: هو لك.

وهذا لا يصحّ من جهات أهمّها التاريخ، فإنّ خلافة هشام كانت سنة (١٠٥هـ) كما سيأتي، ووفاة علي بن الحسين كانت سنة (٩٥ هـ) أي قبل أن يلي الأمر هشام بعشر سنوات[٣٢٧].

يزيد بن عبد الملك

يزيد بن عبد الملك بن مروان أمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية، تولّى الحكم بعد عمر بن عبد العزيز سنة (١٠١ هـ) وبقي إلى أن مات ليلة الجمعة لأربع بقين من شعبان سنة (١٠٥ هـ) فكانت ولايته أربعة أعوام وشهراً واحداً ويومين.

أراد عندما ولي الخلافة أن يسير بسيرة عمر بن عبدالعزيز، فشقّ ذلك على قرناء السوء، وأعوان الظلم ودعاة الباطل، فأتوا إليه بأربعين شيخاً، فشهدوا له أنّه ما على الخلفاء من حساب ولا عذاب[٣٢٨].

فخدعوه بذلك فانخدع بهم، وكان كلامهم موافقاً لهواه، فانهمك في اللذات واللهو والطرب، ولم يراقب الله ولم يخشه[٣٢٩].

فعادت الأمور إلى وضعها قبل عمر بن عبد العزيز، وعادت مشكلة الخراج وعزل جميع عمّال عمر، وكتب إلى عمّاله: أما بعد فإنّ عمر بن عبد العزيز كان مغروراً، فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى، أخصبوا أم أجدبوا، أحبوّا أم كرهوا، حيوّا أم ماتوا[٣٣٠].

وقال ابن الأثير: وعمد يزيد بن الوليد إلى كلّ ما صنعه عمر بن عبدالعزيز ممّا لم يوافق هواه فردّه، ولم يخف شناعة عاجلة، ولا إثماً عاجلاً، فمن ذلك: أنّ محمد بن يوسف أخا الحجاج كان على اليمن، فجعل عليهم خراجاً مجدّداً، فلمّا ولي عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله بالاقتصار على العشر، وترك ما جدّده محمد بن يوسف،

---

(٣٢٧) تاريخ ابن كثير ج٩ ص٢٥٢ .

(٣٢٨) تاريخ ابن كثير ج٩ ص٢٣٢ .

(٣٢٩) سمط النجوم العوالي ج٣ ص٢٠٩ .

(٣٣٠) العقد الفريد ج٣ ص١٨٠ .

وقال: لأن يأتيني من اليمن حصة ذرة أحبّ إلي من تقرير هذه الوضعية، فلمّا ولي يزيد بعد عمر أمر بردّها، وقال لعامله: خذها منهم، ولو صاروا حرضاً، والسلام[٣٣١].

وكان يزيد صاحب لهو ولدّة، وهو صاحب حبابة وسلامة وهما جاريتان وكان مشغوفاً بهما، وماتت حبابة فمات بعدها بيسير أسفاً عليها، وكان قد تركها أيّاماً لم يدفنها، لعدم استطاعته فراقها، فعوتب على ذلك، فدفنها، ويقال إنّه نبشها بعد الدفن حتى شاهدها[٣٣٢].

هشام بن عبد الملك

هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ولي الأمر بعهد من أخيه يزيد بن عبد الملك سنة (١٠٥هـ) لخمس بقين من شعبان، وبقي إلى سنة (١٢٥ هـ) وهي سنة وفاته، وكانت مدّة ملكه تسع عشرة سنة وسبعة أشهر غير أيام، وأمّه بنت هشام بن إسماعيل المخزومي.

كان هشام يعدّ من دهاة بني أمية، وقرنوه بمعاوية، وعبد الملك، وقد عرف بالغلظة، وخشونة الطبع، وشدّة البخل، وسوء المجالسة، وكان أحول، وهو الرابع من أولاد عبد الملك الذين تولوا الحكم .

وكان شديد البغض للعلويين، حاول الانتقام منهم، وانتقاصهم كلّما أمكنته الفرصة.

حجّ هشام قبل أن يلي الخلافة فطاف في البيت ولم يتمكّن من استلام الحجر من شدّة الزّحام، فنصب له منبر وجلس عليه، وأهل الشام حوله.

وبينما هو كذلك إذ أقبل علي بن الحسين زين العابدين(عليه السلام) فانفرج الناس له وصاروا سماطين، اجلالاً وهيبة واحتراماً، فعظم على هشام وغاضه ذلك. وقال: من هذا؟ استنقاصاً له. وكان الفرزدق حاضراً فقال: أنا أعرفه.

فقال هشام: من هو؟ فأنشأ الفرزدق قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته *** والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلّهم *** هذا التقيّ النقيّ الطاهر العلم

إلى آخر القصيدة ، فغضب هشام، وأمر بسجن الفرزدق[٣٣٣].

---

(٣٣١) الكامل لابن الأثير ج٥ ص٢٢ .

(٣٣٢) الانافة في مآثر الخلافة ج١ ص١٤٦، والبدء والتاريخ ج٣ ص٤٨ .

(٣٣٣) ينابيع المودة ج٣ ص١٠٧ ـ ١٠٨ .

وحجّ هشام بن عبد الملك في أيام خلافته سنة (١٠٦ هـ) وكان الإمام محمد الباقر(عليه السلام)في المسجد، وقد أحاط به طلاب العلم، وهو في تلك الحلقة يلقي عليهم تعاليم الدين الإسلامي، ويعلّمهم الاحكام والفرائض، فصعب ذلك على هشام، فقال لرجل من جماعته: اذهب إليه واسأله وقل له يقول لك أمير المؤمنين: ما الّذي يأكله الناس ويشربونه في المحشر إلى أن يفصل بينهم يوم القيامة؟ فلما سأله الرجل قال(عليه السلام): قل له، يحشر الناس على مثل قرص النقى،(٣٣٤) فيها أشجار وأنهار يأكلون ويشربون منهاحتى يفرغوا من الحساب.

وكان هشام يقصد من وراء هذا السؤال أن يظفر بشيء يستطيع به أن يضع من منزلة الإمام في ذلك المجتمع ولو من باب المغالطة، لأنّه حانق عليه، فلما رجع الرسول إليه بما أجابه الإمام ظن هشام أن ظفر بما أراد ونجح بما دبر.

فقال: اللّه أكبر، إذهب إليه فقل له يقول لك: ما أشغلهم عن الأكل والشرب يومئذ؟

فقال أبو جعفر الباقر(عليه السلام): هم في النار أشغل، ولم يشغلوا عن أن قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم اللّه. فسكت هشام وعرف فضله.

وهو الذي سيّر الإمام الباقر(عليه السلام)وولده الصادق(عليه السلام) من المدينة إلى الشام، يقصد بذلك اهانتهما والتشفي منهما لما رآه وسمعه عندما حجّ في تلك السنة، وحجّ فيها الإمام محمد الباقر وولده الصادق(عليهما السلام) ، فقال الإمام الصادق في ذلك الملأ: الحمد للّه الذي بعث محمداً بالحقّ نبياً وأكرمنا به، فنحن صفوة الله من خلقه، وخيرته من عباده وخلفائه، فالسعيد من تبعنا، والشقي من عادانا.

فبلغ هشام ذلك، وعظم عليه فلم يتعرّض لهما بشيء، حتى انصرف إلى دمشق، وأمر بإشخاص الإمام وولده الصادق(عليهما السلام) إلى دمشق. قال الإمام الصادق(عليه السلام) فلما وردنا دمشق حجبنا ثلاثاً، ثم أذن لنا في اليوم الرابع إلى آخر ما هو معروف من هذه القصة(٣٣٥).

هشام وزيد بن علي

ودخل عليه زيد بن علي(عليه السلام) فسلّم عليه بالإمرة، فلم يرد السلام اهانة له، وأغلظ في الكلام ولم يفسح له في المجلس.

---

(٣٣٤) النقى كغنى، قال في النهاية: الحديث: يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء كقرصة النقى يعني الخبز الحواري.

(٣٣٥) بحار الأنوار ج٤٦ ص٣٠٦ ـ ٣٠٧ .

فقال زيد: السلام عليك يا أحول، فأنك ترى نفسك أهلاً لهذا الاسم. فغضب هشام، وجرت بينهما محاورة كان نصيب هشام فيها الفشل، وخرج زيد وهو يقول: ما كره قوم حرّ السيوف إلاّ ذلّوا.

وأمر هشام بردّه وقال له : اذكر حوائجك. فقال زيد: أما وأنت ناظر على أُمور المسلمين فلا. وخرج من عنده، وقال: من أحبّ الحياة ذلّ[٣٣٦].

ومضى زيد إلى الكوفة وبها استشهد في الثالث من صفر سنة (١٢١ هـ) بعد ثورة آزرته فيها مختلف الطاقات، وجرت حوادث لايتسع المجال لذكرها.

وبعد شهادته ـ (رضي الله عنه) ـ صلب جسده عرياناً منكوساً بأمر من هشام، وبقي الجسد مصلوباً أربع سنين، ونسجت العنكبوت على عورته[٣٣٧]، وأرسل يوسف بن عمر أمير الكوفة رأس زيد إلى هشام، فصلبه على باب دمشق، ثم أرسله إلى المدينة، فنصب عند قبر الرسول يوماً وليلة، ثم نصب في مؤخر المسجد على رمح، وأمر الوالي باجتماع الناس، فقام خطباء الأُمويين بشتم أهل البيت، وهكذا بقي الرأس سبعة أيام[٣٣٨].

ثم أمر هشام بإرسال الرأس إلى حنظلة بن صفوان عامله على مصر سنة (١٢٢ هـ) فأمر حنظلة بتعليقه، وأن يطاف به[٣٣٩].

أمّا الجسد الشريف فقد بقي مصلوباً إلى أيّام الوليد بن يزيد، وقد أقام عليه يوسف بن عمر حرّاساً خوفاً من أن ينزل الجسد فيغسل ويكفن ، وكان الموكل بحراسة الجسد زهير بن معاوية، أحد رجال الصحاح وحملة الحديث.

وكان زهير يحدّث الناس: بأنّه رأى رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) في النوم، وقد وقف على الخشبة وقال: هكذا تصنعون بولدي من بعدي ؟ !! يا بني يا زيد قتلوك، قتلهم اللّه، صلبوك صلبهم اللّه[٣٤٠].

مقتل زيد بن علي وملابساته

ونودّ أن نوضّح هنا ـ بايجاز ـ نقطة ذات أهمية في الموضوع وهي: إنّ المشهور بأنّ الشيعة اجتمعوا إلى زيد، فسألوه عن أبي بكر وعمر، وما هو رأيه فيهما؟ أو أنّهم

---

(٣٣٦) تاريخ الطبري ج٨ حوادث سنة ١٢١، وابن عساكر ج٦ ص٢٢ ـ ٢٣.

(٣٣٧) تاريخ الخميس ج٢ ص٣٢٠.

(٣٣٨) زيد الشهيد للعلامة السيد عبد الرزاق المقرم ص١٦٢ ـ ١٦٤.

(٣٣٩) النجوم الزاهرة ج١ ص٢٨١.

(٣٤٠) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج٦ ص٣٢٣ .

سألوه البراءة منهما، فأجابهم بخلاف ما أرادوه من الطعن في الشيخين. فتفرقوا عنه فسمّاهم الرافضة.

وعلى هذا فقد وسم الشيعة باسم الرافضة وأنّهم الذين رفضوا الشيخين أو رفضوا زيداً، إلى غير ذلك مما هو مشهور في هذه القضية.

وعندما نرجع إلى الواقع وندرس الحوادث على ضوء العلم وعدم التحيّز ونتثبّت ـ قدر الامكان ـ من صحة القول، فبدون شكٍّ يبدو لنا عدم صحّته، وربّ مشهور لا أصل له .

وحقيقة الأمر أنّ الشيعة لم يسألوا زيداً عن الشيخين ورأيه فيهما بذلك الموقف الحرج، وإنّما كان ذلك من قبل المندسين في صفوف جيشه، وأنّها كانت حيلة من قبل الوالي يوسف بن عمر ليوقع الفرقة، ويثير غبار الخلاف لأنّ جيش زيد كان يتألّف من عناصر مختلفة الآراء والعقائد، ففيهم الخوارج وفيهم الناقمون على الأمويين، وفيهم الجواسيس وغير هؤلاء.

قال ابن عساكر: فخرج زيد في أربعة آلاف بالكوفة، فاحتال عليه بعض من كان يهوى هشاماً، فدخلوا عليه وقالوا: ما تقول في أبي بكر وعمر؟

فقال زيد: رحم الله أبا بكر وعمر صاحبي رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ثم قال: أين كنتم قبل اليوم؟!![٣٤١]

وكان الغرض من القاء هذا السؤال في ذلك الموقف الحرج في ساعة حرب وتجمّع، وهياج وتحزّب، هو أحد أمرين وفي كليهما نجاح تلك الخدعة، وتحقيق هدف تلك المؤامرة ، فإمّا أن يتبرأ زيد من الشيخين ويسيء القول فيهما، فيكون حينئذ أقوى سبب لقتل زيد، لأنّه يسيء القول في الشيخين، وتلك وسيلة اتخذها الأمويون ومن بعدهم للقضاء على خصومهم، وإمّا أن لا يتبرأ فيقولوا كيف لا يتبرأ ممّن ظلمهم حقّهم ؟ وبالفعل قالوا ونجحت هذه المؤامرة، وتفرق أهل الغدر وذوو الاطماع، وكانت هذه الحيلة من الوالي يوسف بن عمر أقوى سلاح لجأ إليه.

يقول الأستاذ الخربوطلي: ولجأ يوسف بن عمر إلى الحيلة فدسّ لزيد بين أنصاره من يسأله عن رأيه في أبي بكر وعمر.. الخ[٣٤٢].

كما أنّه أعطى لبعض جواسيسه الأموال ليتعرف على أصحاب زيد[٣٤٣].

---

(٣٤١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج٦ ص٢٣.

(٣٤٢) الدولة العربية الإسلامية ص٣٠٥.

(٣٤٣) تاريخ الطبري ج٨ ص٢٧٧ .

وأنّ الأمر لا يحتاج إلى مزيد من إقامة الشواهد على اهتمام الأمويين في اتخاذ الوسائل لإفشال ثورة زيد، وأنّ نفسيّات الاكثرية التي انضمّت إليه قد طبعت على الغدر ونقض العهود.

وإنّ قول زيد لمن سأله: أين كنتم قبل هذه؟ ليدلّ بصراحة على ما في الأمر من هدف معيّن وأمر مبيّت.

إنّ الشيعة هم محور تلك الثورة، وليس من الصحيح أن ينسب إليهم اثارة موضوع هم في غنى عنه، وهم لا يجهلون رأي أهل البيت في ذلك الأمر، فما معنى هذا السؤال في ذلك الموقف الحرج؟ كما أنّهم يعرفون الجيش واختلاطه من عناصر مختلفة، فكيف يهبط بهم الشذوذ في التفكير إلى هذا المستوى الذي لايتفق مع عقائدهم ولا يسير مع خططهم الثورية؟ والواقع أنّ الشيعة لم يثيروا هذا الموضوع، لأنّهم لا يجهلون خطره في ذلك الموقف الحرج، وإنما كانت اثارته من الخدع السياسية ، والحيل الأموية.

ولقد نجحت تلك المؤامرة وتسربت الفرقة بين صفوف الجيش، وتفرّق عن زيد من لم يأت لنصرته عن عقيدة ثابتة، ولم يبق معه إلاّ الخلّص من الشيعة، فدافعوا عنه دفاع الابطال، وثبتوا معه إلى أن قتل ـ رحمة الله عليه ـ ، وقد قتل بين يديه جماعة منهم، وآخرون صحبوا ولده يحيى وقاتلوا معه، ولم ترفض الشيعة زيداً، بل إنّما رفض المعاونة معه انصار الأمويين وأعوان الظلمة.

وليس باستطاعتنا التفصيل لهذه القضية الآن والاحاطة بها من جميع الوجوه، ليتّضح الأمر كما يرام، وسيأتي ان شاء اللّه مزيد بيان في دراسة هذا الموضوع، والوقوف على الحوادث التي ادّت إلى فشل ثورة زيد بن علي(عليه السلام).

الوليد بن يزيد

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، وأمه أمّ الحجاج بنت محمدبن يوسف أخي الحجاج الثقفي.

ولي الأمر بعد هشام بعهد من يزيد بن عبد الملك، وتربع على دست الحكم يوم الأربعاء لست خلون من شهر ربيع الأول سنة (١٢٥ هـ) . وقيل لعشر خلون من ربيع.

بقي في الحكم إلى أن قتل يوم الخميس لليلتين بقيتا من شهر جمادى الآخرة سنة (١٢٦ هـ) . فكانت ولايته سنة واحدة وشهرين.

قال ابن حزم: وكان الوليد فاسقاً خليعاً ماجناً[٣٤٤].

وقال ابن فضل الله في المسالك: الوليد بن يزيد فرعون ذلك العصر الذاهب، يأتي يوم القيامة فيورد قومه النار، ويرديهم العار، وبئس الورد المورود، رشق المصحف بالسهام، ولم يخش الآثام.

وقال القلقشندي: وكان مصروف الهمة إلى اللهو، والأكل ، والشرب وسماع الغناء...[٣٤٥]

وقال ابن كثير: كان هذا الرجل مجاهراً بالفواحش، مصرّاً عليها، منتهكاً محارم الله ـ عزّ وجلّ ـ لا يتحاشى من معصية، وربّما اتّهمه بعضهم بالزندقة والإنحلال .

ولما ولي هشام أكرم ابن أخيه الوليد، حتى ظهر عليه أمر الشراب، وخلطاء السوء، ومجالس اللهو...

وقال هشام للوليد: ويحك! والله ما أدري أعلى دين الإسلام أنت أم لا؟ فإنّك لم تدع شيئاً من المنكرات إلا أثبته، غير متحاش ولا متستر. فكتب إليه الوليد:

يا أيّها السائل عن ديننا *** ديني على دين أبي شاكر

فشربها صرفاً وممزوجةً *** بالسخن أحياناً وبالفاتر[٣٤٦]

وأبو شاكر هو مسلمة بن هشام بن عبد الملك.

وعلى أيّ حال فإنّ للوليد أعمالاً منكرة، وجرائم لا توصف، وقبائح تشمئز لها النفس، ويقف القلم عند بيانها خجلاً.

وكانت له جرأة عظيمة على انتهاك حرمة الإسلام، فمن ذلك أنّه كان يستهدف بالمصحف ويقول :

تهدّد كلّ جبار عنيد *** فها أنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربّك يوم حشر *** فقل ياربّ خرقني الوليد[٣٤٧]

وهو الذي كتب إلى عامله على الكوفة يوسف بن عمر: خذ عجل أهل العراق فأنزله جذعة (يعني زيد بن علي(عليه السلام)) وأحرقه بالنار ثم انسفه باليمّ. فأمر يوسف به فأحرقه ثم رضه وحمله في سفينة ، ثمّ ذراه في الفرات[٣٤٨].

---

(٣٤٤) السيرة لابن حزم ص٣٦٣.

(٣٤٥) الانافة في مآثر الخلافة ج١ ص١٥٦ .

(٣٤٦) تاريخ ابن كثير ج١٠ ص٢ ـ ٦، الكامل لأبن الأثير ج٥ ص١٢٤ .

(٣٤٧) البدء والتاريخ للمقدسي ج٣ ص٥٣، وتاريخ الخميس ج٢ ص٣٢٠، وابن الأثير ج٥ ص١٣٧، والحور العين لابن نشوان ص١٩٠ وغيرها.

(٣٤٨) تاريخ الطبري ج٨ ص١٢٢ و ابن الأثير ج٥ ص١٢٧ .

وقد وردت في الوليد أحاديث بأنّه فرعون هذه الأمة منها: ما أخرجه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب أنّه ولد لأخي أم سلمة غلام فسمّوه الوليد، فقال النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم): **«سميتوه باسم فراعينكم، ليكونن في هذه الأمة رجل يقال له الوليد، لهو أشدّ فساداً لهذه الأمة من فرعون لقومه»**[٣٤٩] وفي لفظ لهو أضرّ على أمتي[٣٥٠].

وأخرج البيهقي عن زينب بنت أمّ سلمة عن أمّها قالت: دخل النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)وعندي غلام من آل المغيرة اسمه الوليد، فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): **من هذا يا أم سلمة؟** قالت: هذا الوليد. فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): **«قد اتخذتم الوليد حناناً; غيّروا اسمه; فإنّه سيكون في هذه الأمة فرعون يقال له الوليد»**[٣٥١].

وعندما ولي كان يكتب إلى الناس:

ضمنت لكم إن لم تعقني منيتي *** بأنّ سماء الضرّ عنكم ستقلع[٣٥٢]

ولما عمّ ظلمه وجوره وفسقه واستهتاره، قال فيه الشاعر العربي حمزة بن بيض:

وصلت سماء الضر بالضر بعدما *** زعمت سماء الضر عنا ستقلع

فليت هشاماً كان حيّاً يسومنا *** وكنّا كما كنّا نرجي ونطمع

وقال أيضاً:

يا وليد الخنا تركت الطريقا *** واضحاً وارتكبت فجّاً عميقاً

وتماديت واعتديت وأسرفـ *** ـت وأغويت وانبعثت فسوقاً

أنت سكران ما تفيق فماتر *** تق فتقاً وقد فتقت الفتوقا[٣٥٣]

وكتب إليه عامله على خراسان: بتردّي الأوضاع، وحدوث ثورات فأجابه: إنّي مشغول بالعريض ومعبد وابن أبي عائشة. وهم المغنون الذين أحضرهم عنده[٣٥٤].

واشتدّت النقمة على الوليد، وثار الناس عليه بقيادة ابن عمّه يزيد بن الوليد، وقال له يزيد بن عنبسة: ماننقم عليك في أنفسنا، لكن ننقم عليك انتهاك حرم اللّه، وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر اللّه[٣٥٥].

---

(٣٤٩) مسند أحمد ج١ ص٢٦٥ /١٠٩.

(٣٥٠) دلائل النبوة ج٦ ص٥٠٥.

(٣٥١) تاريخ ابن كثير ج١٠ ص٦ وتاريخ الإسلام للذهبي ج٥ ص١٧٣.

(٣٥٢) البدء والتاريخ ج٣ ص٥١ .

(٣٥٣) الكامل لابن الأثير ج٥ ص١٣٣ .

(٣٥٤) البدء والتاريخ ج٣ ص٥٣ .

(٣٥٥) تاريخ الإسلام للذهبي ج٥ ص١٧٨ .

وقتل يوم الخميس لليلتين من جمادى الآخرة سنة (١٢٦ هـ) وحمل رأسه إلى يزيد بن الوليد، فأمر أن يطاف به في البلد.

مقتل يحيى بن زيد

وفي أيّامه قتل يحيى بن زيد بن علي بن الحسين(عليه السلام) ، وذلك أنّه خرج من الكوفة بعد مقتل أبيه زيد وتوجّه إلى خراسان، فسار إلى الري، ومنها أتى سرخس، ثم خرج ونزل في بلخ على الحريش بن عبد الرحمن الشيباني، ولم يزل عنده حتى هلك هشام وولي الوليد[٣٥٦].

وكتب يوسف بن عمرو إلى نصر بن سيار يخبره بأمر يحيى، وأنّه في منزل الحريش ، فطالبه نصر بيحيى، فقال له الحريش: لا علم لي به، فأمر به فضرب ستمائة سوط.

فقال الحريش: والله لو أنّه تحت قدمي مارفعتهما عنه[٣٥٧]، ثم وقعت بعد ذلك حوادث يطول ذكرها، وقامت الحرب بين يحيى وبين نصر، وأرسل نصر ليحيى جيشاً عدده عشرة آلاف فارس، وكان يحيى في سبعين رجل فهزمهم يحيى وقتل قائد الجيش عمر بن زرارة.

فارسل نصر جيشاً آخر في طلب يحيى، فادركوه بالجوزجان، ووقع القتال بينهم وبين يحيى، وأصاب يحيى سهم في جبهته فقتل وقتل أصحابه عن آخرهم، وأخذوا رأس يحيى وسلبوه قميصه[٣٥٨].

كانت شهادة يحيى يوم الجمعة وقت العصر سنة (١٢٥ هـ) وبعث رأسه إلى الوليد بن يزيد، فبعثه إلى المدينة; وجيء به إلى أُمّه ريطة بنت أبي هاشم بن محمد بن الحنفية فقالت: شردتموه عني طويلاً، وأهديتموه إليّ قتيلاً، صلوات الله عليه، وعلى آبائه بكرة وأصيلا[٣٥٩].

أمّا جسده الشريف فصلب بالجوزجان، ولم يزل مصلوباً حتى ظهر أبو مسلم الخراساني، واستولى على خراسان، فانزله وصلى عليه ودفنه، وأمر بالنياحة عليه[٣٦٠].

---

(٣٥٦) زيد الشهيد للسيد عبد الرزاق المقرم ص١٧٦.
(٣٥٧) الكامل لابن الأثير ج٥ ص١٢٧ .
(٣٥٨) الكامل لابن الأثير ج٥ ص١٢٧.
(٣٥٩) زيد الشهيد للمقرم ص١٨١ .
(٣٦٠) الكامل لابن الأثير ج٥ ص١٢٧.

يزيد الناقص

يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه شاهفريد بنت فيروز بن يزدجرد ملك الفرس.

ولي الأمر بعد قتل الوليد سنة (١٢٦هـ) ، وبقي إلى أن مات يوم الأحد في ذي الحجة من السنة المذكورة، ومدة حكمه خمسة أشهر وليلتين.

وإنّما سمّي بالناقص، لأنّه نقص الزيادة التي كان الوليد زادها في عطيات الناس وهي عشرة عشرة، وردّ العطاء إلى ما كان أيام هشام.

وفي أيامه اضطرب حبل الدولة أشدّ مما كان عليه من قبل، ووقع خلاف بين ولاة الامصار، وثار أهل حمص، ووثب أهل فلسطين، ووقع الحرب بين أهل اليمامة وعاملهم، إلى غير ذلك من الأمور، ومات يزيد ولم يعهد لأحد من بعده.

وكان مولاه قطن وهو الموكّل بخاتم الخلافة قد افتعل عهداً على لسان يزيد ابن الوليد لإبراهيم بن الوليد، ودعا أناساً فشهدوا عليه زوراً[٣٦١].

إبراهيم بن الوليد

هو إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، وأمه أمّ ولد اسمها نعمة، ولي الأمر بعد أخيه يزيد بعهد منه زوره الموكل بالخاتم وهو مولاهم قطن كما تقدم. وذلك في ذي الحجة سنة (١٢٦ هـ) ولم يتمّ له الأمر لكثرة الثورات واختلاف الكلمة، وسقوط هيبة الدولة، وكان اتباعه يسلمون عليه تارة بالخلافة وتارة بالامارة، وكانت مدة ولايته ثلاثة أشهر، وقيل شهرين وأيّاماً. وقد خلع نفسه وسلم الأمر لمروان الآتي ذكره، وذلك في صفر سنة (١٢٧ هـ). وقيل إنّ مروان قتله بعد أن ظفر به وصلبه وقتل جميع أصحابه، وقيل غرق في الزاب، أو أنه قتل فيه[٣٦٢].

مروان بن محمد

مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، وأمه أم ولد من الاكراد اسمها لبابة، ولي الحكم في صفر سنة (١٢٧ هـ) إلى ان قتل ببوصير من أرض مصر لثلاث عشرة

---

(٣٦١) العقد الفريد ص٣ ـ ١٩٤.

(٣٦٢) مروج الذهب ج٣ ص٢٣٩، وجوامع السيرة ص٣٦٤، والإنافة ج١ ص١٦١.

ليلة خلت من ربيع الآخر سنة (١٣٢ هـ) . وبه انتهى الحكم الأموي وانتقل الأمر إلى بني العباس .

وتفرّق الأمويون في البلاد، وكانوا طعمة للسيف وزالت دولتهم بعد أن حكمت البلاد احدى وتسعين سنة، وتسعة أشهر.

وقامت على انقاضها الدولة العباسية، بعد حروب طاحنة دامت مدة من الزمن، وكانت دعوة بني العباس إلى أهل البيت(عليهم السلام).

وأوّل من ولي الحكم منهم هو: أبو العباس السفاح عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، بويع في ربيع الآخر سنة (١٣٢ هـ) ومات في ذي الحجة سنة (١٣٦هـ).

وقام من بعده أخوه أبو جعفر المنصور واسمه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس .

بويع إذ مات أخوه السفاح، وبقي والياً إلى أن مات سنة (١٥٨ هـ) في ذي الحجة، وفي عهده استشهد الإمام الصادق(عليه السلام) بالسمّ دسّه إليه المنصور سنة (١٤٨ هـ) في الخامس والعشرين من شهر شوال، ودفن بالبقيع مع أبيه وجدّه والحسن السبط صلوات الله عليهم أجمعين .

وقد تجرّع من المنصور كؤوس الأذى والمحن، وتحمّل في سبيل أداء رسالته أنواع الآلام كما تقدم.

ولاة المدينة في العهد الأموي

أما ولاة المدينة المنورة فنحن نتعرّض لمن وليها في العهدين: الأموي والعباسي في حياة الإمام الصادق(عليه السلام) بإيجاز، لتقف على بعض الحوادث التي شاهدها الإمام الصادق(عليه السلام)، وتجرّع مرارة ذلك الظلم الذي لقيته الأمة وتحمّله رجالها الأبرار.

وقد تعاقب على المدينة ولاة جاروا في الحكم، واستهانوا بحرمة هذا البلد، ومنهم الحجاج بن يوسف فقد ولي المدينة بعد قتل ابن الزبير سنة (٧٤ هـ) وأقام فيها ثلاثة أشهر وتغيّب عنه أهلها، وقد استهان بصحابة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)وختم أيديهم وأعناقهم بالرصاص ليذلّهم ، ثم عزله عبد الملك سنة (٧٥ هـ) وولاّه العراق وأمر على المدينة أبان بن عثمان بن عفان، ثم عزله عبد الملك سنة (٨٢ هـ) وولى هشام بن إسماعيل المخزومي.

ونحن لا نريد أن نتعرّض بالحديث عن الولاة الذين سبقوا عهد الإمام الصادق(عليه السلام)وأيام حياته، بل يختصّ بحثنا بمن ولي المدينة في أيامه عليه السلام وهم:

هشام بن إسماعيل

هشام بن إسماعيل بن الوليد المخزومي المتوفى سنة (٨٨ هـ) ولاّه عبد الملك بن مروان إمرة المدينة المنورة سنة (٨٢ هـ)، وكان ظالماً في حكمه مبغضاً لآل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، وكان يؤذي علي بن الحسين(عليه السلام) وأهل بيته، ويخطب على المنبر وينال من علي بن أبي طالب(عليه السلام).

ولما أراد عبد الملك أن يبايع لولده الوليد، ثم من بعده لسليمان بن عبد الملك امتنع سعيد بن المسيب أن يبايع، فأمر به هشام فضربه ستين سوطاً وألبسه ثياباً من شعر، وأركبه جملاً وطاف به في المدينة، وذلك في سنة (٨٥ هـ).

ولمّا بلغ عبد الملك ذلك لام هشاماً وكتب له: أنا لنعلم أنّ سعيداً ليس عنده شقاق. وقال: ما ينبغي له إلاّ أن يبايع، وان لم يبايع ضربت عنقه أو خليت سبيله[٣٦٣].

وكانت ولاية هشام على المدينة أربع سنوات وقد أساء فيها لأهل المدينة وجار في حكمه.

وفي سنة (٨٧ هـ) عزله الوليد بن عبد الملك وولى مكانه عمر بن عبد العزيز وأمره بأن يوقف هشام بن إسماعيل للناس عند دار مروان، لأنّه أساء إلى أهل المدينة مدة ولايته[٣٦٤].

ولمّا أوقفوه للناس قال: ما أخاف إلاّ من عليّ بن الحسين، لأنّه أساء معه أكثر من غيره، ولكنّ الإمام علي بن الحسين(عليه السلام) أمر مواليه وخاصّته بأن لايتعرّضوا له بكلمة واحدة، ولمّا مرّ به عليّ بن الحسين(عليه السلام) ناداه هشام: اللّه أعلم حيث يجعل رسالته[٣٦٥].

عمر بن عبد العزيز

---

(٣٦٣) تاريخ الإسلام للذهبي ج٣ ص٣١٠، وتاريخ ابن كثير ج٩ ص٦٠.

(٣٦٤) تاريخ ابن كثير ج٩ ص٧١.

(٣٦٥) الطبري ج٨ ص٦١، وتاريخ الإسلام ج٣ ص٣١٠.

تقدّمت ترجمته وطرف من سيرته، وكان محباً لأهل البيت، وهو الذي ردّ عليهم فدكاً ومنع سبّ علي(عليه السلام)بعد أن اتّخذته الدولة الأموية شعاراً لها، وقد تقدّم بيان ذلك.

وكان الإمام الباقر(عليه السلام) يوصي عمر بن عبد العزيز بالعدل، فمن وصيّته له: «أوصيك أن تتّخذ صغير المسلمين ولداً، وأوسطهم أخاً، وأكبرهم أباً، فارحم ولدك وصل أخاك، وبر والدك، فإذا صنعت معروفاً فربه» . بمعنى أدمه ولا تقطعه[٣٦٦].

وقد روي عن الإمام الصادق(عليه السلام)، إنّه قال: كان العبد الصالح أبو حفص يأتي إلينا الدراهم والدنانير في رقاق من العسل خوفاً من أهل بيته.

ولي إمرة المدينة في سنة (٨٧ هـ) وبقي والياً إلى سنة (٩٣ هـ) وفيها عزله الوليد عن المدينة، لأنّ عمر بن عبد العزيز كتب إلى الوليد بعسف الحجاج وظلمه، واستبداده وجوره في حكمه، واعتدائه على الناس بغير حقّ ولا جناية.

فبلغ الحجاج ذلك وكتب إلى الوليد: إنّ من قبلي من مراق العراق وأهل الشقاق لجأوا إلى المدينة ومكّة وإنّ ذلك وهن.

فاستشاره الوليد عمّن يوليه المدينة فاشار الحجاج عليه بعثمان بن حيان وخالد بن عبد اللّه القسرى، فولى خالداً مكّة وعثمان المدينة، وعزل عمر بن عبد العزيز.

وفي سنة (٨٨ هـ) شرع عمر بن عبد العزيز ببناء مسجد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)وتوسعته بأمر الوليد.

سبب عمارته لمسجد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)

وكان السبب الذي من أجله قام الوليد بعمارة المساجد، وتوسعة مسجد الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)هو: أنّه خرج حاجّاً فمر بمسجد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فدخله ، فرأى بيتاً ظاعناً في المسجد، شارعاً بابه، فقال: ما بال هذ البيت؟ فقيل: هذا بيت عليّ ابن أبي طالب(عليه السلام)، اقره رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم)، وردم سائر أبواب أصحابه.

فقال الوليد: إنّ رجلاً نلعنه على منابرنا في كلّ جمعة، ثم نقرّ بابه ظاعناً في مسجد رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم)، اهدم ياغلام.

---

(٣٦٦) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٥٤ ص٢٧٠.

فقيل له: لا تفعل يا أمير المؤمنين، حتى تقدم الشام، ثم تخرج امرك بتوسيع مساجد الامصار، مثل مكّة والمدينة وبيت المقدس، وتبني بدمشق مسجداً فيدخل بيت علي(عليه السلام)فيما يوسع من مسجد المدينة، فقبل ذلك[٣٦٧].

ولم يهدم الوليد دار عثمان بن عفان ،فلمّا تولى بنو العباس أراد الحسن بن زيد أن يوسّع المسجد ليهدم دار عثمان، كما هدم الوليد دار علي(عليه السلام)، فكتب إلى أبي جعفر المنصور: يصف له ناحية موضع الجنائز. ويقول: إنّ زيداً في المسجد من الناحية الشرقية توسّط قبر النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في المسجد.

فكتب إليه أبو جعفر: إنّي قد عرفت الذي أردت، فاكفف عن ذكر دار الشيخ عثمان بن عفان[٣٦٨].

وكان اهتمام الوليد في توسعة المسجد شديداً، وأمر عامله عمر بن عبد العزيز بشراء ماحوله من الدور، ومن أبى هدمت عليه داره[٣٦٩].

وشقّ على أهل المدينة ذلك، وأرادوا ترك حجر النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) على حالها لينظر إليها الحجاج والزوار، والمسافرون، ويكون ذلك ادعى لهم إلى الزهد في الدنيا، فلا يعمرون فيها إلاّ بقدر الحاجة، ويعرفون أنّ هذا البنيان العالي إنّما هو من أفعال الفراعنة والاكاسرة. فكتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد بما أجمع عليه الفقهاء العشرة من عدم الرضا بالهدم. فارسل إليه الوليد يأمره بالخراب وبناء المسجد، ولما شرعوا في الهدم صاح الأشراف ووجوه الناس من بني هاشم وغيرهم، وبكوا مثل يوم مات فيه النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)[٣٧٠].

ويظهر أنّه لم يجسر أحد من عمال المدينة على الهدم، ولذلك اضطرّ الوليد إلى جلب عمّال من بلاد الروم، وكانوا أربعين من الروم وأربعين من القبط[٣٧١].

عثمان بن حيان

عثمان بن حيان المري مولى أمّ الدرداء أو مولى عتبة بن أبي سفيان.

---

(٣٦٧) مختصر تاريخ البلدان لأبي بكر أحمد بن إبراهيم المعروف بابن الفقيه ص١٠٧ .

(٣٦٨) الدرة الثمينة لابن النجا ص٨٥ .

(٣٦٩) الدرة الثمينة ص٨١ .

(٣٧٠) تاريخ ابن كثير ج٩ ص٧٤ ـ ٧٦ .

(٣٧١) الدرة الثمينة ص٨١، والطبري ج٨ ص٦٥ .

كان ظالماً متعسفاً، وأوّل عمل أجراه في المدينة أنه أرسل على جماعة من العلماء كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، منهم محمد بن المنكدر أحد العلماء الثقات، ومن تلامذة الإمام الباقر(عليه السلام) فضربهم، ونكّل بهم لما كان من كلامهم ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر. كما حدّث بذلك مالك بن أنس[٣٧٢].

ونفى العراقيين من المدينة، وحدّر كلّ من آواهم، لأنّهم كانوا يستجيرون بالحرم النبويّ من الحجاج وجوره، فكان يتتبعهم ويرجعهم إلى الحجاج مقيدين بالحديد، ولم يترك أحداً لا تاجراً ولا غير تاجر.

وخطب على المنبر فقال: أيّها الناس إنّا وجدناكم أهل غشّ لأمير المؤمنين في قديم الدهر وحديثه.

ثم ذكر العراقيين ووصفهم بالشقاق والغدر. ثم قال: واللّه ماجرّبت عراقياً قط إلاّ وجدت أفضلهم عند نفسه الذي يقول في آل أبي طالب ما يقول وما هم لهم بشيعة... واللّه أنّي لا أوتى بأحد آوى أحداً منهم أو أكراه منزلاً، إلاّ هدمت منزله وأنزلت به ماهو أهله[٣٧٣].

أبو بكر بن محمد

أبو بكر بن محمد بن عمر بن حزم المتوفى سنة (١٢١هـ) كان من العلماء ومن رجال الصحاح، وتولّى قضاء المدينة، ثم ولي إمرتها بعد عثمان بن حيان المري.

وكان عثمان قد عزم على التنكيل بأبي بكر وأن يحلق رأسه ولحيته، ولكن عاجله أمر سليمان بتولية أبي بكر وعزله، وتقييده بالحديد، وذلك في سنة (٩٦ هـ).

أقام أبو بكر بولاية المدينة من سنة (٩٦ هـ) إلى سنة (١٠١ هـ) فعزله يزيد وولى مكانة عبد الرحمن بن الضحاك الفهري، واشتدّ على أبي بكر وعذّبه بما يطول ذكره[٣٧٤].

عبد الرحمن بن الضحاك

---

(٣٧٢) السخاوي في التحفة ج٣ ص٣٨١ .

(٣٧٣) تاريخ الطبري ج٨ ص٩٢.

(٣٧٤) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٦٦ ص٤١ /٨٣٩١.

عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري. تولى إمرة المدينة سنة (١٠١ هـ) ولاّه يزيد بن عبد الملك بعد أبي بكر بن حزم، ثم عزله سنة (١٠٤ هـ) وولّى مكانه عبد الواحد بن عبد اللّه بن بشر النضري، وأمره أن يعذّب عبد الرحمن، وأن يضربه بالسياط، وأن يغرمه ألف دينار، ففعل به عبد الواحد ما أمره يزيد، وسلب ماله حتى أصبح لا يملك إلاّ جبّة صوف ، وهو يسأل الناس، لسوء حاله وشدّة حاجته.

وكان عبد الرحمن هذا سيء السيرة، عامل الناس بالظلم والتعسف وعادى الأنصار، وضرب أبا بكر بن حزم ظلماً وعدواناً، فكرهه الناس وهجاه الشعراء[٣٧٥].

عبد الواحد النضري

عبد الواحد بن عبد اللّه بن بسر النضري، نسبة لجدّه النضر بن معاوية. ولى إمرة المدينة ومكّة والطائف في سنة (١٠٤ هـ) من قبل يزيد بن عبدالملك إلى أن عزله هشام بن عبد الملك سنة (١٠٦ هـ) وولى مكانه إبراهيم المخزومي، وكان مرضي السيرة عند أهل المدينة، ولا يفعل أمراً إلا بعد استشارة القاسم بن محمد بن أبي بكر[٣٧٦].

إبراهيم بن هشام

إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي هو خال هشام بن عبد الملك. ولي المدينة سنة (١٠٦ هـ) وضمّ إليه الطائف ومكّة، وبقي والياً إلى سنة (١١٤ هـ) .

وحجّ بالناس سنة (١٠٠ هـ) وخطب بمنى يوم النحر بعد الظهر، فقال: سلوني أنا ابن الوحيد، لا تسألون أحداً أعلم مني، فقام إليه رجل من أهل العراق، فسأله عن الاضحية أواجبة هي أم لا؟ فما درى أيّ شيء يقول[٣٧٧].

خالد بن عبد الملك

---

(٣٧٥) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج٥ ص١١٣ ـ ١١٤ .

(٣٧٦) تهذيب التهذيب ج٢٦ ص٣٨١ /٤٣٩٥.

(٣٧٧) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٧ ص٢٥٩ /٥٣٥.

خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص. ولي إمرة المدينة سنة (١١٤هـ) بعد عزل إبراهيم بن هشام، وبقي والياً عليها إلى سنة (١١٨ هـ) وولي مكانه محمد بن هشام بن إسماعيل أخو إبراهيم الوالي السابق.

وكان خالد يحمل على علي(عليه السلام) ويتكلّم على منبر رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)بانتقاصه، فقام إليه داود بن قيس فبرك على ركبتيه، وقال له: كذبت كذبت حتى خفضه الناس[٣٧٨].

محمد بن هشام

محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي، خال هشام بن الحكم. ولي سنة (١١٨هـ) وبقي والياً عليها إلى سنة (١٢٥ هـ) وعزله الوليد الفاسق، وولّى مكانه يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي، وهو خال الوليد. وأضاف إليه مكّة والطائف.

وغضب الوليد على إبراهيم ومحمد ابني إسماعيل المخزومي، وهما من أمراء المدينة السالفين، فسجنهما ودفعهما إلى يوسف بن محمد موثّقين في عباءتين، فقدم بهما المدينة في شهر شعبان (١٢٥هـ) وأقامهما للناس ثم بعث بهما إلى يوسف بن عمر عامل العراق، فعذّبهما عذاباً شديداً حتى ماتا تحت العذاب[٣٧٩].

يوسف الثقفي

يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي ابن أخي الحجاج وخال الوليد. ولي المدينة سنة (١٢٥ هـ) ولاّه ابن أخته الوليد الفاسق، وضمّ إليه جميع الحجاز، وأقرّه يزيد بن الوليد، وبقي والياً إلى سنة (١٢٦ هـ) وعزله وولى مكانه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وبقي والياً إلى سنة (١٢٩ هـ) ثم عزله مروان الحمار، وولّى مكانه عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان، وهو آخر ولاة الأمويين على المدينة والحجاز.

وفي عهده دخل المدينة أبو حمزة الخارجي في صفر سنة (١٣٠ هـ) بعد وقعة قديد، وقد قتل فيها من أهل المدينة خلق كثير. وقامت النياحة في بيوت أهل المدينة.

---

(٣٧٨) تاريخ ابن عساكر ج٥ ص٨٢.

(٣٧٩) تاريخ ابن كثير ج١٠ ص٤ ، والطبري ج٨ ص٢٩٩ .

ودخل أبو حمزة الخارجي مدينة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) وهرب عبد الواحد بن سليمان إلى الشام وأقام أبو حمزة الخارجي في المدينة ثلاثة أشهر، ثم خرج لقتال مروان الحمار، فلقيهم عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي في جيش فأوقعوا بأصحاب أبي حمزة، وانهزم جيشه، وعادوا إلى المدينة منهزمين، فلقيهم أهل المدينة فقتلوهم ودخل المدينة عبد الملك بن محمد بن عطية منتصراً وأقام شهراً، ثم مضى إلى مكّة واستخلف على المدينة ابن أخيه الوليد بن عروة بن محمد بن عطية[٣٨٠].

ولاة المدينة في العهد العباسي

أمّا أمراء المدينة في العهد العباسي، فعندما ولي أبو العباس السفاح عزل عن المدينة يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي أمير المدينة من قبل الأمويين، وولّى عمّه داود بن علي بن عبد الله بن العباس، وذلك في سنة (١٣٢ هـ) وضمّ إليه مكّة، واليمن، واليمامة.

ولمّا دخل المدينة هدّد الناس وتوعّدهم، وقال في خطبته: أيّها الناس أغرّكم الامهال حتى حسبتموه الإهمال، هيهات منكم وكيف بكم، والسوط كفى، والسيف مشهر.

حتى يبيد قبيلة فقبيلة *** ويعضّ كلّ مثقّف بالهام

ويقمن ربّات الخدور حواسراً *** يمسحن عرض ذوائب الأيتام

ولكنّ الله لم يمهله وعجّل عليه، فلم تطل أيامه ومات في شهر ربيع الأوّل سنة (١٣٣ هـ) وكانت مدة ولايته أقلّ من ثلاثة أشهر.

ولما دنت وفاته استخلف ولده موسى، وولّى السفاح مكانه زياد بن عبيد الله بن عبد المدان الحارثي، وهو خال السفاح، وبقي إلى أيام المنصور، وعزله في سنة (١٤١هـ) وغضب عليه وحمله إلى الكوفة مكبّلاً بالحديد.

وولّى مكانه محمد بن خالد بن عبد الله القسري ثمّ عزله في سنة (١٤٤هـ)، وولّى مكانه رياح بن عثمان بن حيان المري، وبقي إلى سنة (١٤٥هـ) وفي عهده ثار محمد بن عبد الله بن الحسن في المدينة، وقبض على رياح وأخيه إبراهيم وأودعهما السجن، ودخل رجل من ولد مصعب بن الزبير عليهما في السجن عندما اشتد القتال بين محمد بن عبد الله وبين جيش المنصور فذبحهما، ورجع إلى محمد وقاتل معه حتى قتل.

---

(٣٨٠) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج٣ ص٤٧٥ ـ ٤٧٦. البداية والنهاية ج١٠ ص٦.

ثم ولي إمرة المدينة ـ بعد قتل محمد ـ عبد الله بن الربيع الحارثي وذلك في سنة (١٤٥هـ) وبقي والياً إلى سنة (١٤٧هـ)، ثم عزله المنصور[٣٨١].

وولي جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس وبقي والياً من قبل

المنصور إلى سنة (١٤٩ هـ) .

وفي أيامه مات أبو عبد الله الصادق(عليه السلام) وذلك في سنة (١٤٨ هـ) مسموماً.

هذا موجز من البيان عن ولاة إمرة المدينة في العهد العباسي، وقد شهدت المدينة المنورة في عهد رياح بن عثمان المري ـ الذي ولاّه المنصور إمرة المدينة ـ أولئك الجند القساة يهجمون على منازل آل الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، ويخرجون الرجال منها فيزجّ بهم في السجون، ويعذبون فيها بدون رحمة، ولا خشية من عقاب.

ولعلّ من أعظم تلك المشاهد وقعاً، وأشدّها ألماً، مرور موكب آل الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) من شيوخ وشبان في شوارع المدينة، وهم مكبّلون في الحديد، وقد غيّر ألم العذاب نضارة تلك الوجوه يحوط بهم جند المنصور، وهم يسيرون إلى الكوفة حتى اودعوا في سجنه المظلم فكان به خاتمة مطافهم، وهو بيت ضيّق لا يتمكن أحدهم من مقعده، يبول بعضهم على بعض ويتغوط، لا يدخل عليهم روح الهواء ولا يخرج عنهم رائحة القذر حتى ماتو عن آخرهم[٣٨٢].

وفي خضم هذه الأحداث كان الإمام الصادق يعيش معتركاً حاداً تختلط فيه المشاعر بالمسؤوليات الجسام، وليس أشقّ على نفسه الكريمة الطاهرة من ذاك المنظر وهو يرى برباطة جأش ماذا سينجم عن هذه الجولة التي كان وقوعها أمراً مقدراً لم يدخل في دائرة الاحتمالات على المدى الذي كان يلوح في الأفق . يروي الحسين بن زيد: اني لواقف بين القبر والمنبر، إذ رأيت بني الحسن يخرج بهم من دار مروان مع أبي الأزهر يراد بهم الربذة، فأرسل إليّ جعفر بن محمد فقال: ما وراءك؟ قلت: رأيت بني الحسن يخرج بهم في محافل، فقال: اجلس، فجلست، قال: فدعا غلاماً له، ثم دعا ربّه كثيراً، ثم قال لغلامه: اذهب، فإذا حُملوا فأتِ فأخبرني. قال: فأتاه الرسول، فقال: قد أقبل بهم. فقام جعفر، فوقف وراء ستر شعر أبيض من ورائه. فطلع بعبدالله بن الحسن وإبراهيم بن الحسن وجميع أهلهم، كلّ واحد منهم معادله مسوّد، فلما نظر إليهم جعفر بن محمد هملت عيناه حتى جرت دموعه على لحيته، ثم أقبل عليّ فقال: يا أبا عبدالله، والله لا تحفظ لله حرمة بعد

---

(٣٨١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج٣ ص٥٥٤ و٥٧٩ ـ ٥٨٠ .

(٣٨٢) البدء والتاريخ ج٦ ص٨٥ .

هذا، والله ما وفت الأنصار ولا أبناء الأنصار لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بما أعطوه من البيعة على العقبة(٣٨٣).

وبعد أن عرفنا أهمّ الحوادث التي جرت في عهد الإمام الصادق(عليه السلام)، سواء أكانت في عهد جدّه زين العابدين(عليه السلام)، أم في عهد أبيه الإمام الباقر(صلى الله عليه وآله وسلم)، أو في عهده بالذات; فإنّه يتّضح لنا مدى تحمّله للمتاعب ومواجهته للآلام التي ماجت بها تلك العهود.

كما تتّضح لنا الظروف التي أحاطت به والمشاكل التي كان يواجهها، وقد شاهد تلك الأحداث التي واجهها العالم الإسلامي وتخطى معه تلك المراحل العصيبة يوم أصبح الحقّ لايعمل به، والباطل لا يتناهى عنه.

وكانت الأهواء هي الحاكمة، والاحقاد هي المسيطرة، وقد رضخ المسلمون لحكم أناس ابتعدوا عن القرآن، وتركوا العمل بسنة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، فأصبحت الأمة الإسلامية يثقل كاهلها اطماع أولئك الحكام ويرهقها جورهم.

وفي عهد الإمام الصادق(عليه السلام) كانت البلاد الإسلامية مشحونة بالخلافات والمشاحنات، وحدثت ثورات دموية وحروب طاحنة، أدّت إلى استغلال الوضع من قبل أناس لا يهمّهم إراقة الدماء في تحقيق مآربهم الشخصية.

وقد تولى الإمام الصادق(عليه السلام) أعباء الإمامة ومسؤولية أداء رسالة الإسلام وهداية الأمة بعد أبيه الباقر(عليه السلام)، وقد لمعت شخصيته، وظهرت قابلياته، فتوالت عليه الطلبات لقيادة تلك الثورات التي قامت بوجه الطغيان، واتجهت إليه الأنظار، للاحتجاج على ذلك الحكم الظالم، وكانت الدعوة باسم أهل البيت(عليهم السلام)، لأنّهم زعماء هذه الأمةوأملها المنشود.

وكان الإمام الصادق(عليه السلام) قد اختطّ لنفسه طريق الدعوة الصامتة والثورة الإصلاحية، بعد أن عرف بثاقب بصره وخبرته ـ وهو ينظر إلى تلك الحوادث ـ أنّ هذه الثورات لا تؤدي إلى الغاية التي ينشدها، ولا تحقق الهدف، بل في ذلك مزيد من التضحيات التي لا يتورّع بنو أمية في مقابلتها عن سفك الدماء، وكفى أمة محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) ما أُريق من دماء، وكفى أهل البيت وشيعتهم ما أزهق من أرواح.

وكان يعلم عواقب تلك الخلافات، ويتحسس حاجة المجتمع الإسلامي الى التوجيه الصحيح، والدعوة إلى الالتزام بمبادئ الإسلام وتعاليمه، ليحقّق بذلك التكافل الاجتماعي، والتآزر العام. فقد بذر الحكام بين الصفوف بذور الفرقة وجعلوا جسم

---

(٣٨٣) مقاتل الطالبيين ص٢١٩ ـ ٢٢٠، وتاريخ الطبري ج٩ ص١٩٤ .

المجتمع مغرساً للأهواء والأباطيل، وللسلطة مفعولها لشدّ النفوس إليها، وأحاطت أهل البيت بستار من الريبة والخوف ليمنعوهم من التأثير في الأمة.

فقام(عليه السلام) بمهمّة التوجيه، ليخلق الوعي بين الصفوف، وليحقّق التكاتف والتآخي، وليقضي على بقايا رواسب جاهلية عملت على احيائها طغمة حاكمة، لتحقق لنفسها مغانم تسند بها سلطانها الجائر، وحكمها الظالم، وقد شهد طغيان المؤثرات القبلية والسياسية وغيرها.

إنّ الدعوة التي قام بها الإمام الصادق(عليه السلام)، إنّما هي ثورة إصلاحية وحملة توجيه عامة، ليوجد من تلك الجموع الثائرة أمة ذات وعي تحسب للظروف حسابها، وتنظر الوقت المناسب لقيام الثورة المتكفّلة لتحقيق غايتها وتحقيق هدفها في إعادة الخلافة الإسلامية، وتطبيق نظام الإسلام الذي يكفل للبشر سعادتهم.

والإمام الصادق(عليه السلام) وسط ذلك المعترك هو الموجه القائد الذي اجتمعت في شخصيّته جميع مؤهلات القيادة العامة، وقد واجه تلك الحوادث بحزم وثبات.

وقد ردّ(عليه السلام) طلب من الحّ عليه في تزعم الحركة الثورية التي نشبت في أيّامه بين انصار العلويين وبين الأمويين، وكانت الدعوة باسم أهل البيت(عليهم السلام) ، وهو زعيمهم وسيّدهم في عصره.

ولكنّه كان يرى أنّ اصلاح الوضع بالتوجيه الصحيح وتفهيم الناس ضرورة الوقوف تجاه الخصوم موقف تحسس بما تؤول إليه الحالة من التسرع في إثارة الحرب، وأنّ ذلك لايجدي نفعاً لوجود ذوي الأطماع الذين لا يقلّ ضررهم على الأمة الإسلامية من ضرر الأمويين، وبهذا يكون حلّ المشكلة بمشكلة أعظم منها.

واتخاذ مثل هذا الموقف الذي اتخذه الإمام لنفسه، ومن ورائه ذوو البصيرة من أعيان الأمّة ليدلّ على عمق التفكير وحصافة الرأي من ناحية عملية، ومن الناحية العقيدية، فهو صاحب ولاية وعهد تضمنتهما الإمامة التي آلت إليه بعد وفاة أبيه الإمام الباقر(عليه السلام) ، وهي في سياق الدعوة متصلة بمصادر الرسالة متعلقة بمصير الدين. فإنّ الأمة شهدت على يد الملوك الذين تلبّسوا بالدين انحرافاً في مسيرة السياسة وارتداداً في الغايات والأهداف، ولا يحظى تطبيق نظام الإسلام في ظلّ خلافة الملوك بمعشار ما تحظى به مصالح الحكام ومآربهم الشخصية وهم لا يتورعون بحال عن استثارة ما منع من الإسلام، أو إحياء ما عمل على هدمه النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) .

وقد أصبح لسلاطين الزمان قوة وصولة حتى انعدمت حالات التكافؤ، ومع ما هم عليه من الشوكة والنفوذ لم يتمكنوا من إخماد صوت الحق، أو منع المؤمنين من

العمل بالعقيدة الحقّة، وقد تصدّى أهل البيت للحفاظ على روح التحدّي في نفوس المؤمنين بشجاعة وبطولة، إذ نذروا أنفسهم لدعوة الحقّ وقيادة تيّار الالتزام والاتجاه الديني.

فعمل الإمام الصادق بعد وفاة أبيه على جمع شيعته ومريديه على قواعد المنهج والسلوك المعروفين منذ عهد جدّه الإمام زين العابدين(عليه السلام) .

لقد وقف الإمام الصادق(عليه السلام) موقف المصلح الذي يحاول أن يعيد للأمة مجدها في تعميق مبادئ الإسلام الصحيحة، ونشر الوعي الإسلامي بما يجب على كلّ مسلم أن يقوم به في إصلاح الوضع، في عصر انتشر به الفساد ومني المجتمع فيه بضروب المحن والابتلاء، وهو(عليه السلام) بدون شكّ يحمل من الأذى أضعاف ماتتحمله أفراد الأمة، لأنّه المصلح الذي يريد للمجتمع السعادة المفقودة في عهد ولاة لا تحترم حقوق الأمة المشروعة، وتتحدى نظامها المقدس، إذ استبدوا بالأمر وظلموا الأمة، واستأثروا بالمغانم، وخالفوا الكتاب والسُنّة في سبيل غاياتهم، وخلقوا مشكلات الخلاف والتعصّب ليفرّقوا الكلمة، ويشتتوا الشمل ويشغلوا الافكار، ممّا أثر على سير المسلمين وتقدّمهم من الجهة الروحية التي هي قوام دينهم، وذلك خلاف ماقرره الإسلام، لأنّه يدعو إلى كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة.

والإمام يرى أنّ واجبه يحتّم عليه نشر دعوة الاصلاح، وتوجيه المجتمع وبثّ تعاليم الدين، وأن يعلن غضبه على ذلك النظام الجائر بصفته إمام زمانه، ولكنّه ماذا يصنع وهو الرجل المغلوب على أمره، والمغضوب منه حقّه؟ ومع ذلك فإنّه لم يألُ جهداً في معارضتهم، ونهى الناس عن مخالطتهم والتولّي لأعمالهم، وقد أوجب على الأفراد عدم التعاون مع ولاة الأمر، وحرم عليه العمل لهم، وحذر وأوعد من عاونهم بالعذاب، لأنّه كبيرة من الكبائر، إذ الوالي الجائر يشتدّ عزمه وتتّسع دائرة استبداده عندما يكثر مناصروه.

كان الإمام(عليه السلام) يرى أنّ انفصال الأمة عن الظالمين وعدم الركون إليهم يضيّق دائرة الاستبداد ويرغم الولاة على العدل، ويأمل من وراء ذلك لهم السعادة، والغرض أنّ ولاة ذلك العصر أو خلفاء الدولة المروانية قد انهمكوا في الدنيا وسفكوا الدماء، وانتهكوا المحرّمات وتجاهروا في عداء آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، وتتبعوا من عرف بحبّهم، والميل إليهم، وتقريب من عرف ببغضهم، وهم يحاولون بذلك تحويل أنظار الأمة عن أهل البيت(عليهم السلام)أهل العلم والورع والعبادة، والناس وإن تمكّن من نفوسهم حبّ الدنيا والطموح إلى المال، فهم يخضعون لسيطرة العلم والدين بدافع العقيدة، وحبّ الناس لآل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) لا للدنيا، ولكنه للدين وحده،

فحبّهم من الدين، لذلك كان يثقل على بني أمية ذكر أهل البيت(عليهم السلام)بخير، لأنّ سياستهم ترتكز على بغضهم ونصب العداء لهم، واقصاء من عرف بحبّهم، وقتل من اتضح منه ذلك. تارة بـاسم الزندقة وأخرى باسم الخروج على طاعة السلطان.

ويعطينا الشاعر العبلي(٣٨٤) صورة عن تلك السياسية بقوله :

شردوا بي عند امتداحي علياً *** ورأوا ذاك فيَّ داءً دويا

فوربيّ ما أبرح الدهر حتى *** تختلي مهجتي بحبّي عليّا

وبنيه لحبّ أحمد أنّي *** كنت احببتهم بحبّي النبيّا

حبّ دين لا حبّ دنيا وشر الـ *** ـحبّ حبّ يكون لي دنيويا

صاغني اللّه في الذوابة منهم *** لا ذميماً ولا سنيداً دعيّا

وكان هذا الشاعر في عداد الأمويين، فهو من عبد العزى بن عبد شمس وكان يكره ما يجري عليه بنو أمية من ذكر عليّ(عليه السلام) وسبّه على المنابر، ويظهر الانكار، فنهوه عن ذلك ونفوه من مكة إلى المدينة، وعاش مجفواً من الأمويين مع مدحه لهم وشعره فيهم(٣٨٥).

ثم خلفتها الدولة العباسية فزادت على أعمال الدولة الأموية، حتى قال أحد مخضرمي الدولتين:

ياليت جور بني مروان دام لنا *** وليت عدل بني العباس في النار

لأنّهم تتبعوا الذراري العلوية فقتلوهم تحت كل حجر ومدر، وخرّبوا ديارهم وهدموا آثارهم، حتى قال الشعراء في عصر المتوكل:

تاللّه إن كانت أمية قد أتت *** قتل ابن بنت نبيّها مظلوما

فلقد اتته بنو أبيه بمثله *** هذا لعمرك قبره مهدوما

أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا *** في قتله فتتبعوه رميما(٣٨٦)

وكابد أهل البيت(عليهم السلام) من المحن مالا يمكن حصره، فقد امتلأت منهم السجون واهتزت بأجسامهم المشانق، وسالت بدمائهم الأرض.

وكانت السلطة الحاكمة تشجّع خصومهم وتدعو الناس للابتعاد عنهم. فيصدر مرسوم من بغداد إلى مصر، بأن لا يقبل علويّ ضيعة، ولا يركب فرساً، ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلاّ العبد الواحد، وإن كانت بين علوي وبين أحد من سائر الناس خصومة فلا يقبل قول العلوي ويقبل

---

(٣٨٤) هو عبد اللّه بن عامر بن عبد اللّه بن ربيعة بن عبد العزى.

(٣٨٥) تاريخ الشعر العربي ج١ ص١١٣ .

(٣٨٦) سمط النجوم العوالي ج٣ ص٤٦٤.

قول خصمه بدون بيّنة[٣٨٧]. وكانوا بين آونة وأخرى، يصدر مرسوم بأن يسفروا من الأطراف إلى عاصمة الملك ليكونوا تحت الرقابة، وينالوا العقاب هناك، وأمر الرشيد عامله على المدينة أن يضمن العلويون بعضهم بعضاً، وكانوا يعرضون على السلطان كلّ يوم فمن غاب عوقب.

أمّا عاصمة ملكهم بغداد، أو مقرّ حكمهم العراق، فأمر العباسيين مع العلويين أشهر من أن يذكر بإشارة، فلو نطقت أجزاء الأرض ما بين البصرة وفخ وكوفان ومقابر قريش وأفصحت عمّا احتوت وما شهدت لضجّ ما بين المشرق والمغرب لهول المشاهد والأحداث من أناس لولا اسم أهل البيت لكانوا أبعد عن السلطان والحكم، ولكنّهم أخفوا نواياهم واستظلّوا بمكانة أهل البيت، ومحبّة الناس لهم وتفجعهم لما حلّ بهم.

ولم يقف العلويون تجاه هذه المشاكل موقف الذلّة والخضوع، وأبت نفوسهم التسليم لتلك النظم والأحكام القاسية، وقد استطاعوا الافلات من تلك السيطرة، فثاروا في وجه الظلم لرفع راية العدل، فكانت هناك ثورات دموية كان النجاح مع أكثرهم، فأسسوا دولاً وحكومات اقلقت العباسيين ودفعتهم إلى الانتقام من العلويين وتطبيق مادة الفناء والإبادة بحقّ من عرفوه بالميل لهم أو اتهم بذلك، فحاكوا لهم التهم، ولصقوا بهم العيوب، فلقيت شيعة أهل البيت من ذلك أشدّ الأذى، ولكنّهم ذللوا تلك المصاعب بسلاح العقيدة والإيمان الصحيح، ووقف معسكرهم من البداية إلى النهاية مرابطاً على خطّ الدفاع عن حقوق آل محمد والانتصار لهم.

على أنّ الأكثرية الساحقة دعاهم الطمع وحبّ الدفاع عن النفس ـ وهو من الغرائز الملائمة لطبيعة الإنسان ـ للتظاهر مع السلطة على هضم حقوق العترة وبث تلك الدعايات الكاذبة ضد شيعتهم، لأنّهم شاهدوا الأحكام القاسية التي تطبّق على الشيعة، إذ شاهدوا أنّ أقرب الناس من ساحات الأمن وأبعدهم عن الخطر من ألّف كتاباً في ذمّهم أو أبدى رأياً في مؤاخذتهم أو الطعن في معتقداتهم، أو قال شعراً يهجوهم به، أو عرف بالعداء لآل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، وهم أئمة الشيعة ولا يرون طاعة أحد غيرهم، فتجد الكتاب والعلماء والشعراء يتقرّبون إلى ولاة الأمر بما يحطّ من كرامتهم، لينالوا شهادة الانتساب إلى مؤيدي السلطة ويتنعّموا بالسحت الحرام الذي تدرّه عليهم ألسنتهم الخبيثة وأقلامهم الدنيئة.

هذا بشار بن برد المعروف بالزندقة والإلحاد يقف أمام الخليفة العباسي فينشد:

أنّى يكون وليس ذاك بكائن *** لبني البنات وراثة الأعمام

---

(٣٨٧) الولاة والقضاة للكندي ص١٩٨.

فيجيزه المهدي بسبعين ألف درهم، فما حال الرعاع وذوي الحاجة والضمائر الرخيصة الذين يبيعون ضمائرهم بأبخس الأثمان عند مشاهدة هذا التشجيع، ويدخل مروان بن حفص على المهدي فينشده قصيدة يتعرض به لآل علي(عليه السلام).

هل تطمعون من السماء نجومها *** بأكفّكم أو تشترون هلالها

أو تدفعون مقالة عن ربّكم *** جبريل بلّغها النبيّ فقالها

شهدت من الانفال آخر آية *** بتراثهم فأردتم ابطالها

يعني بذلك بني علي وبني العباس[٣٨٨]. فترى المهدي يتزاحف من صدر مصلاه حتى صار على البساط اعجاباً بما سمع وتقديراً لموهبة هذا الشاعر..

ثم قال له كم بيتاً هي؟ قال: مائة بيت، فأمر له بمائة ألف درهم[٣٨٩].

وناهيك بما في هذا العمل والتشجيع من الخليفة وأثره في نفوس العامة، ولا شيء أملك للنفس من عطف الأمراء وتودّدهم للأفراد بما تميل طباعهم إليه.

ودخل رجل على الرشيد فقال: لقد هجوت الرافضة، قال: هات فأنشد :

رغماً وشمساً وزيتوناً ومظلمة *** من أن تنالوا من الشيخين طغيانا

قال الرشيد: فسّره لي، قال: لا ، ولكن أنت وجيشك أجهد من أن تدري ما أقول، قال: والله ما أدري ماهو وأجازه[٣٩٠].

ويقف مروان بن أبي الجنوب فينشد المتوكل شعراً ينال فيه من آل علي ويذم شيعتهم، فيأمر المتوكل بأن ينثر على رأسه ثلاثة آلاف دينار، ويأمر ولده (سعد) ألاّ يتأنّى بالتقاطها له، ويعقد له على إمارة البحرين واليمامة ويخلع عليه أربع خلع[٣٩١].

هذا بعض ما أبدته السلطة في مقاومتهم وتشجيع خصومهم، ولكنّه عمل لم يثمر أيّ شيء، فآل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) لا تستطيع أيّ قوة إخفاء ذكرهم أو محو آثارهم، فهم في كلّ زمن أعلام هدى، ودعاة صلاح وذكرهم يتجدّد كلّما تحرر الفكر وأزدهر العلم. والمنصف إذا نظر إلى انتشار مذهب أهل البيت(عليهم السلام) في الأقطار الإسلامية، كالعراق، والحجاز، ومصر، والشام، والأندلس، والهند، وإيران، والبحرين، والقطيف وغيرها; يرى أنّ ذلك الانتشار إنّما كان بحسب ذاته ولياقته وقيمه الروحية، مع شدّة مقاومة السلطات فكلّها تتّصف بالعداء له ووقفوا دون انتشاره مواقف خانهم النجاح فيها، وسيتّضح كلّ ذلك عند دراساتنا لنشأة المذاهب

---

(٣٨٨) تاريخ بغداد ج١٣ ص١٤٤.

(٣٨٩) تاريخ بغداد ج١٣ ص١٤٤ ـ ١٤٥.

(٣٩٠) انظر ضحى الإسلام ج٢ ص٢٥ ـ ٢٦، وانظر ديوان المرزباني.

(٣٩١) الكامل لابن الأثير ج٧ ص٣٨.

الإسلامية وعوامل انتشارها، وها نحن ننتقل بالقارئ الكريم إلى البحث عن نشأة المذاهب، والله ولي التوفيق.

المذاهب الأربعَة
نشأتها وشهرتها وانتشارها

المذاهب الأربعة نشأتها وشهرتها وانتشارها

تمهيد

وقبل البحث عن حياة أئمة المذاهب الأربعة يلزمنا ذكر أسباب نشأتها وكيف تكيف الإلتزام بها دون غيرها من المذاهب، حتى أصبح الوقوف عند قول إمام معيّن لازماً، ولا يمكن استنباط حكم شرعي لأيّ أحد دون أولئك القوم الّذين وقفت قافلة التشريع الإسلامي عندهم، فأصبحوا المصدر للتشريع والمرجع الأعلى في الدين، حتى ادعي استحالة الاجتهاد لمن بعدهم، فأغلق بابه في وجوه المسلمين.

وغلق باب الاجتهاد جمود للتشريع ووقف لتطور حياة الأمة، فتلك أمور يلزمنا النظر فيها، ولا نستطيع فهمها إلاّ بعد أن ندرس الظروف التي تكونت فيها فكرة التمذهب بمذهب إمام معيّن، ونبحث عن أسباب نشأتها وعوامل انتشارها، فهل كانت دواعي الانتشار بسبب القيم الروحية؟ أم أنّها استندت إلى السلطة التنفيذية؟ وهل كانت مستقلة عن تأثير السلطة أم أنّها عرضة لذلك؟ وهل اخضعتها لمتابعتها أم أنّها خضعت لأغراض الولاة؟ وسيتضح لنا ذلك عندما نبحث عن نشأة المذاهب.

نشأة المذاهب

على أثر النجاح الذي أحرزته الجميعات السرية المنعقدة ضد النظام الأموي طلع نجم بني العباس، وكان لهم نشاط سياسي في المجتمع، فهم في طليعة رجال حركة الانقلاب الذي أحدثته الأمة لتحويل الحكم من البيت الأموي إلى البيت العلوي، وكان العباسيون أشدّ الناس حماساً في إيقاد نار الثورة انتقاماً من الأمويين لأبناء علي(عليه السلام)، وكانت هتافات الثورة هي الدعوة إلى الرضا من آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم). وكانوا بذلك يتغلغلون في أوساط الناس، وبواسطة هذا الشعار أوجدوا لأنفسهم مكاناً في قيادة تيّار النقمة وتوجيه الثورة، وهم في قرارات أنفسهم يستغلون شمولهم بتسمية أهل البيت(عليهم السلام)وقد أخفوا نواياهم حتى حين، إذ ليس من السهل أن يكاشفوا شيعة أهل البيت أو يصرحوا بعزمهم على العمل لأنفسهم كبيت عباسي مستقل، ولو فعلوا ذلك قبل نجاح الثورة فمن المؤكّد أنّ جماعات الثوار ستلفظهم أو تتّخذ ما يناسب ذلك، لأنّ الأمر في أذهان الناس لا يعدو آل محمد ولا يتجاوز البيت العلوي الذي كان

قطب الرحى في المسيرة، وأيّ عمل يكشف عن نوايا العباسيين المبيّتة سيؤدي بهم بعيداً عن الثورة.

على هذا ثارت الأمة وانتظمت صفوفها التي نالت الانتصار في تلك الحروب الدامية، ومحيت أميّة من صفحة الوجود، ثم نال العباسيون ثمرة ذلك الغرس بمسايرة الركب ومجاراة المشاعر، فتاقت نفوسهم إلى انتحال هذا الاسم عسى أن يوفقوا لإقناع الأمة بانطباقه عليهم فتكون لهم حكومة وراثية، وتمنحهم الأمة ثقتها التامة.

وبالطبع أنّ هذه الفكرة لا تلاقي كثير قبول عند العرب وفي المدينة ومكّة في الخصوص، لذلك وجّهوا عنايتهم إلى الموالي، فأهل المدينة أعرف بآل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، وأدرى بنزول الآيات فيهم، وأحاديث النبيّ ووصاياه في آله، ولأنهم شاهدوا تلك الأعمال التي عامل الأمويون بها آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، وتألّموا لها، فكان كلّ ينكر ذلك ويتمنى مناصرتهم فلا يمكنهم أن يجعلوا العباسيين هم آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم).

وحذراً من انكار العرب وانضمامهم لجانب العلويين اقتضت سياستهم توجيه العناية إلى الموالي، وهم يأملون من وراء ذلك تثبيت قواعد المملكة اليوم والنقمة من العرب يوماً آخر.

المدينة والحركة العلمية

كانت المدينة المنوّرة مصدراً للفتيا ترجع إليهم الأمة في مهمات التشريع الإسلامي، لأنّها مركز العلم وفيها أصحاب الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته والتابعون لهم باحسان، وقد لاحظت الدولة الأموية من قبل هذه المهمّة التي يجب أن تلاحظها، وهي اتّجاه الانظار إلى المدينة، لأنّها الجامعة الإسلامية ويخشى على الدولة خطرها، فكانت تحذّرهم أشدّ الحذر، فاستمالت أكثر الفقهاء بالعطاء والرجوع إليهم في المهمات، لتسد بذلك ثغرة الخطر على الدولة.

وفي العهد العباسي نشطت الحركة العلمية وكان طبيعياً أن تنتعش العلوم في ظلّ سلطانهم، لأنّهم كانوا يجعلون حقّهم في الإمامة قائماً على أنّهم سلالة النبيّ، وكانوا يقولون: إنّهم سيشيدون ـ على اطلال الحكومة الموسومة بالزندقة عند أهل التقى ـ نظاماً على سُنة النبيّ وأحكام الدين الإلهي.

فنهض أهل البيت(عليهم السلام) وبقية العلماء لنشر العلم، إذ وجد المسلمون حريّة الرأي، والتفّوا حول آل البيت لانتهال العلوم من موردهم العذب، وكان الإمام

الصادق(عليه السلام) هو الشخصية التي يتطلّع إليها الناس يوم طلع فجر النهضة العلمية; فحملوا عنه إلى سائر الاقطار، وقصده طلاب العلم من الانحاء القاصية، وفتحت مدرسته بتلك الفترة، فكان المنتمون إليها أربعة آلاف، كما مر ذكره.

وهذا النشاط العلمي لا يروق للدولة الفتيّة التي قامت على اطلال الدولة الأموية بدون حقّ شرعي، وإنّما في صالح العلويين وانضمام العباسيين إليهم يطلبون الانتقام من أميّة التي جرعتهم كأس الغصص، فهم كسائر البيوتات التي انضمت لهذه الدعوة، ولكنّهم نشطوا بالحيلة، وتغلّبوا باصطناع المعروف لآل البيت، فكانوا في حذر متواصل من العرب عامة ومن المدينة خاصة، لأنّ الأمر في المدينة غيره في الكوفة، فأهل المدينة قد وقفوا على حقيقة البيعة وأنّها لآل علي(عليه السلام)دون بني العباس، كما أنّهم كانوا في طليعة من بايع محمد بن عبد اللّه بن الحسن وفي رقبة السفاح والمنصور بيعته، فكيف يستقلان بالأمر وينقضان تلك البيعة؟

ولكنّ السفاح استطاع بمهارته استجلاب قلوب الناس إليه وتثبيت قواعد ملكه على أيدي الفرس، لأنّه لا يأمن وثبة العرب لجانب العلويين، فهم في نظر العباسيين أنصار بني علي لا أنصار بني العباس، كذلك كان من سياستهم في بدء الدعوة قتل كلّ من يتكلم بالعربية في بلاد فارس.

ومضى السفاح وجاء المنصور للحكم وهو ذلك الرجل الحديدي الذي يقتحم مواقع الخطر، ولا يتهيّب من إراقة الدماء، ولا يقف أمامه حاجز ولا يردعه وازع ديني في سبيل تركيز دعائم ملكه، إذ كان الخطر محيطاً به من كلّ الجهات وأمام غايته حواجز لا يتخطّاها إلاّ بالتجرّد عن العاطفة، ففتك بأهل البيت وبكثير من العباسيين أنفسهم، وأبعد علماء المدينة ونصر الموالي وأوجد تلك المعركة القوية; وهي معركة أهل الحديث وأهل الرأي.

فقرّب فقهاء العراق القائلين بالقياس، وأحاطهم بعنايته ليحول أنظار الناس إليهم، وبذلك تقلّ قيمة علماء أهل المدينة الذين هم أهل الفتيا إلى حدّ كبير، وما زالت الاقطار الإسلامية عيالاً عليهم، إذ هم حملة الحديث وأوثق الناس فيه.

أهل الحديث وأهل الرأي

وكان الحديث في العراق قليلاً، ولكن انفتح فيه باب الرأي والقياس، وقد أخذه حماد عن إبراهيم النخعي المتوفى سنة (٩٥هـ ٧١٣م)، وأخذه أبو حنيفة المتوفى سنة (١٥٠ هـ) عن حماد، وكان أهل الحديث يعيبون أهل الرأي بأنّهم يتركون الأحاديث لأقيستهم، والدين لايقاس بالرأي، وإنما سمّوا أهل الرأي، لأنّ عنايتهم بتحصيل وجه من القياس والمعنى المستنبط من الأحكام وبناء الحوادث عليها، وربّما يقدمون القياس الجليّ على آحاد الأخبار، وطريقتهم أنّ للشريعة مصالح مقصودة التحصيل من أجلها شرعت، فجعلوا هذه المصالح أصلاً من أصول الأدلة، إذ لم يجدوا نصّاً في الكتاب والسنة الصحيحة عندهم، وقد كانت قليلة العدد لبعد العراق عن موطن الحديث.

وأما أهل الحديث فلم يجعلوا للقياس والرأي في استنباط الأحكام هذا المحل، واتّسعت شقّة الخلاف واحتدم النزاع وافترق أهل الفتيا إلى فرقتين .

وأنت ترى أنّ هذا النزاع بعد أن كان علميّاً محضاً أصبح مزيجاً بالسياسة أو التعصّب، وتعددت فيه عوامل التفرقة لتستند السلطة إلى أقوى الفريقين، واتّسع نطاق الخلاف، فترى مالك بن أنس يحطّ من كرامة العراقيين ويتحامل عليهم ويعلن بقوله: انزلوهم منزلة أهل الكتاب، لا تصدّقوهم ولا تكذّبوهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا واليكم وإلهنا وإلهكم واحد[٣٩٢].

ودخل عليه محمد بن الحسن الشيباني فسمعه يقول هذه المقالة، ثم رفع رأسه فكأنّه استحيى فقال: يا أبا عبد اللّه أكره أن تكون غيبة، كذلك أدركت أصحابنا يقولون، وكان يقرأ إذا نظر إلى العراقيين: (تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر)[٣٩٣].

وكان يسمّي الكوفة دار الضرب، يعني انّها تضع الأحاديث وتضعها كما تخرج دار الضرب الدراهم والدنانير. وقال عطاء لأبي حنيفة: من أين أنت؟ قال: من أهل الكوفة، قال: أنت من أهل القرية الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً[٣٩٤].

ومهما يكن من الأمر فقد تعصّب كلّ فريق إلى بلده وتنابزوا، وعيّر أهل المدينة بسماع الغناء، وأهل مكة بالمتعة، وأهل الكوفة بالنبيذ، واشتدّت عصبيّة كلّ قوم لبلادهم ، وحملتهم على وضع الأخبار في مدح قومه وبلده وذمّ مقابله، وعظم الانشقاق بين الطائفتين، وبالطبع أنّ الكوفة تضعف عن مقابلة الحجاز، ولكن السياسة

---

(٣٩٢) جامع بيان العلم وفضله ج٢ ص١٥٧.

(٣٩٣) ضحى الإسلام ج٣ ص١٥٢.

(٣٩٤) تاريخ بغداد ج١٣ ص٢٢٠ .

الزمنية اقتضت أن تكون إلى جانب أهل الرأي لا حبّاً لهم، ولكن بغضاً لأهل المدينة، وأصبح لكلّ جانب أنصار ومتعصّبون، فكان مالك بن أنس في طليعة أهل الحديث، وأنصاره من الحجاز سفيان الثوري وأصحابه، وزعيم أهل الرأي أبو حنيفة وأصحابه وكثير من فقهاء العراق.

فالشافعي أخذ عن مالك وأصحابه، وأحمد المتوفى سنة (٢٤١ هـ) (٨٥٥م) أخذ عن الشافعي المتوفى سنة (٢٠٤ هـ) (٨٢٠ م) وأصحابه .

وإنّما سمّوا أصحاب الحديث، لأنّ عنايتهم بتحصيل الأحاديث ونقل الأخبار وبناء الأحكام على النصوص ولا يرجعون إلى القياس.

يقول الشافعي: إذا ما وجدتم لي مذهباً ووجدتم خبراً على خلاف مذهبي فاعلموا أنّ مذهبي ذلك الخبر[٣٩٥] وتبعه أصحابه، وهم : إسماعيل بن يحيى المزني، والربيع بن سليمان الجيزي، وحرملة بن يحيى، وأبو يعقوب البويطي، وابن الصباح، وابن عبد الحكم المصري ، وأبو ثور، وغيرهم.

وأمّا أصحاب الرأي ، فهم: أبو حنيفة النعمان بن ثابت، وأصحابه، محمدبن الحسن الشيباني، وأبو يوسف القاضي، وزفر بن الهذيل، والحسن بن زياد اللؤلؤي، وأبو مطيع البلخي، وبشر المريسي، فهؤلاء عرفوا بأهل الرأي وقالوا أنّ الشريعة معقولة المعنى ولها أصول يرجع إليها، ولا قتناعهم بمعقولية الشريعة وابتنائها على أصول محكمة فهمت من الكتاب والسنة كانوا لا يحجمون عن الفتوى برأيهم، كما كان يفعل الفريق الأول فإنّهم يقفون ولا يتعدّون حدود النص، وكانوا يحبّون معرفة العلل والغايات التي من أجلها شرّعت الأحكام، وربّما ردّوا بعض الأحاديث لمخالفتها لأصول الشريعة، ولا سيّما إذا عارضها حديث آخر.

وبهذا افترقت الأمة الى فرقتين: أهل حديث وأهل رأي، أو أهل المدينة وأهل الكوفة، مع العلم بأنّ أهل العراق لا يقاسون بأهل المدينة في الحديث، فكان القياس عندهم أكثر، وعليه يبنون غالب فتاواهم، ونشط سير الحركة العلميّة في ذلك العصر.

نشوء المذاهب

أصبح النشاط العلميّ واسع النطاق، فكان في كلّ بلد إمام له مذهب ينسب إليه، وكثر عدد المذاهب المنتمون إليها، إلاّ أنّه لم يكتب البقاء لأكثرها واعتراها

---

(٣٩٥) جلاء العينين للآلوسي ص١٠٧ .

الانقراض، وكان لمؤسسيها الذين كثر اتباعهم تأريخ مجيد ومكانة سامية، ربّما فاقوا في نظر معاصريهم وذوي العلم منهم رؤساء المذاهب الذين وقفت قافلة الفقه عندهم، واقتصر استنباط الأحكام عليهم، ولكن عوامل انتشار مذاهبهم عجزت عن مسايرة الظروف; فلم يكتب لها البقاء، ومحيت من صفحة الوجود ولم يبق لأبناء السنة منها إلاّ الأربعة:

المالكي

والحنفي

والشافعي

والحنبلي

أما المذاهب التي انقرضت فهي كثيرة ونذكر منها:

١ ـ مذهب عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة (١٠١ هـ) (٧٢٠ م)

٢ ـ مذهب الشعبي المتوفى سنة (١٠٥ هـ) (٧٢٣ م)

٣ ـ مذهب الحسن البصري المتوفى سنة (١١٠ هـ)

٤ ـ مذهب الأعمش المتوفى سنة (١٤٨ هـ) (٧٦٤ م)

٥ ـ مذهب الأوزاعي المتوفى سنة (١٥٧ هـ) (٧٧٣ م)

٦ ـ مذهب سفيان الثوري المتوفى سنة (١٦١ هـ) (٧٧٧ م)

٧ ـ مذهب الليث المتوفى سنة (١٧٥ هـ)

٨ ـ مذهب سفيان بن عيينة المتوفى سنة (١٩٨ هـ) (٨١٤ م)

٩ ـ مذهب إسحاق المتوفى سنة (٢٣٨ هـ)

١٠ ـ مذهب أبي ثور المتوفى سنة (٢٤٠ هـ) (٨٥٤ م)

١١ ـ مذهب داود الظاهري المتوفى سنة (٢٧٠ هـ) (٨٨٣ م)

١٢ ـ مذهب محمد بن جرير المتوفى سنة (٣١٠ هـ) (٩٢٣ م)

ومذهب عبد الله بن أباض[٣٩٦] وغيرها من مذاهب المسلمين التي تتفق أحياناً وتفترق أحياناً في كثير من المسائل الشرعية، ومنهم من جعل في تعداد هذه المذاهب، مذهب عائشة، مذهب ابن عمر، مذهب ابن مسعود، مذهب إبراهيم النخعي، ولزيادة البيان نذكر طرفاً من حياة بعض أولئك العلماء ورؤساء المذاهب.

---

(٣٩٦) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص١٠٦ .

سفيان الثوري

أبو عبد اللّه سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي المتولد سنة (٩٥هـ) وتوفي بالبصرة سنة (١٦١ هـ) متوارياً عن السلطان، وعدّه ابن قتيبة في عداد الشيعة، وهو أحد الأئمة المجتهدين. وله مذهب لم يطل العمل به لقلّة اتباعه وعدم مؤازرة السلطة له، إذ كان طريداً يخشى سطوتهم وهم يطلبونه حتى مات مختفياً منهم، وهو أحد تلامذة الإمام الصادق(عليه السلام) وخرّيج مدرسته، وكان إماماً من أئمة المسلمين، قيل روى عنه عشرون ألفاً، وكان والده سعيد بن مسروق من محدثي الكوفة وثّقه ابن معين وأبو حاتم والعجلي.

نشأ الثوري في مسقط رأسه الكوفة نشأة صالحة، وكان بيته معروفاً وله مكانة في محيطه، فهو من فقهاء العراق الذين تشدّ إليهم الرحال في طلب العلم، وأراد المنصور قتله فلم يتمكن، ودعي إلى القضاء فهرب، كان يتحرّى مواقف الصدق في مواجهة العباسيين ويعمل على الاستمساك بتعاليم الدين، فلمّا عزم المنصور على ابن أبي ذؤيب أن يقول رأيه فيه واستعفاه ابن أبي ذؤيب وأصر المنصور، قال ابن أبي ذؤيب: أشهد أنّك أخذت هذا المال من غير حقّه فجعلته في غير أهله، وأشهد أنّ الظلم ببابك فاش. فلمّا انصرف لقيه سفيان الثوري فقال له: يا أبا الحارث لقد سرّني ما خاطبت به هذا الجبار، ولكن ساءني قولك له: ابنك المهدي. فقال: يغفر الله لك، يا أبا عبدالله، كلنا مهدي، كلّنا كنّا في المهد. وبقي مذهبه معمولاً به إلى القرن الرابع[٣٩٧].

سفيان بن عيينة

أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي، مولاهم الكوفي المتوفى سنة (١٩٨ هـ) كان إماماً عالماً ثبتاً أخذ العلم عن الصادق(عليه السلام) والزهري وابن دينار وأبي إسحاق وغيرهم، وروى عنه الشافعي وشعبة بن الحجاج وخلق كثير، قال الشافعي: ما رأيت أحداً فيه آلة الفتيا ما في سفيان، وما رأيت أكف منه عن الفتيا، وثّقه العجلي والشافعي وغيرهم، وقال الشافعي: لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز، وله مذهب يعمل به ولم يطل عمره وانقرض في القرن الرابع، لقلّة اتباعه وأنصاره وعدم ملاءمته لسلطان عصره، ودفن بمكّة[٣٩٨].

---

(٣٩٧) سير أعلام النبلاء ج٧ ص١٧٤ /١٠٨٣.

(٣٩٨) سير أعلام النبلاء ج٧ ص٦٥ /١٢٩٢ .

الحسن البصري

أبو سعيدالحسن بن أبي الحسن يسار البصري المتوفى سنة (١١٠ هـ) كان من التابعين، وأبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري وأمّه خيرة مولاة أمّ سلمة زوج النبي(صلى الله عليه وآله وسلم).

نشأ بوادي القرى، وكان من أجمل أهل البصرة حتى سقط عن دابّته فحدث بأنفه ماشوّه خلقته، كان مؤازراً لبني مروان يشدّ أزرهم وله علاقة وثيقة مع الولاة والأمراء ويلاقي منهم الإكرام، وكان لهم في ثغر البصرة بقوة الدفاع أعظم من الجيوش المدربة في ساحات الحرب، حتى قالوا: لولا لسان الحسن وسيف الحجاج لَوُئِدَتْ الدولة المروانية في لحدها وأخذت من وكرها، وكان مدلساً في حديثه كما نصّ عليه الحفاظ ولم يطل العمل بمذهبه.

كان الحسن البصري يتفق مع سياسة الدولة الأموية ويروي عن علي(عليه السلام) ، فإذا حدّث عنه قال: قال أبو زينب (يعني علياً) مجاراة للدولة التي اقتضت سياستها أن لا يظهر إسم علي(عليه السلام) ، ونقل عنه أنّه تكلّم في علي فقال له أبان بن عياش: ما هذا الذي يقال عنك إنك قلته في علي؟ فقال: يا ابن أخي، أحقن دمي من هؤلاء الجبابرة ولولا ذلك لسالت بي أعشب[٣٩٩] .

ولا شكّ أنّ هذا من أظهر موارد التقية، وكان له مجلس علم حاشد بالعلماء لعظيم منزلته من الدولة، وفي مجلسه نشأت فكرة الاسم والحكم التي كانت أساساً لمذهب الاعتزال.

الأوزاعي

عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي إمام الشاميين المتوفى سنة (١٥٧ هـ). انتشر مذهبه بالشام كما انتشر مذهب مالك في الحجاز وأبي حنيفة في العراق، وعمل أهل الشام بمذهبه مدة من الزمن، وانتشر بالأندلس، ثم اندرس مذهبه وحلّ محله مذهب الشافعي، وعندما عيّن محمد بن عثمان الشافعي قاضياً على دمشق حكم بمذهب الشافعي، وهو أوّل من نشره هناك وبقي مذهب الأوزاعي إلى سنة (٣٠٢ هـ) .

وكانت للأوزاعي شخصيّة مرموقة في عصره، ولن يعدم العناية من السلطة، فقد كان في العهد الأموي محترماً مبجّلاً، لأنّه على شاكلتهم ، ومن المؤيدين لدولتهم،

---

(٣٩٩) الحسن البصري لأبي الفرج بن الجوزي ص٧، أنظر مناقب أبي حنيفة للمكي ج١ ص١٧١ .

والمناصرين لهم، واتخذته السياسة رمزاً دينياً لأغراضها الخاصة، وفي العهد العباسي قرّبوه لمكانته عند أهل الشام، فكانوا يستميلونه ويقرّبون محلّه ، وكان المنصور يعظّمه ويراسله، لأنه عرف عن الانحراف عن آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، كما يتضح لنا ذلك من تتبع آرائه وأقواله.

يروي الأوزاعي، قال: بعث إليَّ أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين، وأنا بالساحل فأتيته، فلما وصلت إليه وسلمت عليه بالخلافة ردّ عليَّ واستجلسني، ثم قال لي: ما الذي أبطأبك عنّا يا أوزاعي؟ قال: قلت وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أُريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم.

وأما منزلته العلميّة فلا تنكر في عصره وبعد عصره. روى ابن القطان عن مالك بن أنس أنّه قال: اجتمع عندي أبو حنيفة والثوري والأوزاعي، فقلت: أيّهم أرجح؟ قال: الأوزاعي. ومات في خلوة في الحمام، وذلك أنّ زوجته أوقدت له كانون فحم واغلقت الباب عليه فمات(٤٠٠).

ابن جرير الطبري

أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد بن غالب الطبري، المتولد سنة (٢٢٤ هـ) بآمل الطبرستان، وتوفي ببغداد في ٢٦ شوال سنة (٣١٠ هـ) .

هو من المجتهدين لم يقلّد أحداً، وله مذهب عمل به مدة، واعتنقه جماعة منهم أبو فرج المعافى بن زكريا النهرواني المعروف بابن طراز. قال محمدبن إسحاق بن خزيمة: ما أعلم تحت أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير، وقال الخطيب البغدادي: كان حافظاً لكتاب اللّه تعالى، عارفاً بالقرآن، بصيراً بالمعاني، فقيهاً بأحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها، صحيحها وسقيمها ناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين فمن بعدهم(٤٠١).

داود بن علي الظاهري

أبو سليمان داود بن علي خلف المعروف بالظاهري، ولد بالكوفة سنة (٢٠٢ هـ) ونشأ ببغداد وتوفي بها سنة (٢٧٠ هـ)، وكان له لون خاص في التشريع لعمله في الظاهر.

---

(٤٠٠) سير أعلام النبلاء ج٧ ص٨٦ /١٠٤٩.

(٤٠١) تاريخ بغداد ج٢ ص١٦١ /٥٨٩ .

استمرّ العمل بمذهب داود إلى القرن السابع الهجري، وكان من اتباعه وأئمته عبد الحقّ بن عبد الرحمن الأشبيلي المتوفى سنة (٦١٠هـ)، ومحمد بن الحسين المشهور بالميورقي المتوفى منتصف القرن السادس ، ومجد الدين عمرو بن حسن بن علي بن محمد بن فرج المتوفى سنة (٦٢٣هـ) وكان من المحدثين. ومن أئمة هذا المذهب محمد بن حزم[٤٠٢]، صاحب الفصل في الملل والنحل، وصاحب المحلى على قواعد المذهب الظاهري.

قطع هذا المذهب شوطاً من الزمن بخطى ثقيلة، ولكنّا نراه يسرع في خطاه وينتشر بنطاق واسع عندما تولى المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وأعلن تمسّكه به، وأعرض عن مذهب مالك الذي غمر المغرب بانتشاره، فعظم المذهب الظاهري وكثر أتباعه، وانقطع علم الفروع وخاف الفقهاء سطوة السلطان عندما فرض اعتناق هذا المذهب، وأمر باحراق كتب مذهب مالك، كمدونة سحنون، وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبي زيد والتهذيب للبردعي.

قال في المعجب: ولقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالأحمال فتوضع وتطلق النار عليها . واستمر المذهب، وقد عدّه المقدسي في «أحسن التقاسيم» خامساً للمذاهب[٤٠٣].

الليث بن سعد

أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن المتولد سنة (٩٢ هـ) والمتوفى يوم الخميس أو الجمعة منتصف شعبان سنة (١٧٥ هـ) بمصر، ودفن بالقرافة الصغرى وقبره أحد المزارات هناك، وله مكانة علميّة، ومذهب يعمل به، وكان يقرن بمالك بن أنس، يقول الشافعي: الليث أفقه من مالك إلاّ أنّ أصحابه لم يقوموا به ، وكان ابن وهب يقرأ على الشافعي مسائل الليث، فمرّت به مسألة، فقال رجل: أحسن والله

(٤٠٢) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم المتولد سنة (٣٨١ هـ) والمتوفى سنة (٤٥٦ هـ)، وكان عظيم الحفظ كثير التصانيف وكان جريء اللسان متسرعاً إلى النقل بمجرد ظنه كبير الوقوع بالعلماء وله كتاب الفصل يعرف به تحامله على المسلمين فإنه يطلق لسانه حتى قيل: إن لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان. كان شافعي المذهب. قال ابن العربي: ثم انه انتسب إلى داود ثم خلع الكل واستقل وزعم انه إمام الأئمة يضع ويرفع ويحكم ويشرّع وينسب إلى دين الله ما ليس فيه تذكرة الحفاظ ج٣ ص٣٢٣ .

(٤٠٣) أحسن التقاسيم ج١ ص٤٠ و ٤١ .

الليث كأنّه كان يسمع مالكاً يجيب فيجيب هو، فقال ابن وهب للرجل: بل كان مالك يسمع الليث يجيب، فيجيب هو، واللّه الذي لا إلـه إلاّ هو ما رأينا أفقه من الليث .

وكان أهل مصر ينتقصون عثمان، فنشأ فيهم الليث فحدّثهم بفضائل عثمان فكفوا، ولم يسعده الحظ بأنصار ينشرون مذهبه فيكتب له الخلود، وقد انقرض لمدة قليلة، يقول الأستاذ أحمد أمين: «لو تعصّب المصريون لمن نبغ منهم لاحتفظوا بمذهبه، ولكانوا أتباعه، ولكن زامر الحي لا يطرب وأزهد في عالم أهله» .

وفي الواقع أنّ عدم اشتهار مذهبه وانتشاره من عدم امتزاجه بسلطان عصره، فقد طلبه المنصور للقضاء، فأبى وقال: إنّي أضعف عن ذلك، ولم يكن من أصحابه من يتولاه; فالقضاء هو عامل قويّ لخلود المذاهب وبقائها، كما يأتي بيانه.

ومما يؤثر عنه أنه لقي الرشيد، فسأله الرشيد: ما صلاح بلادكم؟ قال: يا أمير المؤمنين، صلاح بلادنا إجراء النيل وصلاح أميرها، ومن رأس العين يأتي الكدر، فإذا صفا رأس العين صفت العين.

وقال في النجوم الزاهرة: كان الليث كبير الديار المصرية ورئيسها وأمير من بها في عصره، بحيث إن القاضي والنائب من تحت إمرته ومشورته، وكان الشافعي يتأسّف على فوات لقياه; وقد كتب بعض من غاظه ذلك إلى المنصور:

أمير المؤمنين تلاف مصراً *** فإن أميرها ليث بن سعد(٤٠٤)

عمر بن عبد العزيز

عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، كان تابعيّاً جليلاً، روى عن أنس بن مالك وغيره، وكان أعدل ملوك الأمويين، مرّ بيان ترجمته عند ذكرنا لملوك عصر الإمام الصادق(عليه السلام) وأمراء بلده، ولا نعلم بالضبط الآخذين بمذهبه والعاملين به ولا نعلم مدة بقائه، وربما كانت له آراء خاصة أخذها الناس عنه، فعدّ في عداد المذاهب. ولا يخفى أنّ لمنزلته الدينية وفقهه أثرهما في الناس بعد أن استلم الحكم، والناس لاترى من حكام بني أمية إلاّ ثلاثة أوجه: كره العلويين، وظلم الناس، واقتراف الموبقات. ونقل عنه قول: ما يسرّني أنّ أصحاب محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يختلفوا، لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة.

---

(٤٠٤) النجوم الزاهرة ج٢ ص٨٢ .

الأعمش

أبو محمد سليمان بن مهران الأعمش مولى بني كاهل من ولد أسد المعروف بالأعمش الكوفي المتوفى سنة (١٤٨هـ) ، كان ثقة عالماً، وكان أبوه من دنباوند وهي ناحية من رستاق الري في الجبال، وكان يقارن بالزهري في الحجاز، ورأى أنس بن مالك لكنّه لم يسمع منه، ويروي عن أنس إرسالاً أخذه عن أصحاب أنس، وروى عنه سفيان الثوري، وشعبة بن الحجاج، وكان لطيف الخلق مزّاحاً.

دخل أبو حنيفة يوماً لعيادته فطوّل القعود عنده، فلما عزم على القيام قال أبو حنيفة: ماكأنّي إلا ثقلت عليك . فقال: واللّه إنّك الثقيل عليّ وأنت في بيتك. وعاده أيضاً جماعة وأطالوا الجلوس عنده، فضجر منهم فأخذ وسادته وقام وقال: شفى اللّه مريضكم بالعافية.

ولد الأعمش سنة (٦٠ هـ)، وقيل أنه ولد يوم مقتل الحسين(عليه السلام) وعدّه ابن قتيبة في كتاب المعارف من جملة من حملت به أُمّه بسبعة أشهر وتوفي سنة (١٤٨ هـ) أي في السنة التي توفي بها الإمام الصادق(عليه السلام)، ولم يكن لمذهبه ظهور وانتشار في المجتمع، وانقرض بمدة قليلة[٤٠٥].

الشعبي

عامر بن شراحيل الشعبي أبو عمر الكوفي المتوفى سنة (١٠٥ هـ) سمع من جماعة من الصحابة وقال: أدركت خمسمائة منهم، وكان قاضياً لعمر بن عبد العزيز، وكان محدّث الكوفة وكان يفتي على ماصح عنده من الأثر، وينقبض عن الفتوى إن لم يجد نصاً، ولا يقول برأيه، ونسبة المذهب اليه لما صدر عنه من الفتوى، وإلاّ فلم يشتهر عنه ذلك والعمل به قليل[٤٠٦].

هؤلاء بعض رؤساء المذاهب البائدة، وهي كثيرة تزيد على الخمسين، ونقصر الخطى على هؤلاء ، فالاستقصاء يقصينا عن الغاية التي نطلب من ورائها كشف الحقيقة.

وليس لنا غرض في التعرّف عليهم، ولكنّ الغرض أن نعرف الأسباب التي دعت إلى محو هذه المذاهب من صفحة الوجود، واثبات المذاهب الأربعة، مع العلم ان رؤساء المذاهب البائدة لهم منزلة علمية. ونستطيع القول بأنّ أكثرهم كانوا أعلم من

---

(٤٠٥) المعارف ص٣٢٨.

(٤٠٦) سير أعلام النبلاء ج٥ ص٢٦٩ /٤٨٠.

رؤساء المذاهب الأربعة: فسفيان الثوري لقبوه بأمير المؤمنين في الحديث وسيد الحفاظ وغير ذلك، كما قاله شعبة وأبوعاصم وابن معين وغيرهم، وقال ابن المبارك: كتبت عن الف شيخ كان سفيان أفضلهم. وقال القطان: الثوري أحبّ إليّ من مالك[٤٠٧]; إلى غير ذلك من أقوال علماء الرجال ممّا لم نعثر على مثلها لأبي حنيفة وغيره، نعم من طرق اتباعهم تتعدى حدّ الحصر، واعطف عليه سفيان بن عيينة وابن جريح والليث وغيرهم، فإنّهم بمكانة من العلم، وقد رجع الناس إليهم في الفتيا مدة من الزمن، واستمرّ العمل بمذاهبهم، ثم انقرضت ولم يبق لأهل السنة إلاّ المذاهب الأربعة: الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي .

أما أتباع آل البيت(عليهم السلام) فقد بقيت آراؤهم ومعتقداتهم في الأصول والفروع وغيرهما أقوى من أن تلين للسياسة وتدخّلات الولاة والأمراء... وإذا شوهدوا في بعض الأحيان يميلون إلى التقية والى تحاشي ضغائن الملوك، فإنّ ذلك كان من عزم الأمور ودرء المهالك عن أنفسهم حين يرون أنّ دماءهم أحفظ للدين من إراقتها دون طائل.

فالحكام في العهدين الأموي والعباسي لا يتورعون عن سفك الدماء الطاهرة ولا يتوقفون في ظلمهم لآل البيت عند حدّ، ولهذا كان الإمام الصادق يرى في تعرض أهله من آل الحسن الى تك المحنة والعذاب أمراً يجرّئ الظالمين أكثر على انتهاك حرمات أهل البيت، ويصبح انتهاك حرمات الناس أبسط بكثير، فقال (عليه السلام) وهو يرى موكب آل الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم): **«والله لا تحفظ لله حرمة بعد هذا»**

ولا يندرج المذهب الجعفري في سياق نشأة المذاهب لأمور عدّة منها:

١ ـ استقلال فقه أهل البيت عن السلطة الجائرة وتعلّقه بالإمامة والسلطة الروحية.

٢ ـ في العهد الأموي حيث لم تأخذ المذاهب صفتها الرسمية ولم ترسُ على عدد معين، كان الشيعة هم الخطر الحقيقي الذي يهدد بقاء الأمويين في كلّ حين، فكان الاعتقاد بمذهب الشيعة استعداداً للموت والتضحية.

٣ ـ في العهد العباسي حيث أرست الدولة عدد المذاهب لم يكن الشيعة من أجزاء السلطة بل ظلّوا على العمل بقاعدة مقاطعة الظالمين، فيما كان وجودهم الفقهي

---

(٤٠٧) سير أعلام النبلاء ج٧ ص٣٨٢ /١١٨٠.

والعلمي يتسع وينتشر برغم إرادة العباسيين، وقد شيّدوا بناءهم الفكري بعيداً عن مؤثرات السلطة وعلى الضد من رغبات الحكّام.

وهنا يلزمنا البحث عن عوامل انتشار المذاهب الأربعة.

المذهب الحنفي

ينسب إلى الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي، من أهل كابل أو من أهل نسا، وكان اسمه عتيك بن زوطره، وكان أبوه عبداً مملوكاً لرجل من ربيعة من بني تيم اللّه بن ثعلبة من فخذ يقال لهم بنو قفل، ولد سنة (٨٠ هـ) في نسا، وتوفي سنة (١٥٠هـ) في بغداد[٤٠٨].

كانت دعوة العباسيين قائمة على أساس الانتماء إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، وأنّهم سلالة البيت النبوي، فهم أحقّ بالأمر من أُميّة خصوم الإسلام واعداء محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، وبالطبع إنّهم يقيمون على أطلال تلك الدولة المتهمة بمخالفة الدين، دولة ذات صبغة دينية، يحاولون أن يظهروا الاتصال الوثيق بين الدين والدولة، ليكوّنوا من أحكام الشريعة الإسلامية دستوراً ونظاماً تسير الدولة عليه سيراً صورياً، فقرّبوا العلماء، واتّصلوا بهم اتصالاً وثيقاً وآثروا نشر العلم، وجعلوا القضاء بيد أهل الرأي من أهل العراق، حتى ولي أبو يوسف القضاء، وهو أقوى عوامل انتشار المذهب الحنفي لمكانة أبي يوسف وسلطته التنفيذية يومذاك، فكانت للمذهب الحنفي خطوة واسعة في قطع مسافة الشهرة بما لم يسعد به غيره. فأبو يوسف[٤٠٩] هو تلميذ أبي حنيفة وقد تربّى في نعمه، وبتوليته منصب القضاء استطاع نشر المذهب، وولي منصب رئاسة القضاء العامة في عهد الرشيد سنة (١٧٠هـ) فلم يقلد ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر إلاّ من أشار به القاضي أبو يوسف[٤١٠]،

---

(٤٠٨) تاريخ بغداد ج١٣ ص٣٢٥ /٧٢٩٧.

(٤٠٩) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن خنيس بن سعد الأنصاري المتوفى سنه (١٨٢ هـ) ببغداد والمدفون فى مقابر قريش، وهو أول من دعي بقاضي القضاة، تولى القضاء لثلاثة من الخلفاء: المهدي وابنه الهادي والرشيد. قال محمد بن جرير الطبري: ما نحا قوم من أهل الحديث حديثه لغلبة الرأي عليه، وتفريع الفروع والاحكام مع صحبة السلطان. وقال عمار بن أبي مالك ما كان في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف لولا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة ولا محمد بن أبي ليلى وهو الذي نشر قولهما. وعن ابن المبارك أنه وهاه، وعن يزيد بن هارون أنه قال لا تحل الرواية عنه، وكان يعطي أموال اليتامى ويجعل الربح لنفسه. وأبو يوسف هو الذي عناه الشاعر بقوله:

يا قاتل المسلم بالكافر *** جرت وما العادل بالجائر

وستأتي ترجمته ببيان ووضوح في موكب القضاة.

(٤١٠) خطط المقريزي ج٤ ص١٤٤ .

وذلك لمكانته في الدولة ومنزلته عند الرشيد، حتى قال له الرشيد: يا يعقوب لو جاز لي إدخالك في نسبي ومشاركتك في الخلافة المفضية إليّ لكنت حقيقاً به، ألست القائل لأخي وقت كذا وكذا؟ وفي وقت كذا وكذا؟ يشير بذلك إلى ما عزم عليه الهادي من خلع الرشيد واستشارة أبي يوسف في ذلك، وجوابه له برد عزمه، فكان الرشيد يشكر لأبي يوسف هذه اليد، حتى قيل لم يتمكن أحد كتمكن أبي يوسف من الرشيد، وقال بشر المريسي: ما اشتهيت من مراتب السلطان إلاّ مرتبة رأيت أبا يوسف بلغها عشية من العشايا. وقال أحمد بن يوسف الكاتب: وبلغ أبو يوسف مع الرشيد مبلغاً لم يبلغه عالم بعلمه ولا محبوب بمرتبته[٤١١].

وقال ابن عبد البر: كان أبو يوسف قاضي القضاة قضى لثلاثة من الخلفاء، ولي القضاء في بعض أيام المهدي ثم للهادي ثم للرشيد، وكان الرشيد يكرّمه ويجلّه، وكان عنده حظياً مكيناً، لذلك كانت له اليد الطولى في نشر ذكر أبي حنيفة وإعلاء شأنه، لما أوتي من قوة السلطان وسلطان القوة[٤١٢].

وإذا نظرنا إلى مقوّمات المذهب في نفسه نجد ذلك يرجع لجهود أربعة من أصحاب أبي حنيفة، فإنّهم ألّفوا فيه وهذّبوا مسائله، وليس لأبي حنيفة إلاّ المشاركة في الرأي أحياناً، وخالفوه في اكثر المسائل، كما أ نّهم وسعوا دائرة المذهب في الحيل الشرعية.

فأوّل أولئك النفر هو أبو يوسف القاضي، فقد خدم المذهب في قوة سلطانه، وفي تصنيف الكتب وتبويب المسائل، وقد أدخل الحديث في فقه أبي حنيفة. وألّف كتاب الخراج لهارون الرشيد مستنبطاً من الحديث على مذهب مالك وغلبت على آرائه العناية بمصالح السلطان الزمنية.

والثاني محمد بن الحسن الشيباني مولاهم المتولد[٤١٣] سنة (١٣٢هـ) والمتوفى سنة (١٨٩ هـ) نشأ بالكوفة وعاش تحت ظل الدولة العباسية، أدرك أبا حنيفة ولم ينتفع منه لحداثة سنّه، فأتمّ دراسة المذهب على أبي يوسف، وكان ذا فطنة وذكاء، وأصبح المرجع لأهل الرأي في نبوغه وتقدمه، وألف في المذهب كتباً هي في

---

(٤١١) المكافأة لابن الداية ص٦٢، ٦٣، ٦٤، ١١٦، ١٧٣.

(٤١٢) الانتقاء ص٦.

(٤١٣) محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة (١٨٩ هـ) قال فيه أحمد بن حنبل أنه مرجئ ورد شريك شهادته، لذلك وقد وقعت بينه وبين أبي يوسف منا كرة فكان يقول: محمد بن الحسن جهمياً وقال محمد بن سعد الصوفي: سمعت يحيى بن معين يرميه بالكذب، وقال مرّة إنه جهمي كذاب، وعن منصور بن خالد سمعت محمداً يقول: لا ينظر في كلامنا من يريد الله، لسان الميزان ج٥ ص١٣١ والوفيات ج٤ ص٣٢٤.

الحقيقة المرجع الأول فيه، فإنّ الحنفية ليس بأيديهم إلاّ كتبه، وخرج إلى المدينة ولقي مالكا وقرأ الموطأ عليه، ثم رجع إلى بلده فطبّق مذهب أصحابه على الموطأ مسألة مسألة[٤١٤] ،ونظم الفقه الحنفي وخالف أبا حنيفة في أكثر مسائله.

والثالث زفر بن الهذيل المتولد سنة (١١٠ هـ) كان من أهل الرأي، وكان أقيس أصحاب أبي حنيفة[٤١٥].

والرابع الحسن بن زياد[٤١٦] اللؤلؤي مولى الأنصار، درس على أبي حنيفة ثم على أبي يوسف وعلى محمد بعده، وصنّف الكتب في مذهب أبي حنيفة، ولم تكن كتبه بتلك الدرجة من الاعتبار عند الحنفية كما كانت لكتب محمد بن الحسن[٤١٧].

فهؤلاء الأربعة هم دعامة رقي المذهب وسعة دائرته، ولم ينقل لنا التاريخ عن أبي حنيفة كتاباً يتضمن مسائله وفقهه، وإنّما دوّن علم المذهب أصحابه.

نعم ينسب لأبي حنيفة كتاب يسمى الفقه الأكبر هو وريقات قليلة لايتضمن إلاّ شيئاً من العقائد، وقد شرح ووسع وأضيفت إليه آراء أخر مع أنّ الأكثرية يذهبون إلى نسبة هذا الكتاب إلى أبي حنيفة البخاري[٤١٨]، وليس هو أبا حنيفة رئيس المذهب، وبهذا يصبح لا أثر له في تدوين أي شيء، كما أنّ أبا حنيفة لا يفارق فتوى إبراهيم وعبد الرزاق إلا في مواضع يسيرة. والغرض أنّ المذهب إنما انتشر وكثرت مسائله بأعمال هؤلاء الأربعة ومساعيهم. ثم جاء من بعدهم علماء نسبوا لهذا المذهب، فكانت لهم آراء مستقلة وتكونت مجموعة من الفقه وكلها تنسب لأبي حنيفة، وإن لم يُفْتِ بها ولم يعرفها، ولكنهم قالوا: إنّ أبا حنيفة أمر أصحابه بأن يأخذوا من أقواله بما يتّجه لهم من الدليل عليه حتى صار ما قالوه قولاً له لابتنائه على قواعده التي أسسها لهم، وسيأتي الكلام حول هذا الموضوع.

المذهب المالكي

---

(٤١٤) رسالة الانصاف ص٨ .

(٤١٥) ضحى الإسلام ج٢ ص٢٠٢ ـ ٢٠٤.

(٤١٦) الحسن بن زياد اللؤلؤي كذبه يحيى بن معين وأبو داود ومحمد بن عبد الله بن نمير، قال ابن المديني: لا يكتب حديثه، وقال أبو حاتم: ليس بثقة، وقال الدارقطني: ضعيف متروك، وقال محمد بن حميد الرازي: ما رأيت أسوء صلاة منه، وقال الخطيب: ان الحسن ولي القضاء ولم يوفق فكان إذا جلس لايفهم شيئاً، وعن إسحاق بن إسماعيل كنا عند وكيع فقلنا له: السنة مجدبة قال: وكيف لاتجدب وحسن اللؤلؤي قاض وحماد بن أبي حنيفة قاض؟

(٤١٧) تاريخ بغداد ج٧ ص٣٢٥ /٣٨٢٧.

(٤١٨) ضحى الإسلام ج٢ ص١٩٧ ـ ١٩٨.

ينسب إلى الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، ولد سنة (٩٣هـ) بالمدينة، وحملت به أمه سنتين، وقيل أكثر وتوفي سنة (١٧٩ هـ). والله أعلم.

وكان من نتائج النزاع الذي حدث بين أهل العراق وأهل المدينة، أو أهل الحديث وأهل الرأي، ظهور شخصية أبي حنيفة في العراق ومالك في الحجاز، وكانت السلطة تؤيد جانب أصحاب أبي حنيفة وتشدّ أزرهم، وتقدّم الموالي لتحطّ من قيمة العرب، لأنّهم في نظر السلطة أعداء يتكتمون فلا يأمنون جانبهم من وثبة يوماً ما لميلهم للعلويين، وأنّهم ليترقبونها في غالب الأحيان فهم دائماً في حذر، وكان مالك ممّن انضمّ لجانب العلويين، وأخذ العلم عن الإمام الصادق(عليه السلام)، وأظهر القول بجواز الخروج مع محمد (النفس الزكية)، فأهين لذلك وناله الأذى وتعصّب له قوم وناصروه وأصبحت له مكانة في المجتمع، ولحظت السلطة أهمية مكانته، فرأت من اللازم أن تجعله تحت عنايتها لتوجد منه شخصية علمية توجه إليه المجتمع طوعاً أو كرهاً، فأصبح محترماً إلى أبعد حدود الاحترام.

ويعطينا الإمام الشافعي صورة عن عظيم منزلته، عندما دخل المدينة يحمل إلى واليها كتاباً من والي مكّة توصية منه بالشافعي، ويطلب منه ايصاله إلى مالك ، قال الشافعي: فأبلغت الكتاب إلى الوالي فلمّا أن قرأه قال: يافتى إنّ المشي من جوف المدينة إلى جوف مكّة حافياً راجلاً أهون عليّ من المشي إلى باب مالك بن أنس، فلست أرى الذلة حتى أقف على بابه.

قال الشافعي: فقلت أصلح الله الأمير أن رأى يوجه إليه ليحضر، قال: هيهات! ليت إنّي إذا ركبت أنا ومن معي، وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجاتنا. قال: فواعدته العصر وركبنا جميعاً فوالله لكان كما قال، فتقدم رجل فقرع الباب فخرجت الينا جارية سوداء فقال لها الأمير: قولي لمولاك إنّي بالباب، قال: فدخلت فأبطأت، ثم خرجت فقالت: إنّ مولاي يقرؤك السلام ويقول: إن كانت لك مسألة فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس; فانصرفت; فقال: قولي له معي كتاب والي مكّة إليه في حاجة مهمة، قال: فدخلت وخرجت وفي يدها كرسي فوضعته، ثم إذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة فرفع إليه الوالي الكتاب[٤١٩].

---

(٤١٩) معجم الادباء ج١٧ ص٢٧٥ .

ونحن إذ نقيس منزلة مالك بين العهدين، نجد الفرق بيّناً فنراه في عهد أحد الولاة مغضوباً عليه يسحب ويجرد من ثيابه ويضرب خمسين سوطاً ويهان.

ونراه في العهد الثاني يتهيب الوالي أن يكلّمه. فمالك في حاليه يعطينا درساً في معرفة أغراض السياسة مع رجال الأمة، وأنّ لها ألواناً من المعاملة مع الأشخاص الذين تريد أن تستخدمهم بالمغريات.

والغرض أنّ نجم مالك بزغ بذلك الأفق فأصبحت له شخصية مرموقة دون غيره من شيوخه الذين هم أعلم وأفقه كربيعة الرأي[٤٢٠] وغيره، فامتاز بتلك المنزلة واكتست شخصيته بأبراد العظمة، وحاول العباسيون أن يجعلوا منه مرجعاً عامّاً للأمة في الفتوى، ولكنّها محاولة لم تنجح ، وقد أمره المنصور بوضع كتاب يحمل الناس عليه بالقهر، فكلّمه مالك في ذلك وامتنع، فقال المنصور: ضعه فما أحد اليوم أعلم منك[٤٢١]، فوضع الموطأ.

وهذه الكلمة لها مكانتها في نظر الاعتبار، فالمنصور حينما يعلن بأنّ مالكاً أعلم الناس، ويلزمه بوضع كتاب تصادق عليه الدولة فيكون نظامها المتّبع، وتطلب الالتحاق بقافلة الدين ـ وما أبعدها عن ذلك ـ فمن يستطيع أن يتخلّف عن الاعتراف بمنزلة مالك، وأنّه أعلم الأمة؟

والرشيد يأمر عامله على المدينة بأن لا يقطع أمراً دون مالك، وكان الرشيد يجلس على الأرض أمامه لا ستماع حديثه.

كيف لا يكون لمالك ظهور وسمعة ومنادي السلطان يهتف أيّام الحج: أن لا يفتي إلاّ مالك. فأصبحت له مكانة في المجتمع وهيبة في النفوس ، وتقرّب الناس إليه بشتى الوسائل ، والتفّوا حوله، وتزاحموا على مجلسه الذي عيّن له وقتاً خاصاً في يوم معيّن يزدحم الناس فيه لاستماع الحديث وأخذ الفتيا، وله كاتب بين يديه يقرأ للناس،

---

(٤٢٠) ربيعة بن أبي عبد الرحمن بن فروخ التميمي أبو عثمان المدني الفقيه المعروف بربيعة الرأي، روى عن أنس والسائب بن يزيد وابن المسيب وعنه سليمان التميمي ويحيى بن سعيد القطان وسعيد والليث وخلق كثير، وكان أبوه فروخ خرج في البعوث إلى خراسان أيام بني أمية وربيعة حمل في بطن أمه فقدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة وهو راكب فرساً ودفع الباب برمحه فخرج ربيعة وقال: ياعدوّ الله اتهجم على منزلي، فقال فروخ: يا عدو الله أنت دخلت على حرمي فتواثبا حتى اجتمع الجيران وكثر الضجيج، فبلغ مالك بن أنس فقال مالك: أيها الشيخ لك سعة في غير هذا الدار، فقال الشيخ هي داري، وأما فروخ فسمعت امرأته كلامه فخرجت وقالت هذا زوجي، وهذا ابني الذي خلفه، وأنا حامل به فاعتنقا جميعاً. قال سوار بن عبد الله: ما رأيت أحداً أعلم من ربيعة الرأي قيل ولا الحسن وابن سيرين؟ قال: ولا الحسن وابن سيرين، وقال مالك ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة الرأي، وكانت وفاته في سنة (١٣٦ هـ) بالهاشمية ودفن هناك، وقيل سنة (١٣٣هـ) .

(٤٢١) شرح الموطأ للزرقاني ج١ ص٨ .

وليس لأحد أن يدنو منه، ولا ينظر في كتابه، ولا يستفهمه في شيء، وبذلك لا يستطيع أحد مناقشته، وكان على رأسه سودان يأتمرون بأمره.

قال إسماعيل الفزاري: دخلت على مالك وسألته أن يحدّثني، فحدثني اثني عشر حديثاً ثم أمسك ، فقلت: زدني أكرمك اللّه، وكان له سودان قيام على رأسه، فأشار إليهم فأخرجوني من داره(٤٢٢).

ولا ريب أنّ هذه المعاملة من مالك تبعثنا على التساؤل من أسباب امتناع مالك وبخله على الناس بما ينفعهم من أحاديث نبوية وإرشادات تربوية. وهذا الوضع منه لا شك أنّه مستغرب، لأن السنة الشريفة أمرت بنشر العلم وتوعدت من يكتمونه.

ويحدّثنا أبو بكر بن عبد اللّه الصنعاني قال: أتينا مالك بن أنس فحدّثنا عن ربيعة الرأي فكنّا نستزيده، فقال لنا ذات يوم: ما تصنعون بربيعة وهو نائم في ذاك الطاق؟ فأتينا ربيعة فقلنا: كيف يحظى بك مالك ولم تحظ أنت بنفسك ؟ فقال: أما علمتم أنّ مثقالاً من دولة خير من حمل علم(٤٢٣).

ولابدّ من التنويه برضى مالك بما أقبل عليه السلاطين وترك أيديهم تلعب بأحواله الخاصة، فأصابه من جبريّة الحاكم شيء سنأتي على تفاصيله، حسب البحث إن شاء الله.

ومهما يكن من أمر فقد أسعده الحظّ، فكان له شأن ولمذهبه قبول ولكتابه منزلة، حتى قالوا: ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب اللّه أصحّ من كتاب مالك. وفي لفظ آخر، ما على الأرض كتاب هو أقرب إلى القرآن من كتاب مالك.

وكان انتشار مذهبه على أيدي القضاة والملوك، وقد انتشر بالأندلس بسبب حمل ملك الأندلس الناس عليه بالقهر، لمّا بلغه كلام من مالك في مدحه عندما سئل عن سيرة الملك في الاندلس، فذكر له عنها ما أعجبه، فقال: نسأل اللّه تعالى أن يزيّن حرمنا بملككم. فلمّا بلغ قوله إلى الملك حمل الناس على مذهبه، وترك مذهب الأوزاعي(٤٢٤). وهذا من أقوى عوامل الانتشار ودواعي الظهور والسمعة، وإقبال الناس عليه اتباعاً للسلطان وخضوعاً للسلطة بدون تمييز لما هو الأرجح والأولى.

وقد نشر مذهب مالك في أفريقيا القاضي سحنون.

---

(٤٢٢) الانتقاء ج٢ ص٤٢.

(٤٢٣) طبقات الفقهاء لابن إسحاق ص٤٣ .

(٤٢٤) الإمام مالك بن أنس: عبد الغني الدقر ص٢٨١ .

ويقول المقريزي: ولمّا ولي المعز باديس حمل جميع أهل أفريقية على التمسك بمذهب مالك وترك ما عداه، فرجع أهل افريقيا وأهل الأندلس كلّهم إلى مذهبه، رغبة فيما عند السلطان، وحرصا على طلب الدنيا، إذ كان القضاء والافتاء في جميع تلك المدن لايكون إلاّ لمن تسمّى بمذهب مالك، فاضطرّت العامة إلى احكامهم وفتاواهم، ففشى هذا المذهب هناك وحظي بالقبول لا بحسب مؤهلاته ومقوماته الروحية، وإنّما سار على حسب نظام القوة التي خضع الناس لها بدون تبصّر، كما أنّ انتشاره بالمغرب الأقصى هو كذلك رغبة لما عند السلطان، وخضوعاً لما افترضوه على الناس، ولم يكن ثبوته مستقلاً بروحانيته عن تأثر السلطة التنفيذية، فإنّ دولة بني تاشفين قامت في الأندلس في القرن الخامس، وتولّى ثانيهم علي بن يوسف بن تاشفين فعظم أمر الفقهاء، ولم يكن يقرب منه ويحظى عنده إلاّ من علم مذهب مالك، فنفقت في زمنه كتب المذهب، وعمل بمقتضاها ونبذ ماسواها، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب اللّه وحديث الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، فلم يكن أحد يعتني بهما كما يعتني بكتب المذهب المالكي.

وما ذلك إلاّ من اختراع السياسة لأمور كان الأصلح للأمة أن تتخلى السياسة عن التدخل بمثلها، إذ من الصعب على الرعية أن تعرف صلاح أمرها ما دام مفروضاً عليها أمر معيّن من قبل السلطان وهي تجهل ذلك، وبهذه المؤثرات انتشر مذهب مالك بصورة هائلة كزميله المذهب الحنفي، فله أسوة به، وإذا ما قصرت خطاه في بعض الاماكن فمبجرد تولي القضاء المالكي من قبل رجال المذهب يزداد نشاطه ويشتد اقبال الناس عليه وتمسكهم به، لذلك أنّه لما خمل ذكره في المدينة مدة من الزمن فبمجرد أن تولّى قضاءها ابن فرحون أظهره بعد خموله، فيظهر لنا أنّ الزمن سار في انتشار هذه المذاهب لا على سبيل الاعتقاد والواقع بل إنّ في الأمة ضعفاء قلّدوا الأقوياء بأهم أمر، وكان الأجدر استقلالهم بمعرفته، وأخذهم له من أهله، وأنّى لهم ذلك وكلّ سلطة تحاول أن تجعل أمورها ذات صبغة دينية، وأمر التشريع بيد قضاة صارعتهم الدنيا فصرعتهم إلاّ من عصم اللّه وقليل ما هم.

قال ابن حزم: مذهبان انتشرا في مبدأ أمرهما بالرياسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة فإنه لما ولي أبو يوسف القضاء كان لا يولّي قاضياً إلاّ من أصحابه والمنتسبين إليه وإلى مذهبه.

والثاني مذهب مالك عندنا في الأندلس، فإنّ يحيى بن يحيى[٤٢٥] كان مكيناً عند السلطان مقبولاً في القضاء، فكان لا يولي قاضياً في أقطار الأندلس إلاّ بمشورته واختياره ولا يسبر إلاّ بأصحابه، والناس سراع إلى الدنيا فاقبلوا على ما يرجون به بلوغ أغراضهم[٤٢٦].

وقال شاه ولي الدهلوي[٤٢٧]: وأيّ مذهب كان أصحابه مشهورين، وأسند إليهم القضاء والافتاء واشتهرت تصانيفهم في الناس، ودرسوا درساً ظاهراً انتشر في أقطار الأرض، وأيّ مذهب كان أصحابه خاملين ولم يولوا القضاء والافتاء، ولم يرغب فيهم الناس، اندرس مذهبهم بعد حين .

وهذا التعليل قد أجمعت عليه آراء المؤرخين والعلماء حتى لقد شاع بين الناس قولهم : إنّ الناس على دين ملوكهم، وقد مرّ في مطاوي هذا البحث تنويه به وإشارة إليه.

المذهب الشافعي

وينسب إلى الإمام محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، وقيل إنّ شافعاً كان مولى لأبي لهب فطلب من عمر أن يجعله من موالي قريش، فامتنع فطلب من عثمان ذلك ففعل، ولد سنة (١٥٠ هـ) وتوفي سنة (١٩٨ هـ).

كان ظهوره أولاً بمصر وكثر أصحابه هناك، فغلب على بغداد وعلى كثير من بلاد خراسان، ودخل شيء منه إلى أفريقيا والأندلس بعد سنة (٣٠٠ هـ)، وقويت شوكته، وعظمت شهرته في عهد الدولة الأيوبية التي كانت تتّسم بسمة شافعية ، وبذلوا جهدهم في نصرته، ببناء المدارس لفقهاء الشافعية واختصاص القضاء بهم، وكان الغالب على أهل مصر الشيعة في عهد الفاطميين الذين كانوا يملكون مصر قبله، وكان المذهب يدرس في الجامع الأزهر وغيره، فابطل صلاح الدين درسه فيها

---

(٤٢٥) هو أبو محمد يحيى بن يحيى الأندلسي ويعرف بابن عيسى، سمع مالك بن أنس وجمع مسائله، وكتب سماع بن القاسم عن مالك ثم انصرف إلى المدينة ليسمعه من مالك فوجده عليلاً فأقام بالمدينة إلى أن توفي مالك وقدم إلى الأندلس وخالف مالكاً في كثير من المسائل، قال أحمد بن خالد: لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الحظوة وعظم القدر وجلالة الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى توفي سنة (٢٣٣ هـ).

(٤٢٦) ابن خلكان ج٢ ص١١٦ .

(٤٢٧) انظر رسالة الانصاف للدهلوي ص٣٧ ـ ٣٨ .

وأحيا مذهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك، وبنى لهم كثيراً من المدارس، ورغب الناس فيها بالأوقاف التي حبسها عليها فرغبوا فيها وأخذوا في تقليدها وهجروا ما عداها من المذاهب .

وكان انتشار مذهب الشافعي بعد صلاح الدين أكثر من غيره لاعتناق الملوك الذين تولوا من بعده مذهب الشافعي، وقد نجح الشافعي في بدء أمره عندما قدم مصر وزاحم مذهب مالك، حتى تعصب عليه المالكية، لأنّه كاد أن ينسي الناس مذهب مالك إلى أنْ آل الأمر بهم فقتلوه بسبب التعصب، كما يأتي بيانه، وكان سبب نجاحه مؤازرة بني عبد الحكم له فإنّ لهم مكاناً رفيعاً بمصر، ومنزلة سامية وجاهاً عظيماً ، وقد آزره أبو محمد عبد اللّه بن الحكم بن أعين بن الليث، وكان عالماً عاقلاً متحققاً بمذهب مالك وإليه أفضت الرياسة بعد أشهب، فلما نزل الشافعي عليه أكرم مثواه وبلغ الغاية في برّه، ومات الشافعي في بيته فاعتنق مذهب الشافعي وكتب كتبه لنفسه ، مع أنّ الشافعي لن يعدم رعاية السلطان هناك، فإنّه دخل مصر وهو يحمل من الرشيد كتاباً لواليه على مصر يوصيه به ويلزمه بعنايته، ووقعت بينه وبين المالكية مناوشات كان النجاح له في نهاية الأمر. وكان قدوم الشافعي إلى مصر في سنة (١٩٨ هـ) ويقال إنّه جاء مع أميرها عبد اللّه بن العباس بن موسى العباسي، فصحبه جماعة من أعيان أهل مصر كبني عبد الحكم والربيع بن سليمان، وأبي إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني، والبويطي وكتبوا عنه ونشروا مذهبه.

المذهب الحنبلي

ينسب إلى الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن حيان بن عبد اللّه بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن ذهل بن شيبان، ولد سنة (١٦٤ هـ) في بغداد، وتوفي سنة (٢٤١ هـ) فيها.

ظهر مذهب أحمد بن حنبل ببغداد وهو آخر المذاهب لتأخره زمناً في الحدوث، وكانت خطوة انتشاره خارج بغداد قصيرة جداً، ولم ينل شهرة غيره من المذاهب، وظهر في مصر في القرن السابع بين أفراد معدودين، ولكنه انتشر بعد فترة قصيرة عندما تولى القضاء عبد اللّه بن محمد بن محمدبن عبد الملك الحجازي، فزاد انتشاره هناك وذلك في سنة (٧٣٨ هـ) .

قال ابن خلدون: فأمّا أحمد بن حنبل فمقلّده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته في معاضدة الرواية والأخبار بعضها ببعض ، وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها، وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية للحديث(٤٢٨).

وعداد أحمد بن حنبل عند القدماء أنّه من أهل الحديث لا الفقهاء ، ولذا لم يعد مذهبه في الخلاف بين الفقهاء، وكان ابن جرير يقول: إنّه رجل حديث لا رجل فقه، وعدّه المقدسي كذلك من أهل الحديث لا من الفقهاء(٤٢٩)، ولم يذكره ابن قتيبة في معارفه في عداد الفقهاء، واقتصر ابن عبد البر في كتابه الانتقاء على ذكر مالك والشافعي وأبي حنيفة.

والحاصل أنّ المذهب الحنبلي أقلّ المذاهب انتشاراً، وقد عدّ متّبعوه هذه القلّة فخراً، نعم ظهرت عظمته ببغداد إذ كان متبعوه يحتفظون فيما بينهم باتحاد وثيق حيث تكون المصلحة هناك، وقد أصبحوا في زمن ما ولهم قوة استطاعوا بها أن يقلقوا بال الحكومة، وتظاهروا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكانت صولتهم عظيمة، وأوقعوا في سائر المذاهب التي تخالفهم ما تشتهيه أنفسهم من التنكيل والأذى، وقضت الحكومة على تلك الحركات غير المنظّمة ، وضيّقوا دائرة اتساع دعوتهم.

ولم ينل المذهب الحنبلي قوة أنصار ورجال دعوة إلاّ في البلاد النجدية، فقد ساعده الزمن وكتب له البقاء على يد محمد بن عبد الوهاب مؤسس المذهب الوهابي، وإنْ كان مذهب أحمد وشهرته اندكّت إلى جانب شهرة الوهابي ومذهبه، ولا ينكر ما لابن تيمية وتلميذه ابن القيّم الجوزية، من الفضل في انتشار المذهب ونشاطه، وهما في الحقيقة إبطال دعوته، وعنهم أخذ ابن الوهاب تعاليم مذهبه الجديد، ومع ذلك فإنّ معتنقي هذا المذهب هم اليوم أقلّ عدداً بالنسبة إلى معتنقي المذاهب الأخرى في العالم الإسلامي.

السلطة وانتشار المذاهب

وبهذه الأسباب وعوامل الترغيب التي اتخذها أولئك الأمراء وذوو النفوذ والسلطة أخذت هذه المذاهب بين العامة في الصيت والشهرة، ما جعلهم متزاحمين على اعتناقها بدون تمييز وحرية في الرأي، وظلّت حقيقتها غامضة، إذ لا يمكن

---

(٤٢٨) مقدمة تاريخ ابن خلدون ج١ ص٥٦٦ .

(٤٢٩) أحسن التقاسيم ج١ ص٣٧ .

استكشافها. فالخضوع للسلطان أمر لا مفرّ منه، وكان عدم تدخل الحكومة في مثل هذه الأمور أعود على الأمة، وأصلح لدينها ودنياها، فتدخّلها فيه قد جرّ الأمة إلى منافسات وعصبية أعقبتها فتن ذهبت ضحيتها نفوس بريئة تدين للّه بالوحدانية ولمحمد(صلى الله عليه وآله وسلم) بالنبوة، وقد أدّت الخلافات إلى فرقة وتباعد ممّا كدر صفو الأمة ورماها بالشتات بعد الألفة، وبالعداء بعد الأخوة.

وعلى هذا المنوال أستطيع أن أسير في التدليل على ما في هذا الالتزام من النقص، وقد سارت عليه جماهير من المسلمين بدون دليل ولا برهان، فوقوف التشريع الإسلامي وانحساره بأقوال الأربعة إنّما هو تحجير للفكر، وجمود للتشريع لأغراض تعود بالنفع على الطبقة الحاكمة، الذين يريدون أن يطبعوا أعمالهم بطابع الدين، وما هم من الدين في شيء، إذ لا همّ لهم إلاّ حفظ ملكهم وقضاء مآربهم; على أنّ الأئمة الأربعة أنفسهم لا يعرفون هذا ويفتون بضده، فأقوالهم تدلّ على عدم الإلتزام بقول أحد. هذا مالك بن أنس يقول: «إنما أنا بشر أُصيب وأُخطئ، فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة»[٤٣٠]، ويقول أبو حنيفة: «هذا رأيي وهذا أحسن ما رأيت فمن جاء برأي خلافه قبلناه»[٤٣١]، ويقول الشافعي: «إذا صحّ الحديث بخلاف قولي فاضربوا بقولي الحائط»[٤٣٢]، ويقول أحمد: «من ضيق علم الرجل أن يقلّد دينه الرجال» وقال: «لا تقلد دينك الرجال فإنّهم لم يسلموا من أن يغلطوا»[٤٣٣] كما سنبيّن ذلك قريباً.

وعلى أيّ حال فإنّ الاستسلام والتقليد اللذين أديا الى التعصّب والانغلاق أثّرا في سير الحركة العلمية، لأنّ التقليد يقوم على الاتباع، وبذلك ترك النظر والتعرف على الدليل.

وكيف كان فقد استطاعت المذاهب الأربعة أن تصعد سلّم الرقي وتكتسب قيمتها المعنوية، لأنّها موضع عناية الخلفاء والولاة المتعاقبين بالرغم ممّا رافقها من خلافات ومنافرات، وإنّ عناية السلطة تكسب الشيء لوناً من الاعتبار والعظمة حسب نظام السياسة لا النظام الطبيعي، فعوامل الترغيب وأداة القوة جعلتها تأخذ بالتوسّع شيئاً فشيئاً، ولولا ذلك لما استطاعت البقاء حتى تصبح قادرة على مزاحمة غيرها.

---

(٤٣٠) الجامع لابن عبد البر ج٢ ص١٣٢ .

(٤٣١) ملخص أبطال القياس والرأي لابن حزم ص٦٦ .

(٤٣٢) المجموع ج١ ص٦٧٣ .

(٤٣٣) مجموعة فتاوى لابن تيمية ج٢ ص٢١٢ .

ثم كان بعد هذا ما هو أدهى وأمرّ، فإنّه في سنة (٦٤٥ هـ) أحضر مدرسو المدرسة المستنصرية إلى دار الوزير، فطلب منهم ألاّ يذكروا شيئاً من تصانيفهم، وألاّ يلزموا الفقهاء بحفظ شيء منها، بل يذكروا كلام المشايخ السابقين تأدّباً معهم، وتبرّكاً بهم، فأجاب جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي بالسمع والطاعة. وقال سراج الدين عبد اللّه الشرمساحي المالكي: ليس لأصحابنا تعليقة، أما النقط من مسائل الخلاف فمما أرتبه[٤٣٤].

وقال شهاب الدين الزنجاني الشافعي وأقضى القضاة عبد الرحمن بن اللمغاني الحنفي: إنّ المشايخ كانوا رجالاً. ونحن رجال. فأوصل الوزير ما أجابوا به إلى المستعصم، وكان قد تولى الملك بعد أبيه المستنصر فأحضرهم أمامه، وطلب منهم جميعاً أن يلتزموا ذكر كلام المشايخ ويحترموهم، فأجابوه جميعاً بالسمع والطاعة، ورجعا مدرسا الشافعية والحنفية عن اعتدادهما بأنفسهما.

وقال المقريزي: فلما كانت سلطنة الظاهر بيبرس البندقداري ولّى بمصر أربعة قضاة وهم: شافعي، ومالكي، وحنفي، وحنبلي، فاستمرّ ذلك من سنة (٦٦٥ هـ) حتى لم يبق في مجموع أمصار الإسلام مذهب يعرف من مذاهب أهل الإسلام سوى هذه المذاهب الأربعة، وعملت لأهلها المدارس والخوانك والزوايا والربط في سائر ممالك الإسلام، وعودي من تمذهب بغيرها، وأنكر عليه ولم يول قاضي ولا قبلت شهادة أحد ولا قدم للخطابة والإمامة والتدريس أحد مالم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب، وأفتى فقهاء الأمصار في طول هذه المدة بوجوب اتّباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها[٤٣٥].

يقول الأستاذ عبد المتعال الصعيدي أحد علماء الأزهر في كتابه «ميدان الاجتهاد»: «فلما رأى بنو العباس أنّ وسائلهم في القهر لاتجديهم، أرادوا أن يأتوا الناس من باب التعليم ، فيتولوا أمره بأنفسهم، ليربّوا العلماء على الخضوع لهم، ويملكوهم بالمال من أول أمرهم. وكانت الأمة هي التي تتولى أمر التعليم بعيداً عن الحكومة، كما تتولاه الآن الأمم الراقية في أوربا وأمريكا، فيقوم في المساجد حراً لا يخضع لحكم ملك أو أمير، ويتربى العلماء بين جدرانها أحراراً لا يراقبون إلاّ اللّه في عملهم، ولا يتأثرون بهوى حاكم، ولا تلين قناتهم لطاغية أو ظالم، فأراد بنو العباس أن يقضوا على هذا التقليد الكريم، ويتولوا بأنفسهم أمر التعليم بين المسلمين، فأخذوا ينشئون له المدارس بدل المساجد، ويحبسون عليها من الأوقاف الكثيرة ما يرغب

---

(٤٣٤) الحوادث الجامعة ص٢١٦ .

(٤٣٥) الخطط للمقريزي ج٤ ص١٦٧ .

العلماء فيها، ويجعل لهم سلطاناً عليهم، وأخذت الممالك التابعة لهم تأخذ بهذا في سنتهم، حتى صار التعليم خاضعاً للحكومات بعد أن كان أمره بيد الرعية، وكان لهذا أثره في نفوس العلماء، فنزلوا على ارادة الملوك ولم تقو نفوسهم على مخالفتهم في رأيهم، أو توجيه شيء من النصح إليهم، وكانت المدرسة البيهقيّة أول ما أُنشئت من تلك المدارس، وهي منسوبة إلى البيهقي المتوفى سنة (٤٥٠ هـ) ثم أُنشئت بعدها المدرسة السعيدية بنيسابور، أنشأها الأمير نصر بن سبكتكين، ثم أُنشئت بعدها النظامية ببغداد أنشأها الوزير نظام الملك سنة (٤٥٩ هـ) وقد احتفل بافتتاحها احتفالاً عظيماً...» .

إلى أن يقول : «ثم جاء صلاح الدين الأيوبي لمصر، فقام بإنشاء المدارس فيها للتعليم، وأنشأ المدرسة الناصرية لتعليم مذهب الشافعي سنة (٥٦٦ هـ) ثم انشأ المدرسة الصلاحية بالقرافة الصغرى سنة (٥٧٢ هـ) بجوار الإمام الشافعي وجعل لناظرها أربعين ديناراً في كلّ شهر، ورتّب له في كلّ يوم ستين رطلاً من الخبز وراويتين من ماء النيل، ثم أنشأ مدرسة أُخرى بجوار المشهد الحسيني، وجعل دار العباس العبيدي مدرسة للحنفيين»[٤٣٦].

وكان صلاح الدين يقصد من هذه المدارس كلّها الى إحياء مذهب أهل السنّة، والقضاء على مذهب الشيعة الفاطميين الذين كانوا يملكون مصر قبله، ورغب الناس فيها بالأوقاف التي حبسها عليها فرغبوا فيها وأخذوا في تقليدها وهجروا ما عداها من المذاهب.

وقد جاء المستنصر العباسي[٤٣٧] بعد هذا فانشأ في بغداد المدرسة المستنصرية سنة (٦٢٥ هـ) ، وانفق في بنائها أموالاً لا تُحصى حتى تمّ بناؤها سنة (٦٣١ هـ) ، فاحتفل بافتتاحها احتفالاً عظيماً حضره بنفسه وحضر معه نائب الوزارة، وكذلك الولاة والحجاب والقضاة والمدرسون والفقهاء، وشيوخ الربط والصوفية والوعاظ والقرّاء والشعراء، وجماعة من أعيان التجار الغرباء، واختير لكلّ مذهب من المدارس وغيرها اثنان وستون نفساً، ورتّب لها مدرسين ونائبي تدريس، وكان المدرسان محيي الدين محمد بن يحيى بن فصلان الشافعي، ورشيد الدين عمر بن محمد الفرغاني الحنفي، وكان نائبا التدريس جمال الدين عبد الرحمن بن يوسف بن الجوزي، وأباالحسن علياً المغربي، وجعل لها ستة عشر معيداً، أربعة لكلّ مذهب، وجعل ربع القبلة الأيمن للشافعي، وجعل ربع القبلة الأيسر للحنفية، وجعل الربع

---

(٤٣٦) انظر تاريخ الإسلام ج٤ ص٦٠٦ ـ ٦٠٨ .

(٤٣٧) هو أبو جعفر منصور بن الظاهر ولد سنة (٥٨٨ هـ) وبويع له سنة (٦٢٣ هـ) وتوفي سنة (٦٤٠ هـ) .

الذي على يمين الداخل للحنابلة، وجعل الربع الذي على يساره للمالكية، وقد شرط المستنصر في وقفه عليها أن يكون عدد فقهائها مائتين وثمانية وأربعين، من كلّ طائفة اثنان وستون بالمشاهرة الوافرة، والجراية الدارة واللحم الراتب إلى غير هذا من وسائل الترغيب في هذه المذاهب.

فأقبل الناس على دراستها واهملوا غيرها من المذاهب التي لم يقدر لها مثل هذه الأوقاف المغرية.

وهكذا أخذ الشباب والكهول يواصلون الدراسة على المذاهب الأربعة في مثل هذه المدارس، ويسمعون في خلال دراستهم طعوناً على أيّ مذهب آخر، فيمتلئون حقداً على من لم يترك مذهبه لينتسب إلى أحد هذه المذاهب الأربعة.

فكان ذلك من النتائج الأولى لتسلّم صلاح الدين دست الحكم في ظروف سياسية مرّت بها دولة الفاطميين الذين تربّى صلاح الدين وذووه في ظلّ عزّهم، ولولا خدمتهم للفاطميين ما كانوا. وقد تحوّل صلاح الدين بشدة ومارس القسوة وهو يتربع على العرش الذي ائتمن عليه، واتجه الى سنّة السلاطين الآخرين الذين حكموا الأمة، فقسّم المجتمع على طريقتهم وأقام الدراسة في قاهرة المعز على الطريقة المذهبية التي اتبع إشاعتها الحكام.

خلاصة البحث

ظهر لنا ممّا سبق أنّ العامل الأساسي لتكوين الالتزام بمذهب معين، وعدم الترخّص في استنباط الأحكام الشرعية إنمّا هو السلطة، وأنّ بقاء هذه المذاهب إنّما يكون بتلك الوسائل المشجّعة، حتى كثر أنصارها، ولو قدرت عوامل الانتشار لغير المذاهب الأربعة لبقي لها جمهور يقلّدها أيضاً، ولكانت مقبولة عند من ينكرها، ولكنّها عدمت رعاية السلطة فمحيت من الوجود، إذ لا قابلية لها في ذاتها على البقاء بقوّة بنائها أو قدرات أصحابها العلمية.

وقد فاز المذهب الحنفي بتشجيع أكثر من غيره، فهو في العصر العباسي المذهب الذي ترجع الدولة إليه في مهمّات التشريع، ورئاسة القضاء بيد أهل الرأي، لم يشاركهم إلاّ القليل من سائر المذاهب، وبعد انقراض الدولة العباسية اعتنق المذهب سلاطين الأتراك عندما أرادوا انطباق اسم الخلافة الإسلامية عليهم، لأنّ من شروطها: أن يكون الخليفة قرشيّاً طبقاً للحديث «الخلافة في قريش»[٤٣٨] والحنفية لا يشترطون هذا الشرط، وأوّل من تولّى الخلافة الإسلامية من غير قريش السلطان

(٤٣٨) كنز العمال ج١٢ ص٢٥ /٢٣٨٠٩.

سليم الفاتح، وصحّح الحنفية هذه الخلافة، وحجّتهم أنّ الخليفة يتولى الخلافة بخمسة حقوق: ١ ـ حقّ السيف. ٢ ـ حقّ الانتخاب. ٣ ـ حقّ الوصاية. ٤ ـ حماية الحرمين. ٥ ـ الاحتفاظ بالأمانات . وهي المخلّفات النبويّة المحفوظة في الاستانة، وهم يقولون: إنّ الآثار النبوية سلمت من اغتيال التتر في بغداد، فحملها الخليفة العباسي إلى القاهرة حتى نقلها السلطان سليم إلى القسطنطينية في صندوق من الفضة وهي البردة النبوية، وسن من أسنان النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وشعرات من شعره ونعاله، وبقيّة من العلم النبوي، وإناء من حديد، وجبّة الإمام أبي حنيفة[٤٣٩].

وبهذا الشكل سارت عوامل انتشار المذاهب مع السياسة جنباً لجنب ، إذ الرغبة فيها منوطة بالقضاة ورغبة السلطة، حتى كثر التحوّل من مذهب إلى مذهب تقرّباً للسلطان وطلباً لرفده، وتحوّل كثير من الشافعية إلى الحنفية لأجل الدنيا، وذلك أنّ الأمير بلبغا بن عبد الله الخاصكي الناصري الأمير الكبير صاحب النفوذ والصولة كان يتعصّب لمذهب أبي حنيفة ، ويعطي لمن تحوّل إليه العطاء الجزيل، ورتّب الجامكيات الزائدة، وحاول في آخر عمره أن يجلس الحنفي فوق الشافعي[٤٤٠].

ولما انتقل أبو البركات الحنفي إلى مذهب الحنبلي فآذاه الحنفية، فانتقل إلى مذهب الشافعي، فقال المؤيّد التكريتي في هجائه :

ألا مبلغ عني الوزير رسالة *** وإن كا ن لاتجدي إليه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل *** وذلك لما أعوزتك المآكل
وما اخترت رأي الشافعيّ تديناً *** ولكنّما تهوى الذي هو حاصل
وعمّا قليل أنت لا شكّ صائر *** إلى مالك فافهم لما أنا قائل[٤٤١]

وهذا أبو بكر البغدادي الحنبلي تحوّل شافعياً لأجل الدنيا، وولي القضاء، وكان أبو المظفر يوسف بن قرغلي سبط ابن الجوزي حنبليّاً، نقله الملك المعظم إلى مذهب أبي حنيفة[٤٤٢]. وكثير غيرهم.

وخلاصة القول أنّ تلك الوسائل المشجّعة للمذاهب الأربعة دعت الناس إلى الرغبة فيها، والأعراض عمّا سواها، ودعت أكثر الفقهاء الذين لهم أهليّة الاستنباط أن يجمدوا على تقليد السلف وتعطيل موهبة الاجتهاد.

---

(٤٣٩) التمدن الإسلامي ج١ ص١٠٩ .
(٤٤٠) شذرات الذهب ج٦ ص٢١٣ .
(٤٤١) مرآة الجنان ج٤ ص٣٤ .
(٤٤٢) شذرات الذهب ج٥ ص٢٦٧ .

قال الشيخ أبو زرعة: قلت مرة لشيخنا البلقيني: ما يقصر بالشيخ تقي الدين ابن السبكي عن رتبة الاجتهاد وقد استكمل الآلة وكيف يقلّد؟ ولم أذكره هو استحياءً منه، ولما أُريد أن أرتّب على ذلك .

فسكت عني، ثم قلت: ما عندي أنّ الامتناع عن ذلك إلا للوظائف التي قررت للفقهاء على المذاهب الأربعة، وإنّ من خرج عن ذلك لم ينله شيء، وحرم ولاية القضاء، وامتنع الناس من استفتائه ونسب إلى البدعة; فتبسّم ووافقني[٤٤٣].

ومن هنا قوبل مذهب أهل البيت(عليهم السلام) بتلك الهجمات العنيفة والحملات الظالمة، وأصبح الشيعة المتمسكون بمذهب أهل البيت(عليهم السلام) عرضة لكلّ خطر، وغرضاً للتهم، وأصبح الشيعي في نظر اتباع السلطة خارجاً عن الإسلام، مفارقاً جماعتهم، ولكنّ الشيعة ثبتوا على أخذ تعاليم الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)في أحكام الإسلام، من طريق أهل البيت(عليهم السلام)، لأنّهم عدل القرآن والتمسك بهم من دعائم الإسلام، ففي اتّباعهم الهدى وهم كسفينة نوح وباب حطّة.

وبذلك تحمّلوا ما تحمّلوا في سبيل المحافظة علىوصاية النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في آله، وساروا على نهجهم وبقي باب الاجتهاد مفتوحاً على مصراعيه، ومدرستهم مستقلة عن سياسة السلطة وآراء الحكّام. فإذا ما عدنا الى بدايات ضعف الحكم الأموي نرى الإمام الباقر(عليه السلام)يتعرض للأذى والمضايقات فيحمل الى مقر الجائرين في الشام وكان يصحبه ولده جعفر الصادق(عليه السلام)، ولأنّ منهج الدعوة وأساليب العمل قد أخذت بالتطبيق على يد الإمام الباقر(عليه السلام) في ظلّ مقتضيات الظروف ومستجدّات السياسية، فإنّه(عليه السلام) قرن بين السلوك الديني وبين الجانب الذي أراد الحكّام التحكّم فيه، وإخضاع أهل البيت وأنصارهم وهو الذي يتعلّق بالإمامة بصيغة الخلافة ومسميات السياسة، فقال: من عَبَد الله عبادة اهتمام ولم يعتقد بإمام عادل، وأنه منصوب من الله فلا يقبل الله منه سعياً.

أما الإمام الصادق(عليه السلام) حيث ماج عصره بالتيارات الفكرية واشتدّت فيه النزعات المختلفة، فقد اتّجه الى الأفكار ومخاطبة العقول لشدها الى أركان العلم وأصول الفقه بطريقة منهجية رائدة تتيح للعقول الإفلات من مخطط السلطة الزمنية، حتى عرف عنه(عليه السلام) أنه كان يجيب كلّ من يتوجه إليه بالسؤال مراعياً اهتمامات السائل ومقاصده، ثم يقيم الإجابة على نحو من أغراض منهجه هو(عليه السلام) ، فظن من بهم جهالة أنّه(عليه السلام) يقول بأقوال مختلفة وحاشاه(عليه السلام) .

---

(٤٤٣) الاجتهاد ومقتضيات العصر ص١٥٢ .

يقول الدكتور محمد كامل حسين: عرف عن الصادق(عليه السلام) الاعتدال في الرأي والعقيدة بحيث يقبل آراءه كلّ مسلم، السنّي منهم والشيعي[٤٤٤].

ونرى من الخير أن نتعرّض لذكر الآراء حول الاجتهاد والتقليد في نقل أقوال السلف وبعض المعاصرين بإيجاز، وللتفصيل محل آخر.

آراء حول الإجتهاد والتقليد

«إنما أنا بشر أُصيب وأخطئ فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة»[٤٤٥].

«مالك بن أنس»

«إذا صحّ الحديث بخلاف قولي فاضربوا بقولي الحائط»[٤٤٦]. **«الشافعي»**

«هذا رأيي وهذا أحسن ما رأيت فمن جاء برأي غير هذا قبلناه. حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي»[٤٤٧]. **«أبو حنيفة»**

«من ضيق علم الرجال أن يقلدوا الرجال، لا تقلد دينك الرجال فإنّهم لن يسلموا من أن يغلطوا، وقيل له: لم لا تضع لأصحابك كتاباً في الفقه؟ قال: ألأحَد كلام مع كلام اللّه ورسوله؟»[٤٤٨]. **«أحمد بن حنبل»**

«لايجوز ترك آية أو خبر صحيح لقول صاحب أو إمام، ومن يفعل ذلك فقد ضلّ ضلالاً مبيناً وخرج عن دين اللّه»[٤٤٩].

«محيي الدين بن العربي»

«لم يبلغنا أنّ أحداً من السلف أمر أحداً أن يقيد بمذهب معين، ولو وقع ذلك منهم لوقعوا في الإثم، لتفويتهم العمل بكلّ حديث لم يأخذ به ذلك المجتهد الذي أمر الخلق باتباعه وحده، والشريعة حقيقة إنّما هي مجموع ما بأيدي المجتهدين كلّهم لا بيد مجتهد واحد، ومن أين جاء الوجوب والأئمة كلّهم قد تبرأوا من الأمر باتباعهم، وقالوا: إذابلغكم حديث فاعملوا به واضربوا بكلامنا الحائط»[٤٥٠].

«الشعراني»

---

(٤٤٤) طائفة الإسماعيلية ص١٠ .

(٤٤٥) تهذيب التهذيب ج١٠ ص٨ /٦٧٢٣.

(٤٤٦) المجموع ج١ ص٦٧٣.

(٤٤٧) ملخص إبطال القياس والرأي لابن حزم ص ٦٦.

(٤٤٨) تلبيس ابليس ص٦٥، أنظر موسوعة أقوال الإمام أحمد ج١ ص٨ ، أعلام الموقعين ج٤ ص٢٠٦ . مجموعة فتاوى لابن تيمية ص٢٠ و ٢١٢.

(٤٤٩) الفتوحات المكّية ج٢ ص١٦٤ .

(٤٥٠) الاجتهاد ومقتضيات العصر ص١٧٤ .

سئل الشيخ تقي الدين بن تيمية عن رجل تفقّه على مذهب من المذاهب، وتبصّر فيه، واشتغل بعده بالحديث فوجد أحاديث صحيحة، لا يعلم لها ناسخاً ولا مخصصاً ولا معارضاً، وذلك المذهب فيه ما يخالف تلك الأحاديث، فهل له العمل بالمذهب، أو يجب عليه الرجوع إلى العمل بالحديث ومخالفة مذهبه؟ فأجاب بما هذا نصه:

الحمد للّه ربّ العالمين، قد ثبت في الكتاب والسنة والإجماع أنّ اللّه افترض على العباد طاعته وطاعة رسوله(صلى الله عليه وآله)، ولم يوجب على هذه الأمة طاعة أحد بعينه في كلّ ما أمر به ونهى عنه إلاّ رسول اللّه(صلى الله عليه وآله)، حتى كان صديق الأمّة وأفضلها بعد نبيّها عليه الصلاة والسلام، ورضي اللّه عنه يقول: أطيعوني ما أطعت اللّه، فإذا عصيت اللّه عزّ وجلّ فلا طاعة لي عليكم. واتّفق كلّهم عن أنّه ليس أحد معصوماً في كلّ ما أمر اللّه به ونهى عنه إلاّ رسول اللّه، ولهذا قال غير واحد من الأئمة: كلّ أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلاّ رسول اللّه عليه الصلاة والسلام. وهؤلاء الأئمة الأربعة رحمهم اللّه تعالى أجمعين قد نهوا الناس عن تقليدهم في كلّ ما يقولون، وذلك هو الواجب، قال الإمام أبو حنيفة: هذا رأيي وهذا أحسن ما رأيت، فمن جاء برأي خير منه قبلناه، ولهذا لمّا اجتمع أفضل أصحابه أبو يوسف بإمام دار الهجرة مالك بن أنس وسأله عن مسألة الصاع وصدقة الخضراوات، ومسألة الأجناس فأخبر مالك بما دلّت عليه السنة في ذلك. فقال أبو يوسف: رجعت لقولك يا أبا عبد اللّه، ولو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت. ومالك(رحمه الله) كان يقول: إنّما أنا بشر أُصيب وأُخطئ فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة، أو كلام هذا معناه، والشافعي(رحمه الله) كان يقول: إذا صحّ الحديث بخلاف قولي فاضربوا بقولي الحائط، وإذا رأيت الحجة موضوعة على طريق قولي[٤٥١].

«من حصر فضل اللّه على بعض خلقه، وقصر فهم هذه الشريعة المطهّرة على من تقدّم عصره، فقد تجرّأ على اللّه عزّ وجلّ، ثم على شريعته الموضوعة لكلّ عباده الذين تعبّدهم بالكتاب والسنة، فإذا كان التعبّد بهما مختصّاً بأهل العصور السابقة، ولم يبق لهؤلاء المتأخرين إلاّ التقليد لمن تقدّمهم ولا يتمكّنون من معرفة كتاب اللّه وسنة رسوله; فما الدليل على هذه التفرقة الباطلة، والمقالة الزائفة، وهل النسخ إلاّ هذا؟ سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم»[٤٥٢]. **«حسن خان»**

«ليس على الإنسان التزام مذهب معيّن، وأنّه لا يجوز له العمل بما يخالف ما عمله على مذهبه مقلّداً فيه غير إمامه مستجمعاً شروطه، ويعمل بأمرين متضادين

---

(٤٥١) جلاء العينين للآلوسي ص١٠٧.

(٤٥٢) جلاء العينين للآلوسي ص١٠٧.

في حادثتين لا تعلق لواحدة منهما بالأخرى وليس له إبطال عين ما فعله بتقليد إمام آخر، لأنّ إمضاء القاضي لا ينقض»[٤٥٣].

«ابن عابدين»

«إعلم أنّ المقلّد على غير ثقة فيما قلّد فيه، وفي التقليد إبطال منفعة العقل، لأنّه إنّما خلق للتدبّر، وقبيح بمن أعطي شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي في الظلمة، واعلم أنّ عموم أصحاب المذاهب يعظّم في قلوبهم الشخص فيتبعون قوله من غير تدبّر بما قال، وهذا عين الضلال، لأنّ النظر ينبغي أن يكون إلى القول لا إلى القائل»[٤٥٤]

«جمال الدين بن الجوزي»

«إعلم أنّه لم يكلّف اللّه أحداً من عباده بأن يكون حنفياً أو مالكياً أو شافعياً، أو حنبلياً بل أوجب عليهم الإيمان بما بعث به محمداً(صلى الله عليه وآله وسلم) والعمل بشريعته»[٤٥٥].

«عبد العظيم المكي»

ومن العجب العجيب أنّ الفقهاء المقلّدين يقف أحدهم على ضعف قول إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً وهو مع ذلك مقلّد فيه، ويترك من شهد الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبهم، جموداً على تقليد إمامه، بل يتحيل لظاهر الكتاب والسنّة ويتأولهما بالتأويلات البعيدة الباطلة، نضالاً عن مقلده، ولم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء إلى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها من المقلّدين، فإنّ أحدهم يتّبع إمامه مع بعد مذهبه عن الأدلّة، مقلّداً فيما قال كأنّه نبيّ أرسل، وهذا نأي عن الحقّ، وبعد عن الصواب لا يرضى به أحد من أولي الألباب»[٤٥٦]

«عز الدين بن عبد السلام»

«ينبغي لمن اشتغل بالفقه أن لا يقتصر على إمام، ويعتقد في كلّ مسألة صحة ما كان أقرب إلى دلالة الكتاب والسنة المحكمة وذلك سهل عليه، وليتجنّب التعصّب والنظر في طرائق الخلاف، فإنّها مضيعة للزمان، ولصفوه مكدّرة، فقد صحّ عن الشافعي أنّه نهى عن تقليده وتقليد غيره»[٤٥٧].

---

(٤٥٣) أنظر أعلام الموقعين ج٤ ص٢٦١ ـ ٢٦٣. أنظر الاجتهاد ومقتضيات العصر ص١٧٣.

(٤٥٤) تلبيس ابليس لابن الجوزي ص٨١ .

(٤٥٥) رسالة القول السديد ص٣.

(٤٥٦) رسالة الإنصاف ص٣٧ .

(٤٥٧) انظر دائرة المعارف لفريد وجدي ج٣ ص٢٤٨.

«الشيخ أبو شامة»

«إنّ قفل باب الاجتهاد معناه الضربة القاضية على حرية الفكر، بل على الإسلام الذي قلنا إنه جاء للناس كافة، ليساير مختلف العصور والشعوب والآن بعد سير ألف سنة سار خلالها المسلمون جامدين»[٤٥٨].

«محمد علي» مؤلف كتاب الدين الإسلامي

«وإني أستطيع أن أحكم بعد هذا بأنّ منع الاجتهاد قد حصل بطرق ظالمة، وبوسائل القهر والاغراء بالمال، ولا شكّ أن هذه الوسائل لو قدرت لغير المذاهب الأربعة التي نقلدها الآن لبقي لها جمهور يقلدها أيضاً، ولكانت الآن مقبولة عند من ينكرها، فنحن إذاً في حلّ من التقيّد بهذه المذاهب الأربعة التي فرضت علينا بتلك الوسائل الفاسدة، وفي حلّ من العود إلى الاجتهاد في أحكام ديننا، لأنّ منعه لم يكن إلاّ بطرق القهر، والإسلام لا يرضى إلاّ بما يحصل بطريق الرضى والشورى بين المسلمين، كما قال تعالى في الآية(٢٨) من سورة الشوري (**وأمرهم شورى بينهم**)[٤٥٩].

«عبد المتعال الصعيدي» أحد علماء الأزهر

«رأى بعض المقلّدة لمذهب إمام يزعمون أنّ إمامهم هو الشريعة، بحيث يأنفون أن تنسب إلى أحد من العلماء فضيلة دون إمامهم حتى إذا جاءهم من بلغ درجة الاجتهاد، وتكلّم في المسائل، ولم يرتبط إلى إمامهم رموه بالنكير، وفوقوا إليه سهام النقد، وعدّوه من الخارجين عن الجادة والمفارقين للجماعة من غير استدلال منهم بدليل، بل بمجرد الاعتبار العامي، ولقد لقي بقيّ بن مخلد حين دخل الاندلس آتياً من المشرق من هذا الصنف الأمرّين حتى أصاروه مهجور الفناء، مهتضم الجانب، إلى أن يقول: وكان هؤلاء المقلّدة قد صمّموا على مذهب مالك بحيث أنكروا ما عداه، وهذا تحكيم الرجال على الرجال، والغلوّ في محبّة المذاهب»[٤٦٠]. **«الشاطبي»**

«بأيّ نصّ سدّ باب الاجتهاد، أو أيّ إمام قال: لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدي أن يجتهدوا ليتفقّهوا في الدين، أو أن يهتدي بهدي القرآن وصحيح الحديث، أو أن يجدّ ويجتهد بتوسيع مفهومه، والاستنتاج على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجيات

---

(٤٥٨) انظر الاجتهاد والتجديد في التشريع الإسلامي ص٣٠٥.

(٤٥٩) ميدان الاجتهاد ص١٤.

(٤٦٠) الاعتصام ج٣ ص٢٥٩.

الزمان وأحكامه، ولا ينافي جوهر النصّ، إنّ اللّه بعث محمداً رسولاً بلسان قومه العربي ليعلمهم ما يريد افهامهم، وليفهموا منه ما يقوله لهم.

ولا ارتياب بأنّه لو فسح في أجل أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وعاشوا إلى اليوم لداموا مجتهدين مجدّين يستنبطون لكل قضية حكماً من القرآن والحديث، وكلما زاد تعمقهم زادوا فهماً وتدقيقاً، نعم إنّ أولئك الفحول من الأئمة ورجال الأمة اجتهدوا وأحصنوا فجزاهم اللّه خير الجزاء، ولكن لا يصحّ أن نعتقد أنّهم احاطوا بكلّ أسرار القرآن وتمكّنوا من تدوينها في كتبهم»(٤٦١)

«جمال الدين الأفغاني»

«منع الاجتهاد هو سرّ تأخّر المسلمين، وهذا هو الباب المرن الذي عندما قفل تأخّر المسلمون بقدر ما تقدّم العالم، فأضحى ما وضعه السابقون لا يمكن ان يغيّر ويبدل، لأنّه لاعتبارات سياسية، منع الولاة والسلاطين الاجتهاد حتى يحفظوا ملكهم، ويطمئنّوا إلى أنّه لن يعارضهم معارض، وإذا ما عارضهم أحد ـ لأنه لاتخلو أمة من الأمم إلاّ وفيها المصلح النزيه، والزعيم الذي لا يخشى في الحقّ لومة لائم ـ فلن يسمع قوله، لأن باب الاجتهاد قد اغلق. لهذا جمد التشريع الإسلامي الآن، وما التشريع إلاّ روح الجماعة وحياة الأمة، وإنّي أرجع الفتنة الشعواء، التي حصلت في عهد الخليفة عثمان والتي كانت سبباً في وقف الفتح الإسلامي حيث تحوّلت في عهده الحرب الخارجية إلى حرب داخلية، أرجع ذلك إلى أنّ عثمان كان من المحافظين، وقد شرط ذلك على نفسه، عندما وافق عبد الرحمن بن عوف على لزوم الاقتداء بالشيخين في كلّ ما يعني دون اجتهاد، عند انتخابه خليفة ولم يوافق الإمام عليّ على ذلك حينئذ قائلاً: إنّ الزمن قد تغير، فكان سبب تولي عثمان الخلافة هو سبب سقوطه»(٤٦٢).

«الدكتور عبد الدائم البقري الأنصاري»

«كم بين دفتي التاريخ من أحزاب سياسية استحالت إلى مذاهب دينية، ربّ مغفل أرعن يحقد على أخيه لاختلاف مذهبيهما اختلافاً في الفروع منشؤه الاجتهاد، ولا يذكر أنّ كلمة التوحيد التي تجمعه وأخاه على خطر عظيم، وأنّ حقده هذا يزيده خطراً.

---

(٤٦١) خاطرات جمال الدين ص ١٧٧.

(٤٦٢) الفلسفة السياسية للإسلام ص٢١.

الاجتهاد مجلبة اليسر، واليسر من أكبر مقاصد الشارع وأبدع حكم التشريع، بالاجتهاد يتلاطم موج الرأي فينفذ جوهر الحقيقة على الساحل، الحوادث لا تتناهى والعصور محدثات، فإذا جمدنا على ما قيل فما حيلتنا فيما يعرض من ذاك القبيل؟ سدّ باب الاجتهاد اجتهاد، فقل للقائل به إنّك قائل غير ما تفعل»[٤٦٣].

«العلاّمة العبيدي»

هذه بعض الشواهد على عدم شرعيّة غلق باب الاجتهاد الذي حدث في ظروف خاصة ولمآرب سياسية، ولم تخضع الشيعة لحكم تلك الظروف بل ساروا على طريقة أهل البيت(عليهم السلام)، وأخذوا أحكام الإسلام عنهم وبقي الاجتهاد مفتوحاً عندهم.

ولقد ألّفت في هذا الباب رسائل عدّة لكبار العلماء، وكلّهم يندّدون في جمود التشريع على المذاهب الأربعة ويطلبون حلّ تلك العقدة التي عقدها ولاة أمر لا يطلبون بذلك إلاّ مصالح الدولة، وقد أوضح العلماء أسباب هذا الجمود كالغزالي، والعز بن عبد السلام وغيرهما من الأئمة الذين لا تأخذهم في الحقّ لومة لائم، فمنها بالنسبة إلى بعضهم كالمباراة والمماراة، وحبّ الظهور، وما يتعلق بذلك، ومنها المنافع، والمرافق في القضاء، والافتاء، والأوقاف بالنسبة إلى آخرين.

ومنها الثقة والاطمئنان بالتربية العلمية على المذهب والاقتصار عليه في التعليم والإفتاء، ومن طبع الإنسان أنّ ما يعتاده زمناً طويلاً يملك عليه أمره ويؤثر في نفسه تأثيراً يصرفها عن كلّ ما عداه، إلاّ أصحاب العقول الكبيرة والنفوس العالية الذين تكون الحقيقة ضالّتهم والصواب وجهتهم[٤٦٤].

كلمات حول التقليد

أمّا الذين يحاولون الجمود ويلتزمون بالتقليد فإنّهم عجزوا عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد، واقتنعوا بعناية السلطان على ما هم فيه من النقص، فلا يروق لهم بلوغ أحد رتبة الاجتهاد، ونسبوا مدّعيه إلى الجنون، كما ذهب إليه الشيخ داود النقشبندي في كتابه: «أشد الجهاد» حيث يرى أنّ مدّعي الاجتهاد ضال مبتدع.

---

(٤٦٣) النواة في حقل الحياة ص١٣٦.

(٤٦٤) الوحدة الإسلامية للسيد محمد رشيد رضا ص١١٢ .

ويقول الشيخ أحمد بن عبد الرحيم في تقسيم طبقات المجتهدين: «الطبقة الثالثة من نشأ من المسلمين من رأس المائة الرابعة ويجب على العامي تقليد المجتهد المنتسب لا غير ـ أي لأحد المذاهب الأربعة ـ لامتناع وجود المستقل من هذا التأريخ حتى اليوم، ثم أورد على نفسه وأجاب، وأهمّ شيء يعتمد عليه في أدلته، قوله: انّه اجتمعت الأُمة على ان يعتمدوا على السلف في معرفة الشريعة فلا بدّ لنا من الرجوع إليهم، ولا يرجع إلاّ إلى المرويّ عن السلف بسند صحيح مدوّن في الكتب المشهورة، مع بيان الأرجح من دلالتها، وتخصيص عمومها أو تقييدها والجمع بين مختلفاتها، ولا توجد هذه الخصوصيّات إلاّ في المذاهب الأربعة، وليس مذهب بهذه الصفة إلاّ الإمامية، والزيدية وهم أهل البدعة لا يجوز الاعتماد على أقاويلهم، فتعين الأخذ بأحد المذاهب الأربعة»[٤٦٥].

هذا أهمّ ما عندهم من الأدلة. وذهب بعضهم إلى القول بعصمة الأربعة مستدلاً بعصمة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، وهم ورثته فهم معصومون من الخطأ، وإذا كانوا كذلك فيجب الرجوع إليهم فحسب.

ولا حاجة بنا إلى إطالة نقل أقوال المانعين لملكة الاجتهاد لعلماء الأُمة بعد المذاهب الأربعة، لأنّها حجج لقضية تبتنى على عدم لياقة أيّ أحد بعدهم لهذه الرتبة، وأنّ مدعيها ضالّ مضلّ بل ممن يريد في الأرض الفساد، ويجب اقامة الحدّ عليه، ومن ادّعى من الأُمة تلك المنزلة أو كانت له لياقة استنباط الأحكام الشرعية شنّعوا عليه ، ورموه بالنكير. فهذا العلاّمة جلال الدين السيوطي ادّعى رتبة الاجتهاد المطلق قام عليه علماء عصره فرموه بالنكير، ووقعوا فيه، وكذلك انكروا على كلّ من ادّعى ذلك.

والواقع أنّ في القرون المتأخرة رجالاً برهنوا بمؤلفاتهم على تلك الملكة التي ادعي استحالتها عليهم، حتى فضّلوا بعضهم على رؤساء المذاهب. فهذا أبو حامد أحمد بن محمد الاسفراييني فضّلوه على الشافعي، وكثير منهم كانوا بمنزلة من العلم لا يستبعد اتّصافهم بتلك الملكة كالشيخ عبد العزيز بن سلام المتوفى سنة (٥٧٨ هـ) والشيخ عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفضل بن الحسن القزويني المتوفى سنة (٦٢٣هـ)، وإسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني المتوفى سنة (٤٤٩هـ) ،

---

(٤٦٥) رسالة الأنصاف للدهلوي ص ٧.

ومحمد بن إسحاق صدر الدين القوني المتوفى سنة (٦٧٣ هـ) وإبراهيم بن محمد بن إبراهيم الاسفراييني المتوفى سنة (٤١٨ هـ).

وناهيك ما للقفال، وإمام الحرمين الجويني، والصيدلاني، والسبخي والسرخسي، والجصاص، من منزلة في العلم وموهبة في استنباط الأحكام، ولكنّهم الجموا من قبل العامة الذين رأوا ادعاء الاجتهاد ضلالة، بل يتلبس مدّعوها بتهمة التشيع، لأنّهم يقولون بذلك(٤٦٦).

وكان أبو الحسن الداركي أحد المجتهدين في عصره إذا سئل عن فتوى يجيب بعد تفكّر، فربّما كانت فتواه مخالفة لمذهب الشافعي وأبي حنيفة فينكرون عليه ذلك، فيقول: ويلكم! روى فلان عن فلان عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)كذا وكذا، فالأخذ به أولى من الأخذ بمذهب الشافعي، ومخالفتهما أسهل من مخالفة الحديث(٤٦٧).

ولقد لقي بقيّ بن مخلّد من الأذى وشدّة الإنكار لدعوى الاجتهاد ما جعله مهجور الفناء، مهتضم الجانب ، وكثير من أمثاله، كابن تيمية وابن قيم الجوزية فإنّهما بلغا في آرائهما حدوداً كان ينبغي الامتناع عن تجاوزها، فمهما أحسن المرء الظن فإنّها اجتراء على مقام الرسول محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) ونيل من آل بيته الأطهار(عليهم السلام) . رويت للفرقة ومؤداها الجمود، فما لقياه كان عملاً اقتضته طريقة خوضهما في الاجتهاد، ولو أحسنا الفهم والاختيار لكانا في قافلة المنافحين عن الحقّ والداعين الى حرّية الرأي وغيرهم.

ولست أدري ما هذه الاستحالة وعدم الامكان من حصول درجة الاجتهاد والحكم على الرجال بالقصور والنقص وحصر الكمال في عدد معيّن بدون دليل؟ ونرى من الخير تعريف الاجتهاد والتقليد عندهم اجمالاً لنعرف مدى تحجير الأفكار ووقوف العقل عن ادراك ذلك.

الاجتهاد

الاجتهاد لغةً: هو بذل الوسع في ما فيه كلفة، مأخوذ ـ كما نقل ابن أبي زرعة عن الماوردي ـ من جهاد النفس وكدّها في طلب المراد، وفي الاصطلاح على ما في

---

(٤٦٦) أشد الجهاد لمدعي الاجتهاد ص٢٥.

(٤٦٧) تاريخ بغداد ج١ ص٤٦٤ .

جمع الجوامع: استفراغ الفقيه الوسع لتحصيل ظن بحكم، والفقيه والمجتهد لفظان مترادفان وهو البالغ العاقل، أي ذو ملكة يدرك بها العلوم، وهذه الملكة العقل[٤٦٨].

كما عرّفوا الاجتهاد أيضاً بأنّه استنفاذ الجهد بالنظر في المآخذ الشرعية، لتحصيل علم أو ظن بحكم شرعي.

قال أبو إسحاق : ومن كان موصوفاً بالبلادة والعجز عن التصرف فليس من أهل الاجتهاد، وفي انكاره للقياس خلاف، وان يكون عارفاً بالدليل العقلي وهو البراءة الأصلية، وأن يكون عارفاً بلغة العرب وبالعربية وعلم النحو اعراباً وتصريفاً، وبأصول الفقه ليقوى على معرفة الأدلة وكيفية الاستنباط وبالبلاغة ليتمكن من الاستنباط بحيث يميز العبارة الصحيحة من الفاسدة. وأن يكون عارفاً بالكتاب والسنة ولا يعتبر العلم بجميعها ولا حفظها[٤٦٩].

قال العلامة السبكي: المجتهد من هذه العلوم من له ملكة واحاطة بمعظم قواعد الشرع، ومارسها بحيث اكتسب قوة يفهم بها مقصود الشارع، ويعتبر ـ على ماقيل ـ كونه خبيراً بمواقع الاجتماع كيلا يخرقه، والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وشرط المتواتر والآحاد، والصحيح والضعيف ، وحال المرويات وسير الصحابة، ولا يشترط فيه الكلام، وتفاريع الفقه، والذكور والحرية، وكذا العدالة على الأصح[٤٧٠].

هذه هي شروط المجتهد عندهم، وأنت لو نظرت إلى الواقع لم تجد سبباً لمنعه من أجل قصور عن ادراكه لمن أراده، وكم من العلماء من عرفنا عنه تمام المعرفة لهذه العلوم وزيادة ولكن المانع شيء آخر.

التقليد

والتقليد: هو أخذ قول الغير من غير معرفة دليله، قال ابن أبي زرعة في شرح الجوامع: وقد اختلف العلماء في تقليد المفضول من المجتهدين مع التمكّن من تقليد الفاضل على مذاهب: أحدها ـ وهو المشهور ـ جوازه، وقد كانوا يسألون الصحابة مع وجود أفاضلهم، والثاني: منعه، وبه قال الإمام أحمد وابن سريج، واختاره القاضي حسين وغيره، والثالث: يجوز لمن يعتقده فاضلاً، أو مساوياً لغيره فإن اعتقده دون غيره امتنع استفتاؤه.

---

(٤٦٨) جمع الجوامع ج٢ ص٣٧٩، تشنيف المسامع ج٤ ص٥٦٣ .

(٤٦٩) تشنيف المسامع ج٤ ص٥٦٦ .

(٤٧٠) جمع الجوامع ج٢ ص٣٨٣ ـ ٣٨٥.

وكذا اختلفوا في تجويز تقليد الميّت على أقوال: أحدها: جوازه، وبه قال الجمهور، وعبّر عنه الشافعي بقوله: المذاهب لا تموت بموت أربابها. والثاني منعه، أي منع تقليد الميت مطلقاً، وعزاه الإمام الغزالي لاجماع الأصوليين واختاره الإمام فخر الدين. والثالث: يجوز مع فقد حيّ ولا يجوز مع وجوده. انتهى ملخّصاً[٤٧١].

وقال الشيخ محيي الدين بن العربي في الباب الثامن والثمانين من الفتوحات المكية: والتقليد في دين الله لا يجوز عندنا لا تقليد حي ولا ميت[٤٧٢]، انتهى. فتدبر. وقال ابن عابدين الشامي: إنّه يجوز تقليد المفضول مع وجود الأفضل، وبه قالت الحنفية والمالكية والشافعية وأكثر الحنابلة، وعن أحمد وطائفة كثيرة من الفقهاء: لا يجوز[٤٧٣].

---

(٤٧١) تشنيف المسامع ج٤ ص٦٠٨ ـ ٦٠٩.

(٤٧٢) الفتوحات المكية ج٢ ص١٦٥ .

(٤٧٣) شرح الكوكب ج٤ ص٥٧١ .

حركة التنـازع
بيـن المذاهــب

حركة التنازع بين المذاهب

كلمات حول تنازع المذاهب

كان النزاع بين طوائف المسلمين إنّما هو نزاع علمي، واختلاف لا يتعدى حدود القول في النقض لبعض ما ينهجه الآخر، وسارت الأمور على هذا المنوال، ولكن حركة الانشقاق تتّسع وروح الاختلاف تسري في المجتمع بسرعة، لقوّة الدافع السياسي الذي يحاول أن لا تتّفق الأمة على رأي واحد، فهو يعمل على إحياء العصبية، إذ لا حياة للنظام الملكي إلاّ بها[٤٧٤].

ومضى عصر أئمّة المذاهب وجاء دور أتباعهم فشغل كلّ بمذهبه الذي يرتضيه، وتأصلت روح الخصومة وانحاز كلّ إلى جهة بدون التفات إلى ماوراء هذا التحيّز من خطر على العلم، في ضياع حقيقته، وسلب منافعه التي أراد الإسلام أن تسير الأمة على ضوء تعاليمه القيّمة لاكتساب السعادة. ولم يصل الأمر إلى تحديد الأخذ بمذهب معيّن لا غير والزام الناس بالأخذ عن المذاهب الأربعة فحسب إلاّ بعد مدة من الزمن.

يقول الشاه ولي الدهلوي[٤٧٥]: اعلم أنّ الناس كانوا في المائة الأولى والثانية غير مجتمعين على التقليد في مذهب واحد بعينه، بل كان الناس على درجتين: العلماء والعامة، وكانوا في المسائل الاجتماعية التي لا خلاف فيها بين المسلمين أو بين جمهور المجتهدين لا يقلّدون إلاّ صاحب الشرع، وكانوا يتعلّمون صفة الوضوء والغسل وأحكام الصلاة والزكاة ونحوه، من آبائهم أو معلمي بلادهم فيمشون على ذلك، وإذا وقعت لهم واقعة نادرة استفتوا فيها أي مذهب وجدوا من غير تعيين مذهب.

وأما العلماء فكانوا على مرتبتين: منهم من أمعن في تتبّع الكتاب والسنة والآثار حتى حصل له بالقوة القريبة من الفعل ملكة تؤهله لفتيا الناس يجيبهم في الوقائع غالباً، بحيث يكون جوابه أكثر مما يتوقف فيه ويخصّ باسم المجتهد، وهذا الاستعداد يحصل تارة باستفراغ الجهد في جميع الروايات، فإنّه ورد كثير من الأحكام في الأحاديث وكثير منها في آثار الصحابة والتابعين.

---

(٤٧٤) فلسفة السياسة للإسلام ص٢١ نقلاً عن ابن خلدون.

(٤٧٥) رسالة الانصاف ص٨ .

ثم بعد هذه القرون كان ناس آخرون، ذهبوا يميناً وشمالاً ، وحدث فيهم أمور منها: الجدل والخلاف في علم الفقه وتفصيله، على ما ذكره الغزالي[٤٧٦].

ولمّا انقرض عهد الخلفاء الراشدين أفضت الخلافة إلى قوم تولّوها بغير استحقاق، ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام، فاضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء، وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم، وكان بقي من العلماء من الطراز الأوّل، فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا، فرأى أهل تلك الأعصار ـ غير العلماء ـ اقبال الأئمة عليهم مع اعراضهم، فاشتروا طلب العلم توصلاً إلى نيل العزّ، فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين، وبعد أن كانوا أعزة بالاعراض عن السلاطين أذلّة بالاقبال عليهم، إلاّ من وفّقه اللّه، وقد كان من قبلهم قد صنف ناس في علم الكلام، وأكثروا القال والقيل والإيراد والجواب وتمهيد طرق الجدال، وقع ذلك منهم بموقع من قبل أن كان الصدور والملوك من مالت نفسه إلى المناظرة في الفقه من مذهب الشافعي وأبي حنيفة، فترك الناس الكلام وفنون العلم، واقبلوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص، وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد بن حنبل وغيرهم، وزعموا أنّ غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب، وتمهيد أصول الفتاوى، وأكثروا فيها التصانيف وهم مستمرون عليه إلى الآن، ولسنا ندري ما الذي قدّره اللّه تعالى فيما بعده من الأعصار؟

ويعطينا الخطابي[٤٧٧] في كتابه معالم السنن صورة عن الخلاف الذي حصل بعد المائة الثالثة بين فقهاء المسلمين ومتّبعي المذاهب، إذ يقول :

رأيت أهل زماننا انقسموا إلى فرقتين: أصحاب حديث وأثر، وأهل فقه ونظر، ووجدت هاتين الفرقتين إخواناً متهاجرين .

أمّا أهل الحديث والأثر، فإنّ الأكثر منهم إنّما كدهم الروايات وجمع الطرق، وطلب الغريب والشاذ من الحديث الذي أكثره موضوع أو مقلوب لا يراعون ولا يفهمون المعاني، وربّما عابوا الفقهاء وتناولوهم بالطعن وادّعوا عليهم مخالفة السنن.

---

(٤٧٦) هو محمد بن محمد الغزالي نسبة إلى غزالة قرية من قرى طوس، الملقب حجة الإسلام صاحب كتاب إحياء العلوم الذي نال شهرة عظيمة إلاّ أنّه أورد فيه خمسمائة حديث مرسل ليس لها طريق، ولم يروها أحد، ولم يخرجها الحفاظ وله مؤلفات كثيرة، ومنزلته العلمية أشهر من أن تذكر. ولد في سنة (٤٥٠هـ) وتوفي سنة (٥٠٥هـ) ودفن بالطابران في طوس، وكان في عداد الشافعية إلاّ أنه مجتهد.

(٤٧٧) هو الشيخ حمد (بفتح الحاء وسكون الميم) بن محمد بن الخطاب الخطابي البستي، قال السمعاني: كان الخطابي حجة صدوقاً، رحل إلى العراق والحجاز وجال في خراسان وخرج إلى ما وراء النهر، وقال السبكي في طبقات الشافعية: كان إماماً في الفقه والحديث واللغة، وقال الذهبي: كان ثقة من أوعية العلم، وقال البهنسي: انه من الأعلام المجتهدين في قواعد الأحكام توفي سنة (٣٨٨ هـ) .

وأمّا الطبقة الأخرى وهم أهل الفقه والنظر، فإنّ أكثرهم لا يعرجون من الحديث إلاّ على أقلّه، ولا يكادون يميزون صحيحه من سقيمه، إذا وافق مذاهبهم التي ينتحلونها، ووافق آراءهم التي يعتقدونها، وقد اصطلحوا على مواضعة بينهم في قبول الخبر الضعيف والحديث المنقطع إذا كان قد اشتهر عندهم ، وتعاورته الألسن فيما بينهم من غير تثبّت فيه، أو يقين علم به، ولو حكي لهم عن واحد من رؤساء مذاهبهم وزعماء نحلهم قول يقوله باجتهاده من قبل نفسه طلبوا فيه الثقة واستبرأوا له العدّة، فتجد أصحاب مالك لا يعتمدون في مذهبه إلاّ على ما كان من رواية ابن القاسم وأشهب، فإذا جاءت رواية عبدالله بن الحكم واضرابه لم يكن عندهم طائلاً، وترى أصحاب أبي حنيفة لايقبلون من الرواية عنه إلاّ ما حكاه أبو يوسف ومحمد بن الحسن ، فإن جاءهم عن الحسن بن زياد اللؤلؤي وذوي روايته قول بخلاف لم يقبلوه ولم يعتمدوه. وكذلك تجد أصحاب الشافعي، إنما يعوّلون في مذهبه على رواية المزني والربيع بن سليمان المرادي، فإذا جاءت رواية خزيمة والجرمي وأمثالهما لم يلتفتوا إليها، ولم يعتدّوا بها في أقاويله.

وعلى هذا عادة كلّ فرقة من العلماء في أحكام مذاهب أئمتهم وأساتذتهم. فإذا كان هذا دأبهم وكانوا لا يقتنعون في أمر هذه الفروع والرواية عن هؤلاء الشيوخ إلاّ بالوثيقة والتثبّت، فكيف يجوز لهم أن يتساهلوا في الأمر الأهم، والخطب الأعظم، وأن يتواكلوا الرواية والنقل عن إمام الأئمة ورسول ربّ العزة(صلى الله عليه وآله وسلم) الواجب حكمه، اللازمة طاعته، الذي يجب علينا التسليم لحكمه والانقياد لأمره، من حيث لا نجد في أنفسنا حرجاً مما قضاه، ولا في صدورنا غلاً من شيء أبرمه وأمضاه، ولكنّ أقواماً عساهم استوعروا طريق الحق، واستطابوا الدعة في ذلك الخطّ، وأحبوا عجالة النيل ، فاختصروا طريق العلم، واقتصروا على نتف وحروف منتزعة من معاني أصول الفقه سمّوها عللاً وجعلوهم شعاراً لأنفسهم في الترسم برسم العلم، وأخذوا جُنّة عند لقاء خصومهم ونصبوها ذريعة للخوض والجدال يتناظرون بها ويتلاطمون عليها، وعند التصادر عنها قد حكم الغالب بالحذق والتبرير، فهو الفقيه المذكور في عصره والرئيس المعظّم في بلده ومصره، انتهى باختصار[٤٧٨].

---

(٤٧٨) رسالة الانصاف للدهلوي ص١٧.

التعصّب بين المذاهب

هذه بعض كلمات علماء ذلك العصر أوردناها ليتّضح للقارئ سير العلم في تلك الأدوار، والخلاف الذي أدى إلى الارتباكات التي أحاطت بمفهومه، وبلغ الحال إلى تطور مؤلم أدى إلى الطعن في المعتقدات، ونتج من وراء ذلك ثورات دموية ذهبت بكثير من النفوس والأموال بشكل يبعث على الأسف الشديد لما حل من التطاحن بين المذاهب، فأصبحوا أعداء متخاصمين في المعتقدات، وقد عامل بعضهم بعضاً معاملة الخارجين عن الدين، حتى قال محمد بن موسى الحنفي قاضي دمشق المتوفى سنة (٥٠٦ هـ): «لو كان لي من الأمر شيء لأخذت على الشافعية الجزية»[٤٧٩] ويقول أبو حامد الطوسي المتوفى سنة (٥٦٧ هـ) : «لو كان لي أمر لو ضعت على الحنابلة الجزية»[٤٨٠].

إنّ أسباب تلك الفتن التي حلت بالمسلمين كلّها تعود لمسايرة بعض العلماء للدولة، يشايعها ويؤيّد وجهة نظرها، فأغدقت عليه العطاء، وبذلك أصبح العلم مسايراً للدولة.

ولو استقلّ العلم عن مؤثرات السياسة في تلك العصور، لأرغمت الدولة على الخضوع له ولسارت في ركابه، وفي ذلك سعادة الأمّة، ولكن بعض حملة العلم بمسايرتهم لولاة الأمر الذين انحرفوا عن الدين أصبحوا دعامة تستند عليها سلطتهم الجائرة في أهم الأمور، ممّا جعل الناس ينظرون إلى الإسلام وهو مسلوب القوة العادلة عن تنظيم شؤون العالم. والدين أجلّ وأسمى من أن يكون مهبّاً للاهواء، أو مثاراً لاختلاف الآراء أو مجالاً لتحزّب العلماء.

وعلى أيّ حال فقد اصطدمت الطوائف اصطداماً عنيفاً، وخلقت كثيراً من المشاكل التي هي في نهاية التعقيد ولا يمكن حلّها ما دام علماء الدولة هم المحور لتلك الأمور، ومنهم تنبعث تلك الأفكار التي تتحرك بها شعور العامة فيقع من وراء ذلك حوادث مؤلمة.

* * *

وإذا نظرنا إلى الحوادث المؤلمة التي حصل فيها التشاجر والتطاحن بين معتنقي المذاهب الأربعة، فإنّ ذلك يبعث في نفوسنا الألم، مما وصلت إليه الحالة السيئة بين جماعات الأمّة، ويدلّنا ذلك بكلّ وضوح على إبطال من يدّعي لهم الاتفاق وعدم الخلاف، وهو بذلك يستدلّ على أحقيّة مذاهبهم، وصدق معتقداتهم، كما ذهب إليه

---

(٤٧٩) البداية والنهاية ج١٢ ص١٨٧، لسان الميزان ج٥ ص٤٠٢ .

(٤٨٠) شذرات الذهب ج٤ ص٢٢٤، العبر في خبر من عبر ج٣ ص٥٢ .

صاحب كتاب التبصير وغيره ممّن يطلقون الأقوال بدون تدبر، ويحكمون بدون تثبّت.

ليت شعري أخفيت عليهم تلك الحوادث التي وقعت بين الحنفية والحنابلة وبين الحنابلة والشافعية، يوم قام خطباء الحنفية يلعنون الحنابلة والشوافع على المنابر، والحنابلة يحرقون مسجداً للشافعية بمرو.

وتقع هناك فتنة ذهب تحت هياجها خلق كثير، ويعظم الأمر والخلاف بين الحنفية والشافعية في نيسابور، وتقع فتنة مبعثها التعصب المذهبي، فتحرق الأسواق والمدارس، ويكثر القتل في الشافعية فينتصرون بعد ذلك على الحنفية، ويسرفون في أخذ الثأر منهم وذلك في سنة (٥٥٤ هـ) ومثلها تقع بين الشافعية والحنابلة، وتضطر السلطة إلى التدخل في حسم النزاع بالقوة، وذلك في سنة (٧١٦ هـ)[٤٨١] وكثر القتل وحرق المساكن والأسواق في اصبهان وكان منشؤه التعصب[٤٨٢].

ولشدّة وقوع الفتن ببغداد فقد نادى منادي السلطان بمنع الفتن وعدم ذكر المذاهب والخصومة فيها[٤٨٣].

وكان الحنابلة يخلون في أعمالهم بالأمن، ويرهجون بغداد، ويستظهرون بالعميان على الشافعية الذين كانوا يأوون للمساجد، فإذا مرّ بهم شافعيّ المذهب أغروا به العميان فيضربونه[٤٨٤]، وكان رئيس الحنابلة وزعيمهم الديني الشيخ البربهاري يتولى إثارة الفتنة وذلك في سنة (٣٢٣ هـ) .

ولما تولّى القشيري الوعظ بالمدرسة النظامية عظم ذلك على الحنابلة فحطّوا منه، وكان ينال منهم فوقعت بينهم فتنة ذهبت بكثير من النفوس[٤٨٥]، واشتدّ تعصّب محبّ الدين محمد الهندي الحنفي المتوفى سنة (٧٨٩ هـ) على الشافعية وكان يظهر التديّن والنسك، ويرى تعصّبه عليهم تديناً والدين بريء من ذلك[٤٨٦]، وتجتمع بقية المذاهب على الحنابلة غضباً على أعمال ابن تيمية ونودي في دمشق وغيرها: من كان على دين ابن تيمية حلّ ماله ودمه بمعنى انّهم كفرة يعاملون معاملة الكافرين على أنّ

---

(٤٨١) البداية والنهاية ج١٤ ص٧٦.
(٤٨٢) مرآة الجنان ج٣ ص٣٤٣.
(٤٨٣) المنتظم ج١٠ ص١١١ .
(٤٨٤) الكامل لابن الأثير ج٨ ص٢٢٩ .
(٤٨٥) مرآة الجنان ج٣ ص٩٧ .
(٤٨٦) شذرات الذهب ج٦ ص٢٦٠ .

الشيخ ابن حاتم الحنبلي يقول: «من لم يكن حنبلياً فليس بمسلم»[٤٨٧] فهو يكفّر جميع المسلمين، وعكسه الشيخ أبو بكر المقري الواعظ في جوامع بغداد ذهب إلى تكفير الحنابلة أجمع[٤٨٨].

ولقد لقي الشيخ عبد الغني المقدسي المتوفى سنة (٦٠٠هـ) من التحامل عليه والتكفير له، وللحنابلة بدمشق ما يطول ذكره حتى هجر دمشق.

وتكفير الفرق بعضها بعضاً أمر شائع يحزّ في صدر الحقّ، ويؤلم التأريخ وقعه، ويتبرّأ الإسلام منه.

هذا أبو سهل بن زياد القطان، وكان من الحفّاظ والثقات عندهم يذهب إلى تكفير المعتزلة مستدلاً بقوله تعالى : (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ**)[٤٨٩] ـ الآية ـ ، وثارت فتن عمياء ووقعت حوادث مؤلمة مبعثها التعصّب الأعمى .

فهذا الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي المتوفى سنة (٤٧٩هـ) وكان شيخ الشافعية وعالمهم المبرز تعصّب الحنابلة عليه فتكلّموا فيه وبالغوا في الأذى بألسنتهم، فثارت فتنة عظيمة أدّت إلى ذهاب نفوس من الطرفين، وانتصر السلطان لأبي إسحاق فسجن شيخ الشافعية[٤٩٠]. وهذا الفقيه أبو منصور المتوفى سنة (٥٦٧ هـ) قتله الحنابلة بالسم تعصباً عليه، قال ابن الجوزي: إنّ الحنابلة دسوا إليه امرأة جاءت إليه بصحن حلوى وقالت: هذا يا سيدي من غزلي، فأكل هو وامرأته وولد له صغير فأصبحوا موتى، وكان من علماء الشافعية المبرزين[٤٩١]، وكذلك أبو الحسن بن فورك قتل مسموماً بسبب التعصب وأبو علي خادم المستنصر كان من أئمة الشافعية في مصر، وكان يجلس في حلقة ابن عبد الحكم ويناظرهم فسعوا به إلى السلطان، وقالوا: هذا جاسوس فحبسه سبع سنين، واجتمع مشايخ المذاهب في هراة عند الملك ألب أرسلان يستغيثون به من الشيخ محمد بن عبدالله الأنصاري الحنبلي بعد أن جعلوا صنماً

---

(٤٨٧) تذكرة الحفاظ ج٣ ص٣٧٥.

(٤٨٨) شذرات الذهب ج٣ ص٢٥٣.

(٤٨٩) آل عمران: ١٥٦ .

(٤٩٠) طبقات الشافعية ج٣ ص١٠٩ .

(٤٩١) طبقات الشافعية ج٤ ص١٨٤ .

تحت سجادته، ويقولون للملك إنّه مجسّم، وأنّه يترك في محرابه صنماً يزعم أنّ اللّه على صورته، فتفحّص الملك ووجد الأمر كذلك[٤٩٢].

التحوّل من مذهب إلى مذهب

ويحدّثنا ابن خلكان[٤٩٣] عن الشيخ الآمدي المتوفى سنة (٦٣١ هـ) كان أول اشتغاله حنبليّ المذهب، وانحدر إلى بغداد وبقي مدة ثم انتقل إلى مذهب الشافعي، وعاد إلى الديار المصرية وتولى الاعادة بالمدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي، فحسده جماعة من فقهاء البلاد وتعصّبوا عليه، ونسبوا إليه فساد العقيدة وانحلال الطوية، ومذهب الفلاسفة والحكماء، وكتبوا محضراً يتضمّن ذلك، ووضعوا خطوطهم بما يستباح به دمه.

وفي مصر يأمر القاضي المالكي وهو الحارث بن مسكين بإخراج الحنفية والشافعية من المسجد وأمر بنزع حصرهم .

وفي سنة (٥٣٨ هـ) قدم بغداد الحسن بن أبي بكر النيسابوري الحنفي وتحامل على الأشعري وعلى الشافعية، وفيها أخرج أبو الفتوح الاسفراييني من بغداد لما حصل فيها من الفتن بين الأشعرية والشافعية[٤٩٤].

ولعلّ أعظم صورة تتجلّى بها روح العصبية والخلاف بين الطوائف هي قضية القفال عند السلطان محمود بن ناصر، وذلك أنّه كان حنفيّاً وتحوّل شافعياً فأحضر علماء الفريقين، وطلب من القفال المروزي أن يصلي ركعتين طبق المذهب الحنفي، فصلّى القفال على مذهب الشافعي، وكان شافعي المذهب بوضوء وشرائط معتبرة، ثم صلى على مذهب أبي حنيفة وما يجوزه في الصلاة فصلى ركعتين بتلك الصورة القبيحة التي ذكروها، ونحن نعرض عن ذكرها[٤٩٥].

وهذا الشيخ علي بن الحسن الملقب بسيف الدين المتوفى سنة (٦٣١ هـ)، كان حنبليّاً ثم صار شافعيّاً، وتعصّب عليه فقهاء البلاد وحكموا عليه بالكفر والزندقة[٤٩٦].

---

(٤٩٢) تذكرة الحفاظ ج٣ ص٣٥٨ .

(٤٩٣) وفيات الأعيان ج١ ص٣٠١ .

(٤٩٤) المنتظم ج١٠ ص١٠٦ ـ ١٠٨ .

(٤٩٥) وفيات الأعيان ج٢ ص٨٦ والطبقات ج٤ ص١٤ .

(٤٩٦) مرآة الجنان ج٤ ص٢٤.

وكثير من أمثاله من العلماء الذين قتلوا بسيف التعصّب بشهادة رجال ذلك العصر، ولا يستبعد أنّ ذلك كلّه افتراء محض، وأنّ أكثر هؤلاء هم بريئون مما نسب إليهم، وقد استساغ أعداؤهم شهادة الزور على من يخالفهم تديناً.

استفتى بعضهم في شهادة على شافعيّ زوراً فأجابه المفتي ألست تعتقد أنّ دمه وماله حلال؟ قال: نعم. قال: فما دون ذلك، فاشهد وادفع فساده عن المسلمين.

وهذه الأمور التي ابتلي بها الإسلام إنّما هي من جنايات علماء السوء الذين تزلّفوا للدولة، وتأثّروا بسياستها لفتح باب الشحناء والنزاع والتخاصم والبغضاء بين طوائف المسلمين، فتجد الحنابلة يتعصّبون على الحنفية والحنفية على الحنابلة، ولو أنعمنا النظر في طيات التاريخ، واستعرضنا حوادث الفتن بين المنتسبين إلى السنة بعضهم مع بعض، فإنّنا نجد من الواقع ما يؤلم قلب كلّ مسلم.

يقول الأستاذ السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار: ومن أغرب ما تجد أنّ العدوان بين الشافعية كان من أسباب حملة التتار على المسلمين، تلك الحملة التي كانت أوّل صدمة صدعت بناء قوة المسلمين صدعاً لم يلتئم من بعده. أدر طرفك في بلادهم اليوم وانظر حال هذه المذاهب على ضعف الدين في نفوس الجماهير تجد بأسهم بينهم شديداً تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى، كما قال الله تعالى في وصف من لا إيمان لهم ولا إيمان[٤٩٧].

التعصّب لأئمة المذاهب

تعدّدت عوامل التفرقة، وكثرت طرق الخلاف بين الطوائف، وتعصّب كلّ إلى جهة، فأهل الجرح والتعديل أدّى بهم التعصّب إلى الحطّ مما يخالف مذهبهم فاستهان بعضهم ببعض، واختلق بعضهم مكارم لبعض، فكم من مجروح عدلوه، وعادل جرحوه، وأعطف عليهم المؤرخون، فإنّهم ربّما وضعوا أناساً ورفعوا أناساً، إمّا لتعصب، أو لجهل، أو لمجرّد اعتماد على نقل من لا يوثق به أو غير ذلك.

يقول السبكي: «والجهل في المؤرخين أكثر منه في الجرح والتعديل، وكذلك التعصّب، قلّ إن رأيت تاريخاً خالياً من ذلك، وأمّا تأريخ شيخنا الذهبي غفر الله له فإنّه على حسنه وجمعه مشحون بالتعصّب، فإنّه أكثر الوقيعة في أهل الدين الذين هم

---

(٤٩٧) الوحدة الإسلامية ص٢ .

صفوة الخلق، واستطال بلسانه على كثير من أئمة الشافعية والحنفية، ومال فأفرط ومدح فزاد في المجسّمة.

ويقول الحافظ صلاح الدين: إنّ الحافظ شمس الدين الذهبي لا شكّ في دينه وورعه، ولكنّه غلب عليه مذهب الاثبات ومنافرة التأويل، والغفلة عن التنزيه حتى أثّر ذلك في طبعه انحرافاً شديداً[٤٩٨].

وعلى أيّ حال فقد مالت الأهواء وأثّرت النزعات فنفروا من الحقائق ولم يتقبلوها، فكتبوا بما توحيه إليهم أهواؤهم وأغراضهم، لا بما تقتضيه الحقيقة من حيث هي حقيقة لا تقبل الدجل والتدليس .

وتأصّلت روح العداء، وتحيّز كلّ إلى مذهبه، وغلوا في أئمتهم غلوّاً أخرجهم عن حدود الاتزان، ووضعوا في مدحهم ما شاءت رغباتهم بدون قيد وشرط، وتوسّعوا في وضع الأحاديث عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بالبشائر بأئمّة المذاهب، كما أورد الحنفية مرسلا: أنّ آدم افتخر بي وأنا أفتخر برجل من أُمتي اسمه النعمان، وبصورة أُخرى: الأنبياء يفتخرون بي وأنا أفتخر بأبي حنيفة، من أحبّه فقد أحبّني ومن أبغضه فقد أبغضني[٤٩٩].

وتوسّعوا في الادعاءات لتصحيح مذهبه ووجوب اتباعه، وأنّ عيسى يحكم بمذهبه، وأنّ اللّه غفر له ولأهل مذهبه إلى يوم القيامة[٥٠٠]، وأنّه أعظم معجزة للنبيّ بعد القرآن.

ومن ذلك قولهم إنّ اللّه خصّ أبا حنيفة بالشريعة والكرامة، ومن كرامته أنّ الخضر(عليه السلام) كان يجيء إليه كلّ يوم وقت الصبح ويتعلّم منه أحكام الشريعة إلى خمس سنين، فلما توفي أبو حنيفة دعا الخضر ربّه، فقال: ياربّ إن كان لي عندك منزلة فأذن لأبي حنيفة حتى يعلمني من القبر على عادته، حتى اعلم الناس شرع محمّد على الكمال ليحصل لي الطريق، فأجابه ربه إلى ذلك. وأتمّ الخضر دراسته على أبي حنيفة وهو في قبره في مدة خمس وعشرين سنة إلى آخر ما في هذه الأسطورة التي تُتلى في مجالس الحنفية في الهند ومساجدهم[٥٠١]، وقد صنعت في عصور التعصّب، ولو بُعث أبو حنيفة لأقام الحدّ على هؤلاء المتجرئين بالكذب

---

(٤٩٨) طبقات الشافعية ج١ ص١٩٠ .

(٤٩٩) الدر المختار في شرح تنوير الابصار ج١ ص٥٣ و ٥٤ .

(٥٠٠) الدر المختار في شرح تنوير الأبصار ج١ ص٥٢ و٥٣ .

(٥٠١) كتاب الياقوت في الوعظ لأبي الفرج علي بن الجوزي ص٤٨ .

والافتراء على مقام الأنبياء، ولخرّ صعقاً إلى الأرض وعفّر خدّه فهو يعرف نفسه، ولكنّهم أرادوا أن يحسنوا فأساءوا، ويقول شاعرهم لتأييد صحة مذهبه وترجيحه على غيره.

غدا مذهب النعمان خير المذاهب *** كذا القمر الوضاح خير الكواكب
مذاهب أهل الفقه عندي تقلّصت *** واين عن الروسي نسج العناكب

ويقول الشاعر الشافعي :

مثل الشافعي في العلماء *** مثل البدر في نجوم السماء
قل لمن قاسه بنعمان جهلاً *** أيقاس الضياء بالظلماء

والمالكية يدعون لإمامهم أموراً : منها أنّه مكتوب على فخذه بقلم القدرة «مالك حجة اللّه في أرضه»، وأنّه يحضر الأموات من أصحابه في قبورهم وينحي الملكين عن الميت ولا يدعهما يحاسبانه على أعماله[٥٠٢]، ومنها أنّه القى كتابه الموطأ في الماء فلم يبتل ويقول شاعرهم:

إذا ذكروا كتب العلوم فحي هل *** يكتب الموطأ من تصانيف مالك
فشد به كف الصيانة تهتدي *** فمن حاد عنه هالك في الهوالك

ويقول الحنبلي :

سبرت شرائع العلماء طراً *** فلم أر كاعتقاد الحنبلي
فكن من أهله سراً وجهراً *** تكن أبداً على النهج السوي

ويقول آخر :

أنا حنبلي ما حييت وإن أمت *** فوصيتي للناس أن يتحنبلوا

والحنابلة يقولون: أحمد بن حنبل إمامنا فمن لم يرض فهو مبتدع، فما أكثر المبتدعين في نظرهم على هذه القاعدة!

وتقوّلوا على الشافعي قوله: من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر، فقيل له: أتطلق عليه اسم الكفر؟ فقال: نعم، من أبغض أحمد عاند السُنة، ومن عاند السنة قصد الصحابة، ومن قصد الصحابة أبغض النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ومن أبغض النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) كفر باللّه العظيم[٥٠٣].

وإنّي استبعد صدور هذا القول من الشافعي وهو في مكانته، ولكنّ الغلوّ لايقف عند حدّ، ولا يتقيد بشرط، وإلاّ فلماذا لا يسمّى من أبغض علياً كافراً؟ مع انّا نراهم

---

(٥٠٢) مشارق الأنوار للعدوي ص٢٨٨ .
(٥٠٣) طبقات الحنابلة ج١ ص١٣ .

يعظّمون المتوكل العباسي ويسمّونه بناصر السنة ويحوكون له المناقب والفضائل[٥٠٤]، وهو في تحامله على عليّ(عليه السلام) وبغضه له، وتقريبه من عرف بالنصب والعداء له: كعمر بن فروخ، وأبي السمط، وعبد الله بن محمد بن داود، وعلي بن الجهم وغيرهم من حزبه وأعوانه، حتى أنّه كان لا يأنس إلاّ بنقص علي(عليه السلام) والحطّ من كرامته، وكان يقصد من يبلغه عنه أنّه يتولى علياً وأهل بيته فيأخذ ماله ويهدر معه، ولكنّهم لم يلتفتوا إلى هذا الخطأ فوسموه بأنه ناصر السنة، وأنه من أهل الجنة، ومن أولياء الله ومجاوريه في حظيرة القدس، وجعلوه في عداد أبي بكر وعمر بن عبد العزيز[٥٠٥] .

وكذلك حزبه النواصب وسمّوهم بالسنة، وقال ابن الجوزي في مناقب أحمد: وكان علي بن الجهم من أهل السنة، حسن الرأي في أحمد.

فعلى هذا أنّ كلّ من كان حسن الرأي في أحمد هو من أهل السنة، وإن أساء الرأي في جميع المسلمين ونال منهم، قاتل الله الغلوّ كيف يحيد بصاحبه عن طريق الحق .

وكذلك يقولون: إنّه ما قام بأمر الإسلام أحد بعد رسول الله ما قام به أحمد ابن حنبل ولا أبو بكر الصديق مثله، وإنّ الله جلّ وعلا كان يزور قبره إلى آخر ما هنالك من مناقب مبعثها الجهل والتعصّب .

ويحدّثنا الشيخ عبد الله بن محمد الهروي إذ يقول : قصدت أبا حاتم بن جاموس بالري، وكان مقدّم أهل السنة، وقد أمر السلطان محمود أنّ على كلّ من دخل الري أن يعرض اعتقاده على الشيخ أبي حاتم، قال : فلما قربت من الري كان معي رجل في الطريق، فسألني عن مذهبي، فقلت: حنبلي، فقال: مذهب ما سمعت به، وهذه بدعة وأخذ بثوبي وقال: لا أفارقك حتى تذهب إلى الشيخ أبي حاتم، فذهب بي إلى داره فأخبره بذلك، فقال الشيخ : دعه فكلّ من لم يكن حنبلياً فليس بمسلم[٥٠٦].

فسائر أهل المذاهب الإسلامية أجمع في نظر هذا الشيخ كفّار، وما أعظمها من قسوة في الحكم، وما أبعد هذا الشيخ عن الانتساب لمنزلة العلم! ولكن حكم العاطفة العمياء يسلب الرجل رشده، وللعصبية وقعها وطابعها إذا ما كانت بدافع السياسة وبتأثير الحكام وهي النوع الأغلب الذي بفعله حدثت المآسي. ولولا انجرار ضعاف النفوس وضيّقي العقول لما تحوّلت صفحات الإخاء الى سطور دموية.

---

(٥٠٤) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص٢٥٦ ـ ٢٥٧ .

(٥٠٥) النجوم الزاهرة ج٢ ص٣٢٥.

(٥٠٦) تذكرة الحفاظ ج٣ ص٣٧٥ .

وكان القضاء للحنفية لإيثار الخلفاء لهم بذلك، ولمّا أراد القادر باللّه نقله إلى الشافعية، عيّن أبا العباس أحمد بن محمد البارزي الشافعي بدلاً من الأكفاني الحنفي قاضي بغداد بإشارة أبي حامد الأسفراييني، وكتب أبو حامد بذلك إلى السلطان محمود، وأهل خراسان: أنّ الخليفة نقل القضاء عن الحنفية إلى الشافعية، فاشتهر ذلك وصار أهل بغداد حزبين ثارت بينهما الفتن، فاضطر الخليفة إلى جمع الأشراف والقضاة وأخرج إليهم رسالة تتضمّن أنّ الاسفراييني دخل على أمير المؤمنين مداخل أوهمه فيها النصح والشفقة والأمانة.

وكانت على أُصول الدخل والخيانة، فلما تبيّن له أمره ووضح عنده خبث اعتقاده فيما سأل فيه من تقليد البارزي الحكم والعدول بأمير المؤمنين عمّا كان عليه أسلافه، من إيثار الحنفية وتقليدهم واستعمالهم، صرف البارزي وأعاد الأمر إلى حقّه وأجراه على قديم رسمه، وحمل الحنفية على ما كانوا عليه من العناية والكرامة، والحرمة والاعزاز، وتقدم إليهم أن لا يلقوا أبا حامد ولا يقضوا له حقاً ولا يردوا عليه سلاماً ، وخلع على أبي محمد الأكفاني، وانقطع أبو حامد عن دار الخلافة وظهر التسخّط عليه والانحراف عنه(٥٠٧).

ظهر لنا من هذه القصة عظيم اهتمام الحنفية في منصب القضاء. ويعود الأمر لمنزلة القضاة، إذ هم همزة الوصل بين البلاط وأهل ذلك المذهب، وتكون لهم تلك الحظوة ونيل الكرامة والعناية والحرمة والاعزاز; ما حمل الحنفية على إثارة تلك الفتنة عندما أراد الشافعية سلبها منهم، والاختصاص بهذه المنزلة دونهم، وانتهت تلك المشكلة بتنازل الخليفة عن رأيه، وعاد الأمر إلى نصابه.

والتزاحم بالمناكب على القضاء هو أقوى عامل لإثارة تلك الفتن وبثّ روح الشغب والفرقة، وتغليب مذهب على مذهب بقوة السلطة القائمة، ونشر القضاة المناصرين لمذهب على مذهب.

وكان القضاة في أغلب الأوقات يثيرون الفتن ويوقدون نار الحرب بين الطوائف. فأحمد بن صاعد الحنفي رئيس نيسابور وقاضيها، وكان يلقب بشيخ الإسلام، وقد بالغ في تعصّبه على بقية المذاهب فأغرى بعضهم ببعض حتى لعنت الخطباء أكثر الطوائف على المنابر(٥٠٨).

---

(٥٠٧) نظرة تاريخية لأحمد تيمور باشا ص٨٧ .

(٥٠٨) شذرات الذهب ج٣ ص٢٦١ .

وأراد القاضي بكار أن يعمل في جامع بني أمية إماماً حنفياً، وكان لا يؤم فيه إلاّ شافعي، ولا صعد منبره غير شافعي، فأراد هذا القاضي أن يشاركهم بإمام على مذهبه فثارت الشافعية وأغلقوا الجامع وعزل القاضي[٥٠٩].

ولعلّ من أعظم تلك الفتن التي وقعت بين المذاهب هي فتنة ابن القشيري عندما ورد بغداد سنة (٤٦٩ هـ) وجلس في النظامية وأخذ يذمّ الحنابلة وينسبهم إلى التجسيم، وكتب إلى الوزير يشكو الحنابلة ويسأله المعونة، وهجم أصحاب القشيري على زعيم الحنابلة عبد الخالق بن عيسى، ووقع قتال بين الطرفين واغلق اتباع ابن القشيري وهم الشافعية أبواب سوق مدرسة النظام، وغضب أبو إسحاق الشيرازي وكاتب فقهاء الشافعية نظام الملك غضباً لتسلط الحنابلة، واتّسعت الفتنة وفكّر الخليفة في حلّ هذه المشكلة واهتدى إلى سعيه في الصلح، فجمع القشيري وأصحابه وأبا جعفر الشريف زعيم الحنابلة وأصحابه بمحضر الوزير، فقام القشيري رئيس الشافعية والتفت إلى الوزير عندما طلب منه الصلح وقال: أيّ صلح يكون بيننا؟ إنمّا يكون الصلح بين مختصمين على ولاية أو ديناً أو تنازع في ملك. فأمّا هؤلاء القوم فإنّهم يزعمون إنّا كفار، ونحن نزعم أنّ من لا يعتقد ما نعتقده كان كافراً، فأيّ صلح يكون بيننا؟[٥١٠]

وقد واجه كثير من العلماء وتحمّلوا بلاءً عظيماً عندما يتحولون من مذهب إلى مذهب حتى قالوا: «إن من يصير حنفياً يخلع عليه، ومن يصير شافعياً يعزّر»[٥١١].

فهذا أبو سعيد المتوفى سنة (٥٦٢ هـ) كان حنفيّ المذهب وتحول شافعياً، ولقي عناء وامتحن لذلك، وهذا السمعاني لما انتقل من المذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي لقي محناً وتعصباً وقامت الحروب على ساق، واضطرمت نيران الفتنة بين الفريقين، فكانت تملأ ما بين خراسان والعراق، واضطرب أهل مرو لذلك اضطراباً فظيعاً، وفتحت باب المشاقة، وتعلّق أهل الرأي بأهل الحديث وساروا إلى باب السلطان إلى آخر ما وصفه السبكي في الطبقات[٥١٢].

والشيخ عبد العزيز بن الخزاعي كان من أكابر المالكية، فلما قدم الإمام الشافعي بغداد تبعه وقرأ عليه كتبه ونشر علمه، والشيخ محمد بن عبد الله المتوفى سنة (٢٦٨ هـ) كان على مذهب الإمام مالك، فلما قدم الشافعي إلى مصر انتقل إلى مذهبه ثم رجع، وأبو جعفر بن نصر الترمذي المتوفى سنة (٢٥٩ هـ) رأس الشافعية بالعراق

---

(٥٠٩) طبقات الشافعية ج١ ص١٧٤ .

(٥١٠) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ج١ ص٢٢ باختصار .

(٥١١) أنظر الدين الخالص ج٣ ص٣٥٥.

(٥١٢) طبقات الشافعية ج٣ ص٢٢ .

كان حنفياً فلما حجّ انتقل إلى مذهب الشافعي، وأبو جعفر الطحاوي كان شافعياً وتفقه على خاله المزني ثم تحول حنفياً بعد ذلك، والخطيب البغدادي الحافظ المتوفى سنة (٤٩٣ هـ) كان حنبلياً ثم صار شافعياً، وابن فارس صاحب كتاب المجمل في اللغة، كان شافعياً تبعاً لوالده ثم انتقل إلى مذهب مالك، والسيف الآمدي الأصولي المشهور المتوفى سنة (٦٣١ هـ) كان حنبلياً، ثم تحول إلى مذهب الشافعي، والشيخ محمد بن الدهان النحوي المتوفى سنة (٥٩٠ هـ) كان حنبلياً ثم انتقل إلى مذهب الشافعي ثم تحول حنفياً، حينما طلب الخليفة نحوياً يعلّم ولده النحو ثم تحول شافعياً، والشيخ تقي الدين محمد بن علي بن دقيق العيد كان أولاً مالكياً ثم تحول إلى مذهب الشافعي، وكلّ هؤلاء امتحنوا وعذّبوا من قبل أنصار المذهب الذي يتحولون منه وأمثالهم كثيرون[٥١٣].

وقد طغت موجة التعصّب حتى أصبح التكتّم بالمذهب لازماً. يقول أبو بكر محمد بن عبد الباقي المتوفى سنة (٥٣٥ هـ) وكان حنبليّاً :

احفظ لسانك لا تبح بثلاثة *** سن ومال ما استطعت ومذهب
فعلى الثلاثة تبتلى بثلاثة *** بمكفر وبحاسد ومكذب

ويعطينا الزمخشري صورة واضحة من صور الخلاف وشدّة التطاحن بين المذاهب، وطعن البعض على البعض بقوله :

إذا سألوا عن مذهبي لم أبح به *** وأكتمه كتمانه لي أسلم
فإن حنفياً قلت قالوا بأنني *** أبيح الطلى وهو الشراب المحرّم
وإن شافعياً قلت قالوا بأنني *** أبيح نكاح البنت والبنت تحرم
وإن مالكياً قلت قالوا بأنني *** أبيح لهم أكل الكلاب وهم هم
وان قلت من أهل الحديث وحزبه *** يقولون تيس ليس يدري ويفهم[٥١٤]

محنة خلق القرآن

هذا عرض موجز لحركات التعصّب الطائفي الذي تستّرت به السلطة الحاكمة من وراء تلك الحوادث، لتوقع الفرقة في صفوف المسلمين، فتصل إلى غاياتها، ويشقّ علينا ذكر أمثال هذه الحوادث المؤلمة، وقد ذكرنا بعضها استطراداً في البحث لإظهار حقيقة يلزمنا اظهارها نصرة للحق، ورداً للباطل وتكذيباً لما يدّعيه البعض

(٥١٣) وفيات الأعيان ج١ ص٣٠١ مرآة الجنان ج٤ ص٢٤ .
(٥١٤) الكشاف ج٢ ص٤٩٨ .

كالأسفراييني وغيره من اتفاق المذاهب وعدم حصول أي خلاف بينهم، ولم يحصل بينهم شقاق وتطاحن، ولم يكفّر بعضهم بعضاً، مستدلين بذلك على صحة مبادئهم وبطلان مذهب الشيعة وفساد عقائدهم بحصول الخلاف فيما بينهم، وتكفير بعضهم بعضاً، ونحن لا نستغرب من الاسفراييني هذه الدعوة الباطلة فكم له في كتابه من غرائب وافتعالات على سائر فرق المسلمين بدون دليل، بل هو تقول بالباطل ورجم في الغيب، واليك قوله : الفصل الثاني من هذا الباب في طريق تحقيق النجاة لأهل السنة ، والجماعة في العاقبة.

منها أنّ أهل السنة مجتمعون فيما بينهم لا يكفّر بعضهم بعضاً، وليس بينهم خلاف يوجب التبرّي والتكفير، فهم إذاً أهل الجماعة، قائمون بالحقّ، واللّه تعالى يحفظ الحقّ وأهله، كما قال تعالى: **(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)**[٥١٥] قال المفسرون: أراد به الحفظ عن التناقض، وما من فريق من فرق المخالفين إلاّ وفيما بينهم تكفر وتبري، يكفّر بعضهم بعضاً. كما ذكرنا من الخوارج والروافض والقدرية، حتى اجتمع سبعة منهم في مجلس واحد فافترقوا عن تكفير بعضهم بعضاً، وكانوا بمنزلة اليهود والنصارى حين كفّر بعضهم بعضاً، حتى قالت اليهود: **(ليست النصارى على شيء)**، وقالت النصارى: **(ليست اليهود على شيء)**[٥١٦]. هذا ما يقوله بل يتقوّله الأسفراييني وكم له من تقوّل وافتعال، ولا أدري أخفي على الأسفراييني تلك الحوادث التي مر ذكرها فيذهب إلى هذا الرأي؟ أم نسي محنة القول بخلق القرآن، وما حدث من ورائها من تكفير البعض للبعض؟ فقد ذهب أحمد بن حنبل إلى تكفير من يقول بخلق القرآن، ويقول أبو عبد اللّه محمد بن يحيى الدهلي المتوفى سنة (٢٥٥ هـ) : من زعم أنّ القرآن مخلوق فقد كفر، وبانت منه امرأته، فإن تاب وإلاّ ضربت عنقه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ومن وقف وقال لا أقول مخلوق أو غير مخلوق فقد ضاهى الكفر، ومن زعم أنّ لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع، ولا يدفن في مقابر المسلمين، على أنّ أحمد بن حنبل لم يقبل توبة التائب، وكان لا يشيع جنازة من يقول بخلق القرآن ، ولم يصلِّ على أحد منهم، وكان يرتّب عليهم أحكام الكفّار، وشاع التكفير حتى عند النساء، يحدثنا الخطيب، إنّ امرأة تقدمت إلى قاضي الشرقية عبد اللّه بن محمد

---

(٥١٥) الحجر : ٩ .

(٥١٦) البقرة: ١١٣ .

الحنفي، فقالت: إنّ زوجي لا يقول بمقالة أمير المؤمنين في القرآن، ففرّق بيني وبينه[٥١٧].

واتّسع الخلاف بين المسلمين، من تكفير البعض للبعض، فطائفة تقول: إنّ من قال القرآن غير مخلوق فهو كافر، وعليه ابن أبي داود وجماعته، حتى أنّ الواثق استفك من الروم أربعة آلاف من الأسارى، ولكنه اشترط أنّ من قال القرآن مخلوق يخلى من الأسر، ويُعطى دينارين[٥١٨]، ومن امتنع عن ذلك فيترك في الأسر ولا يفكّ، بمعنى أنّه رتّب آثار الكفر على من لم يقل بخلق القرآن .

ولمّا قدم أحمد بن نصر إليه قال له الواثق: ما تقول في القرآن؟ وكان أحمد ممن يذهب إلى أنّ القرآن غير مخلوق، فقال: كلام اللّه، وأصرّ على رأيه غير متلعثم، فقال بعض الحاضرين: هو حلال الدم، وقال ابن أبي داود: هو شيخ مختلّ لعلّ به عاهة أو تغيّر عقله، يؤخّر أمره ويستتاب، فقال الواثق ما أراه إلاّ داعياً للكفرة، ثم دعا بالصمصامة فقال: إذا قمت إليه فلا يقومنّ أحد معي فإنّي أحتسب خطاي إلى هذا الكافر الذي يعبد ربّاً لا نعرفه، ثم أمر بالنطع فأجلس عليه وهو مقيّد، وأمر أن يشدّ رأسه بحبل، وأمرهم أن يمدّوه، ومشى إليه برجله وضرب عنقه، وأمر بحمل رأسه إلى بغداد[٥١٩].

هذا بعض ما حلّ بالمسلمين من عوامل الفرقة، وحوادث الشغب بين معتنقي المذاهب الأربعة، ممّا يبعث على الأسف الشديد، لما حلّ بالأمّة من التفكك والتحيّز، الأمر الذي جعل المتدخلين في صفوف المسلمين ينفّذون خططهم، ويحقّقون أهدافهم في تفريق كلمة المسلمين وصدع وحدتهم.

ولم نقصد بهذا العرض إلاّ اعطاء صورة عمّا حدث من الحوادث التي لا يزال اثرها في تاريخ الأمّة الإسلامية من أكبر عوامل التأخر والانحطاط.

بين السنّة والشيعة

وإذا أردنا أن نولّي وجوهنا شطر الحوادث التي حدثت بين المسلمين: السنّة والشيعة. فإنّ ذلك أدهى وأمرّ، وأشدّ وقعاً، وأعظم خطراً.

---

(٥١٧) تاريخ بغداد: ج١٠ ص٧٤ .

(٥١٨) طبقات الشافعية ج٣ ص٢٢ وتاريخ اليعقوبي ج٣ ص١٩٤ .

(٥١٩) شذرات الذهب ج٢ ص٦٧، وتاريخ الخطيب ج٥ ص١٧٧ .

لقد وقعت بين السنّة والشيعة حوادث مؤلمة أدّت إلى إثارة نيران الفتن وإراقة الدماء، وحرق المساكن.

وليس بودّنا أن نذكر هنا كلّ ما حدث من خلاف بين هاتين الطائفتين في أُمور، لو طرحت على بساط البحث والمناقشة العلمية لزال كلّ شيء، وكان الحكم للحقّ وحده، والحقّ أحقّ أن يتّبع .

لأنّ الخلاف كان لا يتعدّى حدود النزاع في مسألة الإمامة وغيرها من المسائل التي حدث الخلاف بين الطائفتين فيها، ثم تطور الوضع إلى تحزّب ضد الشيعة، واتّجاه معاكس، فحاكوا لهم التهم وحملوا عليهم بكلّ ما هو شائن من دون التفات إلى حقّ العلم، أو خضوع للحق.

ويطول بنا الحديث حول ذلك هنا، وسنتحدّث عن ذلك فيما بعد، والشيء الذي نودّ أن نشير إليه هو: أنّ الأمر بلغ أشدّه حتى أدّى إلى ثورات دموية مؤسفة، وفتن ذهب تحت هياجها خلق كثير، ولعلّ من أعظم ذلك يوم كان الشيعة يقومون بإقامة شعائرهم الدينية كيوم عاشوراء، ويوم الغدير، فإنّ ذلك يدعو إلى الإنكار من إخوانهم السنّيين، بدعوى أنّ النياحة وإقامة الزينة يوم الغدير بدعة.

وكان يصحب هذا الإنكار اعتداء أدّى إلى إراقة الدماء بين الفريقين، وقتل خلق كثير[٥٢٠].

ومع هذا فإنّ السنة قاموا بما قامت به الشيعة من النياحة على مصعب بن الزبير مقابلة للحسين(عليه السلام)، واقاموا الزينة يوم الغار مقابل يوم الغدير، وقد مرّت الإشارة لذلك[٥٢١].

كما أنّهم أقاموا النياحة على كثير من الناس، وقد رأوا أنّ ذلك من الأُمور المستحسنة، حتى قال محمد بن يحيى النيسابوري ـ حين بلغه موت أحمد بن حنبل ـ : ينبغي لأهل كلّ دار في بغداد أن يقيموا على أحمد بن حنبل النياحة في دورهم[٥٢٢].

وأُقيمت النياحة على أحمد بن حنبل وعظم الحزن عليه، ولازموا قبره مدة من الزمن، اظهاراً للتفجع، واقيمت مجالس العزاء عليه، كما أُقيمت النياحة على غيره من الرجال وللمثال نذكر بعضاً من ذلك:

---

(٥٢٠) البداية والنهاية لابن كثير ص١١ ـ ٢٣٥ .

(٥٢١) شذرات الذهب، لابن العماد ج٣ ص ١٢٠ .

(٥٢٢) طبقات الحنابلة ص٢ ـ ٥١ .

يموت أبو الفتح إسماعيل بن السلطان محمود سنة (٥٦٧ هـ)، فتقام عليه المآتم ويناح عليه نوح الثكلى ، ويكثر البكاء في الطريق، وتفرش بالرماد اظهاراً للحزن، وتعظيماً للمصاب[٥٢٣].

ويموت ابن تيمية سنة (٧٢٨ هـ) فتحضر جنازته خمسون ألف امرأة ينحن عليه، ومائتا ألف رجل يرفعون أصواتهم بالتكبير مزيجاً بالبكاء والعويل، ولما غسّل جمع ماء غسله فشربوه تبركاً به، واقتسم جماعة بقيّة السدر الذي غسل به تبركاً، ودفع بالطاقية التي على رأسه خمسمائة درهم، والخيط الذي في رقبته فيه الزئبق لدفع القمل دفع فيه مائة وخمسون ديناراً، وسارت جنازته بين الضجيج والبكاء، والمنادي أمامه ينادي هكذا تكون جنائز أهل السنة، ولما وضع على المغتسل دخل الرجال عليه يقبّلونه وينوحون عليه، ثم أذن للنساء ففعلن مثل ذلك[٥٢٤]، وأقيمت عليه المآتم ودامت النياحة ورثاه خلق كثير، منهم شمس الدين الذهبي وغيره[٥٢٥].

ويموت أحمد بن السلطان ملك شاه سنة (٤٨١ هـ) فيمكث الناس ينوحون عليه سبعة أيام ولم يركب أحد فرساً والنساء ينحن عليه في الأسواق، وسوّد أهل البلاد أبوابهم .

ويموت شيخ الحرمين، فتطوف تلامذته في الشوارع ينوحون عليه نوح النساء وكسروا المحابر وأقاموا النياحة عليه سنة كاملة[٥٢٦].

وأبو عمر الحنبلي المتوفى سنة (٦٠٧ هـ) يعظم عليه البكاء والعويل ويتناحون عليه رجالاً ونساء، وغسل في المسجد، ونشف ماء غسله بخمر النساء، وعمائم الرجال ـ للتبرك طبعاً ـ ويتسابقون إلى تمزيق كفنه يتبركون به، وكادت تبدو عورته، لولا محافظة الدولة على كرامته، فدفعت الناس عنه بالسيف. قال ابن العماد: ولولا الدولة لما وصل من كفنه إلى قبره شيء[٥٢٧].

وتخرج النساء يوم وفاة المسترشد العباسي سنة (٥٢٩ هـ) ينحن عليه ويلطمن وهن منشرات الشعور ينشدن المراثي في الطرقات، أما الرجال فشاركوهن بالنياحة وزادوا بأن شقوا الثياب عليه[٥٢٨].

---

(٥٢٣) شذرات الذهب ج٦ ص١١٢ .
(٥٢٤) تاريخ ابن كثير ج١٤ ص١٣٨.
(٥٢٥) العقود الدرية في مناقب ابن تيمية ص٣٩٩ .
(٥٢٦) طبقات الشافعية ج٣ ص٢٥٩.
(٥٢٧) شذرات الذهب ج٣ ص٣٠.
(٥٢٨) تاريخ دول الإسلام للذهبي ج١ ص١٨٢ .

وغير هؤلاء ممن يطول بنا الحديث عنهم، وما حدث من مظاهر الحزن والأسى يوم وفاتهم وبعده.

والعزاء أو البكاء من الحالات الإنسانية التي تظهر العطف وتبيّن ما في دواخل المرء من مشاعر وهي تتناسب عكسياً مع القسوة والغلظة، وإنّما تناولنا مظاهرها في خلال الفترة التاريخية التي أصبح فيها القضاء والفتوى تبعاً لأهواء الحكّام الذين يسمحون بذلك، لأنّ المتوفين لا يمثلون في شخصياتهم رموزاً تهدّد أركان نظامهم، كالإمام الحسين أو الإمام الصادق أو الإمام الكاظم الذي ترك جثمانه الطاهر على رأس الجسر ومنادي السلطة ينادي بذاك النداء المعروف، ولا مانع أن تقابل البدع ببدع أخرى ـ كما يرى الحكّام ـ لأنّ أساس الاتهام واه، فلو كان قطعيّاً أو حتى ظنّياً لكان على هؤلاء أن يتوقفوا عند المنع.

ويكفي ما تضمّه الروايات من صور لعاطفة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وهو يبكي عمّه حمزة، منها: ما رواه الواقدي عندما جاءته صفية فجلست عنده فجعلت إذا بكت يبكي(صلى الله عليه وآله وسلم)، وفاطمة الزهراء(عليها السلام) تبكي، فلمّا بكت بكى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم).

أو ما رواه البخاري أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) دخل على ابنه إبراهيم وهو يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) تذرفان. فقال له عبدالرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله! فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): **يابن عوف، إنّها رحمة،** ثم أتبعها بأخرى فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): **إنّ العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلاّ ما يرضي ربّنا، وإنّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون.**

وأيضاً عن أنس بن مالك قال: شهدنا بنتاً لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) تدفن ورسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)جالس عند القبر، قال: فرأيت عينيه تدمعان.

ولما استشهد جعفر بن أبي طالب، أتى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أسماء فقال: **أخرجي لي ولد جعفر،** فخرجوا إليه فضمّهم إليه وشمّهم ودمعت عيناه.

وروي عن الإمام الصادق(عليه السلام) قوله: «**إن زين العابدين**(عليه السلام) **بكى على أبيه أربعين سنة، صائماًنهاره، وقائماً ليله فإذا حضره الإفطار جاءه غلامه بطعامه وشرابه، فيضعه بين يديه، ويقول: كُل يا مولاي، فيقول: قتل ابن رسول الله جائعاً، قتل ابن رسول الله عطشاناً، ولا يزال يكرّر ذلك ويبكي، حتى يبل طعامه من دموعه، فلم يزل كذلك حتى لحق بالله عزّ وجل».**

ونحن إذا نظرنا إلى أسباب تلك المؤاخذات التي تؤاخذ بها الشيعة واستوجبت حدوث تلك الحوادث، نجد الأسباب تعود إلى متابعة أغراض السلطة، حتى تحكّم العداء للشيعة وأصبح الابتعاد عن تهمة التشيع، أمراً لازماً حتى حرموا التشبّه بهم .

ذكر الزرقاني في المواهب اللدنية في صفة عِمّة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) على رواية علي(عليه السلام) في إسدالها على منكبه حين عمّمه رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، ثم ذكر قول الحافظ العراقي إنّ ذلك أصبح شعار كثير من فقهاء الإمامية فينبغي تجنّبه لترك التشبّه بهم(٥٢٩).

فهذا الشيخ يفتي بترك التشبه بالشيعة في اتّخاذ العِمّة التي كان رسول الله يلبسها، وهذا شاهد من آلاف الشواهد التي عامل بها رجال أولئك العصر شيعة آل محمد.

وعبّروا أنّ من المصلحة أن يمنع المصلي عن اختصاص جبهته بما يسجد عليه من أرض وغيرها، لأنّ ذلك الاختصاص من شعار الشيعة.

ولا غرابة فإنّ تهمة التشيع تدعو لسخط الدولة، وهل وراء ذلك إلاّ ازهاق الأرواح، ونهب الأموال أو السجن أو التبعيد؟ لذلك التجأ الأكثر إلى التظاهر في الوقيعة بهم فأدى الأمر إلى التباعد عنهم والحذر من تهمة التشيّع حتى في الرؤيا.

يحدّثنا الخطيب البغدادي: أنّ رجلاً رأى علياً(عليه السلام) في المنام فلم يجسر على الدنو منه فسأله صاحبه، فقال : أخشى أن قربت إليه أسأله أن أتّهم بالتشيع(٥٣٠).

هكذا أرادت السلطة الجائرة، تفريق كلمة المسلمين، وإيقاد نار العداء فيما بينهم، لغايات تعود لمصالحهم الخاصة، ورغبات في نفوسهم، لا تنال مع الوحدة والاتحاد، وتبادل الثقة والاخاء.

وكان في الأمّة رجال يدعون إلى الحقّ، وينبّهونهم على هذه الأخطاء، ولكن جهودهم لم تثمر كثير فائدة، لأنّ الفوضى تحكّمت في المجتمع، ودبّت روح الاختلاف في النفوس، وطغت موجة التعصب، حتى كانت عاقبة ذلك الجهل أن سلّط عليهم أعداء لا يعرفون الرحمة، فألبسوهم الذل، وحكموا فيهم السيف، وسقوا من دمائهم الأرض، وأقاموا من رؤوسهم تلالاً، فتمكّن من قلوب المسلمين الرعب، وسلبت منهم تلك القوة والشجاعة، والتفاني في سبيل نشر كلمة التوحيد، يوم ساروا تحت راية الإسلام، وهم يستهينون بالحياة، ويستقبلون الموت، ويتمنون الشهادة، حتى أخضعوا جبابرة الأرض ودانت لهم البلاد.

---

(٥٢٩) شرح الزرقاني على المواهب اللدنيّة ج٦ ص٢٧٧ .

(٥٣٠) تاريخ بغداد ج١٢ ص٢٥١ .

وإذا بهم بعد تلك العزّة يستولي عليهم الذل، ويدخل في قلوبهم الرعب، ولا يدافعون عن أنفسهم ، فكان الرجل الواحد من التتر يقتل جماعة من المسلمين الواحد بعد الآخر .

ودخلت امرأة داراً وقتلت جماعة من أهلها، ولم يدفعوها عن أنفسهم، ودخل واحد منهم درباً فيه مائة رجل، فما زال يقتلهم واحداً واحداً حتى أفناهم، ولم تمدّ إليه يد بسوء.

وأخذ رجل من التتر رجلاً من المسلمين ولم يجد ما يقتله فيه، فقال له: ضع رأسك على هذا الحجر ولا تبرح، فوضع رأسه وبقي نائماً حتى جاء التتري وقتله[٥٣١].

وهذا ما يذهب بنفس المسلم حسرات، ويميت قلبه أسفاً وحزناً، وها نحن اليوم أمام تيّار المبادئ الفاسدة، والآراء الهدامة، والعقائد السخيفة، وأنّ خطرها على المسلمين لأعظم خطر يخاف عاقبته، وتخشى مغبته إن لم ينهج المسلمون لمكافحتها منهج فهم التعاليم الإسلامية والقيام بتطبيقها عمليّاً، وأن يتّحدوا لإبعاد المتدخلين بين صفوف المسلمين، لهدم المجتمع الإسلامي، وتشويه تعاليمه الدينية والأخلاقية، واستبداله بتعاليم إباحية، ولا يدفع ذلك الخطر إلاّ باتحاد الكلمة وفهم الإسلام فهماً صحيحاً، وأن تُستقى تعاليمه من ينبوعه الذي أراد الله أن نأخذ منه ونتبّع قول الحق، وأئمّة الصدق: **(يا أيّها الذين آمنوا اتقوا اللّهَ وكونوا مع الصادقين)**[٥٣٢]. **(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تَفرقوا)**[٥٣٣].

انتشار المذاهب الأربعة في الاقطار الإسلامية

اشتهر الأخذ بالمذاهب الأربعة، وانتشر العمل بها في الاقطار الإسلامية، فهي في القرن الرابع الهجري قد تغلبت على ماسواها من المذاهب المعمول بها في القرن الثاني والثالث، ما عدا المذهب الشيعي فإنّه سار بقوته الروحية رغم العقبات التي وقفت في طريقه، ويحدّثنا المقدسي عن انتشار المذاهب في القرن الرابع بما يلي:

سواد صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شراة غالية، وبقية الحجاز وأهل الرأي بعمان وجهر وصعده شيعة. والغالب على صنعاء أصحاب أبي حنيفة والجوامع

---

(٥٣١) المد والجزر لأبي الحسن المناوي ص٣٧ .

(٥٣٢) التوبة : ١١٩ .

(٥٣٣) آل عمران : ١٠٣.

بأيديهم، وفي نواحي نجد واليمن مذهب سفيان. وفي العراق الغلبة ببغداد للحنابلة والشيعة، وبه مالكية واشعرية، وبالكوفة الشيعة إلاّ الكناسة فإنّها سُنة، وأكثر أهل البصرة قدرية (وشيعة) وثم حنابلة، وببغداد غالية يفرطون بحبّ معاوية. وهنا يحدّثنا المقدسي عن دخوله جامع واسط واستماعه لقصّاص يقصّ على الناس حديثاً عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم): إنّ اللّه يدني معاوية يوم القيامة فيجلسه إلى جنبه ثم يجلوه على الخلائق كالعروس، قال المقدسي: فقلت له بماذا؟ بمحاربته علياً رضي اللّه عنه؟ كذبت يا ضال، فصاح: خذوا هذا الرافضي، فأقبل الناس عليّ، فعرفني بعض الكتبة فكرّكرهم عني.

إقليم اقور وهو اليوم شمال العراق ـ أي الموصل ونواحيها ـ مذهبهم سنة وجماعة، إلاّ عانة فإنّها كثيرة المعتزلة ولا ترى في الرأي غير مذهب أبي حنيفة والشافعي، وفيها حنابلة وجلبة للشيعة، واقليم الشام مذاهبهم مستقيمة أهل جماعة وسنة، وأهل طبرية ونصف نابلس وأكثر عمان شيعة ولا ترى فيه مالكياً، والعمل كان فيه على مذهب أصحاب الحديث.

إقليم مصر على مذهب أهل الشام، غير أنّ أكثر فقهائهم مالكيون، ألا ترى أنّهم يصلون قدام الإمام ويربّون الكلاب؟ وأعلى القصبة شيعة وسائر المذاهب في الفسطاط موجودة ظاهرية.

وإقليم المغرب، فالمذاهب على ثلاثة أقسام، وأما في الأندلس فمذهب مالك، وقراءة نافع، وهم يقولون: لا نعرف إلاّ كتاب اللّه وموطأ مالك، فإن ظهروا على حنفي أو شافعي نفوه، وإن عثروا على معتزلي أو شيعي ونحوهما ربما قتلوه، وبسائر المغرب إلى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي إلاّ مذهب أبي حنيفة ومالك، وأصحاب مالك يكرهون الشافعي، يقولون أخذ العلم عن مالك ثم خالفه.

إقليم جانب خراسان للشيعة والمعتزلة والغلبة لأصحاب أبي حنيفة إلاّ في كورة الشاش فإنّهم شوافع، وفيهم قوم على مذهب عبد اللّه السرخسي.

وإقليم الرحاب مذاهبهم مستقيمة، إلاّ أنّ أهل الحديث حنابلة، والغالب بدبيل مذهب أبي حنيفة.

وإقليم الجبال أمّا بالري فمذاهبهم مختلفة، فالغلبة للحنفية وهم نجارية، وبالري حنابلة كثيرة، وأهل قم شيعة، وفي الدينور جلبة لمذهب سفيان الثوري.

إقليم خوزستان مذاهبهم مختلفة، أكثر أهل الأهواز ورامهرمز والدورق حنابلة، ونصف الأهواز شيعة، وبه من أصحاب أبي حنيفة كثير ولهم فقهاء وبالأهواز مالكيون.

إقليم فارس، العمل فيه على أصحاب الحديث، وأصحاب أبي حنيفة، وللداودية دروس ومجالس وغلبة، ويتقلدون القضاء والأعمال.

إقليم كرمان المذاهب الغالبة للشافعي.

إقليم السند مذاهبهم أكثرها أصحاب حديث. ورأيت القاضي أبا محمد المنصور داودياً إماماً في مذهبه وأهل الملتان «شيعة يحيعلون في الأذان ويثنون في الإقامة» ولا تخلوا القصبات من فقهاء على مذهب أبي حنيفة وليس بهم مالكية، ولا معتزلة، ولا عمل للحنابلة[٥٣٤].

انتشارها في الوقت الحاضر

أما إحصائيات المذاهب الأربعة في الوقت الحاضر، وانتشارها في البلاد الإسلامية فيحدثنا عن ذلك العلامة أحمد تيمور[٥٣٥] بما يلي:

المغرب الأقصى يغلب عليه ـ الآن ـ المذهب المالكي. وعلى الجزائر وتونس أيضاً.

«طرابلس» المذهب المالكي بكثرة، والحنفي بقلّة، وهم من بقايا الأسر التركية; وأكثرهم في تونس، ومنهم أفراد بيت الإمارة بها، ولهذا تمتاز حاضرتها بالقضاء الحنفي مشاركاً للقضاء المالكي، وأما سائر أعمالها فقضاتها مالكية، وفي الحاضرة كبير المفتين الحنفي ويلقّب بشيخ الإسلام، وله التقدم والزعامة المعنوية على الجميع، والمالكي وله المقام الثاني، وقد تساهلوا ـ الآن ـ في تلقيبه بشيخ الإسلام أيضاً. ومع قلّة المقلدين للمذهب الحنفي، فإنّ من السنن المتبعة عندهم أن يكون نصف مدرسي جامع الزيتونة حنفية، والنصف الآخر مالكية. وإنّما امتاز الحنفي بذلك لكونه مذهب الأسرة المالكة.

«مصر » الشافعي والمالكي، ويغلب الأول في الريف والثاني في الصعيد والسودان، ويكثر الحنفي وهو مذهب الدولة، والمتبع في الفتوى والقضاء. والحنبلي قليل بل نادر.

---

(٥٣٤) أحسن التقاسيم لشمس الدين محمد بن أحمد المعروف بالشاري طبع سنة ١٩٠٩ م بمطبعة بريل.

(٥٣٥) نظرة تاريخية لأحمد تيمور باشا ص٤٢.

«الشام»: الحنفي يشمل نصف أهل السنة بها والربع شافعية، والربع الآخر حنابلة.

«فلسطين»: يغلب على مذاهب أهل السنة فيه الشافعي، ويليه الحنبلي فالحنفي، فالمالكي.

«العراق»: يغلب الحنفي فيه على مذاهب أهل السنة، ويليه الشافعي وبه مالكية وحنابلة.

«الترك»: العثمانيون والألبان وسكان بلاد البلقان ، المذهب الحنفي.

«الأكراد»: المذهب الشافعي وهو الغالب على بلاد أرمينية، لأن مسلميها من أصل تركماني أو كردي، والسنيون من أهل فارس أغلبهم شافعية وقليل منهم حنفية.

«الأفغان»: المذهب الحنفي والشافعي، والحنبلي بقلة.

«تركستان الغربية»: التي منها بخارى المذهب الحنفي، وأما تركستان الشرقية فكان الغالب عليها الشافعي، ثم تغلب الحنفي بمسعى العلماء الواردين عليها من بخارى القفقاز وما والاها الحنفي وفيهم شافعية.

«الهند»: الحنفي والشافعي بقلة، وفيها مذاهب أُخرى.

«الهند الصينية»: شافعية وكذلك مسلمو استرالية، وفي البرازيل من أمريكا نحو ٢٥ ألف مسلم حنفية.

«أمريكا»: فيها من المسلمين عدد ينوف على ١٤٠ ألفاً وهم مختلفو المذاهب.

«الحجاز»: الشافعي والحنلبي وفيه حنيفة ومالكية في المدن وأهل عسير شافعية.

«اليمن»: السنيون فيها وفي عدن، وحضرموت شافعية، وقد يوجد بنواحي عدن حنفية، والغالب على عمان الأباضية، ولكنها لا تخلو من حنابلة وشافعية.

«قطر والبحرين»: المالكي وفيهما حنابلة من الواردين عليهما من نجد.

«الاحساء»: الغالب على أهل السنة فيها الحنبلي والمالكي.

«الكويت»: المالكي.

هذا ما ذكره العلاّمة أحمد تيمور باشا عن المذاهب الأربعة وانتشارها، ولم يتعرض لانتشار المذهب الشيعي في الأقطار الإسلامية في العصر الحاضر، وسنشير لانتشار المذهب الشيعي في الأقطار الإسلامية بعد عرضنا لتاريخ المذهب ونشأته، ولابد من ملاحظة عامل الزمن والتغيرات السياسية. كما لا يعني أنّ تقسيمات تيمور وإحصاءاته هي من الدقة بحيث لا تقبل الإضافة في الأسماء والزيادة في العدد، لأن تيمور لم يذكر الشيعة ونرجو أن يكون ذلك لا يخفي غرضاً ينافي

العلم ويمجّه الذوق، كما أن من السهولة الانتباه إلى نقص في تسمية المذاهب الغالبة الموجودة كما هو الأمر في الجزيرة والخليج.

وكما قلنا سابقاً أن هذه المذاهب قد لقيت تشجيعاً من السلطة وتعدّدت عوامل انتشارها، وكان من أهمها إنشاء المدارس لها ممّا يدعو إلى الإقبال عليها ولنشر هنا إلى بعض تلك المعاهد التي أُنشئت لدراسة فقه المذاهب الأربعة خاصة.

مدارسها في الاقطار الإسلامية

كانت بغداد في العهد العباسي ربوعاً عامرة أنشئت فيها دور للعلم، وبنيت مدارس لتعليم الفقه الإسلامي على المذاهب الأربعة، وأجريت على طلاب العلم منهم نفقات طائلة، وقد انفق نظام الملك عليهم في كلّ سنة ما يبلغ ستمائة ألف دينار، وكان أبو الحسن علي بن محمد وزير المقتدر العباسي يقوم بنفقات خمسة آلاف طالب منهم، وبذلك أصبحت بغداد دار الهجرة يؤمّها طلاب العلم من كلّ ناحية وصوب، وأهمّ تلك المدارس هي:

١ ـ النّظامية: التي أنشأها نظام الملك الطوسي على شاطئ دجلة سنة (٤٥٧ هـ) وبنى حولها أسواقاً وجعلها وقفاً عليها، مع كثير من الضياع والخانات والحمامات.

٢ ـ التاجية: وقد بنيت سنة (٤٨٢ هـ) بناها تاج الدين أبو الغنائم المتولي لتدبير دولة ملك شاه بعد نظام الملك.

٣ ـ التتوشية: التي بناها خمارتكين خادم تتش بن ألب ارسلان بن داود بن سلجوق، وهي خاصة لأصحاب أبي حنيفة فقط.

٤ ـ باب الازج: بنيت لثقة الدولة أبي الحسن علي بن محمد القزويني.

٥ ـ مدرسة ابن دينار: بنيت لأبي حكيم إبراهيم بن دينار البغدادي الفقيه الشافعي.

٦ ـ مدرسة زيرك أو مدرسة سوق العميد: خاصة للحنفية.

٧ ـ المدرسة الشرابية: أنشأها شرف الدين اقبال الشرأبي سنة (٦٢٨ هـ) على عهد المستنصر بسوق العجم.

٨ ـ المدرسة البشيرية: أُنشئت بالجانب الغربي من بغداد، وقد أمرت ببنائها حظية المستعصم وجعلتها وقفاً على المذاهب الأربعة، ووقفت عليها أوقافاً كثيرة.

ولكن أهمّ تلك المدارس هي المستنصرية التي مرّت الإشارة إليها في الأبحاث السابقة، وقد وصفها السيوطي[٥٣٦]، وابن بطوطة في رحلته[٥٣٧]، وابن الفوطي[٥٣٨] وغيرهم. وكانت تعدّ هذه المدرسة كالجامعة لتخريج العلماء على المذاهب الأربعة في ذلك العصر.

أما في مصر فكان مجموع المدارس التي أنشئت للمذاهب الأربعة لا يقلّ عددها عن تسعين مدرسة، وإليك ذكر البعض منها:

١ ـ المدرسة الفائزية: أنشأها شرف الدين بن صاعد سنة (٦٣٦ هـ) وهي خاصة للشافعية.

٢ ـ المدرسة القطبية: أنشئت سنة (٥٧٠ هـ)، أنشأها الأمير قطب الدين خسرو وهي للشافعية.

٣ ـ المدرسة السيوفية: أنشئت سنة (٥٧٢ هـ) وهي للحنفية، أنشأها الملك الناصر صلاح الدين أيوب وأوقف على مستحقيها ٣٢ حانوتاً.

٤ ـ المدرسة الفاضلية: أنشأها القاضي الفاضل عبد الرحيم سنة (٥٨٠ هـ) وجعلها لفقهاء الشافعية والمالكية.

٥ ـ مدرسة المحلى: أنشأها برهان الدين إبراهيم بن علي المحلى .

٦ ـ المدرسة الفارقانية: أنشئت سنة (٦٧٦ هـ) وهي للشافعية والحنفية.

٧ ـ المدرسة الشريفية: أنشأها أحد أمراء مصر في الدولة الأيوبية سنة (٦١٢ هـ) وهي للشافعية.

٨ ـ المدرسة الصالحية: أنشأها الملك نجم الدين أيوب سنة (٦٣٩ هـ) للفقهاء الأربعة.

٩ ـ المدرسة الكاملية: أنشأها السلطان ناصر الدين محمد ابن الملك العادل للشافعية.

١٠ ـ المدرسة الظاهرية: للشافعية والحنفية.

١١ ـ المدرسة القطبية: أنشئت في القرن السابع بوصيّة من الست عصمة مونسة خاتون[٥٣٩].

---

(٥٣٦) تاريخ الخلفاء ص١٨٥ ، ط بولاق .

(٥٣٧) رحلة ابن بطوطة ص٢٢٥ .

(٥٣٨) الحوادث الجامعة ص٥٣ .

(٥٣٩) الخطط للمقريزي ج٤ ص١٩١ ـ ٢٦٢ .

ولا يسعنا ذكر بقية المدارس التي أُنشئت في سائر الأقطار الإسلامية للمذاهب الأربعة، ونكتفي بهذه الإشارة إلى عظيم تشجيع الدولة والأمراء في تلك العصور لنشر العلم طبقاً للمذاهب الأربعة فقط، ليلتزم الناس التمسك بها دون غيرها.

أما مذهب أهل البيت وهو المذهب الجعفري فلم يلق تشجيعاً من دولة أو تأييداً من سلطة، بل كان عرضة لمقاومة السلطة، وهدفاً لسهام الاتّهام بكلّ ما لا يليق به، وقد صمد المذهب أمام تلك الحوادث متمسّكاً بمبادئ أهل البيت متمثلاً وصايا رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم)في آله حتى انتشر على وجه البسيطة بقوّته الروحية، والآن نتحدث عنه باختصار .

المذهب الجعفري
نشأتـه وعوامـل انتشـاره

المذهب الجعفري نشأته وعوامل انتشاره

مذهب أهل البيت(عليهم السلام)

هو مذهب أهل البيت الذين أذهب اللّه عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وهو أقدم المذاهب نشأة وأقواها عاملاً، يستمدّ تعاليمه من الينبوع الإسلامي الفياض: القرآن الكريم وسنّة نبيّه، وقد غرس النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بذرته ووجّه الناس إليه بتعاليمه وارشاداته، وعمل به في زمن الصحابة، وقام بنشره جماعة منهم، كأبي ذر الغفاري، وسلمان والمقداد، وعمار بن ياسر وغيرهم كما يأتي بيانه.

واختصاصه بالإمام الصادق(عليه السلام) للأسباب التي مرّ ذكرها عند حصول تلك الفترة بين شيخوخة الدولة الأموية، وطفولة الدولة العباسية، وفيها اتسع المجال للإمام الصادق(عليه السلام)لنشر العلم وبثّ الأحكام الإلهيّة، ونشر التعاليم النبوّية التي استقاها عن أبيه عن جده عن رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم)، عند رفع تلك الرقابة التي جعلها الأمويون للحيلولة بين الأمّة وبين أهل البيت(عليهم السلام)، فاشتهر في ذلك العصر ذكر جعفر بن محمد واتّسعت أمامه حرّية القول، وحرّية النقض والابرام في شأن الحقائق الدينية من جهة، والمشتبهات والموضوعات على غير أساس صحيح من الأحاديث والسنة من جهة أُخرى، وازدحم طلاب العلم على أبواب مدرسته، وكثرت الهجرة إليها، فنسب المذهب إليه في عهد ازدهار العلم، لأنّ كلّ ماذهب الإمام الصادق(عليه السلام) إلى تصويبه والوثوق بصحته من الأحكام أصبح بجملته يسمّى «مذهب جعفر الصادق(عليه السلام)».

ولم يكن المذهب الجعفري كسائر المذاهب الإسلامية في تطور نشأته وعوامل انتشاره، بل امتاز باستقلاله عن مقومات المادة ومؤازرة السلطة، واستطاع بمؤهلاته الذاتية اخضاع الزمن، واجتياز العقبات التي تقف في طريق نشره.

ولولا فيض من القدسية في مبادئه، وقوة روحية في تعاليمه، وعناية قبل كل شيء من الخالق الحكيم رحمة بهذا الخلق المتعوس، لقضت عليه السلطات بمحاولتها القضاء عليه، ولكن ذهبت تلك المحاولات ضد المذهب دون جدوى، فكان نصيبها الفشل ونصيبه النجاح.

وقد اتّضح لنا بالبحث عن المذاهب الإسلامية ودراساتنا للظروف التي تكوّنت فيها، والعوامل الرئيسية لنشر البعض وخمول البعض الآخر، إنّما هو لتدخل السلطة

التنفيذية، فقد أخذت على عاتقها نشر ما ترتضيه منها، ومعارضة المذهب الذي لايروق لها نشره، وكانت الأسباب التي أدّت إلى محو تلك المذاهب البائدة بعد شهرتها بين المسلمين هي عدم المؤازرة والترغيب من قبل الدولة، كما مرّت الاشارة إليه.

العداء لأهل البيت(عليهم السلام)

أمّا مذهب أهل البيت(عليهم السلام) فقد بذلت السلطات كلّ امكانياتها لعرقلة نشره واتساع دائرة اتباعه، وكان لكلّ دولة غايات تعمل على تحقيقها في مقابلة أهل البيت(عليهم السلام)، والوقوف في طريق انتشار مذهبهم في البلاد الإسلامية، أما الدولة الأموية فكانت مدفوعة للمعارضة بأمور ثلاثة:

١ ـ العداء للبيت النبويّ عداءً ذاتياً متأصلاً، توارثه الأبناء عن الآباء ولم يغير الإسلام من وجهة نظرهم هذه أي شيء، بل يزداد حقدهم كلما زاد انتشار الإسلام بالصورة التي أرغمتهم على الدخول فيه استسلاماً لقوّته.

٢ ـ إنّ مذهب أهل البيت(عليهم السلام) بانتشاره في عهدهم وعدم معارضتهم له، معناه الضربة القاضية على الدولة، للتفاوت العظيم بين سياسة أهل البيت(عليهم السلام)وسياسة الأمويين في اشاعة العدل والمساواة بين الطبقات، ونشر التعاليم الإسلامية.

٣ ـ إنّهم بدون شك لا يجهلون أنفسهم ومؤهلاتها للخلافة الإسلامية، ويعرفون الأمّة واتجاه أنظارها لآل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، ولا توجد أي نسبة بين الأمويين وبين أهل البيت(عليهم السلام)، فإذا تركوا الأمور تسير بمجراها الطبيعي يوشك أن يتأخر فوز الأمويين بالخلافة : «حتى يلج الجمل في سمّ الخياط» وهم يعلمون هذا فاتخذوا تلك التدابير لنجاح أمرهم، وإن كان في ذلك تأخّر المسلمين عن التقدم السريع حيناً من الدهر.

معارضة معاوية

وعلي أيّ حال، فقد واجه محبّو عليّ(عليه السلام) وأنصاره في عهد معاوية أنواع الأذى وضروب المحن، وقد استعمل شتّى الوسائل في معاقبتهم ومنع الناس من الرواية عن عليّ(عليه السلام) فكان المحدثون يكنّون عنه بأبي زينب خشية العقوبة من التصريح باسمه(عليه السلام).

ويصوّر لنا اهتمام معاوية في محو ذكر عليّ(عليه السلام) ولاية زياد على الكوفة، وتتبعه لشيعة عليّ(عليه السلام) تحت كلّ حجر ومدر، حتى حملهم على البراءة من عليّ(عليه السلام)، ولنا في قتل حجربن عدي وأصحابه رحمهم الله أكبر دليل على ذلك ،كما سنبيّنه قريباً.

ولا نطيل الحديث حول الجهود التي بذلها معاوية في الوصول لتلك الغاية، ولكنها أتعاب لم تثمر الفائدة التي كان يسعى لتحصيلها.

فقد انتشر مذهب أهل البيت(عليهم السلام) في عاصمة الأمويين على عهده وازداد انتشاره على ممرّ العصور، وإنّ أوّل من نشر المذهب في الديار الشامية هو الصحابي الجليل أبو ذرّالغفاري، فقد قام بدوره في نشر تعاليم الإسلام، واظهار الانكار على معاوية لسوء سيرته، وتصرفه بأُمور الأُمّة بما لا يتفق ونظم الإسلام، فاستغاث معاوية بالخليفة عثمان لإخراج أبي ذرّ من الشام ليصفو له الجو، فكان نصيب أبي ذرّ التبعيد عن دار الهجرة، وموته وحيداً بالربذة.

ولم يقض معاوية على تلك الحركة الاصلاحية التي قام بها أبو ذرّ، بل توسّعت بصورة أرغمته على إثارة العصبية بين القبائل، وبثّ روح التفرقة بين الناس، وبذل كلّ ما في وسعه في مقابلة علي وأنصاره كما تقدّم.

وتقف الكوفة ـ التي هي أهمّ مراكز الإسلام ويعترف الأمويون بخطرها على الدولة ـ موقف المعارضة والإنكار للأوضاع الشاذة التي ارتكبها ولاة الأمر، ويترأس المعارضة الصحابي الجليل حجر بن عدي وخلصاء أصحابه، فقاموا يطالبون بالحقّ، وينتصرون للعدل، ويتألّمون لهجر تعاليم الإسلام والخروج على نظامه المقدّس، وينبّهون الأمويين على تلك الأخطاء التي ارتكبوها، والمخالفة لأحكام الإسلام بصورة واضحة بما لا مجال للدفاع عنهم.

فكان موقف أُمراء الأمويين في الكوفة كالمغيرة بن شعبة موقف تريث وتأنيب واستعمال طرق الاقناع لزعماء هذه الحركة عسى أن يتحوّلوا عن هذا الرأي، ويسالموا معاوية ويكونوا في جملة المؤيدين لسياسته، ولكن الأمر يزداد شدة يوماً بعد يوم، ويكثر الناقمون وبالأخص عندما أعلن الوالي زياد بن سمية على المنبر إلزام الناس بالبراءة من علي(عليه السلام) وشتمه، وهم يرون أنّ عليّ بن أبي طالب(عليه السلام) هو بطل الإسلام وناشر دعوته، وأنّه أقرب الناس إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وأشدّهم تمسكاً بسيرته وإحياء سنته.

ولما ولي زياد الكوفة استقر رأيه ورأي معاوية على الوقيعة بهم، فزوروا شهوداً ـ وما أكثرهم في ذلك العهد ـ من الذين استخدمهم معاوية بصلاته فشهدوا على حجر[٥٤٠] وأصحابه بما يستطيعون أن يردوا بعض الإنكار عنهم، فكانت خاتمة مطاف حياتهم في مرج عذراء بتلك الصورة المؤلمة.

* * *

لقيت الأمة في سبيل الانتصار للحقّ والانضمام لجانب أهل البيت(عليهم السلام)وهم أهله، أنواع العذاب.

أمّا أهل البيت أنفسهم فكانوا في الدور الأموي ـ دور الإرهاب والظلم يلاقون المصائب على أيدي تلك الفئة التي تضمر العداء لآل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، وتحاول القضاء عليهم بكلّ وسيلة.

وتزلّف الناس إليهم، بالعداء لآل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، وتطوّع آخرون بضرب الأحاديث المكذوبة على صاحب الرسالة، استجابة لاقتراح معاوية، واتباعاً لأوامره التي أصدرها بلاطه الجائر، فكانت هناك مجموعة أحاديث كلّفت بيت المال مئات الآلاف من الدنانير، وقليلاً ما يبذلون، فإنّ أولئك الدجالين يبيعونهم دينهم، وأنّهم يريدون أن يجعلوا من الفأرة جملاً، ويحاولون إدخال الأسد في البيضة.

يريدون أن يجعلوا ممّن حارب الإسلام هو وأبوه من قبل شخصية تعترف الأمّة الإسلامية بأنها شخصية روحانية طاهرة مطهّرة، تمنحه الأمة ثقتها، وتنقاد له بدافع العقيدة، وهذا أمر لا يكون.

إنّهم يريدون أن يجعلوا لمعاوية حقّ وراثة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، وتولي سلطانه وهو عدوّه الألد، إنّهم يريدون أن يجعلوا من أبي سفيان شخصية إسلامية تتفانى في نصرة الدين، وهو لا يجهل أحد حاله.

ومن هذا وذاك فإنّ قبول مثل هذه الأمور تحتاج إلى قوّة تسيطر على العقل، وتطفئ شعلته، ولا يستبعد ما للمال من عوامل مؤثرة، فهي في الواقع أقوى من السيف، ولذلك أصبحت لتلك المفتريات أثرها، وطابعها الخاص، وإذا بمعاوية تحاك له أحاديث المدح، فيصبح أمين هذه الأمّة وخصماً لأمير المؤمنين علي بن أبي

---

(٥٤٠) حجر بن عدي بن معاوية بن جبلة بن الأدبر، كان من فضلاء الصحابة ومن شيعة عليّ(عليه السلام) وحضر معه حروبه ـ وكان على كنده يوم صفين، وعلى الميسرة يوم النهروان ـ حمله زياد بأمر معاوية في اثني عشر رجلاً موثقين في الحديد فقتل معاوية ستة منهم حجر واستحيا ستة وأوصى حجر من حضر من أهله أن لا تطلقوا عني حديداً ولا تغسلوا عني دماً فإني ملاق معاوية غداً على الجادة، وكان قتله في مرج عذراء سنة إحدى وخمسين للهجرة، المصنف ج٣ ص ١٣٩.

طالب(عليه السلام) حتى عد عليّ(عليه السلام)ذلك من أعظم مصائبه، فقال: أنزلني الدهر حتى قيل علي ومعاوية[٥٤١]، وأصبح أبو سفيان بمقتضى تلك الأوضاع المقلوبة مسلماً صحابياً له مكانته ومناقبه.

وأبو طالب مؤمن قريش وناصر الإسلام الأوّل، وحامي دعوته ومن بذل جهده لنصرة دعوة الحقّ، وتفانيه بالدفاع عن محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) بدافع العقيدة والعاطفة وموجات الحقّ تردد أناشيده وترسمها على لوحة الخلود:

ولقد علمت بأنّ دين محمد *** من خير أديان البرية دينا[٥٤٢]

وساند النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في دعوته وبذل أقصى جهده في حمايته، وأعزّ اللّه جانبه فيه، وألجم أعداءه عن مقابلته، يُسمى كافراً ولا ينطق بشهادة أن لا إلـه إلاّ اللّه، وتذهب أتعابه سدى وتسند إليه كلمة الكفر؟ ! وما ذلك إلاّ رغبة لنوال من لا رغبة له إلاّ أن ينال من علي(عليه السلام)، ويحاول أن يخمل ذكره، ولا ترضى نفس ابن أبي سفيان ان تكون لعليّ تلك السلسلة الطاهرة التي لم تنجسها الجاهلية بأرجاسها، وهو والرسول الأعظم ركيضا رحم ورضيعا لبن.

ومعاوية أعلم بنفسه من هو وابن من، ولكنّه تمكّن بمكره وخداعه، وجلب ما استطاع بخيله ورجله، في تركيز هذه الفكرة.

وما ذنب أبي طالب ولم يبق في كنانته سهماً إلاّ رماه في نصرة الدين، ولكن عليّاً هو سبب تلك المؤخذات المفتعلة على أبي طالب، وما ذنب علي(عليه السلام) إلاّ أنّه على الحقّ ومعاوية على الباطل ، فعداء معاوية لعلي عداوة جوهرية يستحيل تحويلها; هي عداوة الشر للخير والخبيث للطيب والباطل للحقّ والكفر للإيمان.

وإلاّ فأبو طالب في الخصال والخلق مثال للحنيفية وتجسيد لقيم إبراهيم الخليل. وأبوسفيان في الخصال مجمع للنقائص التي جاء الإسلام ليحاربها، وفي الخلق انعكاس لمجتمع الجاهلية الذي يرتكس في الضلال والغواية.

ولذا أقام معاوية سياسته على النيل من مكانة الإمام علي، واستخدم الوسائل الدينية التي يتّبعها والتي ينفذ من خلالها الى أذهان العامة فعبّر عن عداء دنيء وأخذ بجعل سمة ملكه وعنوان دينه لعن الإمام العادل، وقد وضع لها مكاناً في التاريخ الذي ينوي إقامته لبني أمية في الشام، فصرّح أن ستكون هذه السياسة العدائية يشبّ عليها

---

(٥٤١) فرحة الغري ص٧ .

(٥٤٢) إيمان أبي طالب ص٢٨٩.

الصغير ويهرم عليها الكبير، وقد تمكّن من نفوس أهل الشام خلال حكمه وحكم أخيه من قبل «وبلغ من أمرهم في طاعتهم له أنّه صلّى بهم عند مسيرهم الى صفّين الجمعة في يوم الأربعاء، وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها... ثم ارتقى بهم الأمر في طاعته الى أن جعلوا لعن علي سنّة، ينشأ عليها الصغير، ويهلك عليها الكبير»[٥٤٣].

وكتب الى عماله بهذه السياسة. وكان همه أن يجري اللعن من على المنبر النبويّ الشريف، وكتبت أمّ سلمة زوج النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) الى معاوية: إنّكم تلعنون الله ورسوله على منابركم، وذلك أنّكم تلعنون علي بن أبي طالب ومن أحبّه، وأنا أشهد أن الله أحبه ورسوله... ويروي ابن عبد ربّه أنّ بعض العلماء قال لولده: يا بنيّ إنّ الدنيا لم تبنِ شيئاً إلاّ هدّمه الدين، وإن الدين لم يبن شيئاً فهدمته الدنيا، ألاترى أنّ قوماً لعنوا علياً ليخفضوا منه، فكأنّما أخذوا بناصيته جراً الى السماء[٥٤٤].

بذرة التشيّع ونموّها

ومهما يكن من أمر فقد نشأ مذهب أهل البيت(عليهم السلام) وتكوّن في عهد صاحب الرسالة(صلى الله عليه وآله وسلم)، فهو أوّل[٥٤٥] من وضع بذرة التشيّع في حقل الإسلام، يوم غرس دوحة شريعته الغراء جنباً إلى جنب وسواء بسواء، ولم يزل غارسها(صلى الله عليه وآله وسلم)يتعاهدها بالسقي والعناية حتى ثبتت ونمت في حياته، ثم أثمرت بعد وفاته، حيث كان يتعاهدها أهل بيته وخلّص أصحابه، وقد قام كلّ بما يجب عليه من رعايتها، وتحمل من نكبات واضطهاد في سبيل حفظها من تلك السلطات التي كانت تحاول القضاء عليها لمحو ذكر آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم).

وقد وقفوا أمام تلك التيارات وقفة اخلاص وإيمان وثبات على مبدأ الحقّ، ولم يأبهوا يوماً ما إلى سلطة أو سياسة، ومرّت تلك الأدوار العصيبة المظلمة، ولم يزل ذلك الغرس ثابت الجذور نامي الفروع، يسقى من ماء غير آسن، حتى أفرعت دوحته وامتدّت أغصانه وأينع ثمره بحفيد النبيّ الكريم ووارث علمه الإمام جعفر بن محمد الصادق(عليه السلام).

---

(٥٤٣) مروج الذهب ج٣ ص ٤١ ـ ٤٢ .

(٥٤٤) العقد الفريد ج٥ ص ١٠٨ .

(٥٤٥) أصل الشيعة وأصولها ص١٨٤ .

كان الإمام الصادق(عليه السلام) مهتمّاً في تلك الفترة المارّة الذكر ببثّ العلوم ونشر المعارف الإسلامية بين طبقات المجتمع، فأقبل الناس على مدرسته وازدحموا على أبوابها ينتهلون من علومه، ويقتبسون من أنوار معارفه، وأقبلت وفود طلاب العلم من الأقطار الإسلامية، حتى أصبح عدد تلاميذه والمنتمين إلى مدرسته أربعة آلاف، منهم أئمة مذاهب كأبي حنيفة، ومالك بن أنس، وسفيان الثوري، وابن عيينة ، والأعمش، وغيرهم، وكذلك منهم رؤساء طوائف وأعلام الحديث والفقه(٥٤٦) .

وكثر التأليف في عصره، ودوّن فقه أهل البيت وحديثهم بصورة واسعة، حتى أحصي ما دوّنوه في عصره، فكان أربعمائة مؤلّف لأربعمائة مؤلّف ممّن سمعوا الحديث منه، فدوّنوه وعرفت بالأصول الأربعمائة، وستأتي الإشارة لذلك عند ذكر تدوين الفقه الجعفري.

وبالجملة فإنّ مذهب أهل البيت(عليهم السلام) هو أقدم المذاهب، وقد تخطّى في العصر الأموي تلك العقبات التي حاول الأمويون بها أن يعرقلوا سيره، ويقفوا في طريق انتشاره، وسيأتي بيان مقاومة العباسيين له، ومعارضتهم لانتشاره.

أخطاء تاريخية لابن خلدون

وأودّ هنا أن أعود للإشارة عمّا تجنّاه ابن خلدون على الحقائق التاريخية إذ يصف هذا المذهب بالبدعة حيث يقول في مقدمته: وشدّ أهل البيت في مذاهب ابتدعوها، وفقه انفردوا به(٥٤٧).

وليس من الغريب صدور مثل هذا القول من رجل كان يحقد على العرب ويضمر لهم كل سوء، وليس ببعيد تحامله على سادة أهل البيت(عليهم السلام) وأئمة المسلمين فهو يتعصب عليهم، ويتجاهل مكانتهم، هذا مع جهله بمذهبهم فإنّه لم يقرأ كتب المذهب وإنّما قرأ كتب الخصم، ولم يتصل بزعمائه، وإنّما اتصل بأعدائه، فراق له ما سمع من قالة السوء، واستعذب ما قرأ في كتب المناوئين لآل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) وشيعتهم .

---

(٥٤٦) الإمام الصادق(عليه السلام)، لأبي زهرة ص ٦٦، حلية الأولياء ج٣ ص١٩٨ ـ ١٩٩.

(٥٤٧) مقدمة ابن خلدون ص٢٧٤.

ولعلّ هالة الاكبار والتقدير لابن خلدون التي أحاطت بشخصيته من قبل بعض الكتاب أبعدتهم عن الوقوف على شخصية هذا الرجل بواقعها، والتعرف على ما تضمنته من أخطاء ومخالفات للحقيقة.

ولقد رأينا دوماً أنّ ابن خلدون موضع إجلال أكثر الباحثين والكتاب ، سيراً على طريقة السلف، وبرغم ما تضمنته مقدمته من علوم في الاجتماع والعمران، إلاّ أنّ ذلك لا يبيح لنا أن نتغاضى عن مواقف وقفها تجاه العرب وحضارتهم، فيجرّدهم من ذلك ويسلبهم فضائلهم فيصفهم بأنّهم أُمّة متوحشة، وهم أهل نهب وعبث، بل هم أداة خراب للأوطان التي يتغلبون عليها إلى غير ذلك ممّا يدلّنا بكلّ وضوح على تعصّبه أو تجاهله، كما يصفه لنا الأستاذ موسى سلامة بقوله:

والخطأ البارز في ابن خلدون هو تنقصه حضارة العرب، فإنّه هنا أعمى كامل العمى، لا يرى بصيصاً من نور... ، هذا مع أني أحتفظ له بخيانات شخصية وثقافية، فإنّه مثلاً خان معظم الأمراء والملوك الذين خدمهم، ثمّ إنّه سرق كلّ ما كتبه إخوان الصفا وعزاه إلى نفسه، انتهى .

ولا أدل على تجاهله أو تحامله من كلمته هذه في مذهب أهل البيت(عليهم السلام)ووصفه لهم بالشذوذ.

ولو كان له قليلاً من التأمل; لما قال هذا القول الذي لم يتوصل إليه بالنتائج العلميّة، وهذه الكلمة هي التي بعثتنا على خوض غمرات البحث والتعرّف على المذاهب، وعوامل انتشارها، وأسرار نجاح المذاهب الأربعة وأسباب خلودها دون غيرها من مذاهب المسلمين، فاتّضح لنا أنّ ذلك مستند إلى دواعي السلطة، واغراء المادة، التي من أجلها نسي ابن خلدون نفسه، فجرى قلمه بظلم الحقّ والحقيقة.

ولا يستبعد ذلك من إنسان تربّع على دست قضاء دولة لا ترغب في اظهار فضل آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) أُسوة بأخواتها التي سارت على ذلك من قبل، فهو عبد لسلطانه ، وأسير لشيطانه.

ومهما كانت مكانته التي احتلها من علم الاجتماع المعاصر أو غيره من العلوم فإنّ رأي ابن خلدون هذا لا ينبعث إلاّ عن جهل، أو عقل أعمى لا يبصر الحقائق، وأسوأ ألوان الجهل جهل مواقف آل محمد في الدفاع عن الإسلام، وتفانيهم في نشر تعاليمه وتعليم الناس أحكام الإسلام وفرائضه، ومحاربة ذوي العقائد الفاسدة، وقيامهم بتعليم الأمة مستمدّين من الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم)بما لا مجال للشك في ذلك،

ولكن ابن خلدون لتحامله نقل كثيراً من الأشياء مبتعداً عن طريق الواقع، وقد صبّها في قالب رغباته، وتساهل في إبداء الحقيقة، وجعلها في طيّات الخفاء والكتمان.

وابن خلدون إذا كان أسير عقدة تتحكّم فيه وتقضّ مضجعه ساع الى السلطة وباحث عن المجد لا يهدأ عن سعيه في سبيل الحكم والانضمام الى السلاطين، فكيف له أن يحتلّ موقعاً لدى الملوك وسلاطين الزمن إذا ترك لعقله الحرية ولنفسه الخيار في قول الحق (**لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ**)(٥٤٨). وكيف يمكن أن يخالف مذهب الحكّام ويعمل على استخلاص الحقيقة، وبحث دوافع العداء لأهل البيت(عليهم السلام) ؟ فهو في نظر علم الاجتماع نتاج بيئة ومحيط فبقي كما نشأ! ولكن العالم من ينتزع نفسه ويخلصها ممّا يراه قاهر التأثير وجبريّ النتيجة ليستطيع أن يقدّم للناس مادة علمه بتجرد، وتكون نظرته بالغة الوضوح تحمل شواهد صحتها. ذلك في مقابل النظرة العصرية لابن خلدون ومكانته في علم الاجتماع اليوم.

أمّا النظر الى ابن خلدون من خلال الواقع والحكم عليه من حقائق سيرته ووقائع تأريخه، فهو من رجال العصور الذين أذعنوا للحكام وشاركوهم وساندوهم في محاربة أهل البيت أو الغض من مكانتهم والنيل منهم، ولقد كان ذلك سبيل من طمع في متاع الدنيا وعطاء الحكام فحسب، فكيف والحال مع ابن خلدون وهو يجوب الأقطار من أجل رغبته في الحكم نفسه؟!

المذهب الجعفري والدولة العباسية

كانت سيطرة الطبقة الحاكمة تلجئ المفكّرين إلى كبت الشعور، وتلجم الألسن عن قول الحقّ، ومن التجأ إلى المعارضة فقد عرض نفسه إلى السخط وجعلها هدفاً للنقمة، وبذلك ضاعت أكثر الحقائق ، وأثرت تلك السيطرة على سير المسلمين وتقدّمهم لعدم الحرية في الرأي والعقيدة، ولولا ذلك لما حدثت تلك الحوادث التي أخّرت المسلمين.

لقد كان أولئك الحكام يعمدون دائماً إلى خلق مشكلات يفرقون بها كلمة الأمّة، ويثيرون الشحناء ويشغلون الأفكار، لاستخدام الأكثر لمصالحهم الذاتية، وقد أجهدوا أنفسهم في ربط العقائد في دستورهم الذي يتمشى مع رغباتهم، وإنّ أهمّ مشكلة في

---

(٥٤٨) البقرة: ٢٥٦ .

تاريخ الإسلام هي مشكلة الخلافة أو الاعتقاد بالإمامة بأنّه منصب إلهي كالنبوّة، فكما أنّ اللّه سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة، ويؤيّده بالمعجزة التي هي كنصٍّ من اللّه عليه، فكذلك يختار للإمامة من يشاء ويأمر نبيّه بالنصّ عليه، فالنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) مبلّغ عن اللّه، والإمام مبلّغ عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم).

والشيعة تعتقد أنّ تلك المنزلة لم تحصل إلا لعلي وولده والإمامة متسلسلة في اثني عشر إماماً، كما نصّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) على ذلك. ولا ترى تلك الخلافة الإلهية لغير عليّ وبنيه(عليهم السلام)، ولا يسعنا التعرّض لبحث الإمامة ولكنّا نريد الإشارة بهذه العجالة إلى الادوار التاريخية التي سار فيها شيعة آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)في المحافظة على وصايا النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) من التمسك بالكتاب والعترة.

وقد قام أصحاب محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) في نشر تلك الدعوة في الصدر الأوّل وتحملوا ما تحملوا في سبيل ذلك، ومرّ ذكر الدور الأموي وما لقي فيه آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) وشيعتهم من الاضطهاد والمحنة فلا نتعرض للبيان بأكثر من ذلك.

وكان من نتائج تلك الحركة الفكرية الواسعة النطاق والنهضة العلمية التي ازدهرت في عصر الإمام الصادق(عليه السلام)، هو انتشار مذهب أهل البيت(عليهم السلام) في الأقطار الإسلامية.

وكانت الدولة العباسية في طفولتها تعارض حركة انتشار المذهب من وراء الستار، إذ ليس في إمكانها التظاهر في المعارضة، لأنّهم في حاجة ملحة لاستمالة أعيان أهل البيت(عليهم السلام) والاستعانة بزعماء الشيعة لتثبيت أركان الدولة.

ولم يكن هناك شهرة لأحد سوى الإمام الصادق(صلى الله عليه وآله وسلم) والتاريخ يدلّنا بوضوح على ذلك.

أما مالك بن أنس فقد كان في حياة الإمام الصادق(عليه السلام) كأحد رجال المدينة، ولم ينتشر ذكره إلاّ بعد سنة (١٤٨ هـ) وهي سنة وفاة الإمام الصادق(عليه السلام) وكان ضربه بالسياط وإهانته في سنة (١٤٦ هـ) أي قبل وفاة الإمام الصادق بأقلّ من سنتين، وبعد سنة (١٤٨ هـ) وجّه المنصور نظره نحو مالك وأمره أن يضع كتاباً يحمل الناس عليه ويوزّع نسخاً في الامصار ولا يكون غيره.

وكان غرض المنصور من ذلك هو معارضة انتشار مذهب أهل البيت(عليهم السلام)، لأنّه يثقل عليه تخليد ذكر جعفر بن محمد(عليه السلام) وقيام ولده الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) بعده والتفاف الناس حوله حتّى لقّبوه بالعالم، وهو هو في زهده وورعه وعلمه.

لم يغب عن مالك مغزى هذا التكليف فأجابه: يا أمير المؤمنين لا تفعل; أمّا هذا الصقع فقد كفيتكه، وأمّا الشام ففيه الرجل الذي علمته ـ يعني الأوزاعي ـ وأما أهل العراق فهم أهل العراق[٥٤٩].

فكان المنصور يشدّ أزر الأوزاعي ويراسله ويلحظ مالكاً ويواصله حتى ازدحم الناس على باب داره التي أصبحت كأبواب دور الملوك، وبذل جهده بالانتصار إلى أهل الرأي وهو يأمل من وراء ذلك كلّه تغليب مذهبه على مبادئ أهل البيت، ولما أشتدّ جانب الدولة وقوي ساعدها، أظهر المنصور ما كان يضمره، فأعلن مقاومة أهل البيت ومعارضة انتشار مذهبهم، وشدّد النكير على أهله.

معارضة المنصور والرشيد للمذهب

وكان المنصور يأمل بالإمام أبي حنيفة عندما رعاه بعنايته ونصره وقدّمه على كثير من الفقهاء أن يوجد منه شخصية علمية تقف أمام انتشار مذهب جعفر بن محمد(عليه السلام) ولكنه قد خاب أمله، فهذا الإمام أبو حنيفة يصرح للملأ بأنه ما رأى أعلم من جعفر بن محمد(عليه السلام)وأنه أعلم الأمة[٥٥٠].

وسأله رجل يوماً عن رجل وقف ماله للإمام فمن يكون المستحق؟ فأجاب أبو حنيفة: المستحق هو جعفر الصادق لأنّه هو الإمام الحقّ[٥٥١].

وذهبت تلك المحاولات فاشلة، ولم يزل المذهب الجعفري يتّسع في الاقطار وينتشر في العواصم، وكثر أتباعه رغم تلك المحاولات والخطط التي خطها المنصور ومن بعده المهدي والهادي والرشيد، وقد بذل الرشيد كلّ ما في وسعه من تحويل أنظار الناس عن آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، وأظهر تعظيم مالك بن أنس، فكان يجلس بين يديه تأدّباً يتعلم منه العلم، ويأمر أولاده وخواصه باحترامه.

وكان يقرّب الفقهاء وينظر إلى الشافعي نظر عطف وحنان لأنّه قرشي، وأرسله إلى مصر صحبة الوالي، وأمره باحترامه وإكرامه، وتقريب أصحابه وأعطاه سهم ذي القربى.

فيما عامل أهل البيت(عليهم السلام) بالشدة والقسوة، من تتبع أنصارهم، والقضاء على من أتهمه في موالاتهم، حتى ثقل عليه أن يكون علي بن أبي طالب(عليه السلام)رابع الخلفاء، فحاول أن ينفي ذلك ويعاقب من يثبته.

---

(٥٤٩) الديباج المذهب ص٧٢ .

(٥٥٠) جامع أسانيد أبي حنيفة ج١ ص٢٢٢ .

(٥٥١) تاريخ العلويين لمحمد أمين غالب ص١٤٠.

قال أبو معاوية: دخلت على هارون الرشيد فقال لي: يا أبا معاوية هممت بمن أثبت خلافة عليّ فعلت به وفعلت، قال أبو معاوية: فسكت فقال لي: تكلم. قلت: إن أذنت لي تكلّمت. قال: تكلّم.

فقلت: يا أمير المؤمنين، قالت تيم: منا خليفة رسول اللّه. وقالت عدي: منا خليفة رسول اللّه. وقالت بنو أمية: منا خليفة الخلفاء، فأين حظّكم يا بني هاشم من الخلافة؟ واللّه ما حظّكم إلاّ ابن أبي طالب(٥٥٢)، وبهذا استطاع أبو معاوية ان يصرف الرشيد عن رأيه.

واستعمل في معاملة أهل البيت(عليهم السلام) مالا يستعمله أحد وفيه صبابة من الرحمة، لقد سجن الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) وهو عالم عصره، ومن له السلطة الروحية وضيّق عليه حتى قتله بالسمّ، وبذلك أنزل بالمسلمين خسارة فادحة إذ لم يتهيأ لهم الاتصال بالإمام والأخذ من علومه وآرائه إلاّ في مدة قليلة، وتتبع بقية أهل البيت وشيعتهم، وطلبهم تحت كل حجر ومدر، وكان بحكم السياسة العمياء التي لا تعرف إلاّ غايتها، ولا تفرق بين الحق والباطل، ولا ترى سوى السيطرة على الناس بأيّ طريق وبأي نوع كان، فإنّه قد حمل الناس على العداء لآل محمد، وحاول قلع بذرة حبّهم التي غرسها الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، وسقاها بماء غديره العذب، تلك البذرة الطيبة التي أينعت فأثمرت وجنى ثمرها رجال العلم، وصلحاء الأمّة، رغم تلك المحاولات والجهود الجبّارة التي بذلها العباسيون، وهم يطلبون من وراء ذلك استقرار ملكهم بالوراثة الشرعية، بادعائهم الخلافة دون آل عليّ بن أبي طالب(عليه السلام).

دخل شريك القاضي على المهدي. فقال له المهدي: ما ينبغي أن تقلد الحكم بين المسلمين، قال: ولم؟

قال: لخلافك على الجماعة، وقولك بالإمامة.

فقال شريك: أما قولك بخلافك على الجماعة، فعن الجماعة أخذت ديني فكيف أخالفهم وهم أصلي في ديني؟ وأما قولك بالإمامة، ما أعرف إلاّ كتاب اللّه وسنة رسوله، وأما قولك: مثلك ما يقلد في الحكم فهذا شيء أنتم فعلتموه، فإن كان خطأ فاستغفروا اللّه منه. وإن كان صواباً فامسكوا عليه.

قال المهدي: ما تقول في عليّ بن أبي طالب؟

قال : ما قال فيه جدّك العباس وعبد اللّه، قال: وما قالا فيه؟

---

(٥٥٢) تاريخ بغداد ج٥ ص٢٤٤ .

قال: فأمّا العباس فمات وعلي عنده أفضل الصحابة، وكان يرى كبراء المسلمين يسألونه عمّا ينزل من النوازل، وما احتاج هو(عليه السلام) إلى أحد حتى لحق باللّه. وأمّا عبد اللّه فإنّه كان يضرب بين يديه بسيفين، وكان في حروبه سيفاً منيعاً وقائداً مطاعاً، فلو كانت إمامته على جور، كان أوّل من يقعد عنها أبوك لعلمه وفقهه في أحكام اللّه، فسكت المهدي ولم يمض بعد هذا المجلس إلاّ قليلاً حتى عزل شريكاً[٥٥٣].

تغلب المذهب الجعفري

وعلى أيّ حال فقد تغلّب المذهب الجعفري على سائر الأقطار الإسلامية، فكانت له في بغداد من القوة والنشاط ما استطاع أن يقاوم الدولة التي ما برحت تطارد الشيعة وتناصر خصومهم، ولكنّهم ثبتوا في وجه الطغيان بكلّ ثبات، وأقاموا شعائرهم الدينية بدون خفاء وتكتّم، وكانت الدولة تعد هذا التظاهر تهديداً لها وخطراً عليها.

وفي أيام المأمون كانت الغلبة للمذهب الجعفري في جميع الأقطار بل امتدّت دعوة التشيع إلى رجال الدولة أنفسهم، فكان منهم الوزراء والأمراء وقوّاد الجيش والكتاب، ورؤساء الدواوين، الأمر الذي دعا المأمون إلى التظاهر بالتشيّع، والميل إلى العلويين، لأنّه خشي على زوال ملكه فدعا الإمام علي بن موسى الرضا(عليه السلام) إلى البيعة، والتنازل عن العرش، ولكنّ الإمام ردّ هذه الدعوة علماً منه بأنّها مفتعلة، ولكنه تفادى إيقاع نفسه في التهلكة بقبول ولاية العهد قبولاً شكلياً لا أكثر ولا أقل.

وقبل ولاية العهد بعد أخذ ورد، وأكثر المأمون عقد المجالس للمناظرة في الإمامة، وقد نجح بما دبّره في سياسته ودهائه، إذ استمال قلوب الشيعة وأمن ثورة العلويين المتوقعة، وفاخر علماء الأديان الأخرى بالرضى وعلوم الرضا(عليه السلام).

وفي أيام المعتصم التجأ الشيعة إلى التكتم نوعاً ما، ولكنّا نراهم يخرجون على الدولة بعدّة كاملة، وقوّة لم تستطع الدولة معارضتها، وذلك عندما استخرجوا جنازة الإمام الجواد(عليه السلام) في سنة (٢٢٠ هـ) عندما حاول دفنه سرّاً، ولم يسمح لأحد فى تشييعه، ولكنّ الشيعة خرجوا بذلك الموكب المهيب الذي يربو عددهم على اثني عشر ألف والسيوف على عواتقهم، فشيّعوا جنازة الإمام رغم معارضة السلطة.

---

(٥٥٣) تاريخ بغداد ج٩ ص٢٩٢ .

قوة المعارضة أيام المتوكل

واشتدّ الأمر وعظمت المحنة في أيام المتوكل العباسي، فكان بغض الإمام عليّ وشيعته يأكل قلبه كما تأكل النار يابس الحطب، وكان لا يذوق طعم الراحة ولعليّ(عليه السلام) ذكر في الوجود، ولشيعته مجتمع زاهر بالعلم محتفظ بكرامته، مستقل بمواهبه، منفصل عن الدولة، وقد تتبّع العلويين وحطّ من كرامة أهل البيت(عليهم السلام)ولم يسمح لأيّ أحد أن يذكرهم بخير.

ويدلّنا على شدة بغضه وتحامله أنّ نصر بن علي الجهضمي حدّث بحديث عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ، أنّه أخذ بيد الحسن والحسين وقال: **من أحبّني وأحبّ هذين وأباهما وأمَّهما كان معي في درجتي يوم القيامة** ، فأمر المتوكل بضربه ألف سوط إلى أن كلّمه جعفر بن عبد الواحد بأنّ نصراً لم يكن شيعياً وإنّما هو من أهل السنّة، فضرب خمسمائة سوط وعفى عن الباقي(٥٥٤).

ويحدّثنا المقريزي: أنّ يزيد بن عبد الله أمير مصر، أمر بضرب جندي تأديباً لشيء صدر منه، وعندما أحسّ الجندي بألم الضرب، أقسم على الأمير بحقّ الحسن والحسين أن يعفو عنه، فأمر الأمير بضربه ثلاثين سوطاً جزاء لهذا القسم، وكتب إلى المتوكل في بغداد يخبره بخبر الجندي، فورد الكتاب على يزيد يأمره بضربه مائة سوط وحمله إلى بغداد(٥٥٥). ولعلّ النطع والسيف كانت خاتمة المطاف لذلك الجندي، وأمر بضرب أحمد بن محمد بن عاصم صاحب خان عاصم ألف سوط، لأنّهامه بسبّ الشيخين حتى مات.

قال في الحضارة الإسلامية نقلاً عن المنتظم: وكانت الحكومة إذا أرادت أن تعاقب شيعيّاً لمذهبه لم تذكر اسم علي، بل يجعل سبب العقوبة أنّه شتم أبا بكر وعمر(٥٥٦).

وما أكثر من عوقب بهذه الوسيلة. ولكن أنصار المتوكل وحزبه الذين يرون البغض لعليّ وشيعته يقرّبهم إليه زلفاً. نالوا بذلك إربهم في الدنيا وعقابهم في الآخرة.

وخلاصة القول أنّ المتوكل اشتدّ في العداء لأهل البيت(عليهم السلام) والنيل منهم، حتّى دفعه حقده الى هدم قبر الإمام الحسين(عليه السلام) وهدم المشهد الشريف واستقدم أبا الحسن الهادي(عليه السلام) من المدينة إلى سامراء في سنة (٢٣٦ هـ) وعامله بالشدّة

---

(٥٥٤) تاريخ بغداد: ج٢ ص٢٨١ .

(٥٥٥) تاريخ بغداد ج٤ ص١٥٣ .

(٥٥٦) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجريج١ ص١١١.

والأذى، وتوصل المنحرفون عن آل علي إلى إساءة الإمام الهادي(عليه السلام) فسعوا به إلى المتوكل وأخبروه أنّ في منزله سلاحاً وكتباً من شيعته، فهجموا على داره ليلاً ولم يعثروا على أيّ شيء من ذلك(٥٥٧)، ومازال الإمام الهادي(عليه السلام)مقيماً في سامراء إلى أن مات مسموماً سنة (٢٥٤ هـ)، وكانت مدة اقامته فيها ١٨ سنة.

الشيعة ونصرة أهل البيت(عليهم السلام)

ومرّت الأدوار، وتعاقبت الأيام، والشيعة يلاقون الأذى ويخوضون غمار الحروب ويواجهون المصاعب، ويتجرّعون من ولاة الأمر ضروب المحن، كلّ ذلك في سبيل نصرة آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) ونشر مذهبهم على وجه البسيطة، وما دفعهم إلى تحمّل ذلك إلاّ حبّهم لآل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) وامتثالهم لأوامر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) في المحافظة عليهم ووصاياه المتكررة باتباعهم.

ولقد بذل الشيعة كلّ ما في وسعهم لنصرة أهل البيت الذين عنهم يأخذون تعاليم دينهم، وكانوا في هذه الأدوار يتصلون بمدرسة أهل البيت(عليهم السلام) مهما كلّفهم الأمر، فلا يقعد بهم خوف ظالم ولا تحول دونهم ودون الاتصال بهم تلك الارهابات التي اتخذها أعداء آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) وسيلة لفصل الأمة عنهم، فهم من زمان علي(عليه السلام) إلى زمان الإمام الحسن العسكري يأخذون عنهم معالم الدين حتى وقعت الغيبة الصغرى، وسيأتي بيان ذلك عند ذكرنا للنهضة العلميّة عند الشيعة بعد عصر الأئمة(عليهم السلام).

وكان الإمام العسكري قد جلبه المتوكل مع أبيه علي الهادي(عليه السلام) إلى سامراء، وما زال مع أبيه إلى أن التحق أبوه بالرفيق الأعلى وبقي العسكري مدّة إمامته القصيرة في سامراء ، ست سنين في نكد وأذى، وانفرد بعد أبيه بما يقصده به العباسيون من الإساءة والغضّ من مقامه، والتضييق عليه والسجن إلى أن اغتاله المعتمد العباسي بالسم في سامراء لثمان خلون من ربيع الأوّل سنة (٢٦٠ هـ)، ودفن مع أبيه في دارهما حيث قبرهما الآن، وكان عمره الشريف ثمان وعشرين سنة.

وفي ذلك العهد كان مذهب أهل البيت(عليهم السلام) ينتشر في البلاد الإسلامية، وأصبحت قم من عواصم العلم للشيعة، وفيها من رواة حديث أهل البيت(عليهم

---

(٥٥٧) مروج الذهب ج٤ ص ٩٥ ـ ٩٦.

السلام)عدد كثير، ومن المؤلفين في الحديث والفقه وفنون العلم جم غفير، وكذلك الكوفة وبغداد والمدائن وسامراء والشام عاصمة الأمويين كما سيأتي بيانه.

وإنّ تمسك الشيعة بمذهب أهل البيت(عليهم السلام) لا لتحزب أو تعصّب، ولا لطعن في مذاهب المسلمين أو حطٌ من كرامة أحد من أئمة المذاهب، ولكنّ الأدلة الشرعية أخذت بأعناقهم، لوجوب الأخذ بمذهب أهل البيت(عليهم السلام)لحكم الأدلة القاطعة وتعبداً بسنة سيد النبيين(صلى الله عليه وآله وسلم). ولو وجدوا طريقاً للأخذ عن غيرهم لاتّبعوه، ولم يتحملوا المحن في سبيل أتباعهم، ولكن لا طريق الى ذلك، بل وجدوا الحقّ معهم، والحق أحقّ أن يتّبع، ولأنّهم(عليهم السلام) كانوا يمثّلون الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) في خلقه وهديه وورعه وزهده، فهم عدل القرآن متكاتفين معه يمتثلون أوامره ويسارعون إلى تنفيذه، واطلعوا على أسرار أحكامه، ودقائق أطواره، والقرآن قد اشاد بفضلهم كثيراً.

ولقد بذلوا جهدهم في هداية الناس، كما بذلوا لهم النصح ليرشدوهم إلى طرق السعادة، وقد نشروا العلم والعدل، وقاوموا الجهل والظلم، وليس هذا مجرد فرض، وإنّما هو أمر واقع وحقيقة ظاهرة لا يمكن انكارها، ووجد الناس فيهم أئمة هدى: لا يخالفون الحقّ، ولا يختلفون فيه، وهم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام، بهم عاد الحقّ إلى نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية، فإنّ رواة العلم كثيرة ورعاته قليل(٥٥٨).

وهم أهل بيت النبوّة وموضع الرسالة ومهبط الوحي، ولم تسمح الأدلة بمخالفتهم والأخذ عن غيرهم، وهم عدل القرآن وسفينة نوح باتباع علم الهداية والرشاد.

أحاديث النبيّ في أهل البيت(عليهم السلام)

وقد صرّح النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بوجوب اتباعهم والتمسك بهم في مواطن عديدة، واشتهر حديث الثقلين كالشمس في رائعة النهار وحديث: «**مثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق وهوى**» من الأحاديث الثابتة التي أيّدها الرواة وتناقلتها كتب التاريخ .

---

(٥٥٨) نهج البلاغة، صبحي الصالح ص٣٥٨.

أخرج أحمد في مسنده[٥٥٩] والطبراني في مسنده[٥٦٠] بالإسناد إلى ابن عباس قال، قال رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم): **«من سرّه أن يحيى حياتي ويموت مماتي ويسكن جنة عدن غرسها ربي فليتول علياً من بعدي وليوال وليّه، وليقتد بأهل بيتي من بعدي، فإنّهم عترتي، خلقوا من طينتي، ورزقوا فهمي وعلمي، فويل للمكذّبين بفضلهم من أمتي، القاطعين صلتي لا أنالهم اللّه شفاعتي».**

وأخرج ابن حجر في صواعقه قال، قال(صلى الله عليه وآله وسلم): **«في كلّ خلف من أمتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين وانتحال المبطلين. وتأويل الجاهلين، ألا وإنّ أئمتكم وفدكم إلى اللّه فانظروا من توفدون»**[٥٦١].

وأخرج جماعة من الحفاظ عن أبي ذر الغفاري، قال: قال(صلى الله عليه وآله وسلم): **«فلا تقدموهم فتهلكوا ولا تقصروا عنهم»**[٥٦٢].

وقال(صلى الله عليه وآله وسلم): **«اجعلوا أهل بيتي منكم مكان الرأس من الجسد ومكان العينين من الرأس ولا يهتدي الرأس إلاّ بالعينين»**[٥٦٣].

وقال(صلى الله عليه وآله وسلم): **«أوصي من آمن بي وصدقني بولاية علي بن أبي طالب فمن تولاه فقد تولاني، ومن تولاني فقد تولّى اللّه، ومن أحبّه فقد أحبّني ومن أحبّني فقد أحبّ اللّه، ومن أبغضه فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض اللّه»**[٥٦٤].

وقال(صلى الله عليه وآله وسلم): **«اللهم من آمن بي وصدّقني فليتولّ علي بن أبي طالب فإنّ ولايته ولايتي وولايتي ولاية اللّه»**[٥٦٥].

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم): **«ما أنزل اللّه آية وفيها : (يا أيها الذين آمنوا) إلاّ وعليّ رأسها وأميرها»**[٥٦٦].

وأخرج عن حذيفة قال، قالوا: يارسول اللّه ألا تستخلف علياً؟ قال : **«إن تولوا عليّاً تجدوه هادياً مهدياً يسلك بكم الطريق المستقيم»**[٥٦٧].

وأخرج بطريق آخر عنه(صلى الله عليه وآله وسلم): **«إن تستخلفوا علياً وما أراكم فاعلين تجدوه هادياً مهدياً يحملكم على المحجّة البيضاء»**[٥٦٨].

---

(٥٥٩) فضائل أحمد بن حنبل ج٢ ص٦٦٤ ح١١٣٢، المعجم الكبير: ١٩٤/٥، حلية الأولياء ج١ ص٨٦ .
(٥٦٠) انظر فرائد السمطين ج١ ص٥٣ .
(٥٦١) الصواعق المحرقة ج٢ ص٤٤١.
(٥٦٢) الصواعق المحرقة ج٢ ص٦٥٣.
(٥٦٣) أمالي الطوسي ص٤٨٢ ح١٠٥٣.
(٥٦٤) أمالي الطوسي ص٢٤٨، ح ٤٣٧.
(٥٦٥) بحار الأنوار ج٣٨ ص٢٣١، ح ٨ .
(٥٦٦) حلية الأولياء ج٢ ص٦٤.
(٥٦٧) حلية الأولياء ج١ ص٦٤.

وأخرج النسائي في الخصائص من طريق عمران بن حصين عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)قال: «**ما تريدون من عليّ؟ إنّ عليّاً مني وأنا منه وهو وليّ كلّ مؤمن من بعدي**»(٥٦٩).

وأخرج أيضاً من طريق أم سلمة قالت: سمعت رسول الله يقول: «**من سبّ علياً فقد سبني**»(٥٧٠).

وأخرج عن حبشي بن جنادة السلولي قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «**عليّ مني وأنا منه فلا يؤدي عني إلاّ أنا أو علي**»(٥٧١).

وأخرج الحاكم من طريق أبي ذر عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «**من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع علياً فقد أطاعني ومن عصى علياً فقد عصاني**»(٥٧٢).

وأخرج أيضاً من طريق أبي ثابت مولى أبي ذر عن أم سلمة عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، أنه قال: «**عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض**»(٥٧٣).

وعن ابن عباس قال: كنّا نتحدّث أن أقضى أهل المدينة علي بن أبي طالب(٥٧٤).

وعن أبي هريرة قال، قال عمر بن الخطاب : لقد أعطي علي بن أبي طالب ثلاث خصال لئن تكون لي خصلة منها أحب إليّ من أن أعطى حمر النعم. قيل: وما هنّ يا أمير المؤمنين؟ قال: تزويجه فاطمة بنت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)وسكناه المسجد مع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)يحل فيه ما يحل له(٥٧٥).

وأخرج الحاكم أيضاً قال: كنّا مع رسول الله فانقطعت نعله فتخلف علي يخصفها فمشى قليلاً، ثم قال: «**إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله**» فاستشرف لها القوم وفيهم أبو بكر وعمر. قال أبو بكر: أنا هو ؟ قال: لا، قال عمر: أنا هو؟ قال: «**لا ولكن خاصف النعل**»، يعني علياً فأتيناه وبشرناه، فلم يرفع رأسه كأنّه سمعه من رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)(٥٧٦).

---

(٥٦٨) حلية الأولياء ج٢ ص٦٤.
(٥٦٩) الخصائص ص٣٢ .
(٥٧٠) المصدر السابق ج٢٤.
(٥٧١) الخصائص للنسائي ص٧٨.
(٥٧٢) المستدرك للحاكم ج٣ ص١٣٩، ح ٤٦٤١.
(٥٧٣) انظر المستدرك ج٢ ص١٢٢.
(٥٧٤) المستدرك للحاكم ج٣ ص١٣٤، ح٤٦٢٨.
(٥٧٥) المستدرك للحاكم ج٣ ص١٣٥ ح٤٦٣٢.
(٥٧٦) انظر المستدرك ولهذه الأحاديث طرق كثيرة ذكرها الحفاظ يمكن مراجعتها.

وقال أمير المؤمنين(عليه السلام): «**فأين تذهبون وأنّى تؤفكون والأعلام قائمة والآيات واضحة، والمنار منصوبة، فأين يتاه بكم بل كيف تعمهون؟ وبينكم عترة نبيّكم وهم أزمة الحقّ، وأعلام الدين وألسنة الصدق، فانزلوهم منازل القرآن، وردّوهم ورود إليهم العطاشى.**

أيّها الناس خذوها من خاتم النبيين إنه يموت من مات منا وليس بميت ويبلى من بلي منا وليس ببال، فلا تقولوا بما لا تعرفون فإنّ أكثر الحقّ فيما تنكرون ، واعذروا من لا حجة لكم عليه وأنا هو، ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر وأترك فيكم الثقل الأصغر، وركزت فيكم راية الإيمان؟»

وقال(عليه السلام): «**أنظروا أهل بيت نبيّكم فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى، فإن لبدوا فالبدوا، وان نهضوا فانهضوا ، ولا تسبقوهم فتضلّوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا**»[٥٧٧].

وأخرج الحاكم عن الكناني; قال : سمعت أبا ذر يقول وهو آخذ بباب الكعبة: من عرفني فقد عرفني ومن أنكرني فأنا أبو ذر. سمعت رسول اللّه يقول: «**مثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تأخر عنها غرق**»[٥٧٨].

وأخرج البخاري عن عبدالرحمن بن أبي ليلى، قال: لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية سمعتها من رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فقلت: بلى، فأهدها، قال: سألنا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فقلنا: يا رسول الله، كيف الصلاة عليكم أهل البيت؟ قال: «**قولوا اللهمّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد، اللهمّ بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد**».

وعن ابن عباس ـ أخرجه الترمذي ـ قال: قال رسول الله: «**أحبّوا الله لما يغذوكم به وأحبّوني لحبّ الله وأحبّوا أهل بيتي بحبّي**».

وعنه أيضاً قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «**لو أنّ رجلاً صفّ بين الركن والمقام، فصلّى وصام، ثم لقي الله مبغضاً لأهل بيت محمد دخل النار**»[٥٧٩].

وعن أبي سعيد الخدري قال، قال (صلى الله عليه وآله وسلم): «**من أبغضنا أهل البيت فهو منافق**».

وعن أبي سعيد أيضاً قال: قال(صلى الله عليه وآله): «**والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت رجل إلاّ أدخله الله النار**»[٥٨٠].

---

(٥٧٧) نهج البلاغة، صبحي الصالح ص١٤٣.
(٥٧٨) المستدرك للحاكم ج٣ ص١٦ ح٤٧٢٠.
(٥٧٩) بحار الأنوار: ٣١٥/٢٦ ح١٦٠، مع اختلاف يسير .
(٥٨٠) المستدرك للحاكم ج٣ ص ١٥٠ .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن عمار بن ياسر، قال: وقف على عليّ سائل وهو راكع في تطوع فأعطاه خاتمه فنزلت : (**إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا...**) ـ الآية ـ[٥٨١].

وأخرج السيوطي عن ابن عباس أنّها نزلت في عليّ[٥٨٢].

وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس مثله، وأخرج أيضاً عن عليّ(عليه السلام)[٥٨٣].

وأخرج ابن جرير مثله[٥٨٤].

ولهذا شواهد كثيرة لا يمكن انكارها; وسيأتي مزيد بيان حول هذه الآية وغيرها في الأجزاء الآتية.

وعلى كلّ حال، فالأخذ عن أهل البيت(عليهم السلام) بموجب هذه النصوص وغيرها التي لا يسعنا حصرها لازم شرعاً، والرجوع لغيرهم لا يحصل معه صحة العمل.

ونحن مع احترامنا للمذاهب الأربعة، لا نستطيع أن نتخطى أوامر الرسول في اتباع آله ووجوب الأخذ عنهم، ولنا بحديث الثقلين[٥٨٥] وحديث الغدير[٥٨٦]وآية التطهير[٥٨٧]، وآية الموالاة[٥٨٨] كفاية لبراءة الذمة وصحة العمل بمذهبهم(عليهم السلام) .

ولو سمحت لنا الأدلة بمخالفة الأئمة من أهل البيت(عليهم السلام)، أو تهيأ لنا إيثار غيرهم عليهم أو تمكّنا من تحصيل نيّة القربة في مقام العمل على مذهب غيرهم لاتّبعناه، على أنّه لا دليل للجمهور في رجحان شيء من مذاهبهم فضلاً عن وجوبها، وكيف لا وأئمّة المذاهب أنفسهم قد أخذوا عن أهل البيت(عليهم السلام)، وجعلوا ذلك فخراً لهم وسبباً لنجاحهم، فهذا الإمام أبو حنيفة كان يأخذ بأقوال عليّ(عليه السلام) حتى جعلوا ذلك من مرجحات مذهبه على غيره من المذاهب لقول النبي(صلى الله عليه وآله وسلم): «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**»[٥٨٩] ذكر ذلك المقدسي في أحسن التقاسيم[٥٩٠].

---

(٥٨١) المعجم الأوسط للطبراني ج٧ ص١٢٩ ـ ١٣٠ / ٦٢٢٨.

(٥٨٢) الدر المنثور ج٢ ص٥١٩ ـ ٥٢٠.

(٥٨٣) مناقب علي بن أبي طالب لابن مردويه الاصفهاني ص ٣٣٥/٢٣٣.

(٥٨٤) تفسير الطبري ج٤ ص٣٨٩ /٩٥٢١ ـ ٩٥٢٤.

(٥٨٥) مسند أحمد ج٦ ص٢٤٤ ، ح ٢١١٤٥.

(٥٨٦) الرياض النضرة ج٣ ص١٢٦ ـ ١٢٧.

(٥٨٧) الأحزاب: ٣٣.

(٥٨٨) المائدة: ٥٥.

(٥٨٩) لهذا الحديث طرق كثيرة يتجاوز عددها المائة.

(٥٩٠) انظر مطالب السؤول ص٦٤١.

وكان أبو حنيفة يفتخر بالأخذ عن الصادق(عليه السلام) ويقول: «لولا السنتان لهلك النعمان»[٥٩١].

ونرى مالك بن أنس هو أحد تلاميذ الصادق(عليه السلام)، وعنه أخذ الشافعي وأخذ أحمد بن حنبل عنه، وكان الشافعي لا يروي إلاّ عن عليّ(عليه السلام) ولذلك اتّهموه بالتشيع فافتخر بذلك قائلاً:

أنا الشيعيّ في ديني وأصلي *** بمكة ثم دارى عسقلية
بأطيب مولد وأعز فخر *** وأحسن مذهب يسمو البرية[٥٩٢]

ورماه يحيى بن معين بالرفض وقال: طالعت كتابه في السير فوجدته لم يذكر إلاّ علي بن أبي طالب، وقد أظهر الشافعي ذلك في قوله:

يا راكباً قف بالمحصّب من منى *** واهتف بقاعد خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى *** فيضاً كملتطم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حبّ آل محمد *** فليشهد الثقلان أني رافضي[٥٩٣]

وكذلك الإمام أحمد كان يفضّل عليّاً على الصحابة، وسئل يوماً عن أفضل أصحاب رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، قيل فعلي؟ قال: سألتموني عن أصحابه وعليّ نفس محمد[٥٩٤].

إلى غير ذلك ممّا يطول ذكره، على أنّا نجد أهل المذاهب متفرّقين، كلّ يذهب إلى رجحان مذهبه وبطلان غيره، ويقيم كلّ فريق أدلة للغلبة والظهور على الآخر، ولسنا بصدد البحث عن ذلك، ولكن الغرض أنّ أخذ الشيعة عن أهل البيت(عليهم السلام) إنّما هو لدلالة الكتاب والسنة ، ويرون ضرورة الأخذ بأُصول الدين وفروعه عنهم، فهم سفن النجاة وأمان الأُمّة، وباب حطّة من دخله كان من الآمنين، والعروة الوثقى التي لاانفصام لها، وأحد الثقلين لا يضل من تمسك بهما ولا يهتدي من ضلّ عن أحدهما[٥٩٥].

وقد أشرنا للأسباب التي دعت لمقاومة مذهبهم من قبل ذوي النفوذ والسلطة بأوهام حاولوا تركيزها بدون اقامة دليل شرعي، ولا برهان عقلي.

---

(٥٩١) التحفة الاثني عشرية ص٨ .
(٥٩٢) مناقب الشافعي للفخر الرازي ص٥١ .
(٥٩٣) جواهر العقدين ص٢٥٤ .
(٥٩٤) انظر طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ج٢ ص١٢٠ .
(٥٩٥) الفضائل، أحمد بن حنبل ج٢ ص٥٨٥ / ٩٩٠.

وقد سرت تلك الأمور المرتجلة يتلقفها السدّج فماً عن فم، ويتوارثونها جيلاً عن جيل كقضيّة مسلمة، والحقّ أنّها شبه أوهام تناقلتها الألسن، وساعدتها الظروف والأحوال فصعب هجرها.

ومع هذا كلّه فإنّ تلك المحاولات لم يكتب لها النجاح، فقد انتشر المذهب بصورة واسعة النطاق متجاوزاً أوامر الحكام ومتخطياً حدود قوتهم، إذ لم تنفع قسوتهم في دفع الناس عن آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، ولم تثمر سياستهم الجائرة في تحويل الأمة عن الأصول الكبرى والمنابع الأولى .

وهنا أمر آخر لا بدّ من توضيحه: هو أنّ تلك المعارضات التي أجهد الساسة أنفسهم في تركيزها، وآزرهم على ذلك مرتزقة باعوا ضمائرهم بأبخس الثمن، إنّما كانت بعيدة كلّ البعد عن الواقع، ولا تجد من أولئك المتشدّقين بذمّ الشيعة والحطّ من كرامة أهل البيت(عليهم السلام) من أقام دليلاً منطقياً، يستطيع أن يغطي به باطله ويستر به أكاذيبه، وإنّما هم يتحمسون للظلم ويهرجون لدعاته، والحقيقة بعيدة عنهم، والدين يتبرأ ممّا قالوا.

ونسبوا إلى الشيعة أموراً كثيرة، لا يسعنا عرضها الآن، حتى أنّهم نسبوا إليهم القول بألوهية الأئمة، وهذا نهاية الحمق وغاية الجنون، وإنّ الاعتدال في القول خير من التهوّر، ومن اعتدل فكره اعتدل قوله.

من أين أخذوا ذلك عن الشيعة وبأيّ دليل يثبتونه؟ ! نعم حملهم بغض الشيعة والتحامل على أهل البيت(عليهم السلام) على إضافة طوائف الغلاة الى الشيعة المخلصين، وحاولوا ربط عقائدهم بعقائد الشيعة، مع الفرق البيّن وعدم إمكان ذلك إلاّ أن يظلموا الحقيقة، بتجرئهم على أهل البيت(عليهم السلام) بنسبة الغلاة إلى أتباعهم ، وهنا يلزمنا التعرّض لذكر موقف الأئمة من التبرؤ من هذه النسبة ومعاملة الشيعة لتلك الفرق.

الغلاة

موقف أهل البيت(عليهم السلام) من الغلاة

إنّ أعظم شيء على الشيعة هو حمل فرق الغلاة عليهم وإضافتها إليهم; ولقد كان الحكام وزبانيتهم وراء نشاط تلك الفرق الضالة ومؤازرتهم بالسياسة، وسهلت لهم

الطرق ليصلوا إلى غايات في نفوسهم من الوقيعة في الشيعة، والحطّ من كرامة أهل البيت(عليهم السلام)، إذ كانوا لا يستطيعون أن ينالوا من عقائدهم أو ينتقصوهم بشيء، والأمر واضح كلّ الوضوح، فإنّ مذهب أهل البيت(عليهم السلام)لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وتعاليمهم هي المحور الذي يدور عليها نظام الإسلام، فكان دخول الغلاة في صفوف الشيعة عبارة عن حركة سياسية أوجدتها عوامل من جهة، والفتك بالإسلام من جهة أُخرى، لأنّ دخول الغلاة في الإسلام كان انتصاراً لمبادئهم ، إذ لم يجدوا طريقاً للانتقام من الإسلام إلاّ باختراع المغالاة في بعض العقائد الإسلامية عندما عجزوا عن مقابلته بالقوة وجهاً لوجه، وانهزموا أمام قوم وطأوا أرضهم بأقدام لا تتأخر خطوة إلى الوراء إمّا الموت أو الفتح، فأذلّوا عزيزهم، وأسروا ذراريهم، وأخذوا منهم الجزية عن يد وهم صاغرون.

وقد عالج أهل البيت(عليهم السلام) هذه المشكلة الخطرة، وعرفوا الدوافع التي دعت هؤلاء الكفرة إلى الالتحاق بصفوف الشيعة، واتّضح لهم غايات خصومهم الذين يريدون أن يوقعوا بهم، فكان أهل البيت(عليهم السلام) يعلنون للملأ البراءة من الغلاة وجاهروا بلعنهم، وأمروا شيعتهم بالتبرؤ منهم والابتعاد عنهم، وتلقى الشيعة تلك الأوامر الشريفة بالقبول والامتثال، فأعلنوا البراءة وملأوا كتبهم من التبريء منهم، وافتوا بحرمة مخالطتهم، واجتمعوا على نجاستهم وعدم جواز غسل ودفن موتاهم وتحريم اعطائهم الزكاة، ولم يجوّزوا للغالي أن يتزوّج المسلمة ، ولا المسلم أن يتزوّج الغالية ولم يورثوهم من المسلمين وهم لا يرثون منهم.

وكان الإمام الصادق(عليه السلام) يلعن المغيرة بن سعيد ويصرّح بكذبه وكفره، ولعن أبا الخطاب وأصحابه وجميع الدعاة إلى المبادئ الفاسدة، وكان هذا الإعلان من الإمام الصادق(عليه السلام) قد أوقف سريان دائها القاتل، ولم يبق من تلك الفرق إلاّ الاسم في التاريخ وبادت بمدة قصيرة.

وقال(عليه السلام) لمرازم: قل للغالية توبوا إلى اللّه فإنّكم فساق كفار مشركون، وقال(عليه السلام) له: **إذا قدمت الكوفة فأت بشار الشعيري وقل له يقول لك جعفر بن محمد: يا كافر يا فاسق انا بريء منك.**

قال مرازم: فلما قدمت الكوفة قلت له، يقول لك جعفر بن محمد: يا كافر يا فاسق يا مشرك أنا بريء منك، قال بشار: وقد ذكرني سيدي قلت: نعم ذكرك بهذا، قال: جزاك اللّه خيراً.

ولما دخل بشار الشعيري على أبي عبد الله الصادق(عليه السلام) قال له: **أخرج عني لعنك الله، والله لا يظلّني وإياك سقف أبداً، فلما خرج قال**(عليه السلام): **ويله ما صغّر الله أحداً تصغير هذا الفاجر، إنه شيطان ابن شيطان خرج ليغوي أصحابي وشيعتي فاحذروه، وليبلغ الشاهد الغائب إني عبد الله وابن أمته ضمّتني الأصلاب والأرحام، وإني لميّت ومبعوث ثم مسؤول**(٥٩٦).

وكتب الإمام الحسن العسكري(عليه السلام) ابتداءً منه إلى أحد مواليه: «**إنّي أبرأ إلى الله من ابن نصير الفهري وابن بابه القمي فابرأ منهما، واني محذرك وجميع موالي، ومخبرك اني العنهما عليهما لعنة الله، يزعم ابن بابا أني بعثته نبياً وأنه باب، ويله لعنه الله سخر منه الشيطان فأغواه فلعن الله من قبل منه، يامحمد إن قدرت أن تشدخ رأسه فافعل**»(٥٩٧).

وقال أبو عبد الله الصادق(عليه السلام) يوماً لأصحابه: «**لعن الله المغيرة بن سعيد لعن الله يهودية كان يختلف إليها يتعلم منها الشعر والشعبذة والمخاريق، إنّ المغيرة كذب على أبي، وان قوماً كذبوا على مالهم! أذاقهم الله حر الحديد، فوالله مانحن إلاّ عبيد خلقنا الله واصطفانا مانقدر على ضر ولا نفع إلاّ بقدرته، إن رحمنا فبرحمته، وإن عذّبنا فبذنوبنا، ولعن الله من قال فينا ما لا نقول في أنفسنا، ولعن الله من أزالنا عن العبودية لله الذي خلقنا وإليه مآبنا ومعادنا وبيده نواصينا**».

وقال(عليه السلام): «**إنّ أبا منصور كان رسول إبليس: لعن الله أبا منصور، قالها ثلاثاً**».

وقال(عليه السلام): «**إنّا أهل بيت صادقون لا نعدم من كذاب يكذب علينا عند الناس يريد ان يسقط صدقنا بكذبه علينا، ثم ذكر المغيرة وبزيغ والسري وأبا الخطاب، ومعمر وبشار الشعيري وحمزة اليزدي وصائد النهدي، فقال: لعنهم الله اجمع وكفانا مؤنة كلّ كذاب**»(٥٩٨).

وعن حمدويه قال: كنت جالساً عند أبي عبد الله وميسرة عنده، فقال له ميسرة: جعلت فداك عجبت لقوم كانوا يأتون إلى هذا الموضع فانقطعت أخبارهم وآثارهم وفنيت آجالهم. قال(عليه السلام): **ومن هم؟** قلت: أبو الخطاب وأصحابه، فقال(عليه السلام) - وكان متكئاً ورفع بنظره إلى السماء - : «**على أبي الخطاب لعنة الله والملائكة والناس اجمعين، فأشهد بالله أنه كافر فاسق مشرك، وانه يحشر مع فرعون في أشدّ العذاب**».

وذكر عنده أصحاب أبي الخطاب والغلاة فقال(عليه السلام): «**لا تقاعدوهم ، ولا تواكلوهم ولا تشاربوهم ، ولا تصافحوهم ولا توارثوهم**»(٥٩٩).

---

(٥٩٦) تنقيح المقال ج١ ص١٧٠/ ١٢٩٤.
(٥٩٧) رجال الكشي ص٥٢٠/ ٩٩٩.
(٥٩٨) رجال الكشي ص٣٠٥ / ٥٤٩.
(٥٩٩) رجال الكشي ص٢٩٧ / ٥٢٥.

وقال(عليه السلام): «**إن من الغلاة من يكذب حتى أنّ الشيطان يحتاج إلى كذبه**».

وقال(عليه السلام): «**إن قوماً يزعمون أني لهم إمام، والله ما أنا لهم بإمام، مالهم لعنهم الله! أقول كذا ويقولون كذا، إنما أنا إمام من أطاعني، ومن قال بأننا أنبياء فعليه لعنة الله، ومن شكّ في ذلك فعليه لعنة الله**»[٦٠٠].

هذا بعض ماورد في الغلاة الذين حاول خصوم آل محمد الحاقهم بالشيعة لغاية الحطّ من كرامة المبدأ، وليظهروهم للملأ بأبشع المظاهر وأشنعها، ويعلنوا للعالم أنّ الشيعة يعتقدون في الأئمة الألوهية، فلا يصلح عدّهم من المسلمين فتراق بذلك دماؤهم وتنهب أموالهم، وكم حدّثنا التاريخ عن تلك الفظائع السود; ومن أراد أن يعرف موقف الشيعة من طوائف الغلاة فليرجع إلى كتاب : «روض الجنان» للشهيد الثاني المتوفى سنة (٩٩٦هـ)[٦٠١]، و«نهج المقال» للميرزا محمد الاسترابادي المتوفى سنة (١٠٢٦هـ)[٦٠٢] و «الانتصار» للسيد المرتضى المتوفى سنة (٤٣٦ هـ)[٦٠٣]، و«التهذيب» للشيخ الطوسي المتوفى سنة (٤٦٠هـ)[٦٠٤]، و«السرائر» لابن إدريس المتوفى سنة (٥٩٨ هـ)[٦٠٥] و«المنتهى»[٦٠٦] و«نهاية الإحكام»[٦٠٧] و «التذكرة»[٦٠٨] و«القواعد»[٦٠٩]و«التبصرة»[٦١٠] للعلامة الحلي المتوفى سنة (٧٢٦ هـ)، و«البحار» للشيخ المجلسي المتوفى سنة (١١١١ هـ)[٦١١]، و«الدروس» للشهيد الأول المتوفى سنة (٧٨٦ هـ)[٦١٢] و«جامع المقاصد» للشيخ علي الكركي المتوفى

---

(٦٠٠) الشيعة في التاريخ لمحمد حسين الزيني ص١٧٨، نقلاً عن منهج المقال.
(٦٠١) رجال الكشي ص ٣٠١ / ٥٣٩.
(٦٠٢) نهج المقال ص٣٢٣ ـ ٣٢٧.
(٦٠٣) الانتصار ص٨٨.
(٦٠٤) التهذيب ج١ ص٢٢٣ .
(٦٠٥) السرائر ج١ ص٣٥٦ .
(٦٠٦) المنتهى ج٣ ص٢٢٤.
(٦٠٧) نهاية الإحكام ج١ ص٢٧٤ .
(٦٠٨) التذكرة ج١ ص٦٨.
(٦٠٩) القواعد ج١ ص١٩١ .
(٦١٠) التبصرة ص٣٥ .
(٦١١) بحار الأنوار ج٨٠ ص٤٤ .
(٦١٢) الدروس ج١ ص١٢٤ .

سنة (٩٤٠هـ)[٦١٣]و«الشرايع»[٦١٤] و«المعتبر»[٦١٥] و«المختصر النافع»[٦١٦] للمحقق أبي القاسم الحلي المتوفى سنة (٦٧٦ هـ) و «الجواهر»[٦١٧] للشيخ محمد حسن المتوفى سنة (١٢٦٦ هـ). وغيرها من الكتب الفقهية التي تنصّ بإجماع على كفر الغلاة ونجاستهم وبعدهم عن الدين وأن لا رابطة بينهم وبين الشيعة.

كما أنّ كتب الرجال طافحة بذمّهم والتبرؤ منهم ومن معتقداتهم، ويلعنونهم بلغة واحدة.

فأملنا بأبناء المستقبل أن لا يركنوا إلى الأوهام والأباطيل وأن يطلبوا الحقيقة، فالعلم يطلب منهم أداء رسالته، والحقّ يدعوهم إلى مؤازرته، فقد آن أن تماط عن العيون غشاوات التعصب التي منعتها من رؤية الحق وأبرزت الواقع معكوساً; إذ هي كعدسة المصور فليعتدل الكتّاب عن هذه السيرة الملتوية، وليغيّروا خططهم ولغتهم في ذكر الشيعة ولا يلتفتوا لأوضاع تلك العصور المظلمة التي جنت على الإسلام جناية لا تغفر، وملأوا القلوب بالأحقاد والضغائن، ونسبوا مبدأ التشيّع إلى عبد اللّه بن سبأ اليهودي، وطعنوا بذلك على أصحاب محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) الذين عرفوا بتشيعهم لعلي، ويتجاوز عددهم المئات وغيرهم ممن تكتّم جرياً مع الظروف ومتابعة الأحوال، على أنّ كلمات اللغويين والمفسّرين قد أجمعت على أنّ معنى الشيعة هي الموالاة لعلي إذ أصبح علماً في ذلك.

عبد اللّه بن سبأ

أما عبد اللّه بن سبأ، ذلك الشخص الوهمي الذي وصفوه بصفات البطولة والإقدام، وجعلوه صاحب السلطة المطلقة في المجتمع الإسلامي، وقالوا عنه إنه استطاع أن يسيطر على أهل مصر ويقود منهم جيشاً لقتل الخليفة عثمان، وأن أبا ذر تعلّم منه ، وعماراً أخذ بآرائه، وحرب الجمل من دسائسه، ووقعة صفين من تصلّبه، ومبادئ التشيع من تفكيره... وقد ورد ذكره في كثير من الكتب حتى أصبحت قصته وكأنّها حقيقة ملموسة وقضية واقعية. وهؤلاء لم يلتفتوا الى أن الإساءة المتحققة من وراء

---

(٦١٣) جامع المقاصد ج١ ص١٦٤ .
(٦١٤) الشرايع ج١ ص٤٥ .
(٦١٥) المعتبر ج١ ص٩٥ ـ ٩٦ .
(٦١٦) المختصر النافع : ٢٢ .
(٦١٧) الجواهر ج٦ ص٨١ .

هذه الأكذوبة لا تقتصر على الشيعة والطعن في أصولها وإنّما تشمل صميم حركة الإسلام ورجالاته حيث جعلوا لهذا اليهودي قدرات سحرية تمكنه من قيادة جموع المسلمين كيف شاء وتوجيه رجالات الدين كيف أراد يتلاعب بسلوكها وأفكارها بشكل لا يليق إلاّ بمن اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً.

والّذي يلفت النظر هو أنّ بعض الشيعة ترجموا له ، وذكروه للتبرؤ منه، وأخف عبارة يقولونها في ترجمته: عبد اللّه بن سبأ ألعن من أن يذكر(٦١٨).

وإذا أردنا أن نرجع لواقع هذه الشخصية، وما لها من صلة في الواقع وذلك على ضوء البحث الدقيق، فإنّ النتائج العلميّة تثبت لنا عدم ثبوت هذه الشخصية، وأنّها أسطورة وحديثها خرافة، وهي من مبتكرات التعصب الطائفي، ودسائس السياسة، للحطّ من قيمة مذهب أهل البيت(عليهم السلام)، والوقيعة في شيعتهم .

ولو أنّ هؤلاء الذين ذكروا عبد اللّه بن سبأ بتلك الصورة المدهشة، لينالوا من مقام الشيعة، وقفوا قليلاً أمام مصادر هذه الأسطورة، ومنحوا لها بعض الوقت من التأمل، لانكشف لهم الواقع وظهر أنّ المصدر الوحيد هو الطبري المتوفى سنة (٣١٠ هـ) ولم يسبقه أحد في ذكرها(٦١٩)، والكلّ رواها عنه وهو يرويها عن سيف بن عمر بسلسلة مظلمة مجهولة ، وسيف قد أجمع علماء الرجال على أنه كذاب، وسيأتي الحديث عن قصة ابن سبأ في الجزء السادس من هذا الكتاب.

ولنصغ الآن إلى حديث الأستاذ كرد علي حول مذهب التشيع وعلقة ابن سبأ به. يقول الأستاذ كرد علي في خطط الشام:

عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاة علي في عصر رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) مثل سلمان الفارسي القائل: بايعنا رسول اللّه على النصح للمسلمين والإئتمام لعليّ ابن أبي طالب والموالاة له. ومثل أبي سعيد الخدري الذي يقول: أمر الناس بخمس فعلوا باربع وتركوا واحدة ولما سئل عن الأربع، قال : الصلاة والزكاة وصوم شهر رمضان والحج، قيل فما الواحدة التي تركوها؟ قال: ولاية عليّ ابن أبي طالب.

---

(٦١٨) منتهى المقال ج٤ ص١٨٦ / ١٧٢٦.

(٦١٩) تاريخ الطبري ج٢ ص ٦١٥ و ٦٤٧ ـ ٦٤٨.

قيل له: وإنها لمفروضة معهن، قال: نعم هي مفروض معهن. ومثل أبي ذرّ الغفاري، وعمار بن ياسر ، وحذيفة بن اليمان، وذي الشهادتين خزيمة بن ثابت، وأبي أيوب الأنصاري، وخالد بن سعيد بن العاص، وقيس بن سعد ابن عبادة.

وأما ما ذهب إليه بعض الكتّاب من أن مذهب التشيّع من ابتداع عبد اللّه ابن سبأ المعروف بابن السوداء فهو وهم وقلة معرفة بحقيقة مذهبهم، ومن علم منزلة هذا الرجل عند الشيعة، وبراءتهم منه ومن أقواله وأعماله، وكلام علمائهم في الطعن فيه بلا خلاف بينهم فيه; علم مبلغ هذا القول من الصواب، ولا ريب في أنّ أوّل ظهور الشيعة كان في الحجاز بلد المتشيّع له. انتهى[٦٢٠].

ويقول الإمام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء(رحمه الله) حول الغلاة ونسبتهم للشيعة:

أما الشيعة الإمامية فيبرأون من تلك الفرق براءة التحريم، على أنّ تلك الفرق لا تقول بمقالة النصارى بل خلاصة مقالتهم بل ضلالتهم أنّ الإمام هو اللّه سبحانه ظهوراً واتحاداً أو نحو ذلك مما يقول به كثير من متصوفة الإسلام ومشاهير مشائخ الطرق، وقد ينقل عن الحلاّج والكيلاني، والرفاعي، والبدوي وأمثالهم من الكلمات ـ وان شئت فسمها كما يقولون شطحات ـ ما يدل بظاهره على أنّ لهم منزلة فوق الربوبية، وأنّ لهم مقاماً زائداً عن الألوهية (لو كان ثمة موضع لمزيد) وقريب من ذلك ما يقول به أرباب وحدة الوجود، أو الموجود.

أمّا الشيعة الإمامية وأعني بهم جمهرة العراق وإيران، وملايين المسلمين في الهند ومئات الألوف في سوريا والأفغان، فإنّ جميع تلك الطائفة من حيث كونها شيعة يبرأون من تلك المقالات، ويعدّونها من أبشع الكفر والضلالات، وليس دينهم إلاّ التوحيد المحض، وتنزيه الخالق عن كلّ مشابهة للمخلوق، أو ملابسة لهم في صفة من صفات النقص والإمكان والتغيير والحدوث، وما ينافي وجوب الوجود والقدم والأزلية، إلى غير ذلك من التنزيه والتقديس المشحونة به مؤلفاتهم في الحكمة والكلام، من مختصرة أو مطولة[٦٢١].

---

(٦٢٠) خطط الشام ج٦ ص٢٥١ ـ ٢٥٦ .

(٦٢١) انظر نهج الحقّ وكشف الصدق، للعلامة الحلي ص٧٣ و ٧٥ و ٧٧ .

وعلي أيّ حال فإنّ الشيعة براء مما نسب إليها من الغلوّ، وأما أهل المقالات في الغلوّ كالبيانية والمنصورية وغيرهم فإنّ نسبتهم إلى الشيعة ظلم ـ وما أكثر الظلم للشيعة ـ وتهجم على أُمة تدين للّه بالوحدانية، ولمحمد بالرسالة، ولآله بالمودة.

وأستطيع الجزم بأن هذه الأُمور لم تخف على أُولئك القوم الذين أصبحوا يتهجمون على الشيعة بالطعن في عقائدهم، إذ نسبوا إليهم هذه المقالات الفاسدة التي يقول بها الغلاة. نعم إنّهم يعرفون الأمر ولكنّ الحقّ مرّ لا يمكن أن تتقبله أذواقهم، ولقد أعجزهم الأمر عن مؤاخذة الشيعة والطعن في عقائدهم، عندما وجدوا طرق المؤاخذات أمامهم مغلقة فلا يستطيعون منها النفوذ إلى مقاصدهم، فالتجأوا إلى هذه الخرافات والأباطيل التي لا تثبت أمام التدقيق والتحقيق. كيف يستطيعون مؤاخذة الشيعة ومنهم صحابة الرسول والتابعين لهم بإحسان؟ كأبي ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وجارية بن قدامة، وجابر بن عبد اللّه الأنصاري، وحذيفة بن اليمان، وسلمان الفارسي، وصعصعة بن صوحان، والمقداد الكندي وغيرهم.

ومن الغريب أنّ أكثر الكتاب قد نسبوا لأصحاب محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) تأثرهم بآراء ابن سبأ، وأيّ طعن على الإسلام وعلى رسوله(صلى الله عليه وآله وسلم) أعظم من هذا بأن يسيطر يهودي على عقول أصحاب النبيّ ومن تأدبوا بآدابه; وإليك ما كتبه بعض كتاب العصر الحاضر عند ذكره لعبد اللّه بن سبأ ونسبة ظهور التشيع إليه، إذ يقول:

إنّ هذا الشيطان هو عبد اللّه بن سبأ من يهود صنعاء، وكان يبثّ دعوته بخبث وتدرّج ودهاء، واستكثر اتباعه بآخرين من البلهاء الصالحين المتشددين في الدين المتنطعين في العبادة إلى أن يقول: وعني بالتأثير في أبناء الزعماء من قادة القبائل وأعيان المدن الذين اشترك آباؤهم في الجهاد والفتح; فاستجاب له من بلهاء الصالحين وأهل الغلوّ من المتنطعين جماعات كان على رأسهم في الفسطاط الفاقعي بن حرب العتكي، وعبد الرحمن بن عديس البلوي، وكنانة بن بشر بن عتاب، وعبد اللّه بن زيد بن ورقاء الخزاعي، وعمر بن الحمق الخزاعي، وعروة بن النباع الليثي، وقتير السكوني، وكان على رأس من استغواهم ابن سبأ في الكوفة: عمرو بن الأصم، وزيد بن صوحان العبدي، والأشتر بن مالك بن الحارث النخعي ، وزياد بن النضر الحارثي، وعبد اللّه ابن الأصم. ومن البصرة: حرقوص بن زهير السعدي، وحكيم بن جبلة العبدي، وذريح بن عباد العبدي، وبشر بن شريح الحطم بن ضبيعة القيسي، وابن المحرش. أما المدينة فلم يندفع في هذا الأمر من أهلها إلاّ ثلاثة نفر: محمد بن أبي بكر، ومحمد بن حذيفة، وعمار بن ياسر(٦٢٢).

---

(٦٢٢) حملة رسالة الإسلام، لمحب الدين الخطيب ص٢٣.

هكذا يقول، ونبرأ إلى الله مما يقول، ليت شعري أيّ جرأة أعظم من هذه الجرأة على أصحاب محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، ووصفهم بهذه الصفة بأنّهم مخدوعون بدعوة ذلك الشيطان، واستجابوا لما جاء به هذا اليهودي المزعوم، وهم خريجو مدرسة محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) ودعاة الحقّ وأتباعه، ولكنّ الشيطان خدع هذا الكاتب، فجاء بهذا الافتراء وهو: يجادل بغير علم ويتبع كل شيطان مريد(**كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ**)(٦٢٣).

ونحن نأمل من كتّابنا الذين يكتبون لذات الحقّ ولا يميل بهم الهوى، ولا تستولي عليهم النزعات الطائفية، أن يوجّهوا عنايتهم لإظهار الحقيقة عند دراستهم لقضية ابن سبأ بأن يدرسوها دراسة مؤرخ لا يتحيّز ولا يتعصّب، ولا يقصد إلاّ خدمة العلم وإظهار الحقّ، ويقف موقف المدقّق على مصادرها ورواتها والظروف التي أوجدتها، ليتّضح له الأمر، ويتميّز الحقّ من الباطل.

وأعود فأقول مؤكّداً: إنّ قضية ابن سبأ أسطورة خرافية أوجدتها عدّة عوامل للحط من تعاليم الإسلام والنيل من رجاله، بأ نّهم قد تأثروا بآراء رجل يهودي فأوردهم موارد الهلكة، من دون تميز وتفكير، إلى غير ذلك ممّا يؤدي إليه إيجاد هذه الخرافة من مناقضات.

هذا مع أنّ سندها باطل، وراويها وهو سيف بن عمرو كذاب، وسيأتي التحقيق حول ذلك في الجزء السادس من هذا الكتاب .

انتشار المذهب الجعفري

انتشاره في الأقطار الإسلامية

وخلاصة القول أنّ المذهب الجعفري انتشر بقوّته ومقوماته من دون استناد إلى سلطة، أو عوامل الترغيب في اعتناقه، وأنّ أوّل ظهور الشيعة كان في بلد الحجاز، وهو أوّل أرض بذرت فيه بذرة التشيّع، وفي المدينة المنورة في القرن الرابع انتشر بصورة ظاهرة، وقد عظم ذلك على من يسوؤهم انتشار مذهب أهل البيت(عليهم السلام) ، كابن حزم فقد وصف المدينة المنورة بما لا يليق بها لوجود الشيعة فيها.

---

(٦٢٣) الحج : ٤ .

كما انتشر التشيّع في الشام، وكان أبو ذر الغفاري هو الذي نشر المذهب هناك، ولا يزال في قرية الصرفند بين صيدا وصور، مقام معروف باسم أبي ذر، أتخذ مسجداً معموراً.

وهم اليوم عدد كثير اشتركوا في إدارة البلاد وشغلوا مناصب مهمّة في حكومة سوريا، ومنهم التجار والأطباء، ولهم مركز مهمّ هناك، وتقام عندهم مآتم عزاء الحسين(عليه السلام) علناً في عاصمة الأمويين، ويحضرها كثير من أهل السنة، والخطيب يفصح بمخازي معاوية ويزيد وبني أمية مستنبطاً ذلك من التاريخ الصحيح .

ويقول ابن جبير في رحلته في وصف المذاهب المتغلبة على الشام في القرن السادس: إنّ الشيعة أكثر من السنيين وقد عموا البلاد بمذهبهم(٦٢٤).

ويقول كرد علي: وفي دمشق يرجع عهدهم ـ أي الشيعة ـ إلى القرن الأوّل للهجرة، وفي أكناف حوران وهم مهاجرة جبل عامل، وفي شمال لبنان والمتن والبترون وهم مهاجرة بعلبك، ولا يقلّ عدد الشيعة في الشام من الإمامية عن مائتي ألف نسمة(٦٢٥).

أما جبل عامل وهو البلد الواقع بين صفد جنوباً ونهر الأوليّ شمالاً ، وغور الحولة وما والاها إلى أرض البقاع شرقاً، والبحر المتوسط غرباً فقد كان بدء التشيع في جبل عامل بفضل الجهود التي بذلها المجاهد في الله أبو ذر الغفاري رضي الله عنه وانتشر بسبب دعوته، وكانت حركة العلم واسعة حتى اليوم، فالتشيّع في لبنان منتشر بكثرة ويسير بكلّ نظام وهدوء، محفوظ الحقوق، مرعي الجانب، ولهم في جامعة النجف الأشرف جماعة، وتخرج منها عدد كثير من أبطال العلم، وحملة دعوة الاصلاح ، ومنهم المجتهدون المجاهدون في نصرة الدين وجمع كلمة المسلمين.

ويقول الأستاذ كرد علي أيضاً: إنّ في حمص قرى للشيعة خاصة، وفي نفس المدينة جماعات ظاهرة ومستترة، وفي أعمال أدلب قرى الغوغة ونبل وغيرهما، وكلها شيعة وفيهما إلى اليوم السادة بنو زهرة نقباء الأشراف في مدينة حلب، وكلّ هؤلاء من بقايا زمن الحمدانيين، ومن فلول شيعة حلب يوم تشتت شملهم(٦٢٦).

---

(٦٢٤) رحلة ابن جبير ص٢٥٢ .

(٦٢٥) خطط الشام لكرد علي ج٦ ص٢٥٢ .

(٦٢٦) خطط الشام ج٦ ص٢٤٧ .

يشير بذلك إلى الكارثة التي أصابت الشيعة عندما أفتى الشيخ نوح الحنفي بكفر الشيعة واستباحة دمائهم تابوا أو لم يتوبوا، فقتل بسبب هذه الفتوى أربعون ألفاً من الشيعة، وانتهبت أموالهم وأُخرج الباقون إلى القرى.

وغلب مذهب التشيع في حلب بصورة ظاهرة ولهم قوة استطاعوا ان يمنعوا سليمان بن عبد الجبار صاحب حلب عن بناء المدرسة الزجاجية، وذلك في سنة (٥١٧ هـ) وسرى التشيّع في أفريقيا بانتشار عظيم، إلى أن قاومته السلطة، يوم كان أمير أفريقيا المعز بن باديس، فإنّه فتك بالشيعة فتكاً ذريعاً وذلك في عام (٤٠٧ هـ) فقد أوقع بهم وقيعة عظيمة ونسبوا ذلك إلى سبّ الشيخين وهي المادة التي يطبقها الولاة على من يريدون الفتك به من أيّ الفرق كان.

وذلك أنّ المعز بن باديس مرّ على جماعة من الشيعة في القيروان وقد سأل عنهم، فلما أحس الناس من المعز الميل عنهم انصرفت العامة من فورها إلى مجتمعات الشيعة، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وتوجّه العسكر للنهب، و شجّعهم عامل القيروان فقتل منهم خلق كثير، وأحرقوا بالنار، ونهبت دورهم، وتتبعوهم في جميع أفريقيا، واجتمع جماعة منهم إلى قصر المنصور قرب القيروان فتحصّنوا به، فحصرهم العامة وضيقوا عليهم، فاشتدّ عليهم الجوع فأقبلوا يخرجون والناس يقتلونهم حتى قتلوا عن آخرهم ، ولجأ منهم بالمدينة إلى الجامع فقتلوا كلّهم [٦٢٧].

وهذه إحدى النكبات الفظيعة التي لاقاها التشيّع وما أكثرها، ومع ذلك فإنّ التشيّع اليوم منتشر في أفريقيا الوسطى والجنوبية زهاء عشرة ملايين نسمة.

وفي اندونيسيا عدد كثير من الشيعة يقدر بثمانية ملايين نسمة، وللعلويين هناك اليد الطولى في نشر المذهب، وكان منهم العلاّمة السيد محمد السيد عقيل صاحب المؤلفات القيّمة «كالنصائح الكافية» و «العتب الجميل» و«تقوية الإيمان» و «القول الفصل» . وكان يقيم في سنغافورا ، وكانت لهم أندية أدبية تربط أواصر بعضهم مع بعض .

أمّا في مصر فقد انتشر التشيّع عند انتشار الإسلام هناك، وذلك بواسطة أصحاب رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) الذين شهدوا فتح مصر، وهم المقداد بن الأسود الكندي وأبو ذر الغفاري، وأبو رافع ، وأبو أيوب الأنصاري، فهؤلاء هم دعاة التشيع وأنصاره.

---

(٦٢٧) الكامل لابن الأثير ج٩ ص١٢٣ ط ١ .

ولمّا دخلها عمار بن ياسر أيّام عثمان دعا إلى التشيع ونمت روحه، حتى أصبحت البلاد كلّها إلى جانب علي، وأجمعوا على مقاومة عثمان.

ثم دخلها بعد ذلك قيس بن سعد والياً فركز دعائم التشيع هناك، وخفق لواؤه وكثرت جنوده، لكن بدخول عمرو بن العاص تأخّر سير تلك الحركة إلى أن زال ملك الأمويين، فأظهر المصريون ما انطوت عليه قلوبهم من الولاء لعليّ(عليه السلام)، ولازال التشيّع يظهر في مصر ويخفى حسب العوامل التي تدعو إلى خفائه وظهوره، وهو اليوم منتشر هناك وفيه فئات كثيرة.

وفي الهند ظهر التشيع هناك وانتشر بسبب الروابط المتصلة بين العرب والهنود، وقد اعتنق مذهب التشيّع جماعة كبيرة من الوثنيين بمساعي المرشدين الذين دخلوا بلاد الهند من الشيعة، ومنهم جماعة كثيرة باقون إلى اليوم، ولهم امارات في جميع الأقطار الهندية، ولا يخلو بلد منهم، وهناك بلد يختصّ بهم وأخرى يكونون الأكثرية بها، وهي لكنهور وهي المركز الوحيد للشيعة في الهند وعاصمة مملكة اودة الفانية ومنبع علمائها قديماً، وتعدّ اليوم من أكبر البلاد العلمية، وفيها مدارس عربية أهمّها الجامعة السلطانية، ومنها مدرسة الواعظين وهي تختصّ بالتبليغ، والمدرسة الناظمية وقد أسّسها العلامة السيد أبو الحسن كما أسس الجامعة السلطانية، وفي لكنهور الشيء الكثير من آثار الشيعة كالمساجد والحسينيات، ومن البلدان جانبور، بتن آباد، مظفر آباد، لاهور، بنجاب[٦٢٨].

وبعد استقلال الباكستان وانفصالها عن الهند لعب الشيعة دوراً كبيراً في بناء باكستان الحديثة وحافظوا على مواقعهم في المجتمع الجديد ومنهم العلماء ورجال الدين وكبار التجار والأدباء وحملة الشهادات.

وتنتشر في عموم الباكستان المساجد والحسينيات وأصبح وجودهم متميزاً وفي انتشار وتوسع. وقد أذنت للعلامة السيد حيدر جوادي كراروي بترجمة كتابنا «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة» الى اللغة الأردية لكثرة الطلبات وإقبال الشباب على قرائته وقامت بنشره مكتبة تعمير أدب في لاهور عام (١٣٨٨ هـ) وأهدانا السيد أبرار حسين شيرازي نسخة عن مكتبة تعمير أدب نحتفظ بها الآن، وقد بلغتني أخبار تبهج النفس وتسر المؤمن لذلك الإقبال على مبادئ أهل البيت والتقيّد بمنهجهم في

---

(٦٢٨) تاريخ الشيعة ص٢٥٨ .

الحياة والإلتزام بأقوالهم وتعاليمهم وتزايد أعداد الشباب وارتباطهم بالمجامع الشيعية والمراكز الدينية في مختلف أنحاء الباكستان.

أمّا في تركيا فقد انتشر المذهب بصورة محسوسة وكثر أتباعه، ولكنّ السلطان سليم المتوفى سنة (٩٢٦ هـ) قاوم الشيعة وقتل منهم مقتلة عظيمة.

يقول إبراهيم الطبيب الأوّل للجيش التركي: وكان السلطان سليم شديد التعصب على أهل الشيعة، ولا سيّما أنّه كان في تلك الأيام قد انتشرت بين رعاياه تعاليم شيعية تنافي مذهب أهل السنة، وكان قد تمسك بها جماعة من الأهالي، فأمر السلطان سليم بقتل كل من يدخل في هذه الشيعة، فقتلوا نحو أربعين ألف رجل، وأخرج فتوى شيخ الإسلام بأنّه يؤجر على قتل الشيعة وإشهار الحرب ضدّهم[٦٢٩].

ومع هذا فهم اليوم في تركيا عدد كثير منتشرون في أطراف البلاد.

وفي السعودية، فالقطيف وقراها شيعة خالصة، وأما الاحساء وقاعدتها هفوف فالشيعة فيها يشاطرون غيرهم، كما أنّ في قطر يوجد كثير من الشيعة، ولا يزال من الاحساء والقطيف في النجف الأشرف مهاجرون لتحصيل علم أهل البيت(عليهم السلام)، ومنهم علماء مبرّزون وأدباء لهم مكانتهم الأدبية والعلمية، وفي البحرين للتشيّع مكانة، ولأهله قوّة، وقد برز منه علماء خدموا الأُمّة الإسلامية، بمؤلفاتهم القيّمة وآثارهم الجليلة، التي تعدّ في الواقع من أعظم التراث الشيعي، ولهم في النجف الأشرف الآن بعثات تتلقى العلوم الدينية، ومنهم علماء مبرّزون وأدباء مشهورون.

وفي الأفغان انتشر التشيّع من زمن بعيد، ويقدر عددهم اليوم بعشرة ملايين، ويوجد منهم في النجف زهاء ثلاثة آلاف نسمة منهم من يدرس الفقه الجعفري، ومنهم من يلتمس الرزق، وقد برز منهم علماء لهم مكانتهم العلمية.

وهاجر كثير من الشيعة إلى أمريكا من السوريين وجبل عامل للتجارة والزراعة من قبل نصف قرن، وينوف عددهم اليوم على خمسين ألفاً، وهم ذوو شأن وعزة هناك يقيمون شعائر الإسلام علناً، وقد بنوا مسجداً فخماً في الولايات المتحدة، وفي أمريكا من الشيعة قوم من الفرس والهنود وقليل من العراقيين.

كما دخل مذهب التشيّع إلى الصين منذ القرن الرابع ولهم عدد كثير هناك حتى اليوم.

---

(٦٢٩) مصباح الساري ونزهة القاري ص١٢٣ ـ ١٢٤.

وفي روسيا كان للشيعة في البلاد الروسية حرية واسعة في إقامة الشعائر الدينية كبلاد بخارى والقوقاس، وكانوا قبل الحرب العالمية سنة (١٣٣٢ هـ) يتواردون بكثرة لزيارة المشاهد المقدسة، ويفدون مهاجرين لطلب العلم، وإلى اليوم منهم جماعة في النجف، حالت دون وصولهم لأوطانهم ودون الصلات لهم في بلادهم هذه السلطة الحاضرة.

أما العراق فقد انتشر فيه مذهب أهل البيت في الصدر الأول، وقام بذلك أصحاب الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) في الكوفة، والمدائن والبصرة، وعرفت الكوفة بأنّها علوية النزعة، وقام رجال الدعوة في الدفاع عن أهل البيت(عليهم السلام)، وتحمّلوا في عهد معاوية ما تحمّلوا كما مرّ بيان ذلك.

وفي المدائن كان سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان قد نشرا دعوة التشيّع هناك، وكذلك البصرة وغيرها من مدن العراق من الشمال إلى الجنوب، وانتشر التشيع فيها بصورة ظاهرة، والعراق، اليوم معروف بتشيعه لأهل البيت وولائهم للعترة الطاهرة، والشيعة هم الأكثرية في العراق، وقد قاوموا ظلم الأتراك بثورات سجّلها التاريخ بكلّ فخر لهم في محاربة الاستبداد، وقاوموا الاستعمار الانكليزي، وأعلنوا ثورة العشرين التي شيّدت صرح الاستقلال الوطني .

أما في إيران، فقد كانت بلاد فارس مسرحاً للجيوش الإسلامية وكان اهتمام الحكام منصبّاً على استدرار الأموال وتعيين العمال الذين ينفذون سياسة النظام القائم ويلبون رغبات السلطان، ونزحت قبائل عربية كثيرة ورغم عداء الأمويين وعملهم على إبعاد العناصر المعروفة من الشيعة وإرسالهم مع الجيوش فإنّ الكثير من القبائل عُرف بالتشيع ولم تتخلّ عن هويتها.

وكانت قم وحدها في القرن الأول شيعية، وكان سير التشيع في إيران ثقيل الخطى وهم شيعة بني العباس، وفيهم من يذهب إلى تقديس الأمويين ومناصرتهم، كما أنّ في خراسان نواصب وغلاة في معاوية يدّعون نبوّته، ولكنّ مذهب أهل البيت انتشر في بلاد إيران بصورة تدريجية على ممر الأدوار، حتى أصبحت إيران اليوم كلّها شيعة حكومة وشعباً، وقامت بخدمة المذهب ونشر مآثر أهل البيت وعمارة مراقدهم.

أما عدد الشيعة في اليمن فكثير جداً حسبما بلغنا ممّن زاروا بلادهم هناك، وقد انتشر التشيع في بقاع اليمن منذ صدر الإسلام، ولكن المذاهب الزيدية بمرور الزمن أخذ بعض علمائها يتأثرون بنزعات السلفية ويخشون اتهامات الابتداع التي شهرت بوجه الشيعة منذ مئات السنين لتنفير الناس منهم وإبعاد المسلمين عنهم وإخراجهم بمظهر الابتعاد عن الجماعة. وشاع اتجاه الأخذ ببعض مقولات المتخلفين والسلفية من أهل التعصّب والجمود، وانتشرت بين الصفوف في اليمن. ولكن مذهب أهل البيت له وجود في اليمن ـ وكما علمت ـ فإنّ من مهمات رجال المذهب جلاء أُصول الزيدية والعودة الى جوهر تعاليم الشهيد زيد بن الإمام زين العابدين، ورفض التباعد عن الشيعة المفروض لأغراض أُخرى تجهد في رسم ملامح بعيدة عن الأُصول الزيدية. فالشهرستاني يفضل تأكيد صفة الاعتزال على حقيقة التشيّع، فيدّعي أنّهم يعظّمون أئمة الاعتزال أكثر من تعظيمهم أئمة أهل البيت(عليهم السلام)[٦٣٠] ممّا يدحضه تراث علمائهم ومراجعهم ومصنفيهم الزاخر بعبقات الولاء لأهل البيت(عليهم السلام)، وأشعارهم المشحونة بالإخلاص وصادق الحبّ، كنظم العلاّمة مصنف الهداية اللؤلؤية وهو من رجالهم ومراجعهم في القرن التاسع الهجري:

وإنّي وحبّي للنبيّ وآله *** وما اشتملت مني عليه ضلوع
وإن أفَلّت منهم شموس طوالع *** يكون لها بعد الأفول طلوع

ومنها:

أبا الله لي غير التشيّع مذهباً *** ومن لامني فيه فلست أطيع
بني المصطفى لي أُسرة وجماعة *** ومذهبهم لي روضة وربيع
أصمّ إذا حدثت عن قول غيرهم *** وإن حدثوني عنهم فسميع
وبالله إنّي في التشيّع واحد *** وإن كثرت لدي جموع[٦٣١]

أمّا الشوكاني الذي تعرّض لعدوى السلفية وأصابته حمى التيمية، فبعُد عن أُصول الزيدية، وتمكّن من الادعاء فراح يشمل الزيدية بالتهم الباطلة التي وجّهت الى الشيعة الإمامية والتي يبرأ منها كلّ مسلم، فيقول في رسالته (القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد) واصفاً أبناء بلده من الزيدية بالتشيّع، وإن العوام طبائعهم مجبولة على التشيع الى حد يقصر عنه الوصف، حتى لو أنّ أحدهم سمع النقص بالجناب الإلهي

---

(٦٣٠) الملل والنحل ج١ ص٨٤ .
(٦٣١) أنظر البدر الطالع ج١ ص ٢٦ .

والجناب النبوي لم يغضب له عشر معشار ما يغضبه إذا سمع التنقّص بالجناب العلوي بمجرد الوهم والاتهام الذي لا حقيقة له، انتهى .

وآخر عبارته مصادق ما وقع فيه هو ما شاب معتقده.

وهذه أهم الاصقاع التي تنبسط فيها منابت الشيعة، ولهم في جميع أصقاع العالم جاليات منتشرة. وسنتحدث عن بعض مآثر الشيعة وتراثهم القيّم وخدماتهم الإسلامية، ومواقفهم في وجوه الظلمة بصراحة لا أثر فيها للخداع والغش، ولا يشوهها الحرص على الصلات والجوائز وطلب المناصب.

كما سنتكلم عن آدابهم التي تأثرت بآداب الإسلام وثقافته، وأنّ ذهنيتهم صقلتها التجارب، فكانت أكثر ما تعنى بالافكار العميقة، والمعاني الدقيقة، وأنهم يمتازون بالعواطف الثورية الهائجة لاستنهاض الأمّة من كبوتها، وإيقاظها من غفلتها.

والشيء الذي يجب الالتفات إليه هو أنّ تاريخ الشيعة لم يدرس الدراسة الكافية التي ترفع الغموض الذي يكتنف مبادئهم وتطورهم ، إذ المصادر التي يستمدّ منها المعلومات عن الشيعة مضطربة لا توضّح الطريق الموصل إلى الحقيقة، لأنّها مصادر لم تسلم من سيطرة التعصب الأعمى وغلبة الأهواء المردية والتحيّز الممقوت.

كما أنّ كتّاب الفرق قد سلكوا طريق الافتراء والتحامل ، ولم يكتبوا للعلم بل كانت كتاباتهم مجردة عن كل ماله صلة بالحقيقة، وسنوضح ذلك ان شاء الله عسى أن نكشف جانباً مهماً له تمام الصلة بحياتنا الاجتماعية، لأن ليس من اللائق أن يتعايش الشيعي مع أخيه السنّي في اطار العلاقات الاجتماعية فيجد أحدهما من الآخر ما يوثق العلاقات ويمتن المودة، وإذا ما جاءت مناسبة يبدي بها الشيعي فرحه لذكرى تتعلق بآل البيت، أو يظهر فيها حزنه لحادثة الطف أو غيرها من الفواجع، وجد من أخيه امتعاضاً أو اتهاماً، وعند التحقق يجد الشيعي أن أخاه السنّي متأثر بأقول زرعتها أقلام لا ترقب الله، أو ألسنة لا ترعى حرمة الدين. ولقد عشنا في العراق مواسم لا تفرق فيها بين السنّة والشيعة، لأن الشيعة باعتبارهم الأغلبية عملوا على جعل المواسم مناسبات تلهب المشاعر الوطنية وتخدم قضايا الأمة الإسلامية في مواجهة القوى الأجنبية المستعمرة أو الحكام الظلمة. وقد عشت ايضاً تعاطف إخواننا

السنّة في المواسم والمواقف، كما رأيت ماذا صنعت السلفية في النفوس حتى أثمرت نصباً كريهاً وحقداً بغيضاً وأنا أُقيم خارج العراق.

ونسير على ما دأبنا عليه من سلوك التجرّد لكشف الحقيقة، والله الموفق للسداد.

تصفيـة الحسـاب

تصفيــة الحسـاب

أسباب الخلاف وعوامل التفرقة

يطالعنا التاريخ بحوادث مؤلمة، ونزاع بين طوائف المسلمين عامة وبين الشيعة والسنة بصورة خاصة، فإذا أردنا أن نبحث عن الأسباب التي أدّت إلى حدوث تلك المنازعات نجدها سياسية قبل أن تكون دينية، وقد اتّضح لنا في الأبحاث السابقة أنّ تدخل أولي النفوذ والسلطة هو الذي جرّ الأمّة الى تلك المنازعات، وأوقعهم في ورطة الاختلاف، ونشوء تلك المعارك التي اضطرمت نارها، وتنوعت أسبابها بصورة ظاهرة، ويعود ذلك إلى سبب رئيسي هو عامل السياسة.

فذهبت آلاف من النفوس ، واتّسعت بذلك شقّة الخلاف ، وفتحت باب الظنون والإتهامات، ونحن لا يتعلّق لنا غرض بذكر الخلاف بين جميع طوائف المسلمين لأنّا نعلم أنّ هذا الخلاف قديم عميق، ومن المؤسف أنّ كثيراً من قادة المسلمين لم يلتفتوا إلى ماوراء ذلك من خطر يهدد كيان الأمّة، ويقضي على وحدتها التي هي أقوى جهاز تستطيع به الانتصار على خصومهم، الذين وقفوا لهم يتحينون الفرص للوثبة عليهم والتشفي منهم، وقد مرّت الإشارة إلى ذلك.

وحيث كان بحثنا عن المذهب الجعفري وعوامل انتشاره، فنحن لا نتعرّض إلاّ بالإشارة لأسباب الخلاف المتكوّن بين السنة والشيعة، وقد مرّت عليه قرون وقرون، ولم تسعد الأمّة يوماً ما برفع سوء التفاهم وإزالة تلك الحواجز التي تقف بينها وبين وحدتها التي أمر الله سبحانه وتعالى جميع المسلمين بالمحافظة عليها، وعالج الدين الإسلامي مشاكل الخلاف وبيّنها بأدق صورة.

فنحن نرى أنّ هذا الخلاف القائم بين الطائفتين مبنيّ على سببين رئيسيّين هما:

١ ـ الخلاف في الخلافة الإسلامية ومن هو المتأهّل اهليّة صالحة للولاية العامة والرئاسة الشاملة، وهي لا تحصل إلاّ لِمَن خصّه الله بالكمال، وخلّصه من شوائب بالنقص في الأقوال والأفعال، ونزّهه عن الظلم للرعية، حتى يقيم الحدود و (**الله أعلم حيث يجعل رسالته**)[٦٣٢]، والشيعة لا يرون تحقّق تلك الشروط وحصول هاتيك الصفات إلاّ في من اختاره الله وأمر نبيّه بالنصّ عليه.

---

(٦٣٢) الأنعام: ١٢٤ .

٢ ـ عوامل السلطة، فإنّ الطبقة التي سيطرت على نظام الحكم رأت من نفسها عدم انطباق تلك الشروط عليها، والشيعة لا يرون قيمة لسلطان لا يتمسك حقّ التمسك بالشرع، ولا يتنزّه عن الظلم ولا يتورّع عن المحارم، وليس له قابلية تحمل أعباء الخلافة الإسلامية، وإنّ من هؤلاء الذين تربعوا على دست الحكم يريدون أن يكسبوا ثقة الأمّة ويركزوا أنفسهم بالسلطتين الروحية والزمنية فينالوا الثقة التامة، ويصبحوا أمراء المسلمين بحقّ مع عدم انطباق ما يؤهلهم لذلك، فهم إذاً يرون الشيعة حزباً معارضاً، وعقيدتهم لا تتمشى مع أغراضهم، فكانوا لا يعارضون العقائد، ما دامت لا تعارض سياستهم وأغراضهم الخاصة، والناس في أذهانهم ذلك العصر الذي كانوا يسيرون به في حرية العقيدة، وحرية العبادة بأمن تحت ظلال السلطة وأمام القانون.

أما إذا كانت العقيدة مخالفة لرأيهم أو أنّ لها دخلاً في سياسة الدولة، فلا يسمح القانون بإظهارها، ولا تقعد السلطة عن مقاومتها، ومن الواضح أنّ عقائد الشيعة تخالف دستور الحكومة في أغلب الأشياء التي تخرج عن مقاييس حرية الرأي أو سلامة النية والقصد الحكيم والعقائد الصحيحة، ومن هذا التجأ القانون إلى عدم المساواة في العقائد من جهة، وإلى مساواتها من جهة أُخرى، فترى مواقف الحكومة مختلفة اختلافاً كليّاً، وتقف في أكثر حالاتها موقف الحيرة خوفاً من انتشار العقائد التي لها أثرها عند المفكرين فتصبح الأقلية أكثرية، ولا يمكنها الوقوف أمام جارف الانكار، فهي تلتجئ أبداً إلى خلق مشكلات تفرّق بها كلمة الأمّة لتثير الشحناء، وتشغل الأفكار، وذلك هو قانون الظلمة وأصحاب المصالح الشاذة يهديه إليه طبعهم وبقاء الحالة عبر العصور بين معسكرين، معسكر الظلم ومعسكر العدل.

الاتّهام بالتشيّع

وعلى هذا الأساس حاولوا إبراز الشيعة في ذلك المجتمع بصورة تدعو إلى مقاومتهم من كلّ الجهات وفصلهم عن المجتمع الإسلامي بالطعن في عقائدهم مرّة، وبالخروج على الجماعة مرّة أُخرى .

فوجّهوا إليهم التهم، وتقوّلوا الأقاويل التي لا نصيب لها من الصحّة، ولا خط لها من الحقيقة، وإنّما هي اتّهامات كاذبة وافتراءات محضة تمكّنت من قلوب السذّج فأصبحت كالأمر الواقع ، لكثرة العوامل التي دعت إلى تركيز تلك المفتريات في أذهان الناس، وتجنيد السلطة لاشاعتها أقوى الطاقات.

وأنت إذا نظرت بعين البصيرة تجد تلك المؤاخذات والاتّهامات التي رميت بها الشيعة غير محدودة بحد، بل تتسع باتساع غرض السلطة الحاكمة التي لعبت دورها في مقاومة الشيعة على ممر أدوار التاريخ، فيبرز في فترة ضرب معين وفي أُخرى بشكل مغاير.

وسارت الأُمور على ذلك الشكل الذي قضى على حرية التفكير في فهم الأُمور، وأن لا يكون إلاّ ما تراه السلطة وما تتمسك به.

يدخل الإمام مالك بن أنس على أبي جعفر المنصور، فيوجّه إليه سؤالاً: من أفضل الناس بعد رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم)؟

وهنا يقف مالك موقف الحيرة عندما يريد أن يعبّر عن رأيه الصحيح، فربّما يخالف رأي المنصور فيكون عرضة للنقمة، كما نقم منه من قبل، لمخالفته في فتوى طلاق المكره.

ولكنّه درس نفسية المنصور وعرف أغراضه المكنونة، فاجابه: أبو بكر، وعمر، فقال المنصور: أصبت وذلك رأي أمير المؤمنين.

وبالطبع أنّ رأيه محترم والرعية تابعة له فلا يمكن لأحد مخالفته، ومن ذهب إلى غير هذا فإنّما يعرّض نفسه للسخط ويصبح في قائمة المتهمين لمعارض الدولة، وناهيك بما وراء ذلك من بلاء ومحن، ويمكننا ان نعتبر مسألة التفضيل بين الخلفاء بدعة سياسية، ودعاية من دعايات التفرقة منذ أول نشوئها في البيئات الأموية في الشام، وفي غير الشام، ومن المعلوم عند الراسخين في دراسة التاريخ أنّ مسألة التفضيل بين الخلفاء إنّما كانت بهذا الشكل الحتمي لا من حيث الواقع، وإلاّ لو ترك الأمر بدون تدخل السلطة فيه لما كانت المسألة من المسائل المشكلة التي ابتليت بها الأُمّة حتى أصبح القائل بأفضلية عليّ على الشيخين مبتدعاً زائغاً عن الحقّ سيّء المذهب، رافضياً خبيثاً، زنديقاً مارقاً، إلى ما هنالك من التعابير التي اتخذها المتزلفون لرضا السلطة.

وإذا رجعنا للواقع من حيث الواقع بدون مغالطة و لاتعصّب في ضوء التفكير الحر، والدراسات الصحيحة الخالية من نزعة الأهواء، نجد أنّ ترتيب الخلفاء حسب أزمنة خلافتهم ليست حجة على فضل بعضهم على بعض وجدارتهم بالحكم، وإنّما هي تقليد أعمى ، وجمود على اتباع السلف، الذين عرفت نزعاتهم وأهواؤهم وميلهم للسلطة التي أصبحت ترغم الناس على ربط العقائد بدستور الدولة، فترى المأمون يخلق مشكلة القول بخلق القرآن ويحمل الناس عليه بالقهر، ولا يجعل للتفكير في

الأمر مجالا فيقع ما يقع من قتل وتكفير إلى غير ذلك ، ويأتي من بعده المتوكل فيخالف رأيه ، ويقضي على ما أمر به المأمون ، ويحمل الناس على القول بقدم القرآن بالقهر والقوة .

ويأتي القادر العباسي سنة (٤٢٢ هـ) فيحمل الناس على الاعتقاد بما يراه في فضل الصحابة ، وتكفير المعتزلة القائلين بخلق القرآن ، ويؤلّف بذلك كتاباً يُتلى على الناس في كلّ جمعة ، كما أنّه حملهم بالقهر على الاعتقاد بالسنة ، واستتابة من خالفه من المعتزلة والشيعة ، وأخذ خطوطهم بالتوبة ، وبعث إلى السلطان محمود ، يأمره ببثّ السنة في خراسان ، ففعل ذلك ، وبالغ و قتل جماعة ونفى جماعة آخرين من المعتزلة والشيعة وغيرهم ، وأمر بلعنهم على المنابر ، وذلك في سنة (٤٠٨ هـ)[٦٣٣] .

وفي سنة (٤٠٣ هـ) يصدر مرسوم من البلاط العباسي يتضمن القدح في نسب العلويين خلفاء مصر وأنّهم ليسوا من أبناء علي [٦٣٤] ، ونشر هذا المرسوم ووزّعت نسخه ، وألزم علماء بغداد بتوقيعه ، إلى غير ذلك مما يطول شرحه من الأمور الّتي تدخلت بها الدولة لغاياتها الخاصة ، ولا يريدون بذلك إلاّ فتح باب المناقشات ، لا بصورتها الواقعية ولكن بالصورة الّتي يريدون من ورائها الشغب والاختلاف بين الأمة للنفوذ إلى مصالحهم الخاصّة ، وإلاّ فيلزمهم إعطاء الحرية الكاملة في المناقشات العلمية الّتي تختلف فيها الأمة، ولا يؤدي اختلافها الى فرقة بل الى غناء في الأفكار وتقدم في المواهب والمقدرات، وهو ما يهدّد ملكهم وسلطويتهم، لذلك حسروا الخلاف فيما يسيء الى وحدة الأمة واختلقوا أسباب تفرّق المجتمع الإسلامي وتركوهم يخوضون غمرات المعارك المذهبية والعقائد الدينية، وتدخّلوا بقسوة في حياة الفكر وعاملوا المفكرين الذين يأبون الانصياع لمخطّط الحكام بكلّ صنوف الأذى والكبت.

ضحايا المبدأ

والغرض أنّ نظر الدولة لموقف الشيعة إلى جنب آل محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) يعتبرونه موقفاً معارضاً لسياستهم ، ومحاولة ظاهرة للقضاء على كيان الملك الذي تربّعوا على دسته بدون أهليّة ، وهو من حقّ آل محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فهم

---

(٦٣٣) شذرات الذهب ج٣ ص١٨٦ .

(٦٣٤) تاريخ أبي الفداء ج٢ ص١٥٠ .

يحذرونهم أشدّ الحذر ، ويدفعون الناس إلى التبرؤ منهم بشتّى الوسائل ، حتى أصبحت تهمة التشيّع طريقاً الى الهلاك يفرون منها ويرون أنّها أعظم من تهمة الزندقة .

قال الزمخشري في كيفية الصلاة على محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) : وأما إذا أفرد غيره من أهل البيت بالصلاة كما يفرد ، فمكروه لأنّ ذلك صار شعاراً لذكر رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ، ولأنّه يؤدي إلى الاتّهام بالرفض ، وقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم[٦٣٥] .

وأمثال هذه الفتاوى كثيرة جداً . وقد تركوا القول بأشياء رغم حصتها وثبوت تشريعها، وليس لهم في تركها إلاّ لأن الشيعة تقول به ، ومتابعتهم تؤدي إلى الرفض، كما مرّ بنا شيء منه وسيأتي ذكره.

ومن هذا نعرف عظيم حراجة الموقف ، وإلى أيّ حد انتهى الأمر في الابتعاد عن شيعة أهل البيت (عليهم السلام)، في عصر تأصّلت به روح العداء في قلوب الناس الذين ساروا مع الدولة جنباً لجنب ، وهل الرفض إلاّ حبّ أهل البيت (عليهم السلام) ، كما يوضح لنا الشافعي بقوله :

إذا في مجلس ذكروا عليّاً *** وسبطيه وفاطمة الزكية
يقال تجاوزاً يا قوم هذا *** فهذا من حديث الرافضية
برئت إلى المهيمن من أناس *** يرون الرفض حبّ الفاطمية

ويقول :

قالوا ترفضت قلت كلاّ *** ما الرفض ديني ولا اعتقادي
لكن توليت غير شك *** خير إمام وخير هادي
إن كان حب الوصي رفضاً *** فإني أرفض العباد[٦٣٦]

وأظرف شيء ما يحدّثنا به الخطيب عن الفتح بن شخرف قال : حملتني عيني فنمت، فبينما أنا نائم إذا أنا بشخصين فقلت للذي يقرب مني : من أنت يا هذا؟ فقال : من ولد آدم، قلت : كلنا من ولد آدم ، فما الذي وراك ؟ قال لي: علي بن أبي طالب ، قلت له : أنت قريب منه ولا تسأله ، قال : أخشى أن يقول الناس إني رافضي[٦٣٧] .

وكان الفضل بن دكين يتشيع فجاءه ولده يوماً يبكي فقال له : ما لك؟ فقال: إنّ الناس يقولون انك تتشيّع فانشأ يقول :

---

(٦٣٥) الكشاف ج٣ ص٥٥٨ .
(٦٣٦) جواهر العقدين ص٢٥٤ .
(٦٣٧) تاريخ بغداد ج١٢ ص٣٨٦ .

وما زال بي حبيك حتى كأنني *** برجع جواب السائلي عنك أعجم
ولا سلم من قول الوشاة وتسلمي *** سلمت وهل حي على الناس يسلم[٦٣٨]

وإنّ أمراً يدعو الولد إلى هذا الحذر ، ويحمله على البكاء لعظيم جداً ، ولا غرابة من ذلك فإنّه يخشى على أبيه القتل ، وعلى داره الهدم ، وماله النهب ، طبقاً لقانون الدولة المقرر تنفيذه في حقّ الشيعة ، لأنّهم كانوا ينفّذون هذا القانون في حقّ من اتهم بالميل للعلويين .

كان إبراهيم بن هرثمة شاعراً مجيداً مدح آل البيت بأبيات منها :

ومهما (ألام) على حبّهم *** فإنّي أحبّ بني فاطمة
بني بنت من جاء بالمحكما *** ت وبالدين والسنة القائمة
فلست أبالي بحبّي لهم *** سواهم من النعم السائمة

ولما دخل على المنصور قال : لا مرحباً ولا أهلاً يا إبراهيم، قد بلغني عنك أشياء لولا ذلك لفضلتك على نظرائك فأقر لي بذنوبك فاستعفاه فعفى عنه حفظاً لدمه ، وقال : لئن بلغني عنك أمر أكرهه لأقتلنّك .

ولما دخل إبراهيم المدينة أتاه رجل من العلويين فسلّم عليه، فقال له إبراهيم تنح عني لا تشط بدمي[٦٣٩] .

وهذا منصور النميري أنشأ أبياتاً منها :

آل النبي ومن بحبّهم *** يتطامنون مخافة القتل
أمن النصارى واليهود ومن *** في أمة التوحيد في أزل

إلاّ مصالة ينصرونهم *** بظبا الصوارم والقنا الدّبل فغضب الرشيد وأرسل إليه من يقتله فوجده ميتاً، فقال : لقد هممت أن أخرج لسانه من قفاه. وأراد أن ينبش عظامه فيحرقها ولكنه لم يفعل[٦٤٠] .

وقطعوا لسان ابن قرايا لأنّه كان يمدح آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وينشد الأشعار فيهم، فثارت العامة في بغداد ، وقدم للقاضي ، فحكم عليه بقطع لسانه ويده استناداً إلى مادة الحطّ من كرامة الصحابة ، بمدحه عليّاً (عليه السلام) وتفضيله عليهم .

وليت الأمر ينتهي عند هذا الحدّ، ولكنّهم تبعوه عندما أخذ للمارستان ، ورموه بالحجارة ، فالقى نفسه في دجلة فغرق وأخرجوه ميتاً وأحرقوا جسده، ووقعت بذلك معركة بين السنة والشيعة وذلك في سنة (٥٧٤ هـ)[٦٤١] .

---

(٦٣٨) تاريخ بغداد ج١٢ ص٣٥١ .
(٦٣٩) تاريخ بغداد ج٦ ص١٢٧ .
(٦٤٠) زهر الآداب ج٣ ص٧٠ .

وقامت البينة على الحسن بن محمد بن أبي بكر الشيعي ، بأنه سبّ الصحابة عند القاضي شرف الدين المالكي ، فحكم عليه بضرب عنقه بسوق الخيل بدمشق في جمادى الأولى سنة (٧٤٤ هـ)[٦٤٢] .

وأمثال هذه الفظائع كثيرة لا يسعنا عرضها ، ولكنّا أوردنا طرفاً منها لنأخذ صورة عن أعمال الدولة وسياستها مع الشيعة، يروي ابن ربّه عن الرياشي: سمعت محمد بن عبدالحميد يقول: قلت لابن أبي حفصة ما أغراك ببني علي؟ قال: ما أحد أحبّ إليّ منهم، ولكني لم أجد شيئاً أنفع عند القوم منه. وهنا أمر مهم يلزمنا أن نتساءل عنه .

وهو : أنّ الاقدام على سفك دم المسلم باسم الشريعة هو جرأة عظيمة ، وأنّ دولة تدّعي السير على نظام الشرع كان يلزمها أن تتّخذ طريقاً للخلاص من الإنكار والمؤاخذة، كما اتخذت ذلك في كثير من القضايا المخالفة لنظام الإسلام .

إذاً ماذا اتخذوا تجاه هذه الفظائع وهذه المنكرات في معاملة الشيعة ؟ أليس في الأمة علماء ينبهون الحكومة والعامة على هذا الخطأ عند مخالفتهم نصوص الكتاب والسنة بإراقة الدماء في عمل لا يستوجب ذلك ؟ وكيف سكت العلماء عن هذا الفعل الشنيع ؟ ولم تقتصر سياستهم على إراقة الدماء وإنزال الأذى بالشيعة بل قاموا بحملة مضادّة يسعون بها الى مواجهة اعتقادات الشيعة.

نعم إنّهم لم يغفلوا عن ذلك واتخذوا التدابير اللازمة في رد المنكرين بأمور منها :

١ ـ إنّهم رفعوا مقام الصحابة على الاطلاق ، ومنعوا الناس عن الخوض في أحاديثهم وحوادثهم ، وجعلوا لهم منزلة العصمة الادعائية ، وقرنوهم بالرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم)، وجعلوا مؤاخذتهم بشيء إنّما هو مؤاخذة للرسول(صلى الله عليه وآله وسلم). وأنّ الطعن في حديثهم هو طعن في حديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ذكر عند الرشيد حديث أبي هريرة : أنّ موسى لقي آدم فقال : أنت آدم الذي أخرجتنا من الجنة ، فقال القرشي: أين لقي آدم موسى ؟ فغضب الرشيد، وقال : النطع والسيف، زنديق يطعن في حديث رسول الله[٦٤٣] .

وبهذا ألجمت الأمة ليحرموها حرية التفكير ، وألزموها بالنزول لإرادتهم، فمن خرج عن ذلك عدّ زنديقاً والزنديق يقتل ، وبالطبع أنّ الشيعة لا تقيم لهذا الحكم وزناً

---

(٦٤١) شذرات الذهب ج٤ ص٢٤٦ .

(٦٤٢) شذرات الذهب ج٦ ص١٤٠ .

(٦٤٣) تاريخ بغداد ج٤ ص٧ .

فهم في نظر القانون يحلّ قتلهم من هذه الجهة ، ومع ذلك فقد وضعت أحاديث كاذبة على صاحب الرسالة في تكريم الصحابة مطلقاً ، وبمقتضى ذلك لا يشملهم نظام الإسلام وأحكامه . وسيأتي بيان رأي الشيعة في الصحابة وأنه أعدل الآراء .

٢ ـ إنّ مبادئ الشيعة وعقائدهم مستقاة من ينبوع أهل البيت (عليهم السلام) ، ويرونهم نصب أعينهم يقيمون الصلاة ، ويحتفظون بشعائر الدين، فكيف يحكم عليهم بالكفر ؟ فلا بد إذاً من سلوك طريق لاتّهام الشيعة بما يخالف الإسلام ، وبالفعل سلك خصوم الشيعة طريقاً نجحوا فيه ، وذلك في تركيز فكرة الغلوّ عند الشيعة في أذهان العامة ، وأنّ الشيعة يدّعون لآل البيت(عليهم السلام)الربوبية ، وقام بنشر هذه الفكرة بين العامة أولئك الدجالون الذين يفترون على الله الكذب ، ومن قصّاص ووعاظ وزهاد ، يتّصفون بالتدين وهم جزارون لا يتورعون عن المحارم .

٣ ـ إنّ الشيعة لما عرفوا بموالاة أهل البيت (عليهم السلام) ومحبتهم لهم ، وأخذ الأحكام عنهم ، أصبح ولاة الأمر يحذرون الانكار عليهم من رجال الفكر الذين لا يخدعون بأقوال الدجالين من وعاظ وقصّاص ، لكيلا تتّسع عليهم دائرة المؤاخذة ، وربما يطالبون بشيء أوضح مما مرّ في تكفير الشيعة والطعن في عقائدهم. ولذا لجأوا الى الطعن في الأمور التي من شأنها أن يحكم على معتقدها بالكفر وهم يعلمون أن الشيعة قبل غيرهم يكفّرون من ينحرف على هذا النحو الذي صوّرته أبواق الخلفاء.

أحاديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) **في حبّ علي وشيعته**

وإنّ هناك أحاديث صحيحة وردت في أهل البيت وشيعتهم لا مجال لإنكارها ، إذاً كيف يصنعون وليس في امكانهم انكار تلك الأحاديث في مدح الشيعة ولزوم اتّباع آل محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد أخذت تلك الأحاديث مكانتها في المجتمع الإسلامي ؟ ولم تستطع الارهابات محوها من الأذهان ، وليس في قدرة السلطة أن تفرض طاعتها على الشيعة قهراً .

فَلْنَرَى إذاً كيف استطاعوا ان يفهموا الناس انحراف الشيعة عن الدين مع وجود تلك الأحاديث الصحيحة؟ أيكفي أن يستندوا إلى المادتين الأوليتين أم أنّ الأمر يحتاج إلى أكثر من ذلك ؟

نعم الأمر أهمّ من أن يتهاون فيه ، ويلزمهم أن يتخذوا شيئاً يستطيعون فيه تغيير تلك الأحاديث ، أو وضع زيادة يصلون من ورائها لغايتهم المقصودة ، فكانت النتيجة أن توضع زيادة تلحق ببعض الأحاديث ليبطل الاستدلال بها ، وإليك بعض الأحاديث الواردة في محبة أهل البيت (عليهم السلام) كقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : **«يا عليّ لا يحبّك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق»**[٦٤٤] .

وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : **يا علي إنك ستقدم على الله وشيعتك راضين مرضيين يقدم عدوك غضاباً مقمحين**[٦٤٥] .

وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ وقد أخذ بيد حسن وحسين ـ فقال :

من أحبّني وأحبّ هذين وأباهما وأمّهما كان معي في درجتي يوم القيامة[٦٤٦] .

وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

حبّ علي براءة من النار ، حبّ علي براءة من النفاق شيعة علي هم الفائزون[٦٤٧].

وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

من يريد أن يحيى حياتي ، ويموت موتي ويسكن جنّة الخلد التي وعدني ربي فليتول علي بن أبي طالب ، فإنه لن يخرجكم من هدى ولن يدخلكم في ضلالة[٦٤٨] .

وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

علي وشيعته هم الفائزون يوم القيامة[٦٤٩] .

ولما نزلت **(قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى)**[٦٥٠] قالوا : يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : **علي وفاطمة وابناهما**[٦٥١] .

وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

يا عليّ أنت وشيعتك في الجنة[٦٥٢] .

وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

يا أبا الحسن أنت وشيعتك في الجنة[٦٥٣] .

---

(٦٤٤) صحيح مسلم ج١ ص ٤٨ ، والترمذي ج٢ ص٢٩٨ ، وأحمد في مسنده ج٢ ص١٠٢ ط ٢ .
(٦٤٥) أخرجه الطبراني في الصواعق المحرقة لابن حجر ص٩٣ .
(٦٤٦) أخرجه الحاكم ج٢ ص١٤٩ ، وأحمد في مسنده ج٢ ص٢٥ ط ٢ .
(٦٤٧) أخرجه الديلمي في كنوز الحقائق ج١ ص٢٥٥، ح ٣٢٣٥ و ٣٢٤٤ .
(٦٤٨) أخرجه الحاكم في المستدرك ج٢ ص١٢٦ .
(٦٤٩) كنوز الحقائق ج١ ص٣٨٨ ، ح٤٧٩٥ .
(٦٥٠) الشورى : ٢٣ .
(٦٥١) أخرجه الطبري في ذخائر العقبى ص٥٢ .
(٦٥٢) بشارة المصطفى ص١٥٣ .

وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

يا علي أنت وشيعتك تردون على الحوض رواء[٦٥٤] .

ولمّا نزلت: (**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية**)[٦٥٥] قال: **هو أنت يا علي، هو أنت وشيعتك تأتون يوم القيامة راضين مرضيين**[٦٥٦] .

هذا نزر من تلك الأحاديث الصحيحة الواردة عن صاحب الرسالة (صلى الله عليه وآله وسلم)في فضل علي وأهل بيته (عليهم السلام) وإلزام الناس باتباعهم ، وكثير غيرها كحديث الثقلين الذي مرت الإشارة[٦٥٧] إليه، وحديث مثل أهل بيتي[٦٥٨] ، وباب حطة[٦٥٩] وغيرها .

تحريف الأحاديث

وهنا تأتي يد الوضع فتعمل عملها بالتحريف أو بإلحاق زيادة لهذه الأحاديث ، ولكنّها زيادة تدلّ بنفسها على نفسها ، وإليك انموذجاً من تلك الموضوعات على صاحب الرسالة . فالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : «**يا علي أنت وأصحابك في الجنة ، وأنت وشيعتك في الجنة**». فيأتي الفضل بن غانم بوضع زيادة والحاقها بهذا الحديث ، وهي : ألا إن ممن يحبّك قوماً يضفزون الاسلام بألسنتهم يقرأون القرآن لا يتجاوز تراقيهم ، لهم نبز يسمّون الرافضة فإذا لقيتهم فجاهدهم فإنهم مشركون[٦٦٠] .

ويأتي أبو يحيى الحماني بزيادة عن علي (عليه السلام) أنه قال : قلت : يا رسول الله ما العلامة فيهم؟ قال : يقرضونك بما ليس فيك ويطعنون على أصحابي ويشتمونهم .

وبلفظ آخر : يا علي ينتحلون حبّك يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وعلامتهم أنّهم يسبّون أبا بكر وعمر .

وبصورة أُخرى : وسيأتي قوم لهم نبز يقال لهم الرافضة فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم مشركون[٦٦١]. ورواية أُخرى: قالوا: يا رسول الله، ما العلامة فيهم؟ قال: قال:

---

(٦٥٣) احقاق الحق ج٧ ص٣٠٩ .

(٦٥٤) كنوز الحقائق ج٢ ص٣٦٨ ، ح١٠٠٣٠ .

(٦٥٥) البيّنة : ٧ .

(٦٥٦) أخرجه الخطيب في تاريخه من طريق أم سلمة ج١٢ ص٣٥٨ .

(٦٥٧) المستدرك ج٣ ص١٦١ ، ح٤٧١١ .

(٦٥٨) المستدرك ج٣ ص١٦٣ ، ح٤٧٢٠ .

(٦٥٩) الجامع الصغير ج٢ ص١٧٧ ، ح٥٥٩٢ ، بشارة المصطفى ص٨٨ .

(٦٦٠) تاريخ بغداد ج١٢ ص٣٥٨ .

(٦٦١) الاشاعة في أشراط الساعة ص١١٢ .

لا يشهدون جمعة ولا جماعة ويطعنون في السلف[٦٦٢]. وكتحريف حديث الثقلين بوضع سنّتي مكان عترتي[٦٦٣] .

وهكذا تجرّأ أولئك المتقرّبون لأسيادهم بالكذب على الله ورسوله بوضع تلك الزيادة في الأحاديث الواردة عن صاحب الرسالة بمدح شيعة أهل البيت(عليهم السلام) ، فأصبحت تلك الأكذوبة مقررة بصورة رسمية كقانون تسير عليه السلطة التنفيذية ، وتلقاها السذج بكلّ قبول ، وأخذت مكانتها من ذوي العقول القاصرة. لأن السلطة اشترت ذمم الكذبة ومن ليس له من الدين إلاّ اسمه وزيّه فباعوا دينهم بدنياهم وتجرأوا على مقام رسول الله دون وازع وهم يعلمون إنّما هم بذلك يتبوأون مقعدهم من النار، وتلقوا ما أمروا به من الجائرين وأضافوه الى الأحاديث الصحاح التي لا يشك بها، لأنّها تصدر عن حقّ وتنطق بحقيقة وتتعلق بواقع رسول الله وتتصل برسالته. وبأمر الحكام الظالمين يتحول أنصار العترة الطاهرة وشيعة ابن عمّ المصطفى ووصيّه الى مشركين على لسان صاحب الرسالة(صلى الله عليه وآله)، لأنّ السلطة تسعى الى هدم الوجود الشيعي الذي يهدّد سلطانهم.

وبوحي من السلطة يصبح قتل الموحّدين سُنة، وعلى لسان محمد وهو الذي كان يدعو الى عدم قتل الكفار عند ترديد الشهادة، ويغني عن بيان ذلك قصة قتل زيد لكافر ردّد الشهادة.

ثم يشمل الوضع الجمعة والجماعة وإنّما جاءت هذه الزيادة، لأنّ الشيعة لا يعترفون إلاّ بإمامة السلطان العادل فلا يجيزون الصلاة خلف أولئك المتسلطين الجائرين وجعلوا أوّل شروطها الخمسة وأحكامها: السلطان العادل. وأما صلاة الجماعة فهي لدى الشيعة مجال اقتداء ولا يقتدون إلاّ بشروط معروفة لا ينطبق أي منها على زبانية الحكام أو المتصدين للإئتمام إذا دخل وقت الصلاة وهم على سماط الشرب أو مائدة اللهو فترى أن كل زيادة تتمّ استجابة لغرض وتمرّ على الناس بواسطة أعضاء لجان الوضع التي كثر تشكيلها وأصبحت من دعائم الحكم.

أما العلماء فقابلوها بالإنكار ، وصرّحوا بوضعها بكلّ صراحة ، وأنّ رواتها كذّابون . منهم الفضل بن غانم المروزي القاضي ، الذي كان مشهوراً بفساد الأخلاق ومتهماً في دينه، وكان غير مقبول الرواية ، وقد ترك الحفاظ أحاديثه وطعنوا فيه .

قال الدارقطني : الفضل بن غانم ليس بالقوي ، وقال يحيى بن معين : ضعيف ليس بشيء[٦٦٤] .

---

(٦٦٢) شرح الهمزية، للهيثمي ص٢٢٤.

(٦٦٣) كنز العمال ج١ ص١٧٣، ح ٨٧٥ و ٨٧٦

(٦٦٤) لسان الميزان ج٥ ص٤٦٧ ، ٦٦٢٤ .

وغير ذلك من أقوال رجال العلم ، وكيف يؤتمن على حديث رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) من عرف عنه حبّ الغلمان وفساد الأخلاق، كما جاء ذلك في ترجمته[٦٦٥] .

ومنهم سوار بن مصعب الهمداني الكوفي الأعمى ، قال فيه يحيى بن معين: سوار بن مصعب ليس بشيء ، وقال البخاري : منكر الحديث ، وقال النسائي وغيره : متروك ، وقال أبو داود : ليس بثقة ، وقال أحمد وأبو حاتم : متروك الحديث ، وقال النسائي : ليس بثقة ، ولا يكتب حديثه ، وقال الحاكم، روى عن الأعمش وابن خالد المناكير[٦٦٦] .

ولا نطيل الكلام بذكر الآخرين من رجال هذه الزيادة كأبي جناب الكلبي، وسويد بن سعيد ، فقد نصّ الحفاظ على كذبهم وعدم قبول روايتهم ، كما أ نّهم نصّوا على هذه الزيادة بالوضع ، وصرح بذلك علي بن محمد الشوكاني[٦٦٧] وابن حجر[٦٦٨] وابن تيمية[٦٦٩] والخطيب البغدادي[٦٧٠] والسيوطي[٦٧١]وغيرهم .

والغريب أنّ هذه الحقيقة يقرّرها الكثير من العلماء وينصّون على كذب هذه الزيادة ، ولكن هناك حثالة من المتعصّبين الذين لا يروق لهم إلاّ إيقاع الفرقة بين صفوف المسلمين ، جعلوا هذه الأكذوبة وسيلة للوقيعة بشيعة أهل البيت(عليهم السلام) وتقرّبوا إلى ولاة الجور بنشرها وادخالها في قالب الاعتبار ، ولكنّها محاولة فاشلة ، فجولة الباطل ساعة ، وجولة الحقّ إلى قيام الساعة .

أحكام جائرة

والغرض أنّ ولاة الجور اتّخذوا هذه الأمور كقانون يحكمون به على المعارضين لأحكامهم ، فكان من الخطر البالغ أن يجهر الإنسان بأيّ رأي حرّ ، أو يذهب إلى خلاف ما تراه السلطة الحاكمة ، ومن سوء حظّ الرجل أن يكون له خصوم يسعون به عند السلطان ، فتنطبق بحقّه هذه المادة فيكون نصيبه القتل أو السجن .

لذلك نرى أنّ الكثير من غير الشيعة حكم عليهم بهذه المادة وليس لهم ذنب إلاّ التحرّر عن الجمود الفكري، والصراحة بشيء يخالف غرض الدولة.

---

(٦٦٥) لسان الميزان ج٤ ص٤٤٥ وتاريخ بغداد ج١٢ ص٣٥٧ .
(٦٦٦) لسان الميزان ج٣ ص١٢٨ .
(٦٦٧) الفوائد المجموعة ص٣٨٠ / ٨٨ .
(٦٦٨) الموضوعات لابن الجوزي ج١ ص٣٩٧ .
(٦٦٩) العلل المتناهية ج١ ص١٦٤ /٢٥٤ .
(٦٧٠) تاريخ بغداد ج١٢ ص٣٥٣ / ٦٧٩٠ .
(٦٧١) اللآلي المصنوعة ج١ ص٣٤٥ ـ ٣٤٦ .

فهذا المولى ظهير الدين الأردبيلي ، حكم عليه بالإعدام واتّهم بالتشيع ، وذلك لأنّه ذهب إلى عدم وجوب مدح الصحابة على المنبر وأنّه ليس بفرض، فقبض عليه وقدم للمحاكمة وحكم عليه القاضي بالاعدام ، ونفذ الحكم في حقّه فقطعوا رأسه ، وعلّقوه على باب زويلة بالقاهرة[٦٧٢] .

وامتنع أحد القضاة من المبايعة للخليفة المقتدر ، وقال : وهو صبي لا تصحّ مبايعته ، فحكموا عليه بالقتل وذبح أمام الملأ بدمشق .

وهذا سليمان بن عبد القوي المعروف بأبي العباس الحنبلي المتولد سنة (٦٥٧ هـ) والمتوفى سنة (٧١٦ هـ)، كان من علماء الحنابلة ، ومن المبرزين في عصره ، ودرس في أكثر مدارس الحنابلة في مصر ، فقد نسب إلى الرفض ، وقامت عليه الشهود في ذلك حتى تعجب هو من هذه النسبة واستغربها فقال:

حنبليّ رافضيّ ظاهري *** أشعريّ أنّها إحدى الكبر

وقد عزر في القاهرة لمدحه علياً بأبيات منها:

كم بين من شك في خلافته *** وبين من قيل إنه الله

ونسب إلى هجاء الشيخين ، والحطّ من مقام عمر بن الخطاب لقوله في شرح الأربعين: إنّ أسباب الخلاف الواقع بين العلماء تعارض الروايات والنصوص ، وبعض الناس يزعم أنّ السبب في ذلك هو عمر بن الخطاب ، لأنّ الصحابة استأذنوه في تدوين السنة فمنعهم مع علمه بقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : **«اكتبوا لأبي شاه»** وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : **«قيدوا العلم بالكتابة»** فلو ترك الصحابة يدون كل واحد منهم ما سمع من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لانضبطت السنة ، فلم يبق بين آخر الأمة وبين النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) إلاّ الصحابي الذي دوّنت روايته ، لأنّ تلك الدواوين كانت تتواتر عنهم، كما تواتر البخاري ومسلم . انتهى .

وبهذه الصراحة نسب هذا الحنبلي إلى الرفض ، وناله الضرب والسجن والتبعيد عن وطنه ، وفصل عن وظيفة التدريس[٦٧٣].

ومن أغرب الأشياء ما يحدّثنا المقدسي عند دخوله إلى اصفهان بقوله : وفيهم بله وغلو في معاوية ، ووصف لي رجل بالزهد والتعبّد ، فقصدته وتركت القافلة خلفي ، فبتّ عنده تلك الليلة ، وجعلت أسأله ـ إلى ان قلت ـ : ما قولك في الصاحب ؟ فجعل يلعنه .

---

(٦٧٢) شذرات الذهب ج٧ ص١٧٣ .

(٦٧٣) تاريخ علماء بغداد، للسلامي ص٥٩ .

قلت : ولم ؟ قال : انّه أتى بمذهب لا نعرفه ، قلت : وما هو ؟ قال : إنه يقول إنّ معاوية لم يكن مرسلاً .

قلت: وما تقول أنت؟ قال: أقول: كما قال الله عزّ وجلّ: **(لا نفرّق بين أحد من رسله)**، أبو بكر كان مرسلاً، وعمر كان مرسلاً، ثم عدّ الأربعة، ثم قال: ومعاوية كان مرسلاً.

قلت لا تفعل : أما الأربعة فكانوا خلفاء ، ومعاوية كان ملكاً ، وقال النبي(صلى الله عليه وآله وسلم): «**الخلافة بعدي إلى ثلاثين سنة ثم تكون ملكاً**» فجعل يشنع عليّ، وأصبح يقول للناس : هذا رجل رافضي .

قال المقدسي : فلو لم أهرب وأدركت القافلة لبطشوا بي[٦٧٤] .

وعلى هذا سار الناس على غير هدى يزدحمون في دائرة ضيّقة ، وقد سلبوا حرية الرأي وحرية التفكير . فلذلك تراهم لا يعرفون معنى الطعن، ولا يهتدون لطرق المؤاخذة ، ولا يتورعون في أمر ، ولا يقفون عند حدٍّ، وإنّما هي فوضى الاتّهام والتقوّل ، فكان كلّ من يورد حديثاً في فضل علي (عليه السلام)يتّهم بالتشيع أو الزندقة على حد تعبيرهم .

وكذلك كلّ من يناقش أعمال السلف طبقاً للموازين العلمية والحوادث التاريخية يتهم بالتشيع ; لذلك نراهم يحكمون على أُناس بشيء وهم لا يتصفون به .

فقد حكموا على الحاكم أبي عبدالله النيسابوري «صاحب المستدرك» بأنّه شيعي ، لذكره في كتابه حديث الطائر المشوي[٦٧٥] ، وحديث «**من كنت مولاه فعلي مولاه**»[٦٧٦]، وبالطبع أنّ ثبوت هذين الحديثين الصحيحين يخالفان سياسة الدولة ، وهل يستطيع أحد أن يتفوّه بشيء منها ؟ وقد عقدت الألسن وكمت الأفواه ، فمن يستطيع الخروج على نظام الدولة إذ لا قيمة لمعايير الحقّ ومقاييس العقل .

ومن أغرب الأشياء ما ذهب إليه ابن كثير في تاريخه: (ج١٠ /ص٢١) وهو أنّ شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه مؤلف العقد الفريد كان من الشيعة، بل إنّ فيه تشيّعاً شنيعاً، وذلك لأنّه روى أخبار خالد القسري وما هو عليه من سوء الحال .

يقول ابن كثير : وقد نسب إليه ـ أي لخالد ـ أشياء لا تصح ، لأنّ صاحب العقد كان فيه تشيّع شنيع ومغالاة في أهل البيت (عليهم السلام) ، وربّما لا يفهم أحد كلامه ما فيه من التشيّع ، وقد اغترّ به شيخنا الذهبي[٦٧٧] فمدحه بالحفظ وغيره، ونحن نكلّ أمر

---

(٦٧٤) أحسن التقاسيم ج٢ ص٢٩٩ .

(٦٧٥) المستدرك ج٣ ص١٤١ ـ ١٤٢ / ٤٦٥٠ .

(٦٧٦) المستدرك ج٣ ص١٢٦ ـ ٤٦٠١ .

(٦٧٧) ميزان الاعتدال ج٢ ص٤٣٤ / ٢٤٨٢ .

هذه التهمة إلى قرّاء العقد الفريد وذوقهم السليم، لأنّ خالد بن عبدالله القسري في واقع الحال بعيد عن الإسلام بُعد ابن عبدربّه عن الشيعة، ولكن السياسة جعلت خالداً وهو المتّهم في دينه ـ كما يذكر ابن خلكان ـ قائماً في اطفاء البدع والضلال.

ومهما يكن من أمر فالشيء المهم الذي نريد التنبيه عليه هو أنّ تلك الخلافات التي وقعت بين المسلمين إنّما هي من الأمور التي اتخذتها السلطة لأغراضها الخاصة .

وإنّ تلك الاتهامات التي أتّهم بها رجال الأمة فأُريقت بها دماؤهم ، إنّما كانت بسبب حرية الرأي وقوة التفكير المخالف للسياسة في ذلك العصر ، فإنهم يريدون أن يجعلوا رجال الفكر وحملة العلم من الأمة كقطيع غنم يوجهونهم إلى أيّ جهة أرادوا بدون تفكير منهم أو اختيار . ولذلك فقد اجتاز المسلمون دوراً عصيباً من أدوار القهر والقمع السياسيين والضغط الاجتماعي السافر .

* * *

وممّا تقدّم نستنتج ما لتلك النظم الموضوعة رغبة ورهبة ومن التأثير العميق في روح الجماعات ، واستخدامها كلّ الوسائل لحملها على العداء للشيعة ، فلا نستغرب إذاً تعبيرهم عن التشيّع بكونه بدعة كما هو في كثير من عبارات أهل الحديث ، فالبدعة هنا في مقابلة سنة السياسة لا سنة الشريعة المقدسة .

وإذا أردنا اجراء الحساب معهم عمّا ارتكبوه في حقّ الشيعة فلا يستطيعون الجواب بشيء ، لأنّهم ساروا مع التقاليد السياسية التي أجمع عليها الحكام واتفق عليها الظلمة عبر العهود الطويلة التي ذاق فيها الشيعة الأمرّين. ومن الغريب بل المستهجن أن تتلقى العقول حتى اليوم ما سنّه الأمويون والعباسيون وابتدعوه من طرق مخالفة لروح الإسلام وأعمال منافية لأحكام الشريعة، وإلاّ فما هي بدعة التشيع وهم مجمعون على أنّ الشيعة هم الذين شايعوا علياً وتابعوه ، ومن الغريب جداً أن تكون متابعة علي والأخذ عنه ومحبة أهل بيته بدعة ؟ «ما جاءنا بهذا من سلطان» .

أليس في ذلك مخالفة صريحة لأقوال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في علي الدالة بوضوح على وجوب حبّه ولزوم اتّباعه ، كقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : «**يا علي لا يحبك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق**»[٦٧٨].

ولما سئل الإمام أحمد بن حنبل عما يروى أنّ علياً (عليه السلام) قسيم الجنة والنار فقال أحمد : وما تنكرون من ذا ؟ أليس قد روينا أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) قد قال :

---

(٦٧٨) الاستيعاب لابن عبد ربه ج٣ ص١١٠٠ .

«**لا يحبك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق**» قالوا بلى . قال : فأين المؤمن ؟ قالوا : في الجنة . قال : فأين المنافق ؟ قالوا : في النار ، قال أحمد : فعلي قسيم الجنة والنار[٦٧٩] .

وعلى أيّ حال فإنّ خصوم الشيعة لم يظفروا يوماً ما بالذي حاولوا تحقيقه من وراء اتخاذ تلك الوسائل في مقابلة الشيعة ، وقد أحاط الفشل بتلك العوامل، ولم تنجح النجاح المأمول في عرقلة سير انتشار مذهب أهل البيت(عليهم السلام) ولم تؤثر تلك الدعايات لأنّها أسباب بعيدة عن الواقع ، لذلك وقف تيّارها وأخذ المذهب في الانتشار ، فأصبح في أقطار العالم عدد من الإمامية لا يقلّ عن تسعين مليوناً . وبذلك يصبح لنا أن نحاسب الكتّاب الذين تولّعوا بذم الشيعة ، والتهجم عليهم خضوعاً لمؤثرات العاطفة ، واستجابة لدواعي الفرقة بين طوائف المسلمين ، ولا أدري بماذا استساغوا هذا النقد وتولّعوا بالذم .

وإذا أردنا أن نحاسب الناقمين على الشيعة طبقاً للمنطق الصحيح; فإنّ الأرقام تقف عن مسايرتنا ، وربّما تقصر عن الاحصاء .

ولا نريد منهم إلاّ الاعتدال في الحكم وترك المغالطات والتقوّلات ، فإنّ ذلك نقص بمن يدّعي العلم والثقافة ، فقد مرّت العصور وانتهت الأوضاع التي تقتضي إثارة الفتن ، وإيقاد نار البغضاء بين المسلمين ، فما لهم يضربون على وتر الطائفية بين آونة وأخرى ، ولحساب من يكون هذا ومن هو الرابح في تلك المعركة ؟ نعم إنّما الربح في جانب أعداء الإسلام .

إن من يفسح لفكره المجال في البحث النزيه والتحقيق العادل عما اتّهم به الشيعة من أمور تخالف الإسلام فإنّه يقف على خلاف ما قيل عنهم .

إنّ كلّ ما أحيط بالتشيّع من أمور تبتعد به عن دائرة الواقع إنّما هي أمور مصطنعة لا تمت الى الحقيقة بشيء ، ولا يفوتنا أن ننبّه عن أعمال الكذّابين الذين اتخذتهم السياسة الجائرة لدعم كيانها .

إنّ هؤلاء باعوا ضمائرهم ، واشتروا مرضاة المخلوق بسخط الخالق . ومن المستحسن أن نشير لبعضهم وقد عبرنا عنهم بلجان الوضع كما تقدّم، وهي من جملة بدع معاوية ومن معالم سنّته وسياسته التي تلقّفها بأمانة بنو العباس.

لقد سعى معاوية الى إرساء حقده الأموي وكرهه الجاهلي لشخصية الإمام أمير المؤمنين علي(عليه السلام) على أساس له طابع ديني والظرف مهيّأ له بعد إنقياد أهل

---

(٦٧٩) كفاية الطالب ص٦٣ .

الشام لإرادته، فقرن سنته السيئة في لعن الإمام بحملة مسعورة لوضع الأحاديث في عثمان لمقابلة الأحاديث الصحيحة والمشهورة عن الإمام، فقام بإغداق الأموال ويزيدها حسب رغبة من يرضى لنفسه بالكذب والدنية، فتهافت كثيرون ممّن لهم شأن في علم الحديث على السحت الحرام غير آبهين بلظى النار التي أوعدهم النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بها .

الوضع والحديث النبوي

حركة الوضع

اتّسع نطاق الكذب على الله وعلى رسوله ، وتلاطمت أمواج الافتراء وتصدر قوم لا أمانة لهم ، ولا دين يردعهم ، ولا عهد لهم بالصدق ، فحدثوا الناس بالأكاذيب ، ونمقوا وزوروا ، ووضعوا من الأحاديث كيفما شاءت رغباتهم ، ارضاء لسلطان لا يرعى للصدق حرمة ، ولا يرى للدين قيمة ، فدرج الناس على ذلك وتلقنوا تلك الأحايث بلا تمحيص ولا تتبّع .

ولا أُريد أن أتعرّض لعهد الصحابة وما حدث فيه من أحاديث ، فإنّ يد الوضاعين انتحلت سلسلة تتصل بهم في الحديث ، لأنّ أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)أجلّ قدراً وأعلى منزلة من تعمد الكذب عليه ، إلاّ من صارعته الدنيا فصرعته وباع آخرته بدنياه فكان نصيبه الخسران ، وما هو من مصداق الصحبة في شيء كسمرة بن جندب وغيره ، الذي كان يساومه معاوية في وضع الأحاديث أو تحريف ما أنزل الله بمئات من الآلاف من الدنانير كما هو مشهور عنه .

ولكن نريد أن نتعرّض لعصر اشتداد الفوضى والخروج على حدود الأمانة في النقل ، يوم دار الزمان دورته ، ودبّ داء الحسد والتنافس على حبّ الرئاسة والتقرب الى السلطان ، عندما اشتدت حاجته إلى مرتزقة يجعلهم قنطرة إلى غايته ، ليبرر مواقفه المخالفة لأحكام الدين ، فكان ما كان من تشجيع للكذابين والوضاعين ، فكانت هناك سلسلة أحاديث موضوعة رغبة في نواله ، وطلباً لاستصفاء ودّه ،وقد فتحت باب التقرب إلى السلطان بمفاتيح الأكاذيب، فدخل الكثير منهم .

فهذا غياث بن إبراهيم يدخل على المهدي، وكان المهدي يحب الحمام، فطلب منه المهدي أن يحدّثه ، فيأتي بحديث عن أبي هريرة، قال: لا سبق إلاّ في حافر أو خف ـ

وأضاف إليه أو جناح ـ فأمر له المهدي بعشرة آلاف درهم ، فلما قام غياث قال المهدي : أشهد أنّ قفاك قفا كذاب على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ، ما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) جناح ولكنه أراد أن يتقرب إليّ[٦٨٠].

ويدخل أبو البختري وهب بن وهب قاضي بغداد على هارون الرشيد ، وهارون يطير في الحمام، فقال: هل تحفظ في هذا شيئاً ؟ فقال : نعم ، حدثني هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يطير الحمام[٦٨١] ، فنرى القاضي هنا سريع الارتجال بوضع الأحاديث رغبة لنوال السلطان وتحبّباً إليه، بدون التفات إلى مؤاخذة أو خوف من الله تعالى .

وكان شاه بن بشر بن ماميان معروفاً بالوضع في الدولة العباسية . ومن أحاديثه عن جابر بن عبدالله مرفوعاً : أتاني جبرئيل وعليه قباء أسود ومنطقة وخنجر ، فقلت ما هذا ؟ فقال : يأتي زمان يكون لباسهم كهذا قلت : يا جبرئيل من يكون رئيسهم ؟ قال : من ولد العباس[٦٨٢] .

واستجلب الرشيد إسحاق المعروف بأبي حذيفة المتوفى سنة (٢٠٠ هـ) ، وهو معروف بالكذب ومشهور بالوضع ، فأمره الرشيد أن يجلس في مسجد ابن رغبان ويحدث الناس، فأخذ إسحاق يحدّث بالأكاذيب ، ويروي عن خلق من الثقات أكثرهم ماتوا قبل أن يولد[٦٨٣] .

واستقدم المهدي أبا معشر السندي ، وأشخصه إلى بغداد ، وقال : تكون بحضرتنا تفقه من حولنا . وكان أبو معشر ماهراً بوضع الأحاديث والقصص . قال ابن جزرة : أبو معشر أكذب من تحت السماء[٦٨٤] وصنف كتاب المغازي . وروى عنه الواقدي وابن سعد ، وقد نعم في بغداد برضا كثير من رجال البلاط العباسي ، وقد استمد منه الطبري معلومات عن التاريخ الانجيلي ومن تاريخ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ، كما استمد منه بنوع خاص معلومات تاريخية تنتهي إلى عام وفاته.

السلطة ووضع الحديث

---

(٦٨٠) تاريخ بغداد ج١٢ ص٣٢٤ .
(٦٨١) تاريخ بغداد ج١٣ ص٤٥٨ / ٧٣٢٣ .
(٦٨٢) الموضوعات لابن الجوزي ج٢ ص٣٤ .
(٦٨٣) تاريخ بغداد ج٦ ص٣٤٦ .
(٦٨٤) تاريخ بغداد ج٤ ص٤٣١ .

وناهيك ما ابتدعه هؤلاء من الأحاديث حبّاً للدنيا بما يقرّبهم عند السلطان زلفى ، لمخالفتهم الشرع وخروجهم عن سلطان العقل .

وهناك عناصر في الوضع من طراز آخر ، وهم الذين قاموا بنصر مبادئهم في وضع الأحاديث على لسان صاحب الرسالة بدون مبالاة .

فهذا نعيم بن حماد بن معاوية المتوفى سنة (٢٢٧ هـ) كان ماهراً في وضع الحديث، متجرئاً على مقام صاحب الرسالة. قال الذهبي : وكان يضع الحديث في تقوية السنة ، وحكايات في ثلب أبي حنيفة وكان صلباً في السنة[٦٨٥] .

ومنهم أحمد بن عمرو بن مصعب بن بشر ، كان من الوضاعين ومن أهل السنة المجودين ، ووضع بذلك كتباً في تقوية السنة كلّها موضوعة منتشرة عند الخراسانيين في عصره ، وكان معروفاً في نصرة السنة بوضع الأحاديث الكاذبة عن الثقات[٦٨٦] .

ومنهم علي بن أحمد بن محمّد بن عمر وكان شديد العصبية في السنة يضع الأحاديث في نصرتها [٦٨٧] .

ومنهم أحمد بن عبد الله الأنصاري كان من الوضّاعين لنصرة السنة ، وهو واضع الحديث عن ابن عمر مرفوعاً في قوله تعالى :(**يوم تبيض وجوه وتسود وجوه**)[٦٨٨] قال : فأما الذين ابيضت وجوههم : أهل السنّة، وأما الذين اسودت وجوههم: أهل البدعة وغيرهم[٦٨٩]، وسيأتي الحديث عنهم في الأجزاء الآتية.

لقد كان خطر أولئك الدجالين عظيماً جداً ، فإنّهم تزلّفوا لولاة الأمر بوضع الأحاديث ، فاتخذوا منهم أعواناً على حلّ مشاكل يعجزهم حلّها بالقوة، ولكنهم جعلوا ما يضعونه وسيلة لتعزيز مركزهم أولاً ، ومقابلة خصومهم ثانياً، واشغال الرأي العام ثالثاً ، وكان الأمر الذي يهمّهم قبل كلّ شيء هو أمر الشيعة الذين آثروا تضحية النفس على الإذعان للخصم، ولم تربطهم معهم رابطة ، ولم يعترفوا بصحة تلك الولاية الجائرة ، فلا يصحّ لهم السكوت عن معارضتها وهم غاصبون للخلافة ظالمون لنظام الحكم الإسلامي الذي جعلوا منه ملوكية مستبدة ومؤسسة ظالمة لا تمت الى قيم العدل الإسلامي إلاّ بالاسم، لذلك سلكت السلطة معهم طرق المكر

---

(٦٨٥) ميزان الاعتدال ج٧ ص٤٤ .

(٦٨٦) تاريخ بغداد ج٥ ص٧٤ .

(٦٨٧) شذرات الذهب ج٣ ص٢٢٦ .

(٦٨٨) آل عمران : ١٠٦ .

(٦٨٩) الدر المنثور ج٢ ص١١١ ـ ١١٢ .

والخداع والتمويه على الناس، حتى بلغ بهم الأمر الى وضع الأحاديث بخروج الشيعة عن الإسلام كما مرّ بيانه ، وهي تدلّ بمنطوقها على تحليل دمائهم ومعاملتهم معاملة الكفرة، وهيهات أن ينطبق ذلك على الواقع ، ورجال الأمة لم يكونوا بتلك الدرجة من الجهل وعدم المعرفة بحيث يجهلون الشيعة وما لهم من الأثر في المجتمع الإسلامي ، فقبول مثل تلك المنكرات أمر شاق يصعب تحقيقه ويبعد نجاحه ، ولكن السلطة بذرت تلك البذرة في أذهان السواد، وجعلت تتعهدها وتحسن رعايتها بيد علماء السوء ، الذين اتخذوهم أعواناً في ساعة هم أحوج إليهم فيها من السيف والجند ، فقوّة فتكهم اثمرت الشحناء بين أفراد المجتمع الإسلامي، وتركوا لها قرحة دامية في جسم الأمة أعجز رجال الاصلاح علاجها حتى أيامنا هذه .

وقد كان أولئك الدجّالون على أنواع في الوضع ، واختلاف في الغاية . فمنهم من يضع الحديث طمعاً في الدنيا وتزلفاً لولاة الأمر وهم الذين نعبّر عنهم بلجنة الوضع، وأول من اتخذ ذلك معاوية بن أبي سفيان(٦٩٠) كما تقدم معنا.

ومنهم من كان يتعصّب لمبدئه فيضع الحديث تقوية له ، ومخالفة لخصمه ويعدّون ذلك تديّناً ، وسينالون الجزاء عليه يوم الجزاء .

ومنهم من يضع الحديث في نصرة مذهبه ، وهؤلاء يرون الانتصار لمذهبهم انتصاراً للحقّ ومقاومة للباطل ، وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فراحوا يضربون الأحاديث بمهارة، ويخلقون الحكايات والقصص .

ويطول بنا الحديث إذا أردنا التوسّع في البحث عن الوضاعين والكذابين ، ولعلّ لنا في الوقت متسعاً فننشر اسماءهم ، وقد أحصى شيخنا الأميني منهم عدداً بلغ ستمائة وعشرين ، ومجموع ما وضعوه من الأحاديث وما قلبوا أسانيده على اختلاف الأهواء والنزعات فكان ٤٠٨٣٢٤ حديثاً(٦٩١).

وقد أخرجنا من تلك الموضوعات ما يقارب الأربعمائة في الفضائل والمناقب وفي بعضها أساطير لا أحاديث ، وحكايات يصنعها القصاصون بمهارة ويبثّونها بين الناس .

ومن أعظم تلك الافتعالات هي اسطورة ابن سبأ التي لا زالت تحتل مكانتها فوق صفحات التاريخ وتأخذ وقتاً من كتّاب عصرنا الحاضر .

---

(٦٩٠) شرح النهج ج١ ص٢٥٨ .

(٦٩١) الغدير ج٥ ص٢٤٥ .

ولعمري إنّها محنة، ولكن كيف المخرج ؟ وهل يتسنى لنا تصفية الحساب لنعالج هذه المشاكل ؟ كيف وقد سرى داؤها في المجتمع ، وأخذها المهرّجون مأخذ القبول وجعلوها بمحلّ الاعتبار ، وراحوا يؤيدون تلك الموضوعات إذ وافقت أغراضهم ، وجعلوها في منهاج الاحتجاج ، ولم يلتفتوا لحالها وحال رواتها ممّن أعماه التعصّب ، فضعفت مواهب إدراكه ، ولم يستطع تمييز الحقّ من الباطل ، وقد خانه الاتزان والتعقّل ،فهوّس وهرّج وموّه وافترى ، وحاول إخفاء حقيقة لا يمكن إخفاؤها .

القصّاصون وأثرهم في المجتمع

ولابدّ لنا من الإشارة الى بعض أعمال القُصاص وما لهم من الأثر في توجيه الرأي العام لقبول تلك المنكرات عند العامة . فإنّهم قاموا في المساجد والجوامع والطرقات والأندية يبثّون تلك المنكرات نصرة للسلطة ، وتأييداً للمبادئ المبتدعة ، ولقد اتخذت السياسة منهم سلاحاً فاتكاً . فكانوا ينشرون القصّاصين في ساحات الحرب يشجعون الجند على التضحية حتى تطوّرت الحالة الى اختراع الأحاديث والقصص لايقاع الفتن بين طوائف المسلمين. ولقد خضعت العامة لتصديقهم وقبول مفتعلاتهم ، حتى أصبح من العسير الإنكار عليهم .

يحدّثنا الشعبي : أنّه أنكر على قاصّ حدّث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّ الله خلق صورين ، له في كل صور نفختان .

فقال الشعبي : اتق الله يا شيخ ولا تحدث بالخطأ أن الله لم يخلق إلاّ صوراً واحداً . فقال القصاص : يا فاجر إنّما حدثني فلان عن فلان وترد عليّ ؟ ثم رفع نعله فضربه ، وتتابع القوم عليه بالضرب فما خلص نفسه حتى حلف أنّ الله خلق ثلاثين صوراً في كل صور نفخة[٦٩٢] .

وحدّث أحدهم بحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّ من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار . فلم يبق أحد منهم إلاّ وأخرج لسانه يومئ به الى ارنبة أنفه[٦٩٣] .

وأنكر الطبري على قاص ببغداد ما يحدّث به من الأكاذيب فرمى العامة باب دار الطبري بالحجارة حتى سدّوه ، وصعب الخروج منه .

---

(٦٩٢) تحذير الخواص للسيوطي ص٢٠٤ .

(٦٩٣) الأغاني ج١٢ ص٥ .

ونزل القصاص الى غمار العامة يقصون لهم القصص الدينية، والأساطير والنوادر في المساجد والطرق ، وينالون بها مالاً كثيراً ، وكان يجتمع اليهم الرجال والنساء[٦٩٤].

قال ابن الجوزي في المنتظم : وكان القصاص في أواخر القرن الرابع أكبر مثيري الفتن بين السنة والشيعة[٦٩٥] .

وعلى أيّ حال فلو حاولت أن أصف هنا عظيم الأثر الذي تركته تلك الأوهام والأكاذيب التي وضعها الدجالون والقصاصون الذين يلقنون العوام إياها وبالأخص بغض الشيعة وعداء أهل البيت(عليهم السلام) ; لطال بنا الحديث ، وعظمت قائمة الحساب ، ولكنا نقتصر على هذا القدر ولا نلمّ بجميع العوامل التي دفعت الناس الى التهجّم على الشيعة ، فذلك يحتاج الى وقت طويل ، وصفحات تزيد على صفحات هذا الكتاب .

ولهذا نقتصر على نتيجة واحدة في تصفية الحساب ، وهي لفت نظر أبناء العصر الحاضر الى رعاية حقوق الأمة ، وأن يستعرضوا تاريخ الشيعة بدون تعصّب وتحيّز، وان يلحظوا تطور المذهب الجعفري وسيره في طريق التقدم بما لديه من القوى الحيوية ، والقدرة على مقاومة الطوارئ ، وتخطّي تلك الحواجز التي وقفت في طريقه ، ما لو وقف بعضها في طريق غيره من المذاهب لما استطاع ان يخطو خطوة واحدة ، لأنّها عوامل جبارة تجعله أقوى من كلّ ظرف ومعترك يختلقه الظلمة والجبارون، وسيبقى على هذه القوّة محتفظاً بعوامل البقاء والدوام حتى تظهر دولة الحقّ وتقوم الساعة.

على أنّ المذهب الجعفري ليس باستطاعة أي أحد مؤاخذته بشيء في ذاته، فهو موافق للشعور المتطور والوجدان ، ولكتاب الله العزيز ، والسنة المستقيمة ، وقد وجد العقل السليم فيه بغيته ، كما أنّ باب الاجتهاد مفتوح على مصراعيه، وقد برهن بغزارة مادته ، ومرونة أحكامه ، ودقّة بحوثه ، وسلامة قواعده ، ونقاوة أصوله وفروعه على أنّه أقوى مصدر للتشريع الإسلامي ، ويتطور مع الزمن ومع كثرة الحوادث .

ولكنّ المؤسف أن نرى الكثير ممن كتبوا عن التشريع الإسلامي قد اقتصروا على ذكر المذاهب الأربعة فحسب ، وإذا انجر الحديث الى ذكر اختلاف الآراء وتعدّد

---

(٦٩٤) تحذير الخواص لليسوطي ص٢١١ ـ ٢١٢ .

(٦٩٥) أنظر المنتظم ج١٥ ص٥٩ .

الأقوال في مسألة فقهية ذكروا آراء رؤساء المذاهب البائدة ولم يذكروا أقوال أهل البيت وآراءهم .

عذرنا أولئك القوم الذين دوّنوا الفقه في العصور الغابرة، لأنّ الخشية من ذكر مذهب أهل البيت (عليه السلام) قد ارغمتهم على الاعراض عن ذكره ، فإنّ التعرض لذلك إنّما هو تعرّض للخطر ، ولكنّا نعجب من المتأخرين الذين ساروا تلك السيرة الملتوية، ولم يعطوا مذهب أهل البيت(عليهم السلام) حقه من العناية في البحث .

ولا يستبعد أنّ التقليد من حيث هو قد دعاهم لمخالفة الواقع ، وإلاّ فما المانع من التعرّض لذكرمذهب أهل البيت (عليه السلام) عندما يكتبون عن التشريع الإسلامي ؟ وقد انتشر في أقطار الأرض ، وعبر الى ما وراء البحار ، وأصبح مؤيدوه يتجاوز عددهم التسعين مليوناً[٦٩٦]، ولكنّ هناك عوامل حالت بينهم وبين الاحتكاك بمذهب أهل البيت (عليه السلام) ، وليس عليهم كلفة في معرفته إلاّ أن يقرأوا الكتب المدونة في ذلك ليقفوا على الحقيقة، وعليهم أن يتقبلوا الحقّ وإن كان مرّاً أو يرفضوه إن وجدوا لديهم أدلة عقلية .

ولعلّ تلك الدعايات المارّة الذكر قد خامرت الأدمغة ، وتوارثتها الأجيال وهي التي أدّت إلى ابتعادهم عن الحقيقة . ولذلك عجز المصلحون عن مسألة التوفيق بين المسلمين، ورفع سوء التفاهم، مع ما بذلوه من النصح واجهدوا أنفسهم لتحقيق هذه الغاية، وهذا أمر غريب جداً فإنّه لم يكن هناك شيء من الأمور المتضادة التي لا يمكن بحثها ، والوقوف على حقيقتها ، حتى أصبح من الصعب التوفيق بين المسلمين ، ونبذ تلك الخلافات ، فالشيعة لم يكن لهم مذهب يخالف بأحكامه كتاب الله وسنة رسوله .

وأرى من الخير أن أتعرّض هنا لما ذكره المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم» عن عدول الناس عن مذهب الشيعة ـ بالأخص ـ في أربع مسائل ، ونجيب عن ذلك باختصار من القول ، وموجز من البيان .

عدول الناس عن المذاهب

(٦٩٦) لا يخفى انّ هذا العدد، يكون من سالف الزمان وأمّا الآن فعددهم يقدّر ما بين ٢٥٠ الى ٣٠٠ مليون، كما لا يخفى.

إعلم أنّ الناس قد عدلوا عن مذهب أبي حنيفة في أربع : صلاة العيدين إلاّ بزبيد[٦٩٧]، وصدقة النخيل ، وتوجيه الميت عند الموت ، وإلتزام الأضحية .

وعدلوا عن مذهب مالك في أربع : الصلاة قدام الإمام إلاّ بالمغرب ويوم الجمعة بمصر ، وفي أكل لحوم الكلاب[٦٩٨] إلاّ بمدينتين بالمغرب تباع جهراً ، وتطرح في عرائس مصر ويثرب سرّاً ، وفي الخروج من الصلاة بتسليمة واحدة .

وعدلوا عن مذهب الشافعي في أربع: الجهر بالبسملة إلاّ بالمشرق في مساجد أصحابه، وكذلك القنوت بالفجر ، وفي اختصار النية في تكبيرة الافتتاح ، وفي ترك القنوت في الوتر .

وعدلوا عن مذهب داود في أربع : تزويج ما فوق الأربع ، وإعطاء الأنثيين النصف ، ولا صلاة لجار المسجد إلاّ في المسجد ، وفي مسألة العول .

وعدلوا عن أصحاب الحديث في أربع : المتعة في الحجّ، والمسح على العمامة ، وترك التيمم في الرمل ، وانتفاء الوضوء في القهقهة .

وعدلوا عن مذهب الشيعة في أربع : المتعة ، ووقوع طلاق الثلاث واحدة ، والمسح على الرجلين ، والحيعلة في الأذان[٦٩٩] .

وتلك المسائل التي عدلوا فيها عن المذاهب موجودة في كتب الفقه ، ولا حاجة بنا إلى التعرض لذكرها; لأنا قد أفردنا بحثاً خاصاً بالفقه وسيأتي. نعم الشيء المهم هو النظر في هذه المسائل التي يقول فيها المقدسي بعدول الناس عنها في المذهب الجعفري ، فهل هي بدعة فتركها الناس أم أنّها من المسائل المقررة في الشريعة الإسلامية ؟ فلا بد لنا من البحث ـ بإيجاز ـ عن هذه المسائل لنرى ما هو الحقّ:

المتعة وتشريعها

أمّا عدولهم عن متعة النساء فإنّما هو عدول عمّا شرّعه الله ورسوله للمسلمين، وقد عمل به أصحابه من بعده مدة خلافة أبي بكر ، وشطراً من خلافة عمر ، واستمروا على العمل بها حتى نهى عنها عمر بقوله : «متعتان كانتا على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنا أنهي عنهما وأعاقب عليهما : متعة الحج ومتعة

---

(٦٩٧) زبيد، اسم وادي في اليمن به مدينة يقال لها الحصيب، ثم غلب عليها اسم الوادي فلا تعرف ـ أي مدينة زبيد ـ إلاّ به. معجم البلدان ج٣ ص ١٣١، حرف الزاء مادة زبيد.

(٦٩٨) سيأتي الكلام في الجزء الثاني حول جواز أكل الكلاب في مذهب مالك .

(٦٩٩) أحسن التقاسيم ج١ ص٤٠ .

النساء»[٧٠٠] فإباحة المتعة مقطوع به على عهد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وادعاء النسخ لذلك الحكم لا يثبت .

وكان ابن عباس حبر الأمة يأمر الناس بالمتعة ، وكان ابن الزبير ينهى عنها، فذكر ذلك لجابر فقال : على يدي دار الحديث تمتعنا مع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)فلمّا قام عمر قال : إنّ الله كان يحلّ لرسوله ما شاء بما شاء ، فأتموا الحج والعمرة وأبقوا نكاح هذه النساء ، فلن أوتي برجل نكح امرأة إلى أجل إلاّ رجمته بالحجارة .

وأخرج مسلم في باب نكاح المتعة من صحيحه عن أبي نضرة، قال : كنت عند جابر بن عبدالله فأتاه آت فقال : إنّ ابن عباس وابن الزبير اختلفا في المتعتين فقال جابر : فعلناهما مع رسول الله، ثم نهانا عنهما عمر فلم نعد لهما[٧٠١] .

وقد ذهب إلى القول بها جماعة من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كأمير المؤمنين علي(عليه السلام)، كما روي عنه أنه قال: لولا أنّ عمر نهى عن المتعة ما زنى إلاّ شقيّ[٧٠٢].

ومنهم عبدالله بن عباس، وكان يقول : ما كانت المتعة إلاّ رحمة رحم الله بها أمة محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) لولا نهيه ـ يعني عمر ـ عنها ما احتاج إلى الزنا إلاّ شقيّ[٧٠٣] .

ومنهم عبدالله بن عمر، أخرج الإمام أحمد في مسنده من حديث عبدالله ابن عمر، قال : سأل رجل ابن عمر عن متعة النساء فقال : والله ما كنّا على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) زانين ولا مسافحين[٧٠٤] .

ومنهم عبدالله بن مسعود، قال : كنّا نغزو مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وليس لنا شيء ، فقلنا ألا نستخصي ؟ فنهانا عن ذلك ، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل . ثم قرأ عبدالله: **(يأيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)**[٧٠٥] .

---

(٧٠٠) تفسير الرازي ج١٠ ص٥٠ .
(٧٠١) صحيح مسلم ج٢ ص١٠٢٣ ، ١٧ .
(٧٠٢) تفسير الرازي ج١٠ ص٥٠ .
(٧٠٣) تفسير القرطبي ج٥ ص١٣٦ .
(٧٠٤) مسند أحمد ج٩ ص٥٠٣ ، ح٥٦٩٤ .
(٧٠٥) صحيح مسلم ج٤ ص١٢٩، والآية في سورة المائدة: ٧٨ .

وأخرج البخاري عن جابر بن عبدالله وسلمة بن الأكوع أنّه قال : كنّا في جيش فأتانا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : إنّه قد أذن لكم أن تستمتعوا فاستمتعوا[٧٠٦] .

وأخرج مسلم عن عمران بن حصين أنّه قال: تمتعنا مع رسول الله(صلى الله عليه وآله)، قال رجل برأيه ما شاء[٧٠٧] .

وعلى أيّ حال فإنّ تشريع زواج المتعة في الإسلام بشروطه المعتبرة فيه قد اتفق عليه السنة والشيعة ، ودلّ عليه القرآن الكريم كقوله تعالى : (**فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة**)[٧٠٨] .

وعلى هذا الاتفاق ساروا على القول بها في عهد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأيام أبي بكر وشطراً من عهد عمر إلى أن نهى عنها كما مرّ، فافترقوا عند هذا الحدّ، فالشيعة أخذوا بحلّيتها ولم يتركوا قول رسول الله لقول عمر .

ولم يحلّ ذلك من أن يقول فيها جماعة من الصحابة ، منهم جابر بن عبدالله ومعاوية، وابن مسعود، وعمرو بن حريث ، واسماء بنت أبي بكر ، وأبو سعيد، وسلمة ابنا أمية بن خلف وغيرهم .

وقال بها جماعة من التابعين منهم طاووس ، وعطاء ، وسعيد بن جبير وسائر فقهاء مكة[٧٠٩] .

وسيأتي تفصيل البحث في الأجزاء القادمة إن شاء الله .

الطلاق الثلاث واحدة

اتّفقت الإمامية على أنّ طلاق الثلاث واحدة ، فلو طلّقها ثلاثاً بدون مراجعة لم تحرم عليه ، ويجوز له مراجعتها ولا تحتاج إلى محلل .

نعم الطلاق المحرّم الذي لا تحل المطلقة بعده لمطلقها إلاّ بالمحلل الشرعي، إنّما هو لو طلقها ثم راجعها، وهكذا ثلاثاً حرّمت عليه في الطلاق الثالث ، وهو المسبوق برجعتين مسبوقتين بطلاقين ، وحينئذ لا تحل المطلقة بعد لمطلّقها حتى تنكح زوجاً

---

(٧٠٦) صحيح البخاري ج٥ ص١٩٦٧ ح٤٨٢٧، نيل الأوطار، للشوكاني ج٦ ص١٢٤ .

(٧٠٧) صحيح مسلم ج٢ ص٤٨ .

(٧٠٨) النساء : ٢٤ .

(٧٠٩) صحيح مسلم ج٤ ص١٨٣، نيل الأوطار للشوكاني ج٦ ص١٣٣ .

غيره ، وبه جاء التنزيل: (**الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان**) الى قوله عزّ وجل: (**فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره**) ـ الآية ـ[٧١٠] .

وقد خالف الأكثر من علماء السنة ، فجعلوا قول الزوج لزوجته : أنت طالق ثلاثاً يوجب تحريمها ولا تحلّ إلاّ بالمحلل ، وقد كان على عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يعدّ طلاق الثلاث واحدة ، كذلك في أيام أبي بكر وشطراً من عهد عمر بن الخطاب .

أخرج مسلم في صحيحه بسند عن ابن عباس أنّه كان الطلاق على عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ، وأبي بكر وسنتين من عهد عمر طلاق الثلاث واحدة ، فقال عمر بن الخطاب : إنّ الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة : فلو أمضيناه عليهم ، فأمضاه[٧١١]، وجعل البتة واحدة[٧١٢].

وأخرج عن أبي الصهباء أنّه قال لابن عباس : أتعلم أنّما كانت الثلاث تجعل واحدة على عهد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأبي بكر وثلاث من إمارة عمر فقال ابن عباس : نعم[٧١٣].

وأخبر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً ، فقام(صلى الله عليه وآله وسلم) **غضبان، ثم قال : أيلعب في كتاب الله وأنا بين أظهركم**[٧١٤].

وعن ابن عباس أنّ ركانة طلّق زوجته ثلاثاً في مجلس واحد، فحزن عليها حزناً شديداً فسأله رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): **كيف طلقتها ؟** قال : ثلاثاً . فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : **في مجلس واحد ؟** قال : نعم قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : **إنّما تلك واحدة فأرجعها إن شئت**[٧١٥] .

وأخرج الترمذي بلفظه عن عبدالله بن يزيد بن ركانة عن أبيه عن جده قال: أتيت النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فقلت يا رسول الله إنّي طلقت امرأتي البته، فقال ما أردت بها؟ قلت واحدة. قال: والله، قلت والله، قال: فهو ما أردت[٧١٦].

قال الآلوسي في تفسيره : وفي وقوع الثلاث بلفظ واحد وكذا في وقوع الطلاق مطلقاً في الحيض خلاف ، فعند الإمامية لا يقع الطلاق بلفظ الثلاث ولا في حالة

---

(٧١٠) البقرة : ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .
(٧١١) صحيح مسلم ج٤ ص١٨٣ .
(٧١٢) صحيح الترمذي ج٥ ص١٣٣ .
(٧١٣) صحيح مسلم ج٤ ص١٨٣ .
(٧١٤) نيل الأوطار للشوكاني ج٤ ص٢٢٦ .
(٧١٥) نيل الأوطار للشوكاني ج٦ ص٢٣٢ .
(٧١٦) صحيح الترمذي ج٥ ص١٣١ .

الحيض ، لأنّه بدعة محرمة وقد قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» ونقله غير واحد عن ابن المسيب وجماعة من التابعين[٧١٧].

قال الشوكاني : وقع الخلاف في الثلاث إذا وقعت في وقت واحد ، هل يقع جميعها ويتبع الطلاق أم لا ؟ ثم ذكر القائلين بالوقوع : وهم أئمّة المذاهب الأربعة وغيرهم ثم قال : وذهب بعض من أهل العلم : لا يتبع بل يقع واحدة فقط ، وحكى ذلك عن أبي موسى ، ورواية عن علي (عليه السلام) ، وابن عباس، وطاووس، وعطاء، ورجاء ، والهادي والقاسم ، والباقر، إلى آخره[٧١٨].

والحاصل أنّه لا خلاف عند المسلمين بوقوع الطلاق الثلاث واحدة ، في عهد النبي وأبي بكر وشطراً من إمارة عمر ، وبعد ذلك ألزم عمر الناس بوقوع مثل هذا الطلاق اجتهاداً منه ، وعند هذه النقطة تفترق الشيعة عن السنة ، فالشيعة يأخذون بقول النبي ويتبعون ما شرّعه ولا يلتزمون بتنفيذ اجتهاد عمر وترك تلك النصوص الدينية المقدسة من الكتاب والسنة ، فقد دعته مصلحة رآها ولكن المصلحة عندنا هي اتباع الرسول امتثالاً لقوله تعالى : (**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**)[٧١٩].

يقول الأستاذ الغزالي : وجمهور الفقهاء الأقدمين جعلوه بدعياً ويقع الطلاق به، وهم في هذا يتبعون اجتهاد عمر إلى أن يقول : وبدلاً من أن يلتزموا منهج السنة آثروا البدعة المحرّمة، ونطقوا بالطلقات الثلاث دفعة واحدة ، وكان ذلك إذا حدث في عهد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)غضب منه أشد الغضب ولم يجعله إلاّ واحدة[٧٢٠] .

المسح على الرجلين

المسح على الرجلين مشروع على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كما رواه الجمهور عن معلى بن عطاء عن أبيه عن إدريس بن أبي أويس الثقفي: أنّه رأى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) توضأ ومسح على قدميه. وأخرج مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر أنه قال : تخلف عنا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فأدركنا وقد

---

(٧١٧) روح المعاني للآلوسي ج١ ص١٣٧ .

(٧١٨) فتح القدير للشوكاني ج١ ص٢٣٨ .

(٧١٩) الحشر : ٧ .

(٧٢٠) حقوق الإنسان للأستاذ محمد الغزالي ص١٧٢ .

حضرت الصلاة ، فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادى : « ويل للأعقاب من النار »[٧٢١].

قال القرطبي : وهذا الأثر وإن كانت العادة قد جرت بالاحتجاج به في منع المسح فهو أدل على جوازه منه في منعه، لأنّ الوعيد إنّما تعلق فيه بترك التعميم لا بنوع الطهارة بل سكت عن نوعها ، وذلك دليل على جوازه ووجوب المسح هو أيضاً مرويّ عن بعض الصحابة والتابعين[٧٢٢].

والغرض أنّ أهل السنة اختلفوا في فرض الرجلين ، فقال قوم : فرضهما المسح.

(٧٢١) صحيح مسلم ج١ ص ١٤٧ نعم هو موجود في بداية المجتهد لابن رشد ج١ ص ١٧.

(٧٢٢) ما عثرنا على هذا النّص، راجع تفسيره ج٦ ص ٩١.

وقال آخرون : فرضهما الغسل وذهب بعضهم الى التخيير بين المسح والغسل ، كما هو مذهب ابن جرير وداود الظاهري وغيرهما[٧٢٣].

أما الشيعة فاتفقوا على وجوب المسح لدلالة الآية الكريمة وهو قوله تعالى: (وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم)[٧٢٤] **بالنصب عطفاً على موضع برؤوسكم كما هو المعروف باللغة العربية وهو كالعطف على المحل ، وقرأ غيرهم بالخفض على المجاورة، وهو شاذ في اللغة ورد في مواضع لا يلحق بها غيرها ولا يقاس عليها سواها، ولا يجوز حمل كتاب اللّه على الشذوذ الذي ليس بمعهود ولا مألوف ، والإعراب بالمجاورة إنّما يكون عند من أجازه ، عند فقدان حرف العطف.**

وقد صحّ في صفة وضوء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) **من طريق أهل البيت** (عليهم السلام) **أنه غسل وجهه وذراعيه ثم مسح رأسه وقدميه ، وصحّ عن ابن عباس أنه قال : ما أجد في كتاب اللّه إلا غسلتين ومسحتين[٧٢٥]. وسنقف على بيان ذلك في الجزء الخامس من هذا الكتاب إن شاء اللّه.**

الأذان وحيَّ على خير العمل

إنّ كلمة « حي على خير العمل » كانت على عهد النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) **جزءً من الأذان ومن الإقامة ، ولكنهم ادعوا نسخها بعد ذلك ، والصحيح انّها كانت على عهد النبيّ**(صلى الله عليه وآله وسلم) **وأبي بكر وشطراً من عهد عمر ، ولكنّه نهى عنها كما نهى عن متعة النساء[٧٢٦]، ولقد أبدلوا مكانها كلمة الصلاة خير من النوم ، كما يروي مالك بن أنس في موطئه : أنّ المؤذن جاء الى عمر بن الخطاب يؤذنه بصلاة الصبح فوجده نائماً فقال : الصلاة خير من النوم ، فأمره عمر أن يجعلها في نداء الصبح.**

---

(٧٢٣) بداية المجتهد ج١ ص٤١ ـ ٤٢ .

(٧٢٤) المائدة: ٦.

(٧٢٥) سنن الدارقطني ج١ ص٩٦ ، ح٥.

(٧٢٦) الفصول المهمة للحجة شرف الدين ص٦١ ـ ٦٤.

قال الزرقاني في شرح الموطأ : هذا البلاغ أخرجه الدارقطني في السنن من طريق وكيع في مصنفه عن العمري عن نافع عن ابن عمر عن عمر، أنه قال لمؤذنه : إذا بلغت حي على الفلاح في الفجر فقل : الصلاة خير من النوم ، الصلاة خير من النوم.(٧٢٧)

ولا وزن لما جاء عن محمد بن خالد بن عبد اللّه الواسطي أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)استشار الناس لما ينبههم الى الصلاة ، فذكروا البوق فكرهه من أجل اليهود ، ثم ذكروا الناقوس فكرهه من أجل النصارى ، فأري النداء تلك الليلة رجل من الأنصار يقال له عبد اللّه بن زيد وعمر بن الخطاب فطرق الأنصاري رسول اللّه ليلا. فأمر رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) بلالا فأذن به.

أما رجل هذه الرواية وهو محمد بن خالد بن عبد اللّه الواسطي كذاب لا يصح أخذ الأحاديث عنه. وقد نصّ على ذلك يحيى بن معين ، وضعّفه أبوزرعة ، وأنكر عليه ابن عدي أحاديثه ، وقال يحيى : هو رجل سوء(٧٢٨) فلا يلتفت الى ما يرويه في تشريع الأذان على الرؤيا ، وقد ذكر الناس رؤيا عبد اللّه بن زيد في تشريع الأذان، فلما سمع الحسين بن علي (عليه السلام) غضب وقال : الوحي ينزل على الرسول ويزعمون أنّه أخذ الأذان عن عبد اللّه بن زيد والأذان وجه دينكم ، ولقد سمعت أبي علي بن أبي طالب (عليه السلام) يقول : أهبط اللّه ملكاً عرج برسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى السماء ـ إلى أن ـ قال : وبعث اللّه ملكاً لم ير في السماء قبل ذلك الوقت فأذن وأقام وذكر كيفية الأذان ، ثم قال جبرئيل للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) : يا محمد ، هكذا أذن للصلاة.

وقد أجمعت الإمامية على كون الأذان من الأحكام التي نزل بها الوحي من اللّه لا يرجع ذلك الى رؤيا كما يقولون ، وكلمة « حي على خير العمل » جزء من الأذان ، وقول : « الصلاة خير من النوم » ، إنّما هو من اجتهادات الخليفة عمر ، وقد صحّ عن ابنه عبد اللّه أنه كان يقول في أذانه : « حي على خير العمل» وكذلك أبي أمامة بن سهل بن حنيف كما ذكره ابن حزم في المحلى(٧٢٩)، وكان أهل البيت يأتون بها لثبوتها وعدم دليل على نسخها ، وأذّن بها الحسين بن علي صاحب

---

(٧٢٧) سنن الدارقطني ج١ ص٢٤٣ ، ح٤٠.
(٧٢٨) تهذيب التهذيب ج٩ ص١١٩ / ٦٠٩٦.
(٧٢٩) المحلى ج٣ ص ١٦٠ .

فخ[٧٣٠] وعلى ذلك استمرت الشيعة في اتباع أهل البيت(عليهم السلام) وعدم الرجوع لغيرهم وكان ذلك شعارهم في جميع الأدوار.

والغرض أنّ هذه الأمور التي يقول عنها المقدسي بعدول الناس فيها عن مذهب أهل البيت (عليهم السلام) لم تكن من الأمور المبتدعة بل هي مقررة في الاسلام.

وسيأتي في مباحث الفقه مزيد بيان حول هذه المسائل وغيرها.

أما المسائل التي عدل عنها الناس ـ كما يقول المقدسي ـ عن المذاهب الأخرى فلا يسع المجال للبحث عنها هنا.

وكيف كان فإنّ مذهب أهل البيت يرتبط بكتاب اللّه وسنة رسوله ارتباطاً وثيقاً ولا دخل فيه للرأي ولا للقياس ، كما أنّه بعيد كلّ البعد عمّا أحيط به من تهم رماه بها خصومه، كما أوضحنا ذلك في الأبحاث السابقة.

وهنا نقف عن مواصلة البحث عمّا حلّ بالمسلمين من عوامل الفرقة من جراء الخلافات التي أوهنت الكثير من روابطهم وكدّرت صفو مودتهم.

وكان التعصّب هو العامل القوي في قطع تلك الروابط والمعول الهدام لصرح الأخوة الإسلامية.

والآن نتحول للبحث عن حياة أئمة المذاهب بعد أن تعرضنا لبيان نشأة المذاهب وعوامل انتشارها.

وفي هذا الجزء سنعرض لحياة الإمام أبي حنيفة من حيث نشأته ومقومات شخصيته ، وفي الجزء الثاني لحياة الإمام مالك بن أنس ، وفي الجزء الثالث لحياة الإمام الشافعي ، وفي الجزء الرابع لحياة الإمام أحمد بن حنبل.

أما البحث عن الإمام الصادق (عليه السلام) فلم نقتصر عليه في جزء واحد ، بل التزمنا أن نذكر طرفاً من أخباره في كل جزء ابتداءً من الجزء الأول .

---

(٧٣٠) ظهر الحسين بن علي بن الحسن السبط بالمدينة المنورة ، وكان معه جماعة من الطالبيين وحاربه عامل العباسيين فهزمه الحسين وبايعه الناس على كتاب الله وسنة رسوله للمرتضى من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وأرسل له العباسيون جيشاً فقتل يوم التروية بفخ، ومما هو جدير بالذكر ان موسى بن عيسى العباسي أرسل رجلا إلى عسكر الحسين حتّى يراه ويخبره عنه ، فمضى الرجل ورجع وقال له : ما أظن القوم إلا منصورون فقال: وكيف ذاك يابن الفاعلة ؟ قال الرجل لأني ما رأيت فيهم إلاّ مصلياً أو مبتهلا أو ناظراً في مصحف أو معداً للسلاح ، فضرب موسى يداً على يد وبكى ثم قال : هم والله اكرم خلق الله ، وأحق بما في أيدينا منا ، ولكن الملك عقيم لو ان صاحب هذا القبر يعني النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)نازعنا الملك ضربنا خيشومه بالسيف.

ولا أقول بأنّي قد استوفيت البحث في هذه الموسوعة عن حياة الإمام الصادق (عليه السلام)وماله من آثار ومآثر ، ومناقب ومفاخر فدراسة حياته لا تستوفى بسهولة ، وإنّ ذلك أمر يشقّ على الباحث مهما أنفق من جهد في هذا السبيل وفي أيّ ناحية يسلك في دراسة حياته (عليه السلام) ليفرغ منها فراغاً تاماً ويحيط بها احاطة تامة فإنّه يجد نفسه في البداية لا في النهاية.

وليس ذلك لغموض يكتنف جوانب عظمته ، أو وجود زوائد في دراسة حياته، أو اندفاع وراء العاطفة لرفع مكانته وعلوّ مقامه ، فهو أرفع من ذلك.

وإنّما اتّساع دائرة معارفه ، وتعدد نواحي شخصيته ، وعظيم أثره في بعث الفكر الإسلامي ، وجهاده المتواصل في سبيل إسعاد الأُمة ، ورفع مستوى المجتمع الإسلامي ، هو سبب في قصور الباحث عن إدراك الغاية المطلوبة في الدراسة عن شخصيته (عليه السلام)والنفوذ إلى معرفة كنهها. وإنّ العلم والحق لكفيلان باظهار مآثر الإمام ، وللعلم حكمه، وللحق أتباعه ، ونسأل اللّه التسديد وهو وليّ التوفيق.

الإمام أبو حنيفة

الإمام أبو حنيفـة

تمهيد :

ذكرنا في الأبحاث السابقة أسباب نشأة المذاهب الاسلامية وانتشارها بكثرة ، وتعرضنا لذكر المذاهب التي أصابها الخمول والتأخّر فكان نصيبها الفناء والإبادة بعد مدة، ولم يبق منها لإخواننا أبناء السنة إلاّ المذاهب الأربعة: الحنفي ، المالكي ، الشافعي ، الحنبلي.

وقد سارت هذه المذاهب في طريق الانتشار والشهرة ، ولم يعرض لها أي عارض ، ولم يواجهها أي خطر يعرقل حركة السير ، فكتب لها الخلود وأصبح المعوّل عليها اليوم.

والآن وقد انتهى بنا السير في البحث عن أئمة المذاهب الأربعة لنأخذ صورة عن كلّ واحد منهم بدون تعصّب لهم أو عليهم ، فإنّ الباحث إذا أطل من زاوية التعصب الضيقة لا يهتدي إلى الواقع ولا يعرف الأشياء بحقيقتها ، وليكن ابتداء التعرف على الإمام أبي حنيفة أولا وذلك من حيث الرتبة الزمنية لا رتبة الأفضلية والأولوية، فذاك أمر يعود لغيرنا .

وإنّ ما اتّصل بنا من أخبار أبي حنيفة من طريق المغالين فيه أو المتحاملين عليه لا يوضح لنا نهج الوصول إلى الغاية. فإذا أردنا أن نتعرّف على شخصية أبي حنيفة لنعرف مكانته في ذلك العصر وأهميته في مجتمعه ، يلزمنا مناشدة الرجال الذين عاصروه ، ولا ننظر إليه من زاويتي الغلّو أو التعصب، لأنّا نطلب الحقيقة ونتّبع الحقّ بلا تعصب له وعليه، فإنّ رجلا قد أصبح مرجعاً للفتيا لكثير من المسلمين يقتدون بأقواله ، ويتمذهبون بمذهبه، فهو من الأهمية بمكان فلنبحث عن شخصيته لنأخذ عنها صورة عن طريق البحث المتجرد عن التحيز والتعصّب.

الإمام أبو حنيفة

هو النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه ولد سنة (٨٠ هـ) وتوفي ببغداد سنة (١٥٠ هـ) - (٧٦٧م). وكان جدّه زوطى - بضم الزاء وسكون الواو وفتح الطاء -

من أهل كابل وقيل من مدينة نسا ، أو من أهل بابل ، وقد أسر عند فتح العرب لتلك البلاد واسترق لبعض بني تيم بن ثعلبة ، ثم أعتق ، فكان ولاؤه لهذه القبيلة.[٧٣١]

وقد وقع الاختلاف في نسب أبي حنيفة ، فالمتعصّبون له ينفون عنه الرقّ، ويدعون له نسباً عربياً مرة وفارسياً لم يقع عليه الرق أُخرى، والصحيح أنّ أبا حنيفة فارسي النسب ، تيميّ الولاء ، كوفيّ النشأة.

وكذلك وقع الخلاف في محل ولادته ، من جهة مقام أبيه فقيل : ترمذ. وقيل نسا. وقيل الأنبار أو الكوفة ، كما أنّنا لم نقف على تاريخ حياة أبيه ثابت، وسنة وفاته ومدة معاشرة أبي حنيفة له.

نعم يروى عن أبي حنيفة أنّه قال : حججت سنة (٩٦ هـ)، أو (٩٩ هـ) مع والدي وأنا ابن تسع عشرة سنة ، فلمّا دخلت المسجد الحرام رأيت حلقة فقلت لأبي : حلقة من هذه؟ فقال : حلقة عبد اللّه بن الحارث الخ .

وهذا شيء بعيد عن الصحة : لأنّ وفاة عبد اللّه بن الحارث كانت في سنة (٨٥ هـ) بمصر، كما سنوضح ذلك في بحثنا حول سماع أبي حنيفة من الصحابة.

ومهما يكن من أمر فإنّا لم نقف على أخبار والده ، وتاريخ حياته ، وهل ولد على الإسلام ، أم أنه أسلم بعد فتح العرب لبلاده ، واسترقاق أبيه ؟

ويقولون أنّ زوطى جدّه أهدى للإمام علي (عليه السلام) فالوذجاً يوم النوروز، وكان ثابت صغيراً فدعا له الإمام علي (عليه السلام) بالبركة[٧٣٢]. أما أُمّه فلم يتعرض التاريخ لذكرها بالتفصيل ، وقد ذكر لها أخباراً معه من حيث طاعته ومعاشرته لها.

مع الأستاذ عفيفي في روايته

وقد وافانا الأُستاذ السيد عفيفي المحامي الشرعي بمصر ، ومحرر مجلة المحاماة الشرعية ، بقصة من دون سند وهي تتكفل تعيين أم الإمام وشخصيتها، وإليك نصها :

يقول الأُستاذ السيد عفيفي عند ذكره لوالد أبي حنيفة : هو ثابت بن النعمان بن المرزبان ، وكان ثابت هذا يرجع الى دين وعقل ومروءة ، تصدر عن جد ، فقد روي أنه كان في شبابه ورعاً زاهداً ، وكان يوماً يتوضأ من جدول فجاءت تفاحة في الماء فأمسكها وأكلها بعد الفراغ من الوضوء ، ثم بصق فرأى بصاقه دماً فقال

---

(٧٣١) سير أعلام النبلاء ج٦ ص٥٣١ / ٩٩٤.

(٧٣٢) سير أعلام النبلاء ج٦ ص ٥٣١ ح ٩٩٤ .

في نفسه : لعلّ ما أكلته حرام ، وإلاّ لما تغيّر بصاقي فتبع رأس الجدول ، فوجد شجرة تفاحها مثل ما أكل ، فطلب صاحبها وقص عليه القصة وأعطاه درهماً وقال : اجعلها في حل، فلما رأى صاحب التفاحة ورعه وصلابته في دينه أحبّه ، وقال لا أرضى بدرهم ولا بألف درهم ولا بأكثر.

فقال ثابت : فبم ترضى؟ قال إنّ لي ابنة لا ترى ولا تنطق ، ولا تسمع ولا تمشي، فإن تزوجتها أجعلها في حل، وإلا أُخاصمك يوم السؤال والحساب. فلبث ثابت في التفكّر ساعة ، ثم قال في نفسه : عذاب الدنيا أسهل وينقضي ، وعذاب الآخرة أشدّ وأبقى ، وتزوج بها فلما دخل عليها تقبلته بقبول حسن ، فاشتبه على ثابت الأمر ، لأنّه وجدها حسناء سميعة بصيرة ناطقة ، فقالت له : أنا زوجتك بنت فلان. قال: وجدتك على خلاف ما وصفك أبوك ، قالت: نعم، فإنّي كنت من سنين لم أطأ خارج البيت ، ولم أنظر الأجانب ولم أسمع كلامهم ولم يسمعوا كلامي ، فعرف ثابت الحال وقال : (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ)[٧٣٣].

يقصّ علينا الأُستاذ المحامي هذه القصة غير ملتفت الى المؤاخذات التي يؤاخذ بها بصفته مثقّفاً من أبناء القرن العشرين ويتولى مهنة المحاماة الشرعية.

فيعلّق عليها بقوله : هيهات لا يأتي الزمان بمثل ثابت ، ولا بمثل صاحبته، فلا عجب أن يتولّد منهما ولد في صورة الإنسان وسيرة الملك ، ويحيي اللّه به دينه القويم ، ويشيع مذهبه في الأقطار ، وعلمه في الأمصار ويقول :

من هذا الوالد الورع الزاهد ، وهذه الأُمّ الطاهرة ، ولد الإمام الأعظم أبوحنيفة النعمان في مدينة الكوفة في سنة (٨٠ من الهجرة النبوية) في عصر الدولة الأُموية في خلافة عبد الملك بن مروان .

ويقول بعد ذلك إنّ إسمه النعمان وهو منقول من إسم جنس، وقيل إنّه الدم وقيل إنّه الروح ، فيكون اتفاقاً حسناً، لأنّ أبا حنيفة روح الفقه وقوامه، ومنه منشؤه ونظامه.

ونحن نسائل الأُستاذ المحامي عن الأسباب التي دعته لنقل هذه الأُسطورة في مقدمة كتابه « حياة الإمام أبي حنيفة » أكان انتصاراً للإمام ليعلن بفضله وفضل أبيه وأمه ؟ وهل ضاقت عليه المسالك في مناقب أبي حنيفة فالتجأ الى أساطير العجائز في ليالي الشتاء ؟ وليته ترك هذه الأُسطورة، وهو المثقّف الذي يحمل

---

(٧٣٣) فاطر: ٣٤ .

شهادة المحاماة ، والمفروض بالمحامي أن يحمل عقلية قوية وفكراً واسعاً يستطيع به أن يتوغل الى أعماق معقولات القوانين.

ونسائله أيضاً لو قدر للشيخ عفيفي حضور تشاجر الفلاح مع ثابت وطلب كلّ منهما حكمه في الأمر ، أكان يحكم على ثابت بأنه مذنب ويلزمه بإرضاء الفلاح بكلّ صورة ؟ وهل في وسع الشيخ أن يحكم بصحة ما ذهب إليه ثابت من أنّ التفاحة كانت حراماً لذلك تحولت الى دم ؟ وكيف يكون ذلك من الوجهة الطبية والبيولوجية؟

أنا لا أدري ولعلّ الأستاذ محب الدين الخطيب يدري ، لأنّه قدّم الكتاب وعرّفه للقرّاء .

المناقب

لعلّ من أهمّ المشاكل التي تقف أمامنا، ونحن في طريق البحث عن حياة أبي حنيفة، هي مشكلة المناقب ، فإنّها متضخمة الى أبعد حد، ولا نستطيع أن ندرس حياة أبي حنيفة دراسة صحيحة إلاّ بعد الفراغ من مشكلة المناقب، لأنّها أهم شيء في الباب.

وإن كُتب المناقب تعرقل سير الباحث بينه وبين الوصول الى الهدف، لأنّ فيها الاغراق في المدح ، والمبالغة في الوصف ، ونقل أخبار وحكايات بعيدة عن مقاييس الصحة ، ولا نريد التعرّض لكلّ ما قيل بل نقتصر على مناقشة ما يدّعى وروده على سبيل البشارة وطريقة التعيين لأهلية الاتباع.

وكيف كان فقد قال أصحاب المناقب: ينبغي لكلّ مقلّد إمام أن يعرف حال إمامه الذي قلّده ، ولا يحصل ذلك إلاّ بمعرفة مناقبه وشمائله وفضائله ، وسيرته في أحواله وصحة أقواله ، ثم لابدّ من معرفة اسمه وكنيته ونسبه وعصره وبلده، ثم معرفة أصحابه وتلامذته.

وقد ألّف كل من علماء المذاهب كتباً في مناقب إمامهم، فألّف الحنفية كتباً في مناقب أبي حنيفة. منها « عقود المرجان في مناقب أبي حنيفة النعمان » ، ومختصره « قلائد عقود الدرر والعقيان » لأبي جعفر الطحاوي و « مناقب أبي حنيفة » لموفق الدين بن أحمد المكي الخوارزمي المتوفي سنة (٥٦٧ هـ) رتبه على أربعين باباً ، و « البستان في مناقب النعمان » للشيخ محيي الدين عبد القادر بن أبي الوفاء ، و « شقائق النعمان في مناقب النعمان» للزمخشري المتوفى سنة

(٥٣٨ هـ) و « مناقب أبي حنيفة » لمحمدبن الكردري المعروف بالبزاز المتوفى سنة (٧٨٢ هـ) وقد ترجم إلى اللغة التركية وغيرها.

وتوجد مناقب كثيرة في بطون الكتب على اختلاف نزعات المؤلفين وأهوائهم.

يقول الدكتور أحمد أمين : كما أنّ العصبية المذهبية حملت بعض الأتباع لكلّ مذهب أن يضعوا الأخبار لإعلاء شأن إمامهم ، ومن هذا الباب ما رووا من الأحاديث بتبشير النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لكل إمام من مثل ما روي أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قال في أهل العراق : « إن اللّه وضع خزائن علمه فيهم » ومثل : « يكون في أمتي رجل يقال له النعمان بن ثابت ، ويكنى بأبي حنيفة يحيي اللّه على يديه سنتي في الإسلام» الخ ; حتى لقد زعموا أنّ أبا حنيفة بشرت به التوراة.

وكذلك فعل بعض الشافعية في الشافعي ، والمالكية في مالك ، وما كان أغناهم عن ذلك. ومن أجل ذلك صعب على الباحث معرفة التاريخ الصحيح لكل إمام ، فكلما أتى جيل زاد في فضائل إمامه.[٧٣٤]

وقد وضع احمد بن الصلب بن المفلس أخباراً في مناقب أبي حنيفة، وكان يحكي ذلك عن بشر بن الحارث ويحيى بن معين وابن المديني[٧٣٥].

لذلك نرى من اللازم البحث عن بعض المناقب التي أصبح التسليم بصحتها أمراً مفروغاً منه عند بعضهم ، وترسل في معرض المدح والثناء ارسال المسلمات.

وهانحن نضع بين يدي القراء أهم المناقب في أبي حنيفة ونعطيه عنها صورة صادقة من حيث الصحة والبطلان ، فالعلم هو الكاشف لذلك ، والتحقيق في البحث يحلّ تلك المشاكل ، ولا غرض لنا بهذا إلاّ تجريد شخصية أبي حنيفة من أبراد الغلو فنتعرف على واقع أمره ونخلص الى سيرة وترجمة حقيقيتين.

البشائر في أبي حنيفة

أورد الحنفية في كتبهم أحاديث عن صاحب الرسالة (صلى الله عليه وآله وسلم) تنصّ على البشارة بأبي حنيفة وتصرح باسمه وكنيته ، منها :

١ ـ يكون في أمتي رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أمتي.

٢ ـ يكون في أمتي رجل اسمه النعمان وكنيته أبو حنيفة.

---

(٧٣٤) ضحى الاسلام ج٢ ص١٧٧.

(٧٣٥) انظر المنتظم ص٥ ـ ١٥٦.

٣ ـ يكون في أمتي رجل يقال له النعمان بن ثابت يكنى بأبي حنيفة يحيي اللّه به سنتي .[٧٣٦]

بهذا اللسان والتعبير أوردوا هذه الأحاديث عن صاحب الرسالة ونحن نقف هنا موقف الحيرة. أنترك هذه الأحاديث بدون فحص ونسدل عليها ستار الإعراض ، فالعقل السليم أجلّ من أن يحتاج الى إيضاح مثل هذه الأمور، التي تدلّ بنفسها على بعدها عن الواقع ، أم نبحث عنها فنصرف زمناً في البحث لطلب الحقيقة فقط ؟

نعم ، البحث عنها أولى ، لأنا وجدناها في كُتب الحنفية المعتبرة عندهم ، ويستدل بها أكثر علمائهم في صحة اتباع مذهب أبي حنيفة دون غيره ، على أنّ المبرّزين منهم يكذبون ذلك وينصّون على كذبها كما سيأتي بيانه ، إذاً لابد لنا من البحث بإيجاز عن مصدر هذه الأحاديث والنظر في سلسلة الرواة.

حديث السراج وإحياء الدين

وهذا الحديث استشهد به كثير من الحنفية، في تفضيل أبي حنيفة على غيره، ذاهبين إلى صحته ، فلننظر إلى سلسة الحديث ، ونكتفي بالبعض منها ولا نتتبع حلقاتها جمعاء، فسلسلة الحديث تبتدئ من محمد بن سعيد البورقي ، وتنتهي إلى أبي هريرة ، أما محمد بن سعيد فإليك حاله ومنزلته في الرواية، لتعرف أهليّته لحمل الحديث.

قال ابن حجر : محمد بن سعيد البورقي أحد الوضّاعين قد وضع المناكير على الثقات ، وأوحشها روايته عن بعض مشايخه عن الفضل بن موسى عن محمد بن عمر عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً : يكون في أمتي رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أمتي ، وزاد رواية أخرى ، وسيكون في أمتي رجل يقال له محمد بن إدريس ـ يعني الشافعي ـ فتنته على أمتي أضر من فتنة إبليس.

وقال حمزة السهمي : محمد بن سعيد كذّاب حدث ببلاد خراسان : سيكون في أمتي رجل يقال له النعمان هو سراج أمتي ، ثم حدث في العراق بإسناده وزاد « سيكون في أمتي رجل يقال له محمد بن إدريس فتنته على أمتي أضرّ من فتنة إبليس » ; وقال الحاكم: محمد بن سعيد حديثه ليس بشيء.[٧٣٧]

---

(٧٣٦) الموضوعات لابن الجوزي ج٢ ص٤٩.

(٧٣٧) لسان الميزان ج٥ ص١٧٩ .

ويقول ملا علي القاري ـ وهو أكبر علماء الحنفية ، وله كتاب في مناقب أبي حنيفة ـ : وقد أورد بعضهم في مدح أبي حنيفة وذكر حديث السراج وهو حديث موضوع.(٧٣٨)

هذا وحديث محيي الدين بهذا اللفظ أوردوه مرفوعاً « سيكون رجل يقال له النعمان بن ثابت ويكنى بأبي حنيفة يحيي دين اللّه وسنتي ».

وقد أجهد الموفق المكي نفسه في تصحيح هذا الحديث ولم يوفق ، وراوي هذا الحديث يحيى بن سليمان عن إبراهيم بن أحمد الخزاعي عن أبي هدبة ابراهيم بن هدبة عن أنس بن مالك مرفوعاً ، ولا حاجة بالتعرّض لرجالها أجمع، ونكتفي بذكر من رواها عن أنس وهو إبراهيم بن هدبة.

قال الخطيب في تاريخه : إبراهيم بن هدبة حدّث عن أنس بالأباطيل. وقال أبو حاتم وغيره : إنّه كذاب خبيث، وقال ابن حبان إنّه من الدجاجلة كان لا يعرف بالحديث(٧٣٩).

وقال بشر بن عمر كان في جوارنا عرس ، فدعي له أبو هدبة فأكل وشرب ، وسكر فجعل يغني :

أخذ القمل ثيابي * فرقصت لهنه**

وقال علي بن ثابت : أبو هدبة أكذب من حماري(٧٤٠) ، الى آخر الأقوال فيه وفي فسقه ، وإنّه كان يسأل الناس في الأسواق مع أنّه كان من أهل القرن الثالث، فكيف سمع من أنس؟ فلا شكّ في كذبه ، إذاً فالحديث موضوع على صاحب الرسالة وقد اختلفت ألفاظ هذه الموضوعات لاختلاف الغرض في وضعها ، وذلك أنّها إشارة في أوّل الأمر الى الكنية فقط، وبهذا وقعوا في حذر عظيم ، لأن الذي يكنى بأبي حنيفة من العلماء كثير ، فذهبوا الى الصراحة بالاسم ، فقالوا : اسمه النعمان بن ثابت ويكنّى بأبي حنيفة ، ليخرجوا بذلك جملة من العلماء الذين اشتهروا بهذه الكنية في عصره وبعد عصره.

---

(٧٣٨) اللآلئ المصنوعة ج١ ص٤١٧.

(٧٣٩) لسان الميزان ج١ ص١٢٠ .

(٧٤٠) تاريخ بغداد ج٦ ص٢٠٠ / ٣٢٥٨.

قال السيوطي عند ذكر هذه الأحاديث : إن الذي وضع حديث (أبو حنيفة سراج أمتي) هو مأمون بن أحمد السلمي ، وأحمد بن محمد الجويباري وكلاهما من الوضّاعين[٧٤١].

وأنّهم أوردوا هذه الأحاديث من طرق متعددة ، ولكن المحور الذي تدور عليه ، هو سعيد البورقي ، ومأمون بن أحمد الهروي ، وأحمد بن محمد الجويباري ، ومحمد بن يزيد الطرسوسي ، وأبان بن عياش ، وهو الراوي عن أنس ، وإبراهيم بن هدبة راوي حديث محيي السنّة وكلّ هؤلاء عرفوا بالكذب والوضع.[٧٤٢]

أمّا مأمون بن أحمد السلمي الهروي ، وهو راوي حديث : يكون في أمتي رجل يقال له النعمان ـ الى آخره ـ قال أبو نعيم في مقدمة المستخرج على صحيح مسلم : مأمون السلمي من أهل هراة خبيث وضّاع يأتي عن الثقات ، مثل هشام بن عمار ، ودحيم بالموضوعات ، وفيما حدّث عن أحمد الجويباري الكذّاب عن عبد اللّه بن معدان الأزدي عن أنس مرفوعاً : سيكون في أمتي رجل يقال له النعمان. الحديث ، قال أبو نعيم : مثله يستحقّ من اللّه تعالى ومن الرسول ومن المسلمين اللعنة. وقال الحاكم بعد ذكر الحديث من طريق مأمون : ومثل هذه الأحاديث يشهد من رزقه اللّه أدنى معرفة بأنها موضوعة على رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم).[٧٤٣]

وأما محمد بن يزيد فقد كان من الوضّاعين ، وقد روى هذا الحديث عن سليمان بن قيس عن أبي المعلى بن مهاجر عن أبان عن أنس قال ابن حجر : وسليمان بن قيس والمعلّى مجهولان لا يعرفان[٧٤٤].

وأما أبان بن أبي عياش البصري مولى عبد القيس وهو الراوي عن أنس فقد كان يحيى بن معين ، وعبد الرحن بن المهدي لا يحدثان عنه. وقال الفلاس : هو متروك الحديث ، وقال أحمد بن حنبل : لا يكتب عنه، ترك الناس حديثه. وقال أبو عوانة : لا أستحل أن أروي عنه شيئاً ـ الى آخر ما هنالك من الأقوال في ذمّه ـ ، وقد نص بعضهم على كذبه ، قال ابن حبان : إنّ أبان سمع من أنس أحاديث وجالس الحسن فكان يسمع من كلامه : فإذا حدّث جعل كلام الحسن البصري عن

---

(٧٤١) اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ج١ ص٢٣٧ .

(٧٤٢) الموضوعات لابن الجوزي ج٢ ص٤٩.

(٧٤٣) لسان الميزان ج٥ ص٥٨٧.

(٧٤٤) لسان الميزان ج٥ ص٧ .

أنس أحاديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولعلّه حدث عن أنس بأكثر من ١٥٠٠ حديث. قال الجوزجاني : أبان ساقط ، وقال شعبة : لئن أشرب من بول حماري أحبّ إليّ من أن أقول : حدّثني أبان، وقال مرة : لئن يزني الزاني خير من أن يروي عن أبان. وقال أيضاً لا يحلّ الكف عن أبان إنّه يكذّب على رسول اللّه(٧٤٥)، وقد مرّ ذكر إبراهيم والبورقي.

وأما الجويباري فقد نصّ على كذبه الذهبي في الميزان(٧٤٦) ، وابن حجر في لسانه(٧٤٧)، والسيوطي(٧٤٨)، والخطيب البغدادي(٧٤٩) وغيرهم.

ونحن لا نتعرّض لجميع هذه الأقوال الادعائية في البشائر النبويّة، التي إلتجأ إليها المعجبون بأبي حنيفة ، والمغالون بشخصيته ، ونكتفي بهذا القدر من التوهين لها ، ولم يكن من قصدنا بالبحث عن هذه الأمور إلا إظهار الحقيقة وخدمة العلم ، لأنّ أغلب من كتب عن أبي حنيفة جعلها من أقوى مؤيدات اتّباعه ولزوم الأخذ عنه دون غيره ، وانّ أكثر من كتب من المعتدلين في مناقب أبي حنيفة لم يذكروا هذه الأحاديث لعدم الاعتماد عليها كالسيوطي في تبييض الصحيفة ، وابن حجر في الخيرات الحسان(٧٥٠)، وملا علي القاري ، والذهبي في مناقب أبي حنيفة.

وقد سلك السيوطي طريقاً آخر لإثبات تبشير النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأبي حنيفة. قال : وقد بشّر النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) بأبي حنيفة في الحديث الذي أخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق أبي هريرة: لو كان العلم بالثريا لتناولته رجال من أبناء فارس(٧٥١).

وهذا لا يمكن، وفي أبناء فارس من حملة العلم من الصدر الأول الى اليوم من العلماء ما ينطبق هذا العموم عليهم فكيف يخصص بأبي حنيفة وحده ! هذا من التخمين والظنون، وهو من باب: أريه السهى ويريني القمر.

وعلى أيّ حال فإنّ هذه الموضوعات كانت من نتائج عصور التعصّب وعهود التطاحن بين المذاهب.

---

(٧٤٥) تهذيب التهذيب ج١ ص٩٨.

(٧٤٦) ميزان الاعتدال ج١ ص٢٤٥ / ٤٢٠.

(٧٤٧) لسان الميزان ج١ ص٢٩١ / ٦١٨ .

(٧٤٨) اللآلئ المصنوعة ج١ ص٤١٧ .

(٧٤٩) المغني في الضعفاء ج١ ص٧٢ / ٣٢٢.

(٧٥٠) قال ابن حجر في الخيرات الحسان ص٥ عند ذكر الحديث : قد أطبق المحدثون على وضعه .

(٧٥١) الخيرات الحسان ص١٤ .

حديث غياث لكل مهموم

روى الموفق بسنده عن محمد الحارثي بإسناده الى أبي البختري قال : دخل أبو حنيفة على جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) فلمّا نظر اليه قال : كأ نّي أنظر اليك وأنت تحيي سنة جدي بعدما اندرست ، وتكون مفزعاً لكلّ ملهوف، وغياثاً لكلّ مهموم[٧٥٢].

هكذا نقل الموفق بهذا السند يوصله الى أبي البختري ، ونحن في سعة عن مناقشة رجال السند أجمع ، بل يلزمنا أن نتعرف على شخصية أبي البختري الذي يدعي سماع هذه الكلمات من الإمام الصادق (عليه السلام)، فإذا كان محلّه الصدق والثقة فنحن نأخذ هذه الرواية بعين الاعتبار ، إذ ليس لنا عداء مع الحقّ.

أبو البختري

هو وهب بن وهب بن وهب القرشي أبو البختري قاضي بغداد ، الذي يقول فيه المعافى :

ويل وعول لأبي البختري * إذا ثوى للناس في المحشر**

من قوله الزور وإعلانه * بالكذب في الناس على جعفر[٧٥٣]**

وقال ابن العماد الحنبلي في الشذرات في حوادث سنة (٢٠٠ هـ): وفيها مات وهب بن وهب أبو البختري ـ إلى أن ـ قال : روى عن هشام بن عروة وطائفة واتّهم بالكذب.[٧٥٤]

وقال ابن قتيبة في المعارف:[٧٥٥] كان ضعيفاً في الحديث كذبه في المغني ، وقال يحيى بن معين : أبو البختري كان يأخذ فلساً فيذكر عامة ليله يضع الحديث وقال أيضاً : أبو البختري القاضي كان يكذب على رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم). وقال أيضاً: أبو البختري كذاب عدوّ اللّه خبيث.[٧٥٦]

وقال عثمان بن أبي شيبة : وهب بن وهب ذاك دجال أرى أنه يبعث يوم القيامة دجالا ، ولما بلغ عبد الرحمن بن مهدي موته قال : الحمد لله الذي أراح المسلمين

---

(٧٥٢) جامع المسانيد ج١ ص١٩.

(٧٥٣) تاريخ بغداد ج١٣ ص٤٥٧ / ٧٣٢٣.

(٧٥٤) شذرات الذهب ج١ ص٣٦٠.

(٧٥٥) المعارف ص٢٨٨.

(٧٥٦) تاريخ بغداد ج١٣ ص٣٥٩ / ٧٣٢٣ .

منه ، وقال ابن خلكان : أبو البختري كان متروك الحديث ، مشهوراً بوضعه ، ونص أحمد على كذبه.

وروى الخطيب: أنّ أبا البختري دخل على الرشيد وهو قاض يوم ذاك، وهارون يطير الحمام فقال : هل تحفظ في هذا شيئاً ؟ فقال : حدّثني هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة أنّ النبيّ كان يطير الحمام(٧٥٧).

وساق ابن عدي لأبي البختري أحاديث موضوعة قال : وأبو البختري من الكذابين الوضّاعين ، وكان يجمع في كل حديث يرويه بأسانيد من جسارته على الكذب ووضعه على الثقات(٧٥٨).

هذا هو أبو البختري راوي هذه المنقبة التي ذكرها الخوارزمي في مناقب أبي حنيفة.

فتوى أبي البختري

ونسوق إليك قضية من قضايا قاضي القضاة أبي البختري لتعرف أهليّته لهذه المنزلة : كان الرشيد قد أعطى ليحيى بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب كتاب الأمان ، ثم أراد إبطاله فسأل محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة.. فقال : هذا أمان صحيح ودمه حرام ، فدفع الكتاب الى الحسن بن زياد، فقال بصوت ضعيف : أمان ، فدخل أبو البختري وهب بن وهب القاضي ، وأخرج من خفّه سكيناً فقطع الكتاب من غير أن يسأل عنه ، وقال : هذا أمان مفسوخ ، وكتاب فاسد ودمه في عنقي(٧٥٩).

وبارتكابه لهذه الجريمة وإراقته دماً طاهراً لحفيد من أحفاد رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) نال درجة الرقي في مناصب الدولة ، وخطا خطوات واسعة، إذ قال له الرشيد عند صدور هذه الفتيا : أنت قاضي القضاة وأنت أعلم بذلك. وأجازه الرشيد بألف ألف وستمائة ألف درهم ، فها هو قد أصبح بعد أن كان واحداً من القضاة رئيسهم الأول ، ومرجعهم الأعلى تناط به أُمورهم، ومن سوء حظ الأُمة أن تكون سلطتها القضائية بيد قضاة لا يخافون اللّه ولا يرجون معاداً ، هذا هو أبو البختري وهذه حاله فكيف يوثق بنقله ويعتمد على قوله ؟!

يقول سويد بن عمرو بن الزبير في أبيات له :

---

(٧٥٧) تاريخ بغداد ج١٣ ص٤٥٣، ووفيات الأعيان ج٢ ص ١٨١ و ١٨٢ .

(٧٥٨) لسان الميزان ج٦ ص٢٣١.

(٧٥٩) مفتاح السعادة لأحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده ج٢ ص١١٠، ولسان الميزان ج٢ ص٢٣٤.

إنا وجدنا ابن وهب حين حدثنا * عن النبيّ أضاع الدين والورعا**
يروي أحاديث من إفك مجمعة * أف لوهب وما يروي وما جمعا[٧٦٠]**

بين المدّ والجزر

لقد غالى بعض كتّاب المناقب غلواً أخرجهم من الاعتدال في القول والتثبت في النقل، فتقوّلوا وافتعلوا ، وذهبوا الى أبعد حدّ من المدح والثناء، وجاءوا بأُمور متنوعة في مناقبه وفضائله حتى وضع بعضهم كتاباً موضوعاً في مناقبه. وللبيان نعطي صورة مختصرة عن تلك الادعاءات الكاذبة، وللتفصيل محل آخر.

فمن أظرف ما ينقل من كرامات أبي حنيفة قضية الدهري الذي ورد بغداد ليناظر علماء الإسلام أيام الدولة العباسية ، وأنّهم عجزوا عن جوابه ولم يبق إلاّ حماد بن أبي سليمان ، ومعه تلميذه أبو حنيفة ، ولهذه الأُسطورة صور في النقل :

منها: أنّ دهرياً من الروم ناظر علماء الإسلام فأفحمهم إلاّ حماداً. ولم يأت أحد بما فيه مقنع ، والإمام إذ ذاك كان صبيّاً فخاف حماد لأنّه لو ألزمه يهون أمر الإسلام. فرأى رؤيا لا حاجة لنا بنقلها[٧٦١].

فذهب أبو حنيفة مع أُستاذه الى الجامع، وصعد الدهري المنبر، وطلب الخصم ، فحضر أبو حنيفة وهو صبيّ، فاستحقره ، فقال أبو حنيفة : دع هذا وهات كلامك ، فتعجب الدهري من جرأته، فسأله الدهري بأسئلة فأجاب عنها فقال أبو حنيفة : هذه الأسئلة وأنت على المنبر وأنا أجبت عنها، والآن انزل الى الأرض وأنا أصعد المنبر ، فنزل وصعد أبو حنيفة وقال : إذا كان على المنبر مشبه مثلك أنزله ، وإذا كان على الأرض موحد مثلي رفعه ، (كل يوم هو في شأن)[٧٦٢] فبهت الدهري وقتلوه.[٧٦٣]

هكذا دوّن بعض أصحاب المناقب هذه الأُسطورة ولم يلتفتوا الى المؤاخذات فإنّهم ذكروا أنّ هذه القصة قد وقعت في بغداد ، ولا يتأتى ذلك ، فإن بغداد مصرت في زمن المنصور سنة (١٤٥ هـ) فيكون عمر أبي حنيفة في هذه القصة (٦٥)

---

(٧٦٠) ترجمة قاضي القضاة أبو البختري في لسان الميزان ج٦ ص٣٣٢ ، وميزان الاعتدال ج٣ ص٢٧٨، وتاريخ بغداد ج١٣ ص٤٥٤ وغيرها.

(٧٦١) مفتاح السعادة ج٢ ص٢٠١ .

(٧٦٢) الرحمن: ٢٩ .

(٧٦٣) مفتاح السعادة ج٢ ص٢٠١ .

سنة; فكيف كان عمره سبع سنين؟ وإن وفاة أستاذه حماد بن أبي سليمان سنة (١٢٠ هـ) بالاتفاق[٧٦٤] ، أي قبل تمصير بغداد بخمس وعشرين سنة. مع أنّ أبا حنيفة تتلمذ على يد حماد ، بعد أن قضى شطراً من عمره في بيع الخز ، واشتغل مدة بعلم الكلام ، وبعد ذلك التحق بحلقة حماد.

وقد ذكرت هذه الأُسطورة في عدة كتب وعلّق بعضهم عليها بقوله : هذا حال الإمام في صغره فكيف في كبره[٧٦٥].

أمّا الصورة التي ينقلها الخوارزمي فهي :

إنّ ملك الروم بعث مالاً عظيماً بيد أمين الى بغداد ، وقال : سلهم عن ثلاث مسائل، فإن هم أجابوا فادفع اليهم المال ، وإلاّ فارجع به ، فلما قدم بغداد جمع العلماء وصعد الرومي المنبر وقال : إن أجبتم عن أسئلتي أعطيتكم المال ، وإلا رجعت به ، فسألهم وسكت القوم وفيهم أبو حنيفة ، وهو يومئذ صبي، فقال لأبيه : يا أبتا أنا أُجيبه ، فأسكته أبوه ، وقام أبو حنيفة واستأذن الخليفة في الجواب، وصعد أبو حنيفة المنبر الخ ; هكذا أوردوا هذه الأُسطورة واختلفوا بطرق نقلها.

ومن أظرف ما نقلوه ما يرويه صاحب مفتاح السعادة: أنّ ثابتاً توفي وتزوج الإمام الصادق (عليه السلام) أم الإمام أبي حنيفة ، وكان أبو حنيفة صغيراً وتربّى في حجر الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) وأخذ علومه منه. قال مؤلّفه : وهذه إن ثبتت فهي منقبة لأبي حنيفة ، وقد أيّد ذلك قاضي زاده شريف مخدوم، فقال: وبعد وفاة الثابت ، أي والد أبي حنيفة ، تزوّج أم الإمام الإمام جعفرالصادق وتربّى أبو حنيفة في حجره[٧٦٦].

وكيف يتأتى ذلك ويستقيم وأنّ أبا حنيفة كان صغيراً وتربى في حجر الإمام الصادق(عليه السلام) وقد كانت ولادة أبي حنيفة سنة (٨٠ هـ) وولادة الصادق سنة (٨٣ هـ)؟ فلا يصحّ هذا، وإن أبوا إلا تصحيح هذه المناقب فاللّه قادر على كلّ شيء ، ولا يستبعد أن يكون المدّ والجزر في الأعمار كما هو في البحار.

ولنكتف بما ذكرناه ، ولا نتعرّض لتلك الادعاءات الكاذبة فقد ادعوا أن التوراة بشّرت به ، وأنّ صفته مكتوبة فيها ، وأنّ اللّه ناداه : يا أبا حنيفة إني قد غفرت لك ولمن هو على مذهبك الى يوم القيامة ، وأنّ النبي غبط داود، لأنّ في أمّته لقمان;

---

(٧٦٤) تهذيب الكمال ج٧ ص٢٧٨ / ١٤٨٣.

(٧٦٥) مفتاح السعادة ج٢ ص٢٠١ ، وشرح وصية أبي حنيفة المخطوط بمكتبة الإمام كاشف الغطاء. «منه».

(٧٦٦) جامع الرموز ج١ ص٢ .

فبشّره جبرائيل بأبي حنيفة ، وأنّ حكمته أعظم من حكمة لقمان ، وانّ الخضر درس عليه خمس سنين في حياته وأكمل دراسته عليه وهو في قبره ، الى كثير من تلك السفاسف وهي من الأُمور التي لا تحتاج الى مناقشة ، وإنّما هي وليدة عصر احتدام التعصّب للمذاهب ، فذهب كلّ الى تكوين شخصية إمامه طبقاً لأهدافه ، وقد ألّفوا كتباً طافحة بالثناء الأجوف والمدح الكاذب.(٧٦٧)

وقد كان جماعة يضعون الأحاديث والمناقب لنصرة مذهب أبي حنيفة، أمثال أحمد الحماني المتوفى سنة (٣٠٢ هـ)، وأسد بن عمر البجلي القاضي المتوفى سنة (١٩٠ هـ)، وأباء بن جعفر الكذّاب المعروف ، وقد حرّفه بعضهم عند نقله عنه بابان ليخفي حاله ، وقد خرجوا في أبي حنيفة أحاديث لا أصل لها(٧٦٨)، وقد وضع أباء عليه أكثر من ثلاثمائة حديث، وذكر أكثرها الحارثي في مسند أبي حنيفة(٧٦٩) ; وغير هؤلاء كثير لا يسع الوقت لذكرهم ممن دعتهم عصبيّتهم الى تكوين شخصية أبي حنيفة طبقاً لرغباتهم ، ومعاكسة للوجدان ومخالفة للحقّ، وبذلك صعب الوصول الى معرفة شخصية أبي حنيفة.

فلنترك مناقشة تلك المناقب فإنّا لا نتعرّض إلاّ لما له أهمية في الموضوع. فمن ذلك قولهم: إنّ أبا حنيفة سمع جماعة من الصحابة ودوّنوا له أحاديث ذكرت في مسانيده، فلننظر لصحة هذه الدعوى.

سماعه من الصحابة

حاول البعض أن يجعل أبا حنيفة من التابعين، بل قال بعضهم إنّه سيدهم ، والتابعي هو الذي عاصر الصحابة وسمع منهم ، وقالوا : إنّ أبا حنيفة عاصر جماعة من الصحابة وروى عنهم ومجموع ما رواه خمسون حديثاً.(٧٧٠)

وهذه الدعوى يختصّ بها الحنفية ، وقد نفاها علماء الحديث والتاريخ ، كما أنّ أصحابه الذين دوّنوا مذهبه لم يثبتوا ذلك ، ولم يعرفوا من روايته عن الصحابة معرفة قطعية لا تقبل الشك. وإنّما هو من إيحاءات العصبية ونزعة الغلو ، وللبيان

---

(٧٦٧) أنظر مناقب الموفق المكي ، الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان.

(٧٦٨) تهذيب التهذيب ج١ ص٤٤٩ .

(٧٦٩) أنظر جامع المسانيد ج١ ص ١٤ ـ ٢٢.

(٧٧٠) أنظر أبو حنيفة النعمان لوهبي سليمان ص٧٠ ـ ٧٦ ، تاريخ بغداد ج١٣ ص٣٢٤.

نذكر أولئك الصحابة رضي اللّه عنهم وتاريخ وفياتهم ، فيتضح بطلان هذه الدعوى ، واليك البيان :

١ ـ عبد اللّه بن أنيس أبو يحيى الجهني حليف الأنصار ، شهد العقبة الثانية وأُحد، ورحل الى مصر وتوفي في الشام سنة (٨٠ هـ) أي سنة ولادة أبي حنيفة، وقال بعضهم: توفي في خلافة معاوية سنة (٥٤ هـ) فما يروى عن أبي حنيفة أنّه قال : ولدت سنة ثمانين، وقدم عبد اللّه بن أنيس الجهني صاحب رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) سنة (٩٤ هـ) ورأيته وسمعت منه عن رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) « حبك الشيء يعمي ويصم » لا أصل له.

ويقول ملا علي القاري ـ بعد ذكره لهذا الحديث ـ : في ملاقاة عبد اللّه بن أنيس به ـ أي بأبي حنيفة ـ إشكال; لأنّ أهل السير والتواريخ مجمعون على أنه مات بالمدينة سنة (٥٤ هـ)[٧٧١].

٢ ـ عبد اللّه بن الحرث بن جزء الزبيدي أبو الحرث، شهد فتح مصر واختط بها داراً ومات سنة (٨٦ هـ) وهو آخر من مات بها من الصحابة ، فما روي عن أبي حنيفة أنّه قال : حججت مع أبي سنة (٩٦ هـ)، ورأيت عبد اللّه بن الحرث يدرس في المسجد الحرام ، وسمعت منه أنّه يقول سمعت رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم)يقول : من تفقه في دين اللّه كفاه اللّه ما أهمّه ، ورزقه من حيث لا يحتسب ; فهذا لا يصح ، لأن وفاة هذا الصحابي كانت في سنة (٨٦ هـ) وولادة أبي حنيفة في سنة (٨٠ هـ) وأول حج حجّه أبو حنيفة سنة (٩٦ هـ) فكيف يصح ملاقاته وسماعه منه ؟!.

قال الشيخ قاسم الحنفي وهو من مشايخ الحنفية : إنّ سند ذلك الحديث فيه قلب وتحريف ، وفيه كذاب اتفاقاً ، وبأنّ عبد اللّه مات بمصر ولأبي حنيفة ست سنين وعبد اللّه لم يدخل الكوفة في تلك المدة.[٧٧٢]

٣ ـ جابر بن عبد اللّه الأنصاري صحابي جليل شهد العقبة ، وغزا تسع عشرة غزوة، مات بالمدينة (٧٨ هـ) أي قبل ولادة أبي حنيفة بسنتين ، فما يروى عن أبي حنيفة عن جابر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه أمر من لم يرزق

---

(٧٧١) شرح مسند أبي حنيفة ص٢٨٦.

(٧٧٢) انظر شرح مسند أبي حنيفة ص٥٨٦ .

ولداً بكثرة الاستغفار والصدقة ، فولد لجابر تسعة ذكور ، فهذا حديث موضوع لا أصل له[٧٧٣].

٤ ـ عبد اللّه بن أبي أوفى الأسلمي ، صحابي ابن صحابي شهد بيعة الرضوان، مات سنة (٨٥ هـ) وسماع أبي حنيفة منه حديث رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم)«من بنى لله مسجداً كمفحص قطاة بنى اللّه له بيتاً في الجنة »[٧٧٤] فسماعه غير صحيح، لأنّه طفل صغير ليس له أهلية السماع ، مع أنّ أبا حنيفة لم يشتغل بطلب العلم إلا بعد مدة من الزمن.

٥ ـ معقل بن يسار المزني بايع بيعة الشجرة ، وتوفي في خلافة معاوية سنة (٦٠ هـ) فرواية أبي حنيفة عنه حيث يقول : سمعت معقلا يقول : سمعت رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : « علامات المنافق ثلاث إذا قال كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان »[٧٧٥] ، غير صحيح لتقدّم وفاة معقل على ولادة أبي حنيفة بعشرين سنة.

٦ ـ واثلة بن الأسقع بن كعب بن عامر من بني ليث بن عبد مناف ، ويُكنّى أبا الأسقع أسلم قبل تبوك ، وشهدها مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نزل الشام ومات في خلافة عبد الملك سنة (٨٣ هـ) وكان آخر من مات بدمشق من الصحابة، روى عنه أبو حنيفة حديثين : الأوّل «لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك». **والثاني** «دع ما يريبك الى ما لا يريبك»[٧٧٦]. **والحديثان رواهما الترمذي من وجه آخر عن جمع من الصحابة، ورواية أبي حنيفة لهما عن واثلة لا تصح لأنه مات بالشام[٧٧٧] وعمر أبي حنيفة ثلاث سنين .**

٧ ـ عائشة بنت عجرد مجهولة لا تكاد تعرف ، قال الذهبي وابن حجر : إنّ عائشة لا صحبة لها وأنّها لا تكاد تعرف ، وبذلك ردّ ما روي أنّ أبا حنيفة روى هذا الحديث الصحيح « أكثر جند اللّه الجراد لا آكله ولا أحرمه ».[٧٧٨]

٨ ـ سهل بن سعد الساعدي كان اسمه حزن فسمّاه رسول اللّه سهلاً توفي سنة (٨٨ هـ) وهو آخر من مات من الصحابة بالمدينة ولم يخرج منها الى الكوفة، فلا

---

(٧٧٣) أنظر الخيرات الحسان ص٢٤ .

(٧٧٤) شرح مسند أبي حنيفة ص٥٨٨ ـ ٥٨٩.

(٧٧٥) شرح مسند أبي حنيفة ص٥٩٣ .

(٧٧٦) المناقب للمكي ج١ ص٢٧ .

(٧٧٧) حاشية رد المحتار لابن عابدين ج١ ص٧٠ .

(٧٧٨) مسند أبي حنيفة ص١٤٤ .

يصح سماع أبي حنيفة منه وروايته عنه; لأنّ أبا حنيفة لم يحج إلاّ في سنة (٩٦ هـ) أي بعد وفاة سهل بثمان سنوات. ذكر ذلك البزاز في مناقب أبي حنيفة.[٧٧٩]

٩ ـ أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن خرام الأنصاري شهد بدراً مات سنة (٩٠ هـ) وقد جاوز المائة وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة[٧٨٠].

وعلى كلّ حال فإنّ رواية أبي حنيفة عن الصحابة قد نفاها جماعة من المحدثين وعلماء الرجال : كالولي العراقي ، وابن حجر ، والسخاوي وغيرهم[٧٨١].

قال محمد بن شهاب البزاز : إنّ جماعة من المحدثين أنكروا ملاقاة أبي حنيفة للصحابة ، وأصحابه اثبتوها.

وقبل أن نتحوّل عن موضوع المناقب نحبّ أن نشير إلى منزلة أبي حنيفة في الحديث ، وهل خرّج له أصحاب الصحاح أم لا ؟

ولا نحبّ أن نطيل الحديث ونكتفي ببعض الموضوع ، لنأخذ صورة عن ذلك في مجال المقارنة والموازنة فيما بعد.

حديثه وعنايته بالرواية

قالوا : إنّ أبا حنيفة لم يكن صاحب حديث، ولكن كان قيّاساً سلك في القياس مسلكاً استوجب شدة الإنكار عليه وعلى أصحابه.

قال مالك بن مغول : قال لي الشعبي ـ ونظر الى أصحاب الرأي ـ : ما حدثك هؤلاء عن أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فاقبله ، وما خبروك به عن رأيهم فارم به في الحش. وقال : إيّاكم والقياس فإنّكم إن أخذتم به حرّمتم الحلال وأحللتم الحرام[٧٨٢].

يقول ابن خلدون : بلغت رواية أبي حنيفة الى سبعة عشر حديثاً. ويعلّل ذلك بقوله : إنّما قلت رواية أبي حنيفة لما شدّد في شروط الرواية والتحمّل، وضعف رواية الحديث اليقين إذا عارضها الفعل النفسي[٧٨٣].

---

(٧٧٩) انظر شرح مسند أبي حذيفة ص٥٩٢ .

(٧٨٠) الخيرات الحسان ص٢٤ ، وخلاصة تهذيب الكمال ص٣٤٥.

(٧٨١) شرح مسند أبي حنيفة للقاري ص٢٨٤ .

(٧٨٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص٧٠.

(٧٨٣) المقدمة ص٣٧٢ .

قال الدكتور أحمد أمين ـ بعد نقل هذه العبارة ـ : وهي وإن كانت موجزة ، وغامضة بعض الغموض إلاّ أنّها تدلّنا على هذا الاتجاه ، وهو عدم الاكتفاء بالرواية ، بل عرضها على الطباع النفسية والبيئة الاجتماعية(٧٨٤).

ونحن نستبعد صحة هذا القول، وإنّ أبا حنيفة لم يرو إلاّ سبعة عشر حديثاً أو لم يصح عنده إلاّ ذلك العدد. فإنّ الرجل حضر عند علماء الأمة ، وسمع من الثقات وسافر إلى مكة والمدينة ، وسمع من أئمة أهل البيت (عليهم السلام) الإمام الباقر(عليه السلام) ، وولده الإمام الصادق(عليه السلام)، وزيد بن علي (عليه السلام) ، وعبد اللّه بن الحسن.

ونحن لا ننكر أنّه كان قيّاساً وكان يتشدّد في الرواية ، ولا يقبل الخبر إلاّ إذا رواه جماعة عن جماعة، أو كما يقول أصحابه : إذا كان خبراً عاماً عن عامة ، أو اتفق علماء الأمصار على العمل به ، ومهما كان تشدّده واشتراطه فلا يصحّ أن يقال : إنّه لم يصح عنده إلاّ سبعة عشر حديثاً.

أما أصحابه فلم يتشدّدوا في قبول الرواية ، فقد أدخل أبو يوسف في فقه أبي حنيفة أحاديث كثيرة ، ومن بعده محمد بن الحسن الشيباني ، فإنّه لقي مالكاً ، وقرأ الموطأ عليه ، ثم رجع إلى بلده ، وطبق مذهب أصحابه على الموطأ مسألة مسألة(٧٨٥).

وكيف كان فقد اختلف المحدثون في قبول رواية أبي حنيفة، فمنهم من قبله ، ومنهم من لينه لكثرة غلطه في الحديث ليس إلاّ ، قال علي بن المديني ليحيى بن سعيد : كيف كان حديث أبي حنيفة ؟ قال : لم يكن صاحب حديث(٧٨٦).

وقال ابن عدي في ترجمة إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة : ثلاثتهم ضعفاء. وقد عدّه البخاري من الضعفاء والمتروكين.

أمّا أصحاب الصحاح فلم يخرّجوا له حديثاً ، نعم في رواية أبي علي الأسيوطي والمغاربة عن النسائي، قال : حدثنا علي بن حجر ، حدثنا عيسى هو ابن يونس ، عن النعمان عن عاصم عن ابن عباس : من أتى بهيمة لا حدّ عليه.(٧٨٧)

وهو لم ينسب النعمان فهل هو أبو حنيفة أم غيره؟

---

(٧٨٤) ضحى الإسلام ج٢ ص١٣١ .

(٧٨٥) رسالة الإنصاف ص٨ .

(٧٨٦) الذهبي في مناقب أبي حنيفة ص٢٨ .

(٧٨٧) مصنّف ابن أبي شيبة ج٥ ص٥٠٨ / ٢٨٤٩٤.

وخرّج له الترمذي من رواية عبد الحميد الحماني، أنّه قال : ما رأيت أكذب من جابر الجعفي ، ولا أفضل من عطاء.(٧٨٨)

وهذا ليس بحديث وإنّما هو قول لأبي حنيفة، وإذا رجعنا إلى الواقع ففي إمكاننا تكذيب هذا القول ولا يصحّ نسبته لأبي حنيفة، لأنّ جابراً من كبار التابعين ووثّقه سفيان الثوري ، وزهير ، وشعبة ، ووكيع وغيرهم.(٧٨٩)

جاء في جامع أسانيد أبي حنيفة عن زهير أنّه قال : إذا قال جابر بن يزيد: حدثني أو سمعت فهو من أصدق الناس(٧٩٠).

وروى عن جابر كبار العلماء وأعيان الأمة وهو من شيوخ أبي حنيفة ، وقد روى عنه عدة أحاديث أوردها أصحابه في كتبهم ، وهي منتشرة في أسانيد أبي حنيفة.

وكان أبو حنيفة يمدح جابراً بالحفظ ويقول : ما سألت جابر الجعفي عن مسألة قط إلاّ أورد فيها حديثاً ، ولقد سألته عن ورد رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: حدثني نافع عن ابن عمر أنّ رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يجعل وتره آخر صلاته(٧٩١).

ولا يستبعد أنّ هذا القول وضع أيام نشاط الخلافات وتحامل الموالي على العرب ، فإنّ جابراً عربيّ وعطاء من الموالي.

وستأتي ترجمة جابر في الأجزاء القادمة إن شاء اللّه.

أبو حنيفة بين أنصاره وخصومه

ليس للباحث عن حياة أبي حنيفة بدّ من الوقوف على أخباره العامة ، وأن يستعرض الأقوال فيه وآراء الناس حوله ، وبهذا لا يجد سهولة في الوصول إلى الغاية ، إذ الطريق غير معبّد لوجود ركام من الأخبار المختلفة ، والآراء المتناقضة ، والأقوال التي لا يمكن تصديقها .

فهناك تعصّب وغلوّ في شخصيته ، وإعجاب مفرط في مواهبه ، وهناك نقد مرّ لأعماله، وتحامل شديد عليه ، ووصف بما لا يليق بشخصية رئيس مذهب وإمام طائفة.

---

(٧٨٨) تهذيب التهذيب ج٢ ص٤٤ / ٩٣١.

(٧٨٩) تهذيب الكمال ج٤ ص٤٦٨ / ٨٧٩.

(٧٩٠) جامع أسانيد أبي حنيفة ج١ ص٣٠٥ .

(٧٩١) جامع أسانيد أبي حنيفة ج١ ص٣٠٥ .

والكاتب هنا يقف بين طائفتين : متعصبون له ومغالون فيه وهم أنصاره ، وناقدون له ومتحاملون عليه وهم خصومه.

امّا الطائفة الأولى فقد رفعوه إلى منازل النبيّين ، وزعموا أنّ التوراة بشّرت باسمه ، وأنّ النبيّ أخبر به قبل ولادته ، وانّه سراج الأمة ومحيي السنة ، وأنّه معجزة النبي بعد القرآن ، ولولاه لما اهتدى الناس.

والشيء الغريب أنّهم رفعوه فوق منزلة الأنبياء ، لأنّ عيسى إذا رجع يقلّده ويحكم بمذهبه ، وأنّ الخضر تعلّم أحكام الشريعة منه.

يقول قاضي زاده : إعلم أنّ المذهب لا يقلّده من الصحابة والتابعين إلا أبوحنيفة فإنّ عيسى لما ينزل يحكم بمذهبه[٧٩٢] !!

وقالوا : إنّ اللّه خصّ أبا حنيفة بالشريعة والكرامة.

ومن كراماته : إنّ الخضر (عليه السلام) كان يجيء إليه كلّ يوم وقت الصبح ، ويتعلّم منه أحكام الشريعة إلى خمس سنين.

فلمّا مات أبو حنيفة ناجى الخضر ربّه وقال : إلهي إن كان لي عندك منزلة فأذن لأبي حنيفة حتى يعلّمني من القبر على حسب عادته حتى أتعلم شرع محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) على الكمال ، فأحياه اللّه وتعلّم منه العلم إلى خمس وعشرين سنة.[٧٩٣]

وبعد أن أكمل الخضر دراسته ، أمره اللّه أن يذهب إلى القشيري ، ويعلّمه ما تعلّم من أبي حنيفة ، وصنّف القشيري ألف كتاب ، وهي لا تزال وديعة في نهر جيحون ، إلى رجوع المسيح ، فيحكم بتلك الكتب ، لأنّه يأتي في زمان ليس فيه من كتب شرع محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)فيتسلم المسيح أمانة نهر جيحون. وهي كتب القشيري[٧٩٤].

هذا ما قالوه حول انتساب المسيح لمذهب أبي حنيفة، ولعمري أنّهم

أساءوا لإمامهم بهذه السفاسف وخرجوا عن حدود التبجيل والإكرام له ; كما وصفوه بصفات فوق الطبيعة البشرية ، كقراءة القرآن سبعين ألف مرة ، في محل واحد ، وصلاته في كلّ ليلة ركعتين يختم القرآن في كلّ ركعة ، وصلاته الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة ، وامتناعه من أكل اللحم عشر سنين، لأنّ شاة ضاعت

---

(٧٩٢) جامع الرموز ج١ ص٢ .

(٧٩٣) كتاب الياقوت في الوعظ لابن الجوزي ص٤٨ .

(٧٩٤) الاشاعة في أشراط الساعة ص١٢٠، وكتاب الياقوتة لابن الجوزي ص٤٥ .

فسئل كم تعيش فقيل عشر سنين ، إلى غير ذلك من الأمور التي أساء المغالون لأبي حنيفة فيها.[٧٩٥]

هذا هو أبو حنيفة في نظر المعجبين به وأنصاره المغالين في تكوين شخصيته.

أما الطرف الآخر من معاصريه وغيرهم ، فقد رموه بالزندقة ، والخروج عن الجادّة ، ووصفوه بفساد العقيدة ، والخروج على نظام الدين ، ومخالفة الكتاب والسنة ، وطعنوا في دينه وجرّدوه من الإيمان[٧٩٦].

وقالوا اجتمع سفيان الثوري وشريك وحسن بن صالح وابن أبي ليلى ، فبعثوا إلى أبي حنيفة ، فقالوا : ما تقول في رجل قتل أباه ونكح أمّه وشرب الخمر في رأس أبيه ؟ فقال : مؤمن. فقال ابن أبي ليلى : لا قبلت لك شهادة أبداً. وقال له سفيان الثوري : لا كلمتك أبداً[٧٩٧].

وحكي عن أبي يوسف ، قيل له : أكان أبو حنيفة مرجئاً ؟ قال : نعم قيل : كان جهمياً ؟ قال : نعم[٧٩٨] قيل : أين أنت منه ؟ قال : إنّما كان أبو حنيفة مدرساً، فما كان من قوله حسناً قبلناه ، وما كان قبيحاً تركناه عليه[٧٩٩].

وحدث إبراهيم بن بشار عن سفيان بن عيينة أنه قال : ما رأيت أحداً أجرأ على اللّه من أبي حنيفة ، وعنه أيضاً : كان أبو حنيفة يضرب لحديث رسول اللّه الأمثال فيبرره بعلمه[٨٠٠].

وعن الوليد بن مسلم قال : قال لي مالك بن أنس : أيذكر أبو حنيفة في بلادكم ؟ قلت : نعم قال : لا ينبغي لبلادكم ان تسكن[٨٠١].

وعن الأوزاعي يقول : إنّنا لا ننقم على أبي حنيفة أنّه رأى كلّنا يرى، ولكنّا ننقم عليه إنّه يجيئه الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيخالفه إلى غيره[٨٠٢].

قال ابن عبد البر : وممن طعن عليه وجرحه محمد بن اسماعيل البخاري ، فقال في كتابه « الضعفاء والمتروكين » : أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ، قال نعيم بن حماد : حدثنا يحيى بن سعيد ومعاذ بن معاذ سمعنا سفيان الثوري يقول :

---

(٧٩٥) مسند أبي حنيفة ص١٣ .
(٧٩٦) أنظر أبو حنيفة محمد أبو زهرة ص٥ .
(٧٩٧) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج١٣ ص٣٧٤.
(٧٩٨) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج١٣ ص٣٧٤ .
(٧٩٩) الخطيب البغدادي ج٣ ص٣٧٤ .
(٨٠٠) الانتقاء ص١٤٨ .
(٨٠١) ميزان الشعراني ج١ ص٥٩ .
(٨٠٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص٦٣ .

أستتيب أبو حنيفة من الكفر مرتين. وقال نعيم الفزاري : كنت عند سفيان بن عيينة ، فجاء نعي أبي حنيفة ، فقال:... كان يهدم الإسلام عروة عروة، وما ولد في الإسلام مولود أشرّ منه. هذا ماذكره البخاري[٨٠٣].

وقال ابن الجارود في كتابه « الضعفاء والمتروكين » : النعمان بن ثابت جلّ حديثه وهم.

وقد روي عن مالك أنّه قال في أبي حنيفة نحو ماذكره سفيان : أنّه شرّ مولود ولد في الاسلام ، وأنّه لو خرج على هذه الأمة بالسيف كان أهون. وروي عنه أنه سئل عن قول عمر بن الخطاب : بالعراق الداء العضال، فقال مالك : أبو حنيفة ، وروى ذلك كلّه أهل الحديث.[٨٠٤]

وعن وكيع بن الجرّاح أنّه قال : وجدت أبا حنيفة خالف مائتي حديث عن رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم). وقيل لابن المبارك : كان الناس يقولون إنّك تذهب إلى قول أبي حنيفة ، قال : ليس كلّ ما يقول الناس يصيبون فيه ، كنّا نأتيه زماناً، ونحن لا نعرفه ، فلما عرفناه تركناه[٨٠٥].

وأورد ابن عبد البر في الانتقاء بعضاً من أقوال المادحين له والطاعنين عليه[٨٠٦].

يقول الدكتور علي حسن عبد القادر : ويدعي خصوم أبي حنيفة أنّه لم يكن يعطي للحديث أهمية كبيرة ، وأنّه يجعل للرأي الطليق مكانه الأول بالنسبة للاستنتاج الفقهي ، وأنّه رد كثيراً من الأحاديث في سبيل الرأي.

حدّث أبو صالح الفراء قال : سمعت يوسف بن أسباط يقول : رد أبو حنيفة على رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) أربعمائة حديث أو أكثر.

قلت له : يا أبا محمد تعرفها ؟ قال : نعم. قلت : أخبرني بشيء منها ، قال: قال رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) : « للفرس سهمان وللرجل سهم » قال أبو حنيفة : أنا لا أجعل سهم بهيمة أكثر من سهم المؤمن. واشعر رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) وأصحابه البدن. وقال أبو حنيفة : الاشعار مثله. وقال(صلى الله عليه وآله وسلم) : « البيّعان بالخيار مالم يتفرقا ». وقال أبو حنيفة : إذا وجب البيع فلا

---

(٨٠٣) الانتقاء لابن عمر ص١٥٠ ، أنظر تاريخ بغداد ج١٣ ص٣٩٨ / ٧٢٩٧ .

(٨٠٤) تاريخ بغداد ج١٣ ص٤٠٠ / ٧٢٩٧.

(٨٠٥) الانتقاء لابن عبد البر ص١٥٠ والخيرات الحسان ص٧٦ .

(٨٠٦) الانتقاء ص١٢٤ ـ ١٥٢ .

خيار. وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يقرع بين نسائه إذا أراد أن يخرج في سفر ، وأقرع أصحابه. قال أبو حنيفة : القرعة قمار. وقالوا : إنّه كان في عصره أربعة من الصحابة ، ولكن لم يهتم للقائهم.
وقد ذكر ابن أبي شيبة في مصنّفه في باب خاص الأحاديث التي خالفها أبو حنيفة وأبلغها ١٥٠ حديثاً... الخ(٨٠٧) .

وقد استعرض الخطيب البغدادي أخبار أبي حنيفة ، وذكر أقوالا عن الفريقين من معدّلين ومضعّفين ، ومادحين وطاعنين ونسب لأبي حنيفة أشياء لا نحبّ التعرض لها.(٨٠٨)

وقد طعن علماء الحنفية في الخطيب ونسبوه إلى التعصّب الأعمى ، وأجابوا عن الطعون التي أوردها الخطيب على أبي حنيفة(٨٠٩).

وصفوة القول أنّ دراسة حياة أئمة المذاهب تلفت نظر الكاتب إلى دقة البحث وصعوبته ، لوجود الأقوال المختلفة التي تدل على اندفاع الأتباع لإعلاء تلك الشخصيات فوق منزلتهم الواقعية ، وسنوضح ذلك فيما بعد.

وأنّ دراسة حياة أبي حنيفة تتصف ـ بصورة خاصة ـ بصعوبة تقف أمام الباحث.

يقول الأُستاذ أبو زهرة : لقد تعصّب له ـ أي لأبي حنيفة ـ ناس حتى قاربوا به منازل النبيين المرسلين ، فزعموا أنّ التوراة بشّرت به ، وأنّ محمداً(صلى الله عليه وآله وسلم)ذكره باسمه ، وبيّن أنّه سراج أمته ، ونحلوه من الصفات والمناقب ما عدوا به رتبته ، وتجاوزوا معه درجته ، وتعصّب ناس عليه فرموه بالزندقة ، والخروج عن الجادة وإفساد الدين ، وهجر السنة ، بل مناقضتها ثم الفتوى في الدين بغير حجة ولا سلطان مبين.

ويقول : إنّ كتب المناقب كثيرة وكثرتها لا تهدي السبيل ، ولا تنير الطريق إذ أنّها طوائف من الأخبار يسودها المبالغة ، ولا يكاد يخلو خبر منها من الإغراق ، فتمييز صحيحها من سقيمها يحتاج إلى مقاييس النقد المستقيمة ، فأخبارها لا ترفض جملة ولا تؤخذ جملة ، إذ هي بلا شك فيها الحقّ والباطل، وأخذ الحقّ من بينها يحتاج إلى نظر فاحص(٨١٠).

---

(٨٠٧) نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي للدكتور علي حسن عبد القادر ص٢٢٥ .
(٨٠٨) تاريخ بغداد ج١٣ ص١٣٣ ـ ٤٢٣ .
(٨٠٩) تأنيب الخطيب ص٢٢ ـ ٢٧ .
(٨١٠) أبو حنيفة لأبي زهرة ص٥ ـ ٧ .

ونحن هنا لا يمكن أخذ صورة واقعية عن شخصية أبي حنيفة ، فإنّ هذه الأقوال المتراكمة أمامنا لا نستطيع أن نميّز[٨١١] بواسطتها تلك الشخصية ولا نبدي رأينا في الموضوع إلاّ بعد أن نطلّ من زاوية التاريخ.

نشأته ونبوغه

ولد أبو حنيفة سنة (٨٠ هـ) في خلافة عبد الملك بن مروان الأموي ، وعاش إلى سنة (١٥٠ هـ) وقيل سنة (١٥١ هـ) وقيل سنة (١٥٣ هـ) فقد أدرك من العصر الأموي اثنتين وخمسين سنة ، ومن العصر العباسي ثماني عشرة سنة.

وقد نشأ في الكوفة في عهد الحجّاج بن يوسف ، فرأى قسوة الحجاج واستبداده وسيرته السيئة ، وحكمه القاسي ، ومعاملته للناس بما لا يمكن تحمله ، ومات الحجاج وعمره خمسة عشر عاماً ، وشاهد ولاة الأمويين يسيرون بالأمة ، وقد جاروا في الحكم ، وخالفوا نظم الإسلام ، اتباعاً لملوكهم ، وطبقاً لرغباتهم ، من غير رادع من دين ، ولا مراعاة لحرمة ، ولم تمنعهم حواجز عن إيقاع الأذى برجال المسلمين وأعيانهم ، ومع هذا يرى العصبية العنصرية فيهم تتجلى بدون خفاء وتكتم ، ومن المعلوم أنّ ذلك يثير في نفسه نزعة البغض والكراهة لتلك السلطة ، فلا غرابة حين نراه يساهم في حركة الانقلاب، وينضمّ لجانب العباسيين في دعوتهم. ويناصر أهل البيت(عليهم السلام).

وكان أبو حنيفة منصرفاً للعمل فهو يتعاطى بيع الخز ، وله محل لصنعه وصنّاع تحت يده ، وبهذا كان يعيش برفاهية ، ويصل اخوانه وأصحابه ، ولا نعرف بالضبط مدة بقائه تحت رعاية أبيه، فالتأريخ لم يتعرض لذلك.

ولقد كان عصر أبي حنيفة الذي أظلّه ، والبيئة الفكرية التي عاش بها ، وترعرعت مواهبه تحت سلطانها أكبر عامل على نبوغه وتوجيهه ، إذ كانت الكوفة إحدى مدن العراق العظيمة التي نشأت بها حلقات العلم ، وكانت الأهواء المتضادة والآراء المتضاربة في السياسة والعلم وأصول العقائد تدعو يومئذ إلى الدهشة والإمعان.

فقد صارت الكوفة ملتقى الأفكار وصعيداً لتلاقحها، فكان مستوى ثقافات الشعوب التي أظلها الإسلام يؤثر في مناهج العلم وطرق الثقافة، ويقبل رجال الإسلام على تلك المناهج والطرق للتعرف على قواعدها وخصائصها لتكون وعاءً للفكر

---

(٨١١) في الأصل نتميز.

الإسلامي ليعاد تغذية المسلمين وإنشاء أبنائهم بعقيدة الإسلام وأحكامه، ولعمق العقيدة تتجرّد الأوعية التي قصد أن يكون لونها كذلك مجرداً عن كل لون آخر، ويصبح ما في الوعاء من فكر إسلامي عنواناً متميزاً مستقلاً لا يدانيه و لا يشابهه ما سبق.

ويقال: إنّه نبغ في علم الكلام والجدل وناظر فيه ، واتّسعت دائرة تفكيره. وإذا رجعنا إلى حديثه عن ذلك فيكون ملازمته لحلقة المتكلمين أكثر من حلقة الفقه التي انتقل إليها بعد هجر علم الكلام ، فاختصّ بالفقه وحده ، فإنّ ذهابه للبصرة ، ومناظرته الفرق هناك أكثر من عشرين مرة ـ كما يقولون ـ وفي كلّ مرّة يمكث سنة أو أكثر أو أقل ، يدل على أنّه قضى الشطر الأكبر من عمره[٨١٢] في ذلك ، وإن كانت تلك الرواية لا تخلو من مبالغة ولم تسلم من الخدشة في السند ، فإنّها من وضع يد الغلو ووحي العاطفة.

ومهما يكن فإنّه نشأ في أوّل أمره رجلا يتعاطى التجارة وصنعة الخز وبيعه في الأسواق، وقضى شطراً من حياته في ذلك حتى أرشده الشعبي لطلب العلم، فاتّجه للكلام ثم اتّصل بحلقة حماد بن أبي سليمان المتوفى سنة (١٢٠ هـ) وكان هو المبرز من بعده ، وقد ساعدته الظروف على هدم الحواجز التي تقف أمامه ، كما أنّ العصر الذي هو فيه هيّأ له أسباب الرقي، ومهّد له طرق التقدّم، فقد حدثت تطورات وسنحت فرص استغلّها أبو حنيفة ، لما كان يتّصف به من ذكاء وفطنة وطموح في نفسه.

الموالي وأوضاع عصره

ومن حسن طالعه أن يقع في عصره الخلاف بين أهل الحديث وأهل الرأي ، أو بين العرب والموالي وتشتدّ الخصومة ، ويكثر بينهم التهاجي ، وهو يترأس حلقة أستاذه حماد وهي إحدى حلقات العلم بالكوفة ، وبالطبع أنّ الملتفين حوله والمجتمعين إليه أكثرهم من الموالي وأكثرهم يحقد على العرب الذين نظروا اليهم نظر السيد إلى المسود والشريف إلى الوضيع ، حتى بعثوا فيهم روح النعرة وتلك نزعة غذتها بنو أمية وعاملوا الموالي معاملة سيئة، فلم يعدلوا معهم في الحكم ، وقد كانت تلك النزعة تبعث في نفوس المفكّرين من الموالي كرهاً لما آلت إليه أحوالهم، وينعكس حقداً في نفوس الأغلبية ممن اعتنقوا الإسلام لسبب أو لآخر

---

(٨١٢) مناقب أبي حنيفة للمكي ج١ ص٥٩ .

فذاقوا المهانة. وواقع حضارتهم وأمجاد دولهم مازالت ماثلة لم يمرّ عليها دهرٌ لتمحى أو تزول من الأذهان. ولقد أوجد الأمويون بسياسة التعصّب واحدة من آفات سياستهم التي أودت بدولتهم، وأقدموا على مخالفة مبادئ المساواة والعدل في الإسلام.

وتطوّرت الحركة الفكرية واتّجه الناس في آخر الدولة الأموية إلى أمور لم يكن في وسعهم الاتجاه إليها في إبان عظمة الدولة، وكانت في الكوفة حلقات العلم يجلس طلابه إلى شيوخ عرفوا بذلك ، فكانت حلقات للمتكلمين بجانب حلقات الفقه وحلقات الشعر والأدب يتكلمون فيها بالقضاء والقدر ، والكفر والإيمان ، ويستعرضون أعمال الصحابة في الحرب وغيرها ، وقد اختار أبو حنيفة حلقة المتكلمين(٨١٣).

كما زخرت الكوفة برجال العلم ، واتّسع نطاق الحركة الفكرية واتّجه الناس للبحث، ووقع الخلاف بين أهل الرأي وأهل الحديث ، وأخذت السلطة في تشجيع أهل الرأي واندفع الموالي إلى التزاحم على طلب الشهرة والنبوغ في المجتمع ، عندما أصبحوا ولهم قوّة على إيجاد كتلة متماسكة الأجزاء ، فكثر عددهم في الكوفة وقوي جمعهم ، وأصبح منهم رجال تبوأوا مناصب الدولة ، فمنهم قواد جيش وأمراء بلدان ، وعلماء يشار إليهم بالأصابع، ومنهم الأدباء ورواة حديث ، وقد اجتازوا مراحل العنف والشدةّ، وانتقلوا من عهد الاستبداد والقسوة وعدم المساواة في الحكم بينهم وبين العرب ، وقد كان الأمويون يتعصّبون لأنصارهم وعشيرتهم ويحتقرون الموالي مهما كانت ميزاتهم وكفاءتهم ، وتابعهم بعض المتعصّبين من العرب ونهجوا هذا المنهج ، خلافاًلما شرّعه الله وسار عليه الرسول الأعظم فكانوا يضعون من قيمة الموالي ويحتقرونهم.

يقول الأصفهاني : كانت العرب إلى أن جاءت الدولة العباسية ، إذا أقبل العربي من السوق ومعه شيء فرأى مولى دفعه إليه ليحمله عنه فلا يمتنع.

وتزوج رجل من الموالي بنتاً من أعراب بني سليم ، فركب محمد بن بشير الخارجي إلى المدينة ، ووواليها يومئذ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل ، فشكا إليه فارسل الوالي إلى المولى ففرق بينه وبين زوجته ، وضربه مائتي سوط ، وحلق رأسه ، وحاجبه ولحيته ، فقال محمد بن بشير :

---

(٨١٣) ضحى الإسلام ج٢ ص١٧٨ .

قضيت بسنة وحكمت عدلاً * ولم ترث الحكومة من بعيد[٨١٤]**

وقد نفذ الأمويون هذه السياسة بشدّة، وغذّوا هذه النزعة بأعمالهم التي عاملوا بها الموالي ، وقد شرّعها لهم معاوية بن أبي سفيان ، لأنّه عرف عدل الإمام علي بن أبي طالب ومساواته في الرعية ، الأمر الذي أدّى إلى تقاعد من تحكمت به هذه النزعة الشريرة عن نصرته ، فأراد معاوية استمالتهم وتحويلهم إليه.

روى المدائني أنّ طائفة من أصحاب علي (عليه السلام) مشوا إليه فقالوا : يا أمير المؤمنين، اعط هذه الأموال ، وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم ، واستمل من تخاف خلافه من الناس ـ وإنّما قالوا له ذلك لما كان معاوية يصنع في المال ـ فقال لهم: أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور ؟![٨١٥].

وحوادث التاريخ مملوءة بالشواهد على ذلك من الأمور التي بعثت المفكرين من الموالي إلى الحقد على العرب.

اتّجاهه العلمي

وبين هذه الأمور وفي ذلك العصر كانت نشأة أبي حنيفة ، وهو من أولئك القوم الذين نالهم الأذى في تلك المدة ، وكان يشعر بما يشعر به أبناء جنسه ، ويعظم عليه إهانتهم وتعذيبهم ، وقد شاهد في الكوفة وغيرها تلك الأوضاع الشاذة ، والسيرة المخالفة للاسلام ، وبالطبع أنّ نفسه كانت تتأثر.

وبعد أن تحوّل الحكم من الأمويين إلى العباسيين ، والموالي هم الذين شاطروا في هذا الانقلاب ، بل كان العباسيون يعدّونهم من خلص أنصارهم ، ورجال دعوتهم فاتّجهوا إليهم ونصروهم ، فكان النشاط الذي أحرزه الموالي يسترعي الأنظار ، ويبعث على العجب ، خصوصاً حينما نراهم يلتفّون حول الإمام أبي حنيفة ويعتزّون بشخصيته بعدما أصبح يترأس حلقة علمية خلفها له أُستاذه حماد ، وهو من الموالي.

وأبو حنيفة هو ذلك الرجل الذي عرف بقوة النفس ، وعلوّ الهمة، وكان ذا فطنة ولباقة ، وله سيرة خاصة في معالجة مشاكل الحياة ، فتراه يقتحم مواقع الخطر ويزج نفسه فيها ، فتحدّث الناس عنه واشتهر اسمه، وكان مع ذلك على جانب عظيم من المداراة لخصومه ، فقد كانوا يسمعونه السبّ ويقرعون سمعه بالنقد

---

(٨١٤) الأغاني ج١٦ ص١٠٦ .

(٨١٥) شرح النهج لابن أبي الحديد ج٢ ص٢٠٣ .

المرّ ، وكان حسن المعاشرة لأصحابه يصلهم برفده ، ويساعدهم بمعروفه ، وله ثروة تساعده على ذلك وتمهّد له الطريق. ولما هجاه مساور بقوله :

كنّا من الدين قبل اليوم في سعة *** حتى بلينا بأصحاب المقاييس

قاموا من السوق إذا قامت مكاسبهم *** فاستعملوا الرأي بعد الجهد والبؤس

فلقيه أبو حنيفة فقال : هجوتنا يا مساور ، نحن نرضيك فوصله بدراهم، فقال مساور :

إذا ما الناس يوماً قايسونا *** بآبدة من الفتيا طريفه

أتيناهم بمقياس صحيح *** تلاد من طراز أبي حنيفه

إذا سمع الفقيه بها وعاها *** وأثبتها بحبر من صحيفه

فأجابه أصحاب الحديث.

إذا ذو الرأي خاصم عن قياس *** وجاء ببدعة هنة سخيفه

أتيناهم بقول اللّه فيها *** وآثار مبرزة شريفه

إلى آخر الأبيات التي ذكرها ابن قتيبة[٨١٦]، وابن عبد ربه[٨١٧]، ولا يسع المجال لذكر ما نتج من وراء ذلك الخلاف بين أهل الحديث وأهل الرأي من هجاء ومناوشات ، وكانت السلطة تشجّع تلك الحركة ، وتضاعف أسباب الخلاف من وراء الستار لغاية في نفوس أصحابها.

وعلى أيّ حال فقد اتجه أبو حنيفة إلى الفقه بعد أن قضى مدة من حياته في التجارة ثم قرأ الكلام ، ودرس على مشايخ عصره ، وحضر على عطاء بن رباح في مكة وهو من الموالي، وعلى نافع مولى ابن عمر في المدينة ، وأخذ عن عاصم بن أبي النجود وعطية العوفي، وعبد الرحمن بن هرمز مولى ربيعة بن الحارث ، وزياد بن علاقة ، وهشام بن عروة وآخرين ، ولكنّه لزم واحداً منهم ملازمة تامّة وتخرج عليه وهو حماد بن أبي سليمان الأشعري، وهو الذي اختص به أبوحنيفة وحضر درسه وتخرج عليه إلى أن مات سنة (١٢٠ هـ) وعمر أبي حنيفة أربعون سنة، وقد أكثر أبو حنيفة الرواية عنه.

ويحدّث أبو حنيفة عن صلته بشيخه حماد بقوله : قدمت البصرة فظننت أني لا أُسأل عن شيء إلاّ أجبت عنه، فسألوني عن أشياء لم يكن عندي فيها جواب ،

---

(٨١٦) المعارف ص٢١٦ .

(٨١٧) العقد الفريد ص٤٠٨ .

فجعلت على نفسي أن لا أُفارق حماداً حتى يموت ، فصحبته ثماني عشرة سنة.[٨١٨]

ولم تكن ملازمته لحماد بحيث لم ينقطع عنه ولم يأخذ عن غيره، لأنّه كان كثير الرحلة إلى بيت اللّه الحرام حاجّاً ، والتقى هناك بكثير من التابعين وسمع منهم واجتمع بأئمة أهل البيت (عليهم السلام)، وروى عنهم، كزيد بن علي والإمام محمد الباقر(عليه السلام) وابنه الإمام الصادق(عليه السلام)وعبد اللّه بن حسن بن حسن.

فقهه وتلامذته

لم يعرف فقه أبي حنيفة إلاّ من طريق أصحابه الذين اختصّوا به ، فهو لم يكتب فقهه بنفسه ولم يدوّن شيئاً من آرائه ، ولكن التدوين إنّما أخذ من قبل أصحابه ; وكان لأبي حنيفة تلاميذ ، منهم من كان يرحل إليه ويستمع منه، ومنهم من لازمه ملازمة تامّة ، وفيهم يقول : هؤلاء ستة وثلاثون رجلا منهم ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء ، وستة يصلحون للفتوى ، واثنان أبو يوسف وزفر يصلحون لتأديب القضاة وأرباب الفتوى ! ولكن الذين خدموا مذهب أبي حنيفة ونشروه هم أبو يوسف ، وزفر ، ومحمد بن الحسن الشيباني، والحسن بن زياد اللؤلؤي.

أبو يوسف

١ ـ أما أبو يوسف وهو يعقوب بن إبراهيم الأنصاري نسباً والكوفي منشأً، فهو عربيّ وليس من الموالي ولد سنة (١١٣ هـ) وقد نشأ فقيراً واتصل بأبي حنيفة بعد أن جلس إلى ابن أبي ليلى ، ثم انقطع لأبي حنيفة واتّصل به ، وقد قام أبو حنيفة بنفقته ونفقة عياله عشر سنين ، وبعد وفاة أبي حنيفة وزفر بن الهذيل استقل أبو يوسف برئاسة أصحاب أبي حنيفة، وساعدته الظروف السياسية ، واقبلت الدنيا عليه ، ووقع موقع القبول عند خلفاء بني العباس ، وولي القضاء لثلاثة منهم للمهدي والهادي والرشيد ، وقد نال عند الرشيد حظاً مكيناً وقرّبه ، وهو الذي نشر مذهب أبي حنيفة في الأقطار على أيدي القضاة الذين كان يعينهم

---

(٨١٨) سِير أعلام النبلاء ج٦ ص٥٣٤ / ٩٩٤.

أبو يوسف من أصحابه ، فكان نفوذ المذهب يستمدّ من نفوذ سلطته ، ولأبي يوسف كتب كثيرة دون فيها آراءه وآراء شيخه ، ذكرها ابن النديم منها :

كتاب الصلاة ، كتاب الزكاة ، كتاب الصيام ، كتاب الفرائض ، كتاب البيوع ، كتاب الخراج ، كتاب الوكالة ، كتاب الوصايا ، كتاب اختلاف الأنصار ، كتاب الرد على مالك، وغيرها ; وله إملاء رواه بشر بن الوليد القاضي يحتوي على ستة وثلاثين كتاباً ، وأبو يوسف هو أول فقهاء أهل الرأي الذين دعموا آراءهم بالحديث ، وبذلك جمع بين طريقة أهل الرأي وأهل الحديث[٨١٩].

محمد بن الحسن الشيباني

٢ ـ محمد بن الحسن ، مولى بني شيبان ، ولد سنة (١٣٢ هـ) وتوفي سنة (١٨٩ هـ)، حضر على أبي حنيفة ، ولم يتمّ دراسته عليه ، لأنّ أبا حنيفة مات وعمر محمد نحو الثامنة عشرة، ولكنّه أتمّ دراسته على أبي يوسف ، وأخذ عن الثوري والأوزاعي ورحل إلى مالك ، وتلقّى عنه فقه الحديث والرواية ، ومكث عنده ثلاث سنين ، وهو الذي أدخل الحديث في فقه أهل الرأي ، والّف كتباً في ذلك أصبحت هي المرجع الأول لفقه أبي حنيفة، وكان يخالفه في أكثر مسائله.[٨٢٠]

الحسن بن زياد

٣ ـ الحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي المتوفى سنة (٢٠٤ هـ)، وهو من فقهاء المذهب ورواة آراء أبي حنيفة ، وقد طعن المحدثون عليه ، ورفضوا روايته ، قال ابن معين : إنّه كذاب غير ثقة ، وقال النضر بن شميل لرجل كتب كُتب الحسن بن زياد : لقد جلبت إلى بلدك شراً. وقال أبو ثور : ما رأيت أكذب من اللؤلؤي ، وكان ابن أبي شيبة يقول : كان أسامة يسمّيه الخبيث ووثّقه ابن قاسم[٨٢١]، وأخرج له أبو عوانة في مستخرجه والحاكم في مستدركه[٨٢٢].

---

(٨١٩) الفهرست لابن النديم ص٢٥٦ ـ ٢٥٧ .

(٨٢٠) الفهرست لابن النديم ص٢٥٧ .

(٨٢١) لسان الميزان ج٢ ص٢٠٨ .

(٨٢٢) لسان الميزان ج٢ ص٣٩١ / ٢٤٧٠.

٤ ـ زفر بن الهذيل ، وهو أقدم صحبة لأبي حنيفة من أبي يوسف ومحمد توفي سنة (١٥٨ هـ) ، وكان أبوه عربياً وأمه فارسية ، أخذ عن أبي حنيفة فقه الرأي ، حتى غلب عليه على ما سواه ، وكان أشدّ أصحاب أبي حنيفة قياساً ، وهو الذي خلف أبا حنيفة في حلقته، ثم من بعده أبو يوسف ، ولم تعرف له رواية لشيخه ويعود ذلك إلى قصر حياته من بعده، إذ لم يتسع الزمن للتدوين، ولكن نشره لمذهب أبي حنيفة كان بلسانه وتولّى القضاء في زمن أبي حنيفة في البصرة، وهجاه أحمد بن المعدل المالكي بقوله :

إن كنت كاذبة بما حدثتني * فعليك إثم أبي حنيفة أو زفر**

الماثلين إلى القياس تعمّداً * والراغبين عن التمسك بالخبر[٨٢٣]**

وقد ترك المحدثون الرواية عنه ، قال أبو موسى محمد بن المثنى : ما سمعت عبد الرحمن بن مهدي يحدث عن زفر شيئاً. وعن معاذ بن معاذ قال : كنت عند سوار القاضي فجاء الغلام فقال زفر بالباب فقال سوار : زفر الرأي لا تأذن له فإنّه مبتدع ، وعدّه العقيلي في الضعفاء ، وعن بشر بن السري قال : ترحمت يوماً على زفر وأنا مع سفيان الثوري فأعرض بوجهه عني. وقال الأزدي : زفر غير مرضي المذهب والرأي ، وقال أحمد بن أبي العوام قاضي مصر في مناقب أبي حنيفة : قال لي أبو جعفر الطحاوي: سمعت أبا حازم سمعت الضبي يقول : قدم زفر بن الهذيل البصرة فكان يأتي حلقة عثمان البتي فيناظرهم ويتبع أُصولهم ، فإذا رأى شيئاً خرجوا فيه عن الأصل، تكلم فيه مع عثمان حتى يتبين له خروجه عن الأصل ، ثم يقول في هذا جواب أحسن من هذا فإذا استحسنوه قال : هذا قول أبي حنيفة ، فلم يلبث أن تحولت الحلقة إليه وبقي عثمان البتي وحده.[٨٢٤]

هؤلاء تلامذة أبي حنيفة الذين نشروا فقهه ونقلوا آراءه ، وأول من دوّن منهم ، هو القاضي أبو يوسف ، ومن بعده محمد بن الحسن مولى بني شيبان ، وكتبه تعدّ المرجع الأول لفقه أبي حنيفة ، وقد أخذه عن أبي يوسف ، لأنّه أدرك أبا حنيفة

---

(٨٢٣) تأنيب الخطيب للكوثري ص٩٥ .

(٨٢٤) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ج٦ ص٢٧٠ ، الجرح والتعديل ج٢ ص٦٠٨ ـ ٦٠٩ ، مناقب أبي حنيفة للكردري ج٢ ص١٨٢ ـ ١٨٣.

وعمره لم يسمح له بنقل فقهه ، ولكنه روى ذلك عن أبي يوسف ، فتراه يذكر في كتابه « الجامع الصغير » في أول كلّ فصل روايته عنه، ولم يذكره في « الجامع الكبير » ، وقد ذكر ابن نجيم في البحر في باب التشهد أنّ كلّ تأليف لمحمد بن الحسن موصوف بالصغير فهو باتفاق الشيخين أبي يوسف ومحمد ، بخلاف الكبير فإنّه لم يعرض على أبي يوسف.(٨٢٥)

ولقد كان أبو يوسف ومحمد وغيرهم من تلامذة أبي حنيفة مستقلين في تفكيرهم كلّ الاستقلال ، غير مقلدين لشيخهم ، بأيّ نواحي من نواحي التفكير ، وكونهم درسوا آراءه أو تلقوه عليه وتثقفوا في أول دراستهم عليه لا يمنع استقلال تفكيرهم ، وحرية اجتهادهم ، وإلاّ كان كلّ من يتلقن على شخص لابد أن يكون مقلداً له ، وتنتهي القضيّة لا محالة إلى أن تنزل درجة أبي حنيفة عن الاجتهاد ، ويكون مقلداً لشيخه حماد بن أبي سليمان، لأنّه درس عنده ، وكان كثير التخريج عليه ، وخالفه أحياناً ووافقه أحياناً.

وكذلك كان أصحاب أبي حنيفة، فقد درسوا فقهه، وتلقّوا عليه فوافقوه في بعضها وخالفوه في كثير من الآراء والأقوال ، وما كانت الموافقة عن تقليد بل عن اقتناع واستدلال وتصديق للدليل. وليس ذلك من شأن المقلّد فإنّ لهم آراءهم الخاصة ولكنهم الطريق إلى نقل أقوال أبي حنيفة.

وتجد كتب الحنفية تورد أقوال الأربعة ، وربّما يكون لمسألة واحدة أربعة أقوال لأبي حنيفة قول ، ولأبي يوسف قول ، ولمحمد قول ، ولزفر قول ، حسب ما يظهر لهم من الآثار والمعاني(٨٢٦).

يقول العلامة الخضري : وقد حاول بعض الحنفية أن يجعل أقوالهم المختلفة أقوالا للإمام رجع عنها، ولكن هذه غفلة شديدة عن تاريخ هؤلاء الأئمة ، بل عمّا ذكر في كتبهم، فإنّ أبا يوسف يحكي في « كتاب الخراج » رأي أبي حنيفة ، ثم يذكر رأيه مصرّحاً بأنه يخالفه ، ويبين سبب الخلاف وكذلك يفعل في كتاب أبي حنيفة ، وابن أبي ليلى ، فإنّه أحياناً يقول برأي ابن أبي ليلى بعد ذكر الرأيين ، ومحمد رحمه اللّه يحكي في كتبه أقوال الإمام ، وأقوال أبي يوسف وأقواله مصرحاً بالخلاف على أنّه لو كان كما قالوا لم يكن ما رجع عنه من الآراء مذهباً.

---

(٨٢٥) البحر الرائق ج١ ص٦٣٠ .

(٨٢٦) ضحى الإسلام ج٢ ص٢٠٠ .

ومن الثابت أنّ أبا يوسف ومحمد رجعا عن آراء رآها الإمام لما اطلعا على ما عند أهل الحجاز من الحديث ، فالمحقق تاريخياً أنّ أئمة الحنفية الذين ذكرناهم بعد أبي حنيفة رحمه الله ليسوا مقلدين له ، لأنّ التقليد لم يكن نشأ في المسلمين في ذلك التاريخ ، بل كان المفتون مستقلين في الفتوى ، بناء على ما يظهر من الأدلة ، سواء أخالفوا معلميهم أم وافقوهم ، ولم تكن نسبة أبي يوسف ومحمد إلى أبي حنيفة إلا كنسبة الشافعي إلى مالك(٨٢٧).

وسيأتي إنشاء اللّه في مباحث الفقه ذكر أقوالهم التي خالفوا بها أبا حنيفة وآرائهم التي انفردوا بها.

علماء الحنفية ونشر المذهب

وقد نقل كتبهم تلاميذهم المبرزون منهم :

١ ـ إبراهيم بن رستم المروزي المتوفى سنة (٢١١ هـ) ، تفقه على محمد ابن الحسن وسمع مالك بن أنس ، وقدم بغداد ; له كتاب النوادر عن محمد أستاذه ، وهو ينسب إلى مرو بفتح الميم وسكون الراء المهملة في آخرها واو، بلدة يقال لها مرو ، وإلحاق الزاء المعجمة بعد الواو في النسبة ، للفرق بينه وبين المروي ، وهي ثياب مشهورة بالعراق منسوبة إلى قرية بالكوفة(٨٢٨).

٢ ـ أحمد بن حفص الكبير البخاري ، أخذ الفقه عن محمد بن الحسن ، وروى عنه كتبه، وكتب المبسوط بيده ، وله اختيارات يخالف بها جمهور أصحابه(٨٢٩).

٣ ـ بشر بن غياث المويسي المتوفى سنة (٢١٨ هـ) ابن أبي كريمة مولى زيد بن الخطاب أدرك مجلس أبي حنيفة وأخذ نبذاً منه ، ثم لازم أبا يوسف، وأخذ الفقه عنه حتى صار من أخصّ أصحابه ، وله تصانيف وروايات كثيرة عن أبي يوسف، وله في المذهب أقوال غريبة، وكان أبو يوسف يذمّه ويعرض عنه، وكان غير مرضي عند أهل الحديث، قال الذهبي: بشر ابن غياث لا ينبغي أن يروى عنه(٨٣٠).

٤ ـ بشر بن الوليد بن خالد الكندي القاضي المتوفى سنة (٢٣٨ هـ) أحد أصحاب أبي يوسف ، روى عنه كتبه وأماليه ، ولي قضاء بغداد في زمان المعتصم

---

(٨٢٧) تاريخ التشريع الإسلامي ص٢٢٥.

(٨٢٨) الفوائد البهية ص٩ .

(٨٢٩) الفوائد البهية ص١٨ .

(٨٣٠) لسان الميزان ج٢ ص٢٩ .

، وكان متحاملا على محمد بن الحسن الشيباني ، وكان الحسن بن مالك ينهاه ، وثّقه الدارقطني ، وقال صالح بن محمد هو صدوق ولكنه لا يعقل.[٨٣١]

٥ ـ محمد بن شجاع الثلجي المتوفى سنة (٢٦٧ هـ)، تفقه على الحسن بن زياد والحسن بن أبي مالك ، له كتاب تصحيح الآثار ، وكتاب النوادر ، وكتاب المضاربة ، وكتاب الرد على المشبهة. وهو ضعيف الرواية عند أهل الحديث[٨٣٢].

٦ ـ أبو سليمان موسى بن سليمان الجوزجاني المتوفى بعد المائتين ، أخذ العلم عن محمد، وكتب مسائل الأُصول والأمالي ، عرض عليه المأمون القضاء فلم يقبل ، وله كتاب السير الصغير ، والنوادر ، وغير ذلك.[٨٣٣]

٧ ـ محمد بن سماعة التميمي ، حدّث عن الليث ، وأبي يوسف ، ومحمد ، وأخذ الفقه عنهما ، وعن الحسن بن زياد ، وكتب النوادر عن أبي يوسف ، ومحمد ولد سنة (١٣٠ هـ) ومات سنة (٢٣٣ هـ)، وولي القضاء بعد موت يوسف ابن الإمام أبي يوسف سنة (١٩٢ هـ)، له كتاب أدب القاضي ، وكتاب المحاضرات ، والسجلات ، والنوادر.[٨٣٤]

٨ ـ هلال بن يحيى بن مسلم ، تفقه على أبي يوسف وزفر ، وله مصنّف في الشروط وأحكام الوقف ، توفي سنة (٢٤٥ هـ).[٨٣٥]

٩ ـ أحمد بن عمر بن مهير الخصاف المتوفى سنة (٢٦١ هـ) أخذ عن أبيه عن الحسن بن زياد عن أبي حنيفة ، كان عارفاً بالمذهب ، صنف للمهتدي كتاب الخراج ، وله كتاب الوصايا ، وكتاب الشروط الكبير والصغير ، وكتاب الرضاع ، وكتاب أدب القاضي ، وكتاب الحيل الشرعية[٨٣٦].

١٠ ـ أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي المتوفى سنة (٣٢١ هـ).

---

(٨٣١) ميزان الاعتدال ج٢ ص٤٠ / ١٢٣١.

(٨٣٢) الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص١٧١ .

(٨٣٣) سير أعلام النبلاء ج٨ ص٤٧٩ / ١٥٨٠ .

(٨٣٤) الفهرست لابن النديم ص٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

(٨٣٥) الفهرست لابن النديم ص ٢٥٨ .

(٨٣٦) للحنفية كتابان في استعمال الحيل الشرعية : أحدهما لمحمد بن الحسن الشيباني ، والثاني للخصاف ، ويقال : أن لأبي حنيفة كتاباً في الحيل ، وكان يفتي به الناس للتحلل من الأحكام الشرعية والقيود الفقهية ، روي أنّ عبد الله بن المبارك قال : من كان عنده كتاب الحيل لأبي حنيفة يستعمله أو يفتي به ، فقد بطل حجه ، وبانت منه امرأته. انظر كتاب أبي حنيفة ، محمد أبو زهرة ص٤١٧ وكتاب تاريخ التشريع الاسلامي ص٢٨٠ وسيأتي ذكر ذلك وتحقيقه.

قال المولى عبد العزيز الدهلوي : إنّه كان مجتهداً ولم يكن مقلداً للمذهب تقليداً محضاً ، فإنّه اختار فيه أشياء تخالف مذهب أبي حنيفة. لما لاح له من الأدلة القوية ، وقال محمد بن عبد الحي : هو في طبقة أبي يوسف ومحمد ، لا ينحطّ عن درجتهما ، وأنّ له درجة عالية ورتبة شامخة قد خالف بها صاحب المذهب كثيراً. وأنّه من المجتهدين المنتسبين إلى إمام معين من المجتهدين ، لكن لا يقلدونه لا في الفروع ولا في الأصول ، لكونهم متصفين بالاجتهاد وإنّما انتسبوا إليه لسلوكهم طريقه في الاجتهاد(٨٣٧).

وبهذه الصورة انتشر مذهب أبي حنيفة. فهو في عصره لم يدون آراءه وأقواله وإنّما دونه أصحابه ، ولم يكتفوا بأخذهم عنه ، فأبو يوسف لزم أهل الحديث وأخذ عنهم أحاديث كثيرة ، لعلّ أبا حنيفة لم يطلع على كثير منها.

ومحمد لم يلازم أبا حنيفة إلاّ مدة قليلة في صدر حياته ، ثم اتصل بمالك وروى عنه، وروايته له تعدّ من أصحّ الروايات اسناداً. إذاً فعدّهم من المجتهدين في المذهب كما ذهب إليه ابن عابدين خطأ بيّن ، يقول ابن عابدين :

إنّ الإمام لمّا أمر أصحابه بأن يأخذوا من أقواله بما يتّجه لهم من الدليل عليه صار ما قالوه قولا له ، لابتنائه على قواعده التي أسّسها لهم ; ونظير هذا ما نقله العلامة البيري في أول شرحه على الأشباه على شرح الهداية لابن الشحنة الكبير وهذا نصه : « إذا صح الحديث وكان على خلاف المذهب عمل بالحديث ويكون ذلك مذهبه ـ أي مذهب أبي حنيفة ـ فقد صحّ عن أبي حنيفة أنه قال : إذا صحّ الحديث فهو مذهبي... فإذا نظر أهل المذهب في الدليل وعملوا به صحّت نسبته إلى المذهب لكونه صادراً بإذن صاحب المذهب. لاشك أنّه لو علم بضعف دليله لرجع عنه واتّبع الدليل الأقوى »(٨٣٨).

وهذا قول لا محلّ له ، وإلاّ لو كان كذلك فإنّ كلّ فتوى تصدر عن صحة الحديث من أيّ عالم كان ومن أيّ مذهب هو، يلزم نسبتها إلى مذهب أبي حنيفة. ولعلّهم يرون ذلك فجعلوه أعلم الأمة على الاطلاق ، بل أفضل التابعين وأعلمهم من هذا الباب، والغرض أنّ الوصول إلى معرفة قول أبي حنيفة ومذهبه الخاص متعسّر جداً. و الذي بين أيدينا إنّما هو مجموع الأقوال منه ومن أصحابه وتلامذتهم الذين أخذوا عنهم ، فلا يمكن استخلاص أقواله منفردة وتكون وحدة فكرية خالصة له من

---

(٨٣٧) الفوائد البهية ص٣١ .

(٨٣٨) أبو حنيفة، لمحمد أبو زهرة ص٤٤١ ـ ٤٥١ .

كلّ الوجوه من غير اقتران أقوال أصحابه بأقواله ; فإنّ محمد بن الحسن جمع أقوال فقهاء العراق ولم يجمع أقوال أبي حنيفة وحده ، ولم يفصل آراءه عن آراء غيره من أصحابه ومعاصريه ، بل ألقى بالفروع والحلول ما بين متّفق عليه ومختلف فيه ، فجاءت الأجيال وتوارثت تلك المجموعة الفقهية التي تجمع أقوال فقهاء العراق في الجملة ، وأقوال أبي حنيفة وأصحابه وتلاميذه خاصة. وقد نهج منها ذلك المنهج غير محمد ممن روى فقه أبي حنيفة.

وهكذا نجد الرواية لآراء أبي حنيفة تذكر مخلوطة بالرواية عن غيره وممزوجة بها . وعلى ذلك النهج تدارس من العلماء تلك الآراء وسمّوها المذهب الحنفي ، واختاروا للنسبة اسماً كبيراً أولئك الأئمة وشيخهم ـ وهو أبو حنيفة ـ ومن التهجم على الحقائق سلبهم شخصيتهم لتفنى في شخصية الإمام(٨٣٩).

والخلاصة: انّ المذهب الحنفي اتّسع بجهود أصحابه ونشرهم له إذ وسّعوا دائرته بالبحث والتأليف ، وأنّ علم أبي حنيفة لا يكاد يعرف لعدم انفراده عن أصحابه ، فالموازنة بينه وبين غيره لا تحصل إلاّ إذا اتجهنا إلى الموازنة بين علماء المذاهب وبين مجموع مؤسّسي المذهب الحنفي ، الذين كونوا مجموعة فقهية مزيجة بأقوال فقهاء العراق وأقوالهم ، وهذا أمر لا يمكن ، ومحاولة الحنفية بإرجاع الجميع إليه أمر غير وجيه ، وسيتّضح الأمر عند البحث عن آراء أبي حنيفة وأقواله ، وما ذهب إليه أصحابه في خلافه.

مناظرته للإمام الصادق **(عليه السلام)**

إنّ عصر أبي حنيفة كان عصر مناظرات وجدل إلى أقصى حدّ ، فمناظرات بين أهل الأهواء وبين الفرق المختلفة ، وبين الفقهاء بعضهم بعضاً. وكان أبو حنيفة قويّ المناظرة شديد الجدل ، يتسلّح بكل الوسائل التي تعينه على الوصول إلى الفوز بالنتيجة في غالب الأحيان ، كما وصفه الإمام مالك بقوله : رأيت رجلا لو كلّمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته. وفي رواية أنّه قال : تاللّه لو قال : إنّ هذه الأسطوانة من ذهب لأقام الدليل القياسي على صحة قوله(٨٤٠). وبالطبع إنّ

---

(٨٣٩) أبو حنيفة، لمحمد أبو زهرة ص٤٣٥ .

(٨٤٠) سير أعلام النبلاء ج٦ ص٥٣٤ / ٩٩٤.

مثله ينال في تلك المعارك نصيبه من الشهرة ، على أنّ المنصور نظر إليه بعين التقدير والعناية تكريماً له ولأبناء قومه الذين طلع نجمهم في ذلك العصر.

ومما يدلّنا على قوة مناظرته أنّ المنصور انتدبه إلى مهمّة عجزت قوته عن دفعها ، وخانته حيلته في التخلص منها ، وهي مسألة انتشار ذكر جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) ، ومن الصعب على المنصور أن تصبح في الكوفة ومكة والمدينة وقم حلقات علمية هي أشبه شيء بفروع لمدرسة الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) ، وكانت تقرع سمعه أصوات شيوخ الكوفة ، بكلمة يضطرب لها لبّه، ويفقد عندها اتّزانه ، وهي قولهم في مناظرتهم : حدّثني جعفر بن محمد الصادق ، لذلك اضطر إلى جلب الإمام من المدينة إلى الكوفة ليفتك به ، وأراد من أبي حنيفة الذي عُرف بقوّة المناظرة وسرعة الجواب أن يهيّئ من مهمات المسائل ، فيسأل الإمام بها في مجلس عام ، عساه أن يظفر بشيء ينال به غرض الحطّ من كرامة الإمام الصادق (عليه السلام) ، ولم يغب عن المنصور ما للإمام الصادق (عليه السلام)من المكانة العلميّة.

قال الحسن بن زياد اللؤلؤي: سمعت أبا حنيفة ـ وقد سئل من أفقه من رأيت ـ ؟ قال : ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد الصادق ، لما أقدمه المنصور بعث إليّ فقال : يا أبا حنيفة، إنّ الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد ، فهيئ له من المسائل الشداد، فهيأت له أربعين مسألة.

ثم بعث إليّ أبو جعفر وهو بالحيرة فأتيته فدخلت عليه ، وجعفر بن محمد جالس عن يمينه ، فلما بصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق مالم يدخلني لأبي جعفر المنصور ، فسلمت عليه، وأومأ إليّ فجلست ، ثم التفت إليه فقال :

يا أبا عبد اللّه هذا أبو حنيفة ، فقال : نعم. ثم أتبعها قد أتانا كأنّه كره ما يقول فيه قوم : إذا رأى الرجل عرفه.

قال : ثم التفت إليّ فقال : يا أبا حنيفة الق على أبي عبد اللّه مسائلك ، فجعلت القي فيجيبني فيقول : أنتم تقولون كذا وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا. فربّما تابعنا وربّما تابعهم وربّما خالفنا جميعاً ، حتى أتيت على الأربعين مسألة ما أخلّ منها بمسألة.

ثم قال أبو حنيفة : ألسنا روينا أنّ أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس[٨٤١] ؟

مناظرته في القياس

وكان (عليه السلام) ينهى أبا حنيفة عن القياس ويشدّد الانكار عليه ويقول : بلغني أنّك تقيس الدين برأيك ، لا تفعل فإنّ أول من قاس ابليس[٨٤٢].

ويحدّثنا أبو نعيم : أنّ أبا حنيفة وعبد اللّه بن أبي شبرمة وابن أبي ليلى دخلوا على جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) ، فقال لابن أبي ليلى : من هذا الذي معك ؟ قال : هذا رجل له بصر ونفاذ في الدين. قال : لعلّه يقيس أمر الدين برأيه ؟ قال : نعم ! فقال جعفر لأبي حنيفة : ما اسمك ؟ قال : نعمان : قال : ما أراك تحسن شيئاً ، ثم جعل يوجّه إليه أسئلة فكان جواب أبي حنيفة عدم الجواب عنها فأجابه الإمام عنها.

ثم قال : يا نعمان حدثني أبي عن جدّي، أنّ رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : «أول من قاس أمر الدين برأيه ابليس» **قال اللّه تعالى له :** (اسجد لآدم، فقال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) فمن قاس الدين برأيه قرنه اللّه يوم القيامة بابليس لأنّه اتبعه بالقياس» .

قال ابن شبرمة : ثم قال جعفر أيّهما أعظم قتل النفس أو الزنا ؟ **قال أبو حنيفة : قتل النفس. قال الصادق :** فإنّ اللّه عزّ وجلّ قبل في قتل النفس شاهدين ولم يقبل في الزنا إلاّ أربعة. **ثم قال :** أيّهما أعظم الصلاة أم الصوم ؟ **قال أبو حنيفة : الصلاة ، قال الصادق (عليه السلام) :** فما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة. فكيف ويحك يقوم لك قياسك ! اتّق اللّه ولا تقس الدين برأيك[٨٤٣].

وقد احتفظ لنا التاريخ بكثير من تلك المواقف التي كان فيها لأبي حنيفة موقف تسليم ، لأنّه أمام أمر واقع لا مجال فيه للجدل والمناقشة ، وهو يعرف الإمام الصادق (عليه السلام)وخطته في مناظراته التي لا يريد بها إلاّ توجيه المسلمين توجيهاً صحيحاً ، وكان بيته يختلط فيه اشتات الناس على اختلاف آرائهم ومبادئهم ونحلهم ، وكان ميدان المعترك الفكري واسعاً في جميع الأنحاء ، فكان (عليه السلام) في ذلك العصر مرجعاً لكل مشكلة ومهمة ، يقصده طلاب الحقيقة من الأنحاء

---

(٨٤١) مناقب ابن شهر آشوب ج٤ ص٢٧٦ ـ ٢٧٧.

(٨٤٢) الطبقات الكبرى ج١ ص٢٨ ، والحلية ج٣ ص١٩٣ .

(٨٤٣) حلية الأولياء ج٣ ص١٩٧ .

القاصية ويختلف إليه أهل الجدل والنظر فيكون جوابه هو القول الفصل والحكم العدل.

وكان(عليه السلام) إذا ورد الكوفة اختلف إليه علماؤها وأحاط به فقهاؤها يسألون عمّا يهمّهم ويستقون من فيض علمه، كما كان من خطته (عليه السلام) أن يسأل بقصد التوجيه وسبر غور من يتحرى المناظرة ويتطرق الى مذاهب الكلام ومناهي القياس، فتراه(عليه السلام) يسأل أبا حنيفة: ما على محرم كسر رباعية ظبي؟ **قال أبو حنيفة: ما أعلم فيه فقال(عليه السلام):** أنت تتداهى ولا تعلم أنّ الظبي لا يكون له رباعية وهو ثني أبداً[٨٤٤].

رواياته عن الإمام الصادق وميله لأهل البيت **(عليهم السلام)**

وكان أبو حنيفة ممن يختلف إلى الإمام الصادق (عليه السلام) ويسأله عن كثير من المسائل مع أدب واحترام ولا يخاطبه إلاّ بقوله : جعلت فداك يابن رسول اللّه.

وقد روى أبو حنيفة عن الإمام الصادق (عليه السلام) وحدّث عنه واتصل به في المدينة مدة من الزمن ، ورواياته عنه اثبتها رواة مسانيده وورد منها في كتاب الآثار لأبي يوسف[٨٤٥].

وعلى أيّ حال فإنّ لأبي حنيفة صلة مع أهل البيت(عليهم السلام)، كان ينتصر لهم ويؤازرهم في جميع مواقفهم.

لقد ناصر زيد بن علي، وساهم في الدعوة الى الخروج معه، وكان يقول: ضاهى خروج زيد خروج رسول الله يوم بدر. فقيل له: لم تخلّفت عنه؟ قال: حبسني عنه ودائع الناس، عرضتها الى ابن أبي ليلى فلم يقبل[٨٤٦] .

كما أنّه آزر محمد بن عبد اللّه بن الحسن وأخاه إبراهيم ، وكان يحثّ الناس ويأمرهم باتّباعه ، وجاءت إليه امرأة أيام ابراهيم فقالت : إنّ ابني يريد هذا الرجل وأنا أمنعه ، فقال : لا تمنعيه[٨٤٧].

وقال أبو إسحاق الفزاري : جئت إلى أبي حنيفة فقلت له : أمّا اتقيت اللّه أفتيت أخي بالخروج مع ابراهيم بن عبد اللّه بن الحسن حتى قتل ; فقال : قتل أخيك حيث

---

(٨٤٤) المصايد والمطارد، لكشاجم ص٢٠٢ ـ ٢٠٣، وفيات الأعيان ج١ ص٢١٢، مرآة الجنان ج١ ص٣٠٥، وشذرات الذهب ج١ ص٢٢٠ .

(٨٤٥) أنظر الإمام جعفر الصادق لعبد الحليم الجندي ص١٥٤ ـ ١٥٥.

(٨٤٦) أبو حنيفة لمحمد بن زهرة ص٧١، نقلاً عن مناقب أبي حنيفة للبزازي ج١ ص٥٥ .

(٨٤٧) مناقب أبي حنيفة للمكي ج٢ ص٨٤ .

قتل يعدل قتله لو قتل يوم بدر وشهادته مع ابراهيم خير له من الحياة[٨٤٨] فكان إسحاق يبغض أبا حنيفة بعد ذلك.

ووجّه أبو حنيفة إلى إبراهيم كتاباً يشير عليه أن يقصد الكوفة سرّاً ليعينه الزيدية، وقال: إنّ فيها من شيعتكم يبيتون أبا جعفر فيقتلونه أو يأخذون برقبته فيأتونك به ، وكانت المرجئة تنكر ذلك على أبي حنيفة وتعيبه به[٨٤٩].

وكان أبو حنيفة عندما يذكر محمد بن عبد اللّه بن الحسن بعد قتله تذرف عيناه بالدموع[٨٥٠].

وفي الجملة أنّ ميل أبي حنيفة لأهل البيت (عليهم السلام) لا خفاء عليه حتى عدّ من الشيعة الزيدية.

ويقول أبو زهرة ـ بعد البحث عن ميله وتشيعه ـ : وننتهي من الكلام السابق أنّ أبا حنيفة شيعي في ميوله وآرائه في حكّام عصره ، أي أنه يرى الخلافة في أولاد علي من فاطمة ، وانّ الخلفاء الذين عاصروه قد اغتصبوا الأمر منهم ، وكانوا لهم ظالمين[٨٥١].

وكان أبو حنيفة يرى أنّ علي بن أبي طالب على الحقّ في قتاله لأهل الجمل وغيرهم، ويتّضح ذلك من أقواله في عدة مواطن منها :

إنّه سئل عن يوم الجمل، فقال : سار علي فيه بالعدل وهو أعلم المسلمين في قتال أهل البغي.

وقوله : ما قاتل أحد عليّاً إلا وعلي أولى بالحقّ منه... الخ.

وقوله : إنّ أمير المؤمنين عليّاً إنّما قاتل طلحة والزبير بعد أن بايعاه وخالفا[٨٥٢].

وقال يوماً لأصحابه : أتدرون لِمَ يبغضنا أهل الشام ؟ قالوا : لا.

قال : لأنّا لو شهدنا عسكر علي بن أبي طالب ومعاوية لكنّا مع علي (رضي الله عنه).

أتدرون لم يبغضنا أهل الحديث ؟ قالوا : لا.

قال : لأنّا نحب أهل بيت رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) ونقر بفضائلهم. وفي رواية أنه قال : أتدرون لم يبغضنا أصحاب الحديث ؟ قالوا لا.

---

(٨٤٨) مقاتل الطالبيين ص ٣٦٤ .

(٨٤٩) مقاتل الطالبيين ص ٣٦٦ .

(٨٥٠) المناقب للكردري ج٢ ص٧٢ .

(٨٥١) أبو حنيفة ص١٦٥ .

(٨٥٢) مناقب المكي ج٢ ص٢٤ .

قال : لأنّا نثبت خلافة علي (رضي الله عنه) وهم لا يثبتونها.

ولا نريد هنا أن نستقصي أخبار أبي حنيفة الدالة على صلته بأهل البيت(عليهم السلام) ، كما لا نريد أن نقيم الأدلة على ميوله الشيعية أو نفيها فإنّ ذلك لا يعنينا في البحث.

أسباب مقتل أبي حنيفة

وبقي شيء يجب الالتفات إليه وهو قتل المنصور لأبي حنيفة بالسّم. فهل كان ذلك لمناصرته لأهل البيت (عليهم السلام) ؟ أو كان لعدم قبوله القضاء فحسب ؟

اختلفت أقوال المؤرخين في ذلك ، فمنهم من ارجع الأسباب إلى عدم قبوله القضاء فقط ، عندما أشخصه المنصور من الكوفة إلى بغداد وعرض عليه القضاء ، ولكنّه أبى فحبسه ومات في الحبس ، والروايات في هذه الحادثة مختلفة ، فبعضهم يرويها على هذا الوجه ، وآخرون يروون أن المنصور هدّده بالضرب ، فقبل القضاء على كره(٨٥٣)، ثم مات بعد أيام ، وآخرون يروون أنّ المنصور إنما استقدمه من الكوفة لأنّه اتّهم بالتشيع لإبراهيم بن عبد اللّه بن الحسن ، فإنّه أعلن الانضمام لجانب دعوة محمد وإبراهيم ، وأفتى بوجوب الخروج مع إبراهيم.

يحدثنا أبو الفرج الأصفهاني عن عبد اللّه بن إدريس قال : سمعت أبا حنيفة وهو قائم على درجته ، ورجلان يستفتيانه في الخروج مع إبراهيم ، وهو يقول: أخرجا، وأنّه كتب إلى إبراهيم يشير عليه أن يقصد الكوفة ويدخلها سرّاً ، فإنّ من هاهنا من شيعتكم يبيتون أبا جعفر فيقتلونه ، أو يأخذون برقبته ، فيأتونك به ، وكتب له كتاباً آخر فظفر أبو جعفر بكتابه، فسيره وبعث إليه ، فأشخصه وسقاه شربة فمات منها(٨٥٤).

والتسليم لهذه الرواية غير ممكن، لأنّ قتل ابراهيم كان في سنة (١٤٥ هـ) ووفاة أبي حنيفة في سنة (١٥٠ هـ) وليس في إمكان المنصور التريث في أمر أبي حنيفة مدة خمس سنوات عندما تحقّق منه ذلك ; وكان لا يقف عند حد في تركيز دعائم ملكه ، ولا يتورّع في سفك الدماء، وأنّ له من القوة ما يخول له قتل أبي حنيفة بسرعة ، فإنّ بقاءه خطر على الدولة ولا يمكن للمنصور أن يغضّ عن ذلك، وقد فتك بأبي مسلم مع قوّته وكثرة جنده ، وفتك بزعماء أهل البيت (عليهم

---

(٨٥٣) مناقب المكي ج٢ ص٢٧ .

(٨٥٤) مقاتل الطالبيين ص٢٤٧ .

السلام) ، مع علمه بحراجة الموقف ، كما فتك بكثير من الزعماء وذوي الوجاهة ، والنفوذ.

اللّهم إلاّ أن يكون عثور المنصور على رسالة أبي حنيفة لإبراهيم بعد مدة من قتله.

وكان أبو حنيفة من جملة الفقهاء المنتصرين لمحمد وإبراهيم كمالك بن أنس والأعمش ومسعر بن كدام وعبادة بن العوام وعمران بن داود القطان وشعبة بن الحجاج وغيرهم ، وكان بعضهم حضر حربه(٨٥٥) وكانوا يعدّون شهداء وقعته كشهداء بدر ويسمّونها بدر الصغرى ، وقد رأينا المنصور يغضّ عن مؤاخذة أولئك الفقهاء، لأنّه بحاجة ماسّة لبقائهم والمعاونة معهم ، وبذلك يقصد إيجاد مجموعة منهم لتخفيف خطر انتشار ذكر جعفر بن محمد (عليه السلام) في الأقطار، فقد كان هو الشجى المعترض في حلقه.

ومن الحقّ والإنصاف أن نقول : إنّ موقف أبي حنيفة ليس كموقف مالك ابن أنس ، فإن مالكاً لما عوقب لأجل فتواه بالخروج مع محمد أخلص بعد ذلك للمنصور ، وتغيّر موقفه حتى كان يظهر أن لا فضل لعلي (عليه السلام) على غيره من الصحابة ، بل هو كسائر الناس. أمّا أبو حنيفة فلم يتغير موقفه ، وكان يفضل علياً (عليه السلام) إمّا على عثمان فقط أو على جميع الصحابة ، كما لم تتغير وجهة نظره في الدولة، وأنّها ظالمة لا تصحّ مؤازرتها.

والحاصل أنّ غضب المنصور على أبي حنيفة قد اختلفت الأقوال فيه ، ومهما تعددت الأسباب فيه فالمرجع كلّه يعود إلى مخالفة أبي حنيفة لرأي السلطة التي تريد تجريد العلماء من مواهب الادراك والتفكير ، ومنعهم من حرية الرأي والصراحة بالحقّ، وعلى كلّ فقد مضى أبو حنيفة ضحية فتك المنصور وسطوته.

ولا بدّ لنا قبل نهاية البحث أن نشير إلى اتصال أبي حنيفة برجال مدرسة الشيعة وروايته عنهم وسماعه منهم.

---

(٨٥٥) كان خروج محمد في المدينة سنة (١٤٤ هـ) وبايعه أهل الحجاز ، قال ابن العماد : وأحبّه الناس حباً عظيماً لما كان فيه من الكمال وخصال الفضل ، ويشبه النبي في الخلق والخلق ، واسمه واسم أبيه. وبايعه المنصور والسفاح ، وكانا من دعاته أيام بني أمية ، وقتل في المدينة قتله المنصور الدوانيقي ، وخرج أخوه إبراهيم في العراق بعد قتله ، وكاد أن يظفر بالمنصور لكثرة جيشه ومحبة الناس له وتأييد الفقهاء لنهضته ، ودعوه لدخول الكوفة ليلاً فقال: أخاف أن يستباح الصغير والكبير. وإنّ حادثة إبراهيم ومحمد لمن أهم الحوادث التاريخية، ولم تنل نصيبها من التحقيق والبحث .

ربّما يظنّ أنّ أبا حنيفة لم يرو عن رجال الشيعة ، ولم يكونوا من شيوخه ، وذلك لأنّهم نقلوا عنه أنّ أبا عصمة حدث عن أبي حنيفة عندما سأله ممن تأمرني أن أسمع الآثار ؟

فقال أبو حنيفة : من كلّ عدل في هواه إلاّ الشيعة فإنّ أصل عقيدتهم تضليل أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).[٨٥٦]

والصحيح أنّ هذا القول لم يصح عن أبي حنيفة.

أولا أنّه انفرد به أبو عصمة وهو نوح بن مريم المروزي المتوفى سنة (١٧٣ هـ) وهذا الرجل مشهور بوضع الحديث حسبة.

قال الحافظ زين الدين العراقي في مبحث الوضاعين : ومثال من كان يضع الحديث حسبة ما رويناه عن أبي عصمة نوح بن مريم المروزي ، قاضي مرو، فيما رواه الحاكم بسنده إلى أبي عمار المروزي، أنّه قيل لأبي عصمة : من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة ، وليس عند أصحاب عكرمة هذا ؟

فقال : إنّي رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن ، واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ، ومغازي محمد بن إسحاق ، فوضعت هذا الحديث حسبة.

وكان يقال لأبي عصمة هذا : نوح الجامع فقال ابن حبان : جمع كلّ شيء إلاّ الصدق.

وقال البخاري : قال ابن المبارك لوكيع : عندنا شيخ يقال له أبو عصمة كان يضع كما يضع المعلى بن هلال[٨٥٧].

وقال ابن حجر في ترجمته : قد أجمعوا على تكذيبه[٨٥٨]، وقال العباس بن مصعب : كان نوح بن أبي مريم أبوه مجوسياً اسمه « ما بنه » استقضى نوحاً على مرو وأبو حنيفة حي ، فكتب إليه أبو حنيفة يعظه[٨٥٩].

ولا حاجة بنا إلى مزيد من البيان عن أبي عصمة وشهرته بالوضع ، وهو بهذه الكلمة أراد أن يضلل الناس في عقيدة الشيعة بالصحابة رضوان اللّه عليهم.

---

(٨٥٦) أنظر الإمام الأعظم أبو حنيفة ص١٨٨ ـ ١٩١ .

(٨٥٧) شرح ألفية العراقي ج١ ص١٦٨ والفوائد البهية في تراجم الحنفية ص٢٢١ .

(٨٥٨) لسان الميزان ج٦ ص١٦٨ .

(٨٥٩) ميزان الاعتدال ج٣ ص٢٤٥ .

ومن المؤسف أنّ هذه الكلمة الموضوعة قد أخذت مكانتها من أدمغة كثيرين من كتاب الأُصول والحديث في السابق والحاضر ، وبنوا عليها تأييد ما يدعى على الشيعة من الطعن على جميع الصحابة.

وإن أبى أُولئك إلا أن يصححوا ما أورده أبو عصمة ، وأنّ هذه الكلمة صادرة عن أبي حنيفة وانّها شهادة منه على الشيعة ، فنحن نسائلهم كيف يصح لأبي حنيفة أن ينهى عن شيء وهو يفعله ؟

لأنّنا نرى بالوجدان أنّ أبا حنيفة قد حضر عند علماء الشيعة ، وسمع منهم ، وروى عنهم ، وهذه مسانيده وكتب أصحابه مليئة بتلك الروايات أمثال كتاب الآثار ، وكتاب الخراج وكتاب الرد على الأوزاعي وغيرها.

ولا يعني ذلك أنّ أبا حنيفة قد تخلص من مؤثرات ذلك العصر وقلد الشيعة واتبعهم فهو في الفقه ـ كما رأينا ـ ، وهو في اتّصاله بالحكام لا يتجاوز الحدّ الذي يغضب الخليفة رغم أنّه من ركائز ثورة الإمام زيد، ومع ذلك امتدت إليه يد المنصور فأذاقته المنية. وكان يخشى أن يتهم بالرفض أو الاعتزال فيحذر في أقواله ويتحرز في إجابته[٨٦٠] ومع كلّ هذا اتّهم في إيمانه واعتقاده.

ولمزيد من الإيضاح نذكر ـ بإيجاز ـ أسماء بعض شيوخ أبي حنيفة من الشيعة وقد وردت رواياته عنهم في جامع مسانيده وكتب أصحابه.

شيوخ أبي حنيفة من الشيعة

جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي الكوفي المتوفى سنة (١٢٨ هـ).

حبيب بن أبي ثابت أبو يحيى بن قيس الكوفي المتوفى سنة (١١٩ هـ).

مخول بن راشد أبو راشد النهدي المتوفى سنة (١٤١ هـ).

عطية بن سعد العوفي المتوفى سنة (١١١ هـ).

سلمة بن كهيل الحضرمي المتوفى سنة (١١٣ هـ).

أجلح الكندي وقيل اسمه يحيى بن عبد اللّه ولقبه الأجلح المتوفى سنة (١٤٥ هـ).

إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الكوفي المتوفى سنة (١٢٧ هـ).

المنهال بن عمر الكوفي التابعي.

---

(٨٦٠) أنظر المناقب، للموفق ج١ ص١٧١، والمناقب للكردري ج١ ص١٧٣ .

عديّ بن ثابت الأنصاري الكوفي المتوفى سنة (١١٦ هـ).

زبيد بن الحارث اليامي ، ويقال الأيامي الكوفي المتوفى سنة (١٢٢ هـ).

وغير هؤلاء من شيوخ أبي حنيفة الذين عرفوا بتشيّعهم لأهل البيت(عليهم السلام) ، ولا يسعنا ذكر الباقين منهم بهذه العجالة.

وسيأتي في الجزء السادس من هذا الكتاب تراجم هؤلاء العلماء، وتحامل رجال الجرح والتعديل عليهم لتشيّعهم فحسب، مع أنّ رجال الصحاح خرّجوا أحاديثهم في صحاحهم.

وعلى أيّ حال، فإنّ أبا حنيفة أخذ عن رجال الشيعة كما أخذ عن أئمتهم(عليهم السلام)، ونفي ذلك تكذبه أحداث حياة أبي حنيفة وأفكاره.

إلى هنا ينتهي البحث عن حياة أبي حنيفة من الوجهة التاريخية، وقد اختصرت البحث عنه وآثرنا المهم من سيرته ومراحل حياته، لإعطاء صورة عن اختلاف الناس فيه ، من قادح ومادح ، ومغال ومتعصّب، وذكرنا طرفاً من أقوال خصومه بدون تعرض لإثباتها أو نفيها ، وبقيت أقوال المعتدلين فيه ضاق المجال عن ذكرها والتعليق عليها ، وسنعطي رأينا فيه وبيان منزلته العلمية ومن اللّه التسديد.

*** * ***

خلاصة البحث

١ ـ إظهار الحقيقة من حيث هو أمر يشقّ على بعض النفوس، التي خضعت لسلطان الهوى، وفهمت الأشياء من طريق التقليد ، لا من طريق التثبّت والواقع، إنّما يلائم أمزجة نقيّة وطباعاً متنوّرة.

وإنّ البحث عن المذاهب هو من أهمّ الأبحاث التي توقع الكاتب في حيرة وارتباك ، لأنّ مسالك الوصول إلى الحقيقة ملتوية ، والحواجز متكاثرة، كما أني لا أجهل أهميّة الموضوع وخطره ، فهو من أهم أسباب العداء والبغضاء بين طوائف المسلمين ، وهو منبع التباعد والتضارب ، مما أدّى بالمسلمين إلى الانحطاط ، واتّساع نفوذ أعداء الدين الإسلامي ، في بثّ روح الفرقة وإيقاد نار الخصومة بينهم ، لانصراف المسلمين بكلّ قوتهم إلى الوقعية بعضهم ببعض لتأييد كلّ مذهبه الذي يرتضيه ، فنشأ من وراء ذلك فتن ونزاع وتخاصم واتّهام بالسوء ، وفرقة وتباعد ، وتركوا وراءهم الأخذ بما أمرهم اللّه من الاعتصام بحبل اللّه، وأن لا يتفرّقوا فتذهب ريحهم ، ويتسلّط عليهم عدوّهم.

ولم يسعد المسلمون بالتفاهم حول أسباب النزاع ، وعوامل التفرقة ومعالجة مشكلة العصبيّات ، لأنّ الخلاف أصبح في الجملة طبيعة إرتكازية، وقد عدّ إزالته من المستحيل ، وليس كذلك إنّ تركز البحث على ضوء الأدلّة العقلية ، والتجرّد عن الهوس والعصبيات ، وترك المغالطات واتّحاد الهدف ، وهو إظهار الحقيقة وتقبل الحقّ وإن كان مراً.

وقد مضى زمن رجال وسّعوا دائرة الخلاف ليتّسع نفوذهم ، ويتمّ لهم ما أرادوا في تفريق كلمة المسلمين ، لتركيز دعائم الملك ، وامتداد سلطان الاستبداد، إذ اتحاد كلمة الأمة يضيق عليهم الدائرة ، ويرغمهم على اعطاء المجتمع حرية التفكير ، وبذلك تعتدل طرق سيرتهم ويقلّ ضرر استبدادهم.

وهذا الخلاف خلاف غرض أئمة المذاهب ، كيف وقد أصبح اتّباعهم في أخذ الأحكام سبباً لانفجار براكين الحقد والكراهية ، واتّساع شقة الخلاف، وتكفير البعض للبعض كما مرّ بيانه ، فحدث من ذلك فساد عظيم وخلقت مشاكل .

٢ ـ إتّضح لنا من سير الحوادث إهتمام ولاة الأمر في تلك العصور بتحويل أنظار الناس عن اتّباع أهل البيت (عليه السلام) ، والأخذ من تعاليمهم ، ووجهوا الناس بكلّ حول وقوة لمعاداة من اتبعهم في الأحكام الشرعية.

ولمّا كانت الشيعة متظافرة على الدعوة لآل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وتقديم مذهبهم على جميع المذاهب، فالشيعة يرون أحقيّة أهل البيت (عليهم السلام) بالأمر ، وأنّهم حملة رسالة الإسلام ، ودعاة نشره ، وأولياء أمر الأمة ، يقودونهم إلى السعادة، وينفذون أحكام اللّه ، ولا تأخذهم في اللّه لومة لائم ، وهم المثل الأعلى في طهارة النفس ، وهم ينبوع فياض تتدفق منه أنواع المُثل والقيم التي تغذي العقول وتبني السلوك وتضمن توجيه الحياة الإنسانية ، فاتّباعهم لازم بدليل العقل والشرع.

ولن تتخلّى الشيعة أبداً عن الاعتصام بآل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، والتمسك بهم مهما كلّفهم الأمر، ومهما اتّخذ أعداؤهم من أساليب ووجّهوا إليهم من تهم.

لذلك نظرت إليهم السلطة نظر خصم لا تلين قناته ، ولا تعمل الإرهابات عملها المطلوب ، وقد عجزوا عن تحويل عقيدتهم الراسخة رسوخ الطود ، فراحوا يلصقون بهم التّهم ويتقوّلون عليهم ، وهم يعلمون عن الشيعة خلاف ذلك ، ولكنّهم عرفوا أنّ تقويم ملكهم وبقاء عزّهم لا يتمّ إلاّ بإلجام الألسن وكم الأفواه عن المؤاخذات التي توجّه اليهم بصفتهم ساسة الأمة وحكّام الإسلام ، وقد حاولوا إفهام الناس أنّهم على الحقّ وخصومهم على الباطل ، فطبعوا في القلوب بغض المعارضين لهم ، حتى أخرجوهم عن الاسلام ادعاء، ووجّهوا اليهم كلّ مكروه ، واتبعوهم بالأذى ، وعاملوهم بالقسوة والشدة حتى توصلوا إلى مخالفة الأحكام ، وهجر السنن الصحيحة عن صاحب الرسالة ، لأنّ الشيعة قاموا بالعمل بها. ولنضع صوراً بين يدي القارئ من تلك المخالفات :

يقول ابن تيمية(٨٦١) في منهاجه عند بيان التشبه بالشيعة : ومن هنا ذهب من ذهب من الفقهاء إلى ترك بعض المستحبات ، إذ صارت شعاراً لهم ، فإنّه وإن لم يكن الترك واجباً لذلك لكن في اظهار ذلك مشابهة لهم ، فلا يتميّز السنّي من

---

(٨٦١) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام المتولد سنة (٦٦١ هـ) والمتوفى سنة (٧٢٨ هـ).

الرافضي ، ومصلحة التمييز عنهم لأجل هجرانهم ومخالفتهم أعظم من مصلحة ذلك المستحب.(٨٦٢)

وقال مصنف الهداية من الحنفية : إنّ المشروع التختم باليمين ، ولكن لما اتخذته الرافضة جعلناه في اليسار.(٨٦٣)

وقال الغزالي : إنّ تسطيح القبور هو المشروع ، ولكن لما جعلته الرافضة شعاراً لها ، عدلنا عنه إلى التسنيم(٨٦٤).

وقال الشيخ محمد بن عبد الرحمن في كتاب « رحمة الأمة في اختلاف

الأئمة » المطبوع في هامش ميزان الشعراني: ١ / ٨٨، السنة في القبر التسطيح وهو أولى على الراجح من مذهب الشافعي. وقال أبو حنيفة وأحمد : التسنيم أولى ، لأن التسطيح صار شعاراً للشيعة.

٣ ـ ومهما يكن من أمر فإنّ امتحانات الشيعة وما نالهم من الأذى ، إنّما هو في سبيل الانتصار لآل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) والانضمام إلى جانبهم، وخاضوا تلك المعارك في سبيل نصرتهم ونشر مبدئهم ، ولو انّهم استجابوا لداعي السلطة ، ورغبوا في لذة الحياة ، فليس بينهم وبينها إلاّ النزول على رغبات اولئك القوم الذين لا يرغبون إلاّ في القضاء على مبادئ آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ومحو ذكرهم فيجنبوا أنفسهم الويلات وتصبح حصتهم من الدولة المراكز والمنافع ويبعدوا أهليهم وذويهم عن مستقبل ينفتح على السجون وقطع الرقاب. ويبدو أن إلحاق الأذى بالشيعة صار قانون الملوك الطغاة والأمراء الذين استولوا على مقاليد الأمور، فلو تجاوزنا بني أمية وبني العباس فإنّنا نرى ملوك بني أيوب في مصر الذين كالوا لهم كل مدح وأطروهم بثناء جميل. اتخذوا يوم عاشوراء يوم سرور، يوسعون فيه على عيالهم ويتبسطون في المطاعم ويصنعون الحلاوات، ويتخذون الأواني الجديدة ويكتحلون ويدخلون الحمام، جرياً على عادة أهل الشام، التي سنّها لهم الحجاج في أيام عبدالملك ابن مروان ليزعجوا شيعة علي بن أبي طالب الذين يتخذون يوم عاشوراء يوم عزاء وحزن على الحسين بن علي(عليهما السلام) لأنه

---

(٨٦٢) منهاج السنّة ج٢ ص١٤٧ .

(٨٦٣) منهاج الكرامة ص١٠٨ ، الغدير ج١٠ ص٢١٠ .

(٨٦٤) الغدير ج١٠ ص٢٠١ .

قتل فيه. يقول: المقريزي وقد أدركنا بقايا ممّا عمله بنو أيوب من اتخاذ يوم عاشوراء يوم سرور(٨٦٥).

ويكفي خصوم الشيعة أنّهم يسيرون على ما سنّه الحجاج من ذلك الفعل القبيح ، فهل يا ترى أنّهم ذهلوا عن قبح هذا العمل ؟ أم ترى أنّهم لا يعلمون أنّ هذا الفعل كان يسيء رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ كيف وهم يظهرون الفرح في يوم بكى رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) له قبل وقوعه ، وكان يتألّم منه ، وهل جهلوا منزلة الحسين (عليه السلام) ؟ فعمدوا إلى هذا الفعل المنكر ؟!!(٨٦٦).

٤ ـ اندفع ولاة الجور للدفاع عن مراكزهم ، والمحافظة عن كيان ملكهم ، ببثّ روح الفرقة بين أفراد الأُمة ، لاستحصال غاياتهم التي رأوا استحالة حصولها مع اتفاق المسلمين وصفاء ودّهم، وصبغوا تلك الأعمال التي حاولوا بها فرقة وحدة الصف صبغة دينية ، ولكنّها في الواقع بعيدة كلّ البعد عن روح الدين.

وقد أفصح لنا التاريخ عن نيّاتهم السيئة وما يقصدون من وراء ذلك ، وقد آزرهم رجال ابتعدوا عن الحقّ، وتهجموا على أصول المحاسنة والمداراة الاجتماعية ، ودعاهم جشعهم إلى الابتعاد عن حدود الإنسانية ، وخلعوا أبراد الحشمة ، وأطفأت الأطماع شعلة عقولهم « فهم في غيّهم يعمهون ». وعلى أيّ حال فقد تفرقت الأُمة كما شاءت السياسة ، أو كما شاء ولاة الجور ، بمقتضى العوامل التي وجهوها لهدم كيان المجتمع الإسلامي، فاتسع الخلاف وعظم الإرتباك ، ووقعت الخصومة ، وبين هذا وذاك رفع الاستبداد رأسه وافترس كلّ ما وجده صالحاً للأُمة.

وأصبحت المسألة سيّئة الوضع نشأ من جرائها عداء متأصل ، توارثته الأجيال حتى عجز المصلحون عن معالجة مشاكل الأُمة ، وقد اتخذه المستبدون أسهل وسيلة لتفريق المجتمع الإسلامي ، تقوية لسلطانهم ، وقوة لنفوذهم على ممر العصور ، وهم يتظاهرون بمحاربة هذه النعرة ، ولكنّهم يبذلون جهودهم في نصرتها من وراء الستار ، باستخدامهم مرتزقة سلبوا مواهب الادراك ، وفقدوا شعورهم عند حصول تلك الأجرة الزهيدة ، واشتروا الضلالة بالهدى ، يكتبون بأقلامهم المسمومة ، ما يثير الضغائن والأحقاد ، فكانت لهجتهم جائرة ، يختلقون ويفتعلون بدون قيد وشرط تقرّباً لأسيادهم.

---

(٨٦٥) الخطط للمقريزي ج٢ ص٤٣٧ .

(٨٦٦) أنظر كتابنا مع الحسين في نهضته. «منه»

بين يدي عشرات من تلكم الكتب التي حررتها تلك الأقلام المأجورة ، ألفها مهرجون لا يعرفون من الحق موضع أقدامهم ، يكيلون الذم لأمة عرفوا بإخلاصهم وولائهم لأهل البيت (عليهم السلام) ، واعتناق مذهبهم الذي تركزت دعائمه على تعاليم صاحب الرسالة ، وانتشر بجهود أصحابه ، وقد رأت السلطة مخالفة ذلك لمصالحهم فجعلوا اتباع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأخذ تعاليمه عن أهل بيته بدعة، نظراً لعدم تشريع السياسة لذلك.

ولم يجدوا طريقاً لمؤاخذة الشيعة بحكمة ونزاهة ، ولكنّهم حاكوا لهم التهم، تقوّلا بالباطل وابتعاداً عن الحق ، بل هو تهريج وهوس ، وتعابير لا شعورية ، ومن أعظم تلك التّهم التي ألصقوها بالشيعة هو قولهم بتكفير الشيعة للصحابة ، وحكموا عليهم في ذلك بالخروج عن الدين ! ما أقسى هذا الحكم ، وما أعظم هذه التهمة!! «عفوك اللهم عفوك ».

اللّهم إنّنا نبرأ اليك مما يقوله الحاقدون ونوالي أصحاب رسولك (صلى الله عليه وآله وسلم)الذين رضيت عنهم وأخلصوا في الدعوة والجهاد في سبيلك.

٥ ـ لقد أخذت هذه التهمة نصيبها من التهويل ، وحظّها من الشيوع ، في عصر اتخذ خصوم الشيعة من سلطانه قوّة الانتصار ، وازداد نشاطهم بتلك المفتريات ، والاتهامات التي سلكوا بها طرق الخداع والتمويه على السذج وعوام الأمة، فتركزت في أدمغتهم تلك الفكرة السيئة ، وبحكم مؤثرات الدعاية التي بثّتها الطبقة الحاكمة ضد الشيعة ، ليثيروا البغضاء ، ويبذروا الحقد ، ويبرزوا للشيعة صورة تشمئز منها النفوس ، فكانت دماؤهم مهدورة وأموالهم مباحة.

ولم تقف الشيعة تجاه هذه المنكرات مكتوفة اليد ، بل دافعت عن مبدئها وعقيدتها بساطع البرهان وقوة المنطق وحدّ السيف ، فكانت هناك ثورات يتبع بعضها بعضاً ، وحروب طاحنة دفاعاً عن المبدأ وحفظاً لكرامة الدين.

ما أقسى هذا الحكم وما أعظم هذه التهم ، ولا تستطيع الشيعة السكوت عليه! ولكن ماذا تصنع وزاوية التعصب مفتوحة يطلّ منها أولئك الحول القلب الذين يفترون الكذب.

ربّنا احكم بيننا وبين قومنا بالحقّ، ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، ربّنا إنّا آمنّا بك واتبعنا نبيّك، ووالينا أصحابه الذين نهجوا نهجه ، واهتدوا بهديه وسمعوا دعوة الحقّ فلاقتها نفوسهم بكلّ قبول وصدق ، واخلاص بالقول والعمل ، ونظروا

لمصلحة المسلمين قبل مصالح أنفسهم أولئك هم أصحاب محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) (أشدّاء على الكفار رحماء بينهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً) **سبقوا إلى الإسلام ، وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، ونشروا الدين وأظهروا شعائر الإسلام ، وأقاموا الفرائض ، وأحيوا السنن ، آمنوا بمحمد**(صلى الله عليه وآله وسلم)**ونصروه، واتّبعوا النور الذي أنزل معه فأيّدت نبيك فيهم ، وألفت بين قلوبهم فاتحدوا وآزروا ونصروا وصدقوا ما عاهدوا عليه اللّه ; ربّنا إنّا آمنّاً بنبيك ، وتبرّأنا من المنافقين الذين مردوا على النفاق ، ونصبوا لنبيك الغوائل ، ولم يؤمنوا إيمان القلب والجنان ، بل إيمان الشفة واللسان فأخبرت نبيك عنهم** (إذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ* اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[٨٦٧]. **الذين** (... يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً* مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً)[٨٦٨].

ونتبرأ من الذين شاقوا رسولك (وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً)[٨٦٩].

حقّاً إنّها مؤاخذة عظيمة ، لو كان لها من الصحة نصيب ، ولكنّها فرية وبهتان ، بعثتها الأغراض ، وأوحتها الأوهام والخيالات ، فتوارثتها الأجيال ولو تناولتها أقلام غير مأجورة لقبرتها في مقرها الأخير.

أتكون الشيعة بميلها عن معاوية وحزبه ، ومناقشتهم نقاشاً علميّاً يتركز على حرية الرأي مجرمة في نظر العدالة ، ويحكم عليهم بعدم الاستقامة فتطرح رواياتهم ؟

نَصفاً يا حكّام الجرح والتعديل ، فهل ألقيت أقوال من تجرأ على سبّ علي وبغضه والحطّ من كرامته؟ لا لا، إنّه مقبول ثقة في الرواية ، ويقال إنّه حسن الاعتقاد ، ناصر للسنة.

---

(٨٦٧) المنافقون : ١ ـ ٢ .

(٨٦٨) النساء : ١٤٢ ـ ١٤٣ .

(٨٦٩) النساء : ١١٥.

ولا يسعنا التوسع أكثر بالبحث في هذا الموضوع فهو واسع ، لا يحاط به ولو صنفت مجلدات، وسيأتيك مزيد بيان توجيه تلك التهمة إلى الشيعة ، ونوقفك على الأفتراء فيها في الأجزاء الآتية إن شاء اللّه.

وكنّا نظنّ أنّ تلك المفتريات ذهبت مع تلك العصور التي اقتضت اختراعها وافتعالها لتفريق صفوف الأمة ، وكنا نتخيّل أنّها قبرت مع أصحابها ومرت عليها عجلة الزمن ، فابتعدنا عنها ونحن بعصر انطلاق حرية العقل ، ورفع حواجز السلطة وإزالة ستار التمويه، وبمزيد الأسف إنّا نجد من يريد احياء تلك النعرات ويعيد تلك العصور الغابرة ويضرب على وتر العصبية.

وليس من أصل موضوعي التعرض لأقوال المهرجين فإنّ سلة المهملات لا تضيق عنهم.

وسنشير لبعض الأقوال التي أطلقها أصحابها ـ من كتّاب ومؤرخين ـ حول الشيعة والصحابة من دون قيد وشرط ، وبدون معرفة لعقيدة الشيعة في الصحابة رضوان اللّه عليهم.

ولو أنّ أولئك الكتّاب ساروا بأبحاثهم حول هذا الموضوع بدقة وتمحيص، ونزاهة البحث ، وتجرّد عن العاطفة ، خدمة للحقّ من حيث هو لحكموا على أنفسهم بالخطأ فيما يذهبون إليه من القول بأنّ الشيعة يكفّرون جميع أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ، والعياذ باللّه.

وهذا الموضوع من أهمّ ما يجب أن نتكلّم به ، وأن نلمّ بجميع أطرافه ، وحيث لم يتّسع له هذا الجزء وقد ضاق نطاقه عن ذلك ، فقد أرجأنا الحديث عنه إلى الجزء الثاني ان شاء اللّه فإلى اللقاء هناك. ومن اللّه نستمدّ العون ونسأله التسديد والاخلاص في العمل ، وهو ولي التوفيق.

ختم الجزء الأول من هذا الكتاب ، والحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة على

رسوله الذي أرسله (بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)[٨٧٠] **وعلى آله الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.**

---

(٨٧٠) التوبة : ٣٣ .

الفهرس التفصيلي

الإهداء... ٧

المقدمة الأولى ... ٩

مقدمة الطبعة الثانية ... ١١

مقدمة الطبعة الثالثة ... ١٣

كتاب الإمام الصادق والمذاهب الأربعة... ١٥

الإمام الصادق(**عليه السلام**) بين عهدين العهد الأموي ـ العهد العباسي

العهد الأموي ... ٢٥

علي(عليه السلام) ومبايعة معاوية لطلحة والزبير ... ٢٧

طلب معاوية بدم عثمان ... ٣٠

موقف معاوية من عثمان ... ٣٣

عائشة وعثمان ... ٣٦

معاوية والخلافة ... ٣٨

بيعة يزيد وأعماله... ٤١

تحول الحكم من آل أبي سفيان الى بني الحكم ... ٤٣

ولادة الإمام الصادق(عليه السلام) ... ٤٥

نشأة الإمام الصادق(عليه السلام) ... ٤٦

عصر الإمام الصادق(عليه السلام) ... ٤٨

المرحلة السعيدة ... ٤٩

العهد العباسي... ٥١

السفاح ... ٥٢

المنصور... ٥٣

أعمال المنصور ... ٥٤

مع المنصور وبني الحسن ... ٥٥

الإمام الصادق ومشاكل العهدين ... ٥٧

اتهامات المنصور للإمام الصادق ... ٥٨

الإمام الصادق(**عليه السلام**) شخصيته وأقوال العلماء فيه

شخصية الإمام الصادق(عليه السلام) ... ٦٥

أقوال العلماء في الإمام الصادق(عليه السلام) ... ٦٨

الإمام الصادق(**عليه السلام**) مدرسته وتلامذته ورواة حديثه

مدرسة الإمام الصادق(عليه السلام) ... ٨٧

تلامذة الإمام الصادق ورواة حديثه ... ٩١

أبان بن تغلب ... ٩٧

مع البخاري ... ١٠٤

شهرة البخاري ... ١٠٤

آية التطهير ... ١١٤

تخريج الحفّاظ لآية التطهير... ١١٤

حديث الغدير ... ١٢٤

رواة حديث الغدير من الصحابة ... ١٢٤

خطبة النبي يوم الغدير ... ١٢٦

عناية الشيعة بعيد الغدير ... ١٢٨

حديث الثقلين ... ١٣١

الإمام الصادق(**عليه السلام**) ملوك عصره وأمراء بلده

تمهيد ... ١٤٣

موقف الإمام الصادق(عليه السلام) من الظالمين ... ١٤٧

ملوك عصره ... ١٥٠

عبدالملك بن مروان ... ١٥٠

توليته للحجاج ... ١٥٣

الوليد بن عبدالملك ... ١٥٧

مقتل سعيد بن جبير ... ١٥٨

سليمان بن عبدالملك ... ١٦٠

عمر بن عبدالعزيز ... ١٦٣
سيرته في الخراج... ١٦٤
أخطاء تاريخية... ١٦٧
يزيد بن عبدالملك ... ١٦٨
هشام بن عبدالملك ... ١٦٩
هشام وزيد بن علي ... ١٧١
مقتل زيد بن علي(عليه السلام) وملابساته ... ١٧٣
الوليد بن يزيد ... ١٧٥
مقتل يحيى بن زيد ... ١٧٩
يزيد الناقص ... ١٨٠
إبراهيم بن الوليد ... ١٨١
مروان بن محمد ... ١٨١
ولاة المدينة في المعهد الأموي ... ١٨٢
هشام بن إسماعيل ... ١٨٣
عمر بن عبدالعزيز ... ١٨٤
سبب عمارته لمسجد النبي ... ١٨٥
عثمان بن حيّان ... ١٨٧
أبو بكر بن محمد ... ١٨٨
عبدالرحمن بن الضحاك ... ١٨٨
عبدالواحد النضري ... ١٨٩
إبراهيم بن هشام ... ١٨٩
خالد بن عبدالملك ... ١٩٠
محمد بن هشام... ١٩٠
يوسف الثقفي ... ١٩١
ولاة المدينة في العهد العباسي... ١٩١

المذاهب الأربعة نشأتها وشهرتها وانتشارها

تمهيد ... ٢٠٥
نشأة المذاهب ... ٢٠٥

المدينة والحركة العلمية ... ٢٠٧
أهل الحديث وأهل الرأي ... ٢٠٩
نشوء المذاهب ... ٢١١
سفيان الثوري ... ٢١٣
سفيان بن عيينة ... ٢١٤
الحسن البصري ... ٢١٤
الأوزاعي ... ٢١٥
ابن جرير الطبري ... ٢١٦
داود بن علي الظاهري ... ٢١٧
الليث بن سعد ... ٢١٨
عمر بن عبدالعزيز ... ٢٢٠
الأعمش ... ٢٢٠
الشعبي ... ٢٢١
المذهب الحنفي... ٢٢٣
المذهب المالكي ... ٢٢٧
المذهب الشافعي ... ٢٣٤
المذهب الحنبلي ... ٢٣٥
السلطة وانتشار المذاهب ... ٢٣٧
خلاصة البحث ... ٢٤٢
آراء حول الاجتهاد والتقليد ... ٢٤٥
كلمات حول التقليد ... ٢٥٣
الاجتهاد ... ٢٥٦
التقليد ... ٢٥٨

حركة التنازع بين المذاهب

كلمات حول تنازع المذاهب ... ٢٦١
التعصب بين المذاهب ... ٢٦٥
التحول من مذهب الى مذهب ... ٢٦٩
التعصب لأئمة المذاهب ... ٢٧١

حركات التعصب بين المذاهب ... ٢٧٦
محنة خلق القرآن ... ٢٨٠
بين الشيعة والسنة ... ٢٨٣
انتشار المذاهب الأربعة في الأقطار الإسلامية ... ٢٩٠
انشارها في الوقت الحاضر ... ٢٩٢
مدارسها في الأقطار الإسلامية ... ٢٩٥

المذهب الجعفري نشأته وعوامل انتشاره

مذهب أهل البيت ... ٣٠١
العداء لأهل البيت ... ٣٠٢
معارضة معاوية ... ٣٠٣
بذرة التشيع ونموها ... ٣٠٨
أخطاء تاريخية لابن خلدون ... ٣١٠
المذهب الجعفري والدولة العباسية ... ٣١٣
معارضة المنصور والرشيد للمذهب ... ٣١٥
تغلب المذهب الجعفري ... ٣١٨
قوة المعارضة أيام المتوكل... ٣١٩
الشيعة ونصرة أهل البيت ... ٣٢٠
أحاديث النبيّ في أهل البيت... ٣٢٣
الغلاة ... ٣٣١
موقف أهل البيت(عليهم السلام) من الغلاة ... ٣٣١
عبدالله بن سبأ ... ٣٣٦
انتشار المذهب الجعفري ... ٣٤٢
انتشاره في الأقطار الإسلامية ... ٣٤٢

تصفية الحساب

أسباب الخلاف وعوامل التفرقة ... ٣٥٥
الاتهام بالتشيع... ٣٥٧
ضحايا المبدأ ... ٣٦٠

أحاديث النبي في حبّ عليّ وشيعته ... ٣٦٦
تحريف الأحاديث ... ٣٦٨
أحكام جائرة... ٣٧١
الوضع والحديث النبوي ... ٣٧٨
حركة الوضع ... ٣٧٨
السلطة ووضع الحديث ... ٣٨٠
القصّاصون وأثرهم في المجتمع ... ٣٨٣
عدول الناس عن المذاهب ... ٣٨٧
المتعة وتشريعها ... ٣٨٨
الطلاق الثلاث واحدة ... ٣٩٠
المسح على الرجلين ... ٣٩٣
الأذان وحيَّ على خير العمل ... ٣٩٤

الإمام أبو حنيفة

تمهيد ... ٤٠١
الإمام أبو حنيفة ... ٤٠٢
مع الأستاذ عفيفي في روايته ... ٤٠٣
المناقب ... ٤٠٥
البشائر في أبي حنيفة ... ٤٠٧
حديث السراج وإحياء الدين ... ٤٠٨
حديث غياث لكل مهموم ... ٤١٣
أبو البختري... ٤١٣
فتوى أبي البختري ... ٤١٥
بين المد والجزر ... ٤١٦
سماعه من الصحابة ... ٤١٩
حديثه وعنايته بالرواية ... ٤٢٣
أبو حنيفة بين أنصاره وخصومه ... ٤٢٦
نشأته ونبوغه ... ٤٣٢
الموالي وأوضاع عصره ... ٤٣٤

اتجاهه العلمي ... ٤٣٧
فقهه وتلامذته ... ٤٣٩
أبو يوسف ... ٤٤٠
محمد بن الحسن الشيباني ... ٤٤١
الحسن بن زياد... ٤٤١
زفر بن الهذيل ... ٤٤٢
علماء الحنفية ونشر المذهب ... ٤٤٥
مناظرته للإمام الصادق ... ٤٥٠
مناظرته في القياس ... ٤٥٢
رواياته عن الإمام الصادق وميله لأهل البيت(عليهم السلام)... ٤٥٣
أسباب مقتل أبي حنيفة ... ٤٥٦
شيوخ أبي حنيفة من الشيعة ... ٤٦٠
خلاصة البحث ... ٤٦٢
الفهرس التفصيلي ... ٤٧١